المملكة العربية السعودية
وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد
مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف
بالمدينة المنورة



ندوة

عناية المملكة العربية السعودية

بالقرآن الكريم وعلومه

المنعقدة في
مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف
بالمدينة المنورة

في الفترة من ٣ - ٦ رجب ١٤٢١هـ

المحور الأول - الجزء الثاني

أهمية القرآن الكريم وعناية المسلمين به

منذ نزوله إلى عصرنا الحاضر

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف

ندوة عناية المملكة العربية السعودية بالقرآن الكريم وعلومه. /

مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف. - المدينة المنورة، ١٤٢٤هـ.

٦٥٦ص؛ ١٦ × ٢٣ سم

ردمك: ٣ - ٥٤ - ٨٤٧ - ٩٩٦٠ (مجموعة)

١ - ٥٥ - ٨٤٧ - ٩٩٦٠ (ج١)

١- مجمع خادم الحرمين الشريفين الملك فهد لطباعة المصحف الشريف

٢- القرآن - مباحث عامة ٣- المصاحف - طباعة - السعودية

- ندوات أ. العنوان

ديوي ٢٢,٨٠٦٠٩٥٣١ ٢٠٤/١٤٢٤

رقم الإيداع: ٢٠٤/١٤٢٤

ردمك: ٣ - ٥٤ - ٨٤٧ - ٩٩٦٠ (مجموعة)

١ - ٥٥ - ٨٤٧ - ٩٩٦٠ (ج١)


بسم الله الرحمن الرحيم

المَصَاحِفُ المَخطُوطَة في القَرن الحَادِي عَشَر الهِجْرِي

بمكتبة المصحف الشّريف في مكتبة المَلِك عبد العزيز

بالمَدِينَةِ المُنَوَّرَة

إعداد

د. عبدالرحمن بن سُليمان المزيني

المدُير العام لمكتبة المَلِك عبد العزيز
بالمدِينة المنوّرة

المبحث الأول
المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، أما بعد :

فلقد تكفل الله سبحانه وتعالى بحفظ القرآن الكريم على مر العصور فقال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر : ٩) .

وتحتفظ مكتبات العالم ومتاحفه على وجه العموم ومكتبات العالم الإسلامي والعربي على وجه الخصوص بالعديد من المصاحف الخطية، إلا أن المكتبة العربية والإسلامية ما زالت بحاجة ماسة إلى بحوث متخصصة توفي في دراساتها التفصيلية تلك المصاحف لتتضح لنا من خلالها الخصائص العامة والسمات الفنية التي دونت بها المصاحف المبكرة والمتأخرة خلال فترة الأربعة عشر قرناً الماضية ، هذا بالإضافة إلى دراسة كل ما له علاقة بالقرآن الكريم من تفسير وطباعة وترجمة لمعانيه والقراءات الواردة فيه، إلى غير ذلك من الدراسات العلمية.

والأمل كبير في (ندوة عناية المملكة العربية السعودية بالقرآن الكريم وعلومه) أن تسهم في توفير هذه الدراسات ، وأن تصل في نهاية المطاف إلى تقديم رؤية علمية في مجال تنظيم المعلومات عن القرآن الكريم وعلومه وتهيئتها للباحثين.

والبحث الذي نعرض له اليوم يأتي ضمن المحور الأول من المحاور العديدة التي وضعتها لجنة الندوة بعنوان: أهمية القرآن الكريم وعناية المسلمين به منذ نزوله إلى عصرنا الحاضر.

وأرجو من الله العلي القدير أن أكون قد وفقت في إبراز شيء من المعلومات عن بعض المصاحف المحفوظة في مكتبة المصحف الشريف .

ويطيب لي أن أتقدم بالشكر الجزيل لأصحاب الفضيلة رئيس وأعضاء اللجنتين التحضيرية والعلمية للندوة على جهودهم الكريمة، ولكل من قدم لي مساعدة على إنجاز هذا البحث.

مشكلة الدراسة:

تعد مكتبة المصحف الشريف في مكتبة الملك عبد العزيز بالمدينة المنورة مصدراً رئيساً للمعلومات المتعلقة بالمصاحف المخطوطة ونساخها، وواقفيها، وأنواع الخطوط وتطورها، والورق المستخدم للكتابة، وترجمات معاني القرآن الكريم، والقراءات المدونة على بعض النسخ، إضافة إلى تذهيب بعض النسخ وتجليدها. إلا أن هذه المصاحف الخطية لم تحظ بالاهتمام المطلوب من الدارسين رغم ما تحتوي عليه من معلومات مهمة تفيد الباحثين في مجال الدراسات العلمية والتاريخية.

ومن هنا وجد الباحث أن هناك حاجة ماسة إلى دراسة بعض هذه المصاحف للخلوص إلى رؤية توضح أهمية وقف المصاحف في المجتمع الإسلامي وأثر ذلك في الحركة العلمية.

أهداف الدراسة :

تهدف الدراسة إلى تحقيق الأمور الآتية :

١) معرفة كمية المصاحف المخطوطة في القرن الحادي عشر الهجري باستخدام الطرق الإحصائية .

٢) معرفة السمات النوعية للمصاحف المخطوطة من حيث أنواع الخطوط والأحجام والورق .

٣) الكشف عن إسهامات الخطاطين، وحجم إنتاجهم المخطوط من المصاحف ضمن إطار الدراسة .

٤) معرفة أزمنة نسخ تلك المصاحف .

٥) الكشف عن إسهامات الموقفين ، وحجم المصاحف الموقوفة .

٦) معرفة أزمنة وقف تلك المصاحف .

٧) معرفة القراءات المدونة على بعض المصاحف .

٨) معرفة التفاسير وترجمات معاني القرآن المدونة على بعض المصاحف .

٩) معرفة ما حظيت به بعض المصاحف من التذهيب والزخرفة .

١٠) معرفة نواحي التجليد التي حظيت بها المصاحف المخطوطة .

أسئلة الدراسة :

تسعى هذه الدراسة إلى تحقيق أهدافها من خلال الإجابة عن الأسئلة الآتية :

١) ما حجم المصاحف المخطوطة كمّاً ونوعاً؟

٢) ما أنواع الخطوط التي كتبت بها تلك المصاحف؟

٣) من النساخ الذين برزوا في كتابة المصاحف؟ وما حجم إسهاماتهم؟

٤) ما الفترات الزمنية التي نسخت فيها تلك المصاحف؟

٥) من الواقفون الذين برزوا في وقف المصاحف ، وما حجم إسهاماتهم في الوقف .

٦) ما أبرز الفترات الزمنية التي وقفت فيها تلك المصاحف؟

٧) ما القراءات المدونة على بعض المصاحف؟

٨) ما التفاسير وترجمات معاني القرآن المدونة على بعض المصاحف؟

٩) ما مدى العناية بالمصاحف من حيث التذهيب والزخرفة ؟

١٠) ما مدى العناية بالمصاحف من حيث التجليد؟

حدود الدراسة :

١) الحدود الموضوعية :

توفّي هذه الدراسة المصاحف المخطوطة دون المصاحف المطبوعة .

٢) الحدود المكانية :

تقتصر هذه الدراسة على جملة من المصاحف المخطوطة المحفوظة في مكتبة المصحف الشريف في مكتبة الملك عبد العزيز بالمدينة المنورة دون غيرها من المكتبات .

٣) الحدود الزمانية :

توفّي هذه الدراسة ما توافر في مكتبة المصحف الشريف بمكتبة الملك عبدالعزيز بالمدينة المنورة من المصاحف المنسوخة أو الموقوفة في القرن الحادي عشر الهجري .

الدراسات السابقة:

لم تظهر ـ على حد علم الباحث ـ حتى إعداد هذا البحث دراسة تخص المصاحف المخطوطة في مكتبة الملك عبد العزيز بالمدينة المنورة.

منهج الدراسة:

المنهج الرئيس الذي استخدمه الباحث في هذه الدراسة هو المنهج الببليومتري التحليلي والوصفي في القياس والتحليل الإحصائي المقارن للبيانات المجمعة عن المصاحف المخطوطة التي أمكن حصرها من خلال مكتبة المصحف، حيث عمد الباحث إلى تحليل بيانات (٧٠) مصحفاً توفِّي فترة القرن الحادي عشر الهجري.

وقد تم تقسيم الدراسة إلى المباحث الآتية:

المبحث الأول: المقدمة .

المبحث الثاني: لمحة تعريفية بمكتبة المصحف الشريف.

المبحث الثالث: الاتجاهات العددية والنوعية.

المبحث الرابع: نساخ المصاحف وإسهاماتهم.

المبحث الخامس: واقفو المصاحف وإسهاماتهم.

المبحث السادس: النتائج والتوصيات .

الملاحق :

(أ) قائمة المصادر والمراجع.

(ب) صور بعض المصاحف.

المبحث الثاني
لمحة تعريفية بمكتبة المصحف الشريف

التعريف بمكتبة المصحف يتطلب التعريف أولاً بمكتبة الملك عبد العزيز بالمدينة المنورة التي تعد مكتبة المصحف إحدى مجموعاتها الوقفية، لذا سيكون هذا المبحث على النحو الآتي:

أولاً: التعريف بمكتبة الملك عبد العزيز:

تأسست المكتبة في ٣ / ١ / ١٣٩٣هـ الموافق ٧ / ٢ / ١٩٧٣م ، حيث وضع الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود (يرحمه الله) حجر أساسها، وافتتحها خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود (يحفظه الله) في يوم الثلاثاء ١٦ / ١ / ١٤٠٣هـ الموافق ٢ / ١١ / ١٩٨٢م.

وتقع المكتبة على شارع أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها المتفرع من شارع المناخة ، وتطل على ساحات المسجد النبوي من الجهة الغربية[1].

وتعد هذه المكتبة من أكبر المكتبات التابعة لوزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، وهي من المكتبات الإسلامية المهمة ذات السمة الخاصة التي جمعت بين خصائص المكتبة العامة، ومركز المخطوطات ، ومركز البحث العلمي.

---

(١) المزيني ، عبد الرحمن بن سليمان / مكتبة الملك عبد العزيز بين الماضي والحاضر. المدينة المنورة : مكتبة الملك عبد العزيز ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، ص ٣٣ .

ونظراً لتوافر عدد كبير من المكتبات الوقفية في مدينة المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وتضافر الجهود المباركة لجمعها في هذا المركز الإسلامي؛ فقد أدى ذلك إلى تحقيق جو البحث العلمي المتميز، مما ساعد على زيادة الاستفادة من المصادر الأصلية والمراجع النادرة وأمهات الكتب بهذه المكتبة في شتى فروع المعرفة الإنسانية، بغرض الدراسة والتحصيل العلمي مقارنة بين التراث الإسلامي والإنتاج الفكري المعاصر في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية خدمة للبحث العلمي وطلابه[1].

وتحتضن المكتبة أربعاً وعشرين مجموعة موقوفة تمثل: مكتبة المصحف الشريف، ومكتبة الشيخ/ عارف حكمت، ومكتبة المحمودية، ومكتبة المدينة المنورة ، ومكتبات مدارس: الإحسانية، والساقزلي، والشفاء، والعرفانية، والقازانية، وكيلى ناظري، إضافة إلى مكتبات رباط الجبرت، ورباط عثمان بن عفان رضي الله عنه ، ورباط قره باش، ورباط بشير آغا، ومكتبات لبعض الشخصيات، أمثال: الشيخ/ محمد إبراهيم الختني، والشيخ/ عبد القادر شلبي، والسادة آل الصافي، والشيخ/ عمر حمدان، والشيخ/ محمد نور كتبي، ومعالي الأستاذ/ حسن بن محمد كتبي، والشيخ/ محمد الخضر الشنقيطي، والشيخ/ عبد الرحمن الخيال، والشيخ/ عبد القادر الجزائري ، والشيخ/ عمار بن عبد الله الأزعر الهلالي[2].

---

(١) وزارة الحج والأوقاف/ مكتبة الملك عبدالعزيز ـ كتيب صدر بمناسبة افتتاح المكتبة ـ الرياض : الوزارة ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٢م، ص ٦.

(٢) المزيني / مكتبة الملك عبد العزيز ، ص ٥٣ .

وتضم المكتبة ما يربو على أربعة عشر ألف مخطوط أصلي، بالإضافة إلى عدد كبير من المصورات الورقية، والميكروفيلمية، وتوليها عناية خاصة من حيث الاقتناء والتنظيم والترميم والتجليد . وقد تكونت هذه المخطوطات من مصادر الوقف والإهداء والتبادل، وأغلبها من المكتبات الموقوفة[1] .

كما تحوي المكتبة ضمن مجموعاتها الخاصة عدداً كبيراً من الكتب النادرة خصص لها قاعة مستقلة يبلغ مجموعها (٢٥٠٠٠) خمسة وعشرين ألف كتاب، تمثل جزءاً كبيراً من رصيد المكتبات الموقوفة.

أما المطبوعات الحديثة فتبلغ (٤٠٠٠٠) أربعين ألف كتاب، خصص لها قاعة مفتوحة وتم تنظيمها وترتيبها وفهرستها وتصنيفها، وقد شملت مجموعتها معظم جوانب المعرفة الإنسانية.

ونظراً لأهمية الرسائل الجامعية في إثراء البحوث والدراسات العلمية فقد جمعت المكتبة عدداً منها، كما راعت المكتبة أهمية الدوريات العلمية وما تمثله من قيمة علمية، حيث إنها من أهم أوعية المعلومات لملاحقتها للجديد في الإنتاج الفكري، لذا فقد أولتها المكتبة اهتماماً خاصاً يتمثل في اقتناء عدد كبير منها في مختلف حقول المعرفة[2] .

ويرتاد المكتبة أساتذة الجامعات والباحثون في مجال التراث الإسلامي والعربي، وذلك لتوافر المخطوطات والكتب النادرة، والنمو المستمر في مجموعاتها . كما يكثر روادها من الطلاب والقراء والمواطنين والمقيمين

---

(١) السابق ، ص ٤٥ – ٤٧ .

(٢) السابق ، ص ٤٩ – ٥٠ .

والحجاج والزوار والمعتمرين ؛ نظراً لقربها من المسجد النبوي الشريف، وموقعها في وسط المدينة المنورة، وتقدم المكتبة خدماتها للباحثين على فترتين صباحية ومسائية على النحو الآتي:

١- خدمات من داخل المكتبة:

(مرجعية ـ إرشادية ـ إعارة داخلية ـ تصوير).

٢- خدمات من خارج المكتبة :

حيث تسعى المكتبة ضمن خدماتها الأساسية إلى توفير المعلومات البحثية لطالبيها من خارج المكتبة وذلك بواسطة الوحدات الطرفية والمراسلات بينها وبين كل من المكتبات الجامعية والمكتبات العامة والمتخصصة ومراكز البحوث المتاحة[١].

ولا تقتصر اهتمامات المكتبة وإنجازاتها على تنمية موارد المعلومات الوثائقية من مخطوطات وكتب ورسائل علمية ودوريات ومصغرات فيلمية فحسب، بل تمتد لتشمل الفعاليات الثقافية والعلمية المختلفة مثل زيارات الوفود الرسمية والطلابية لها، وعقد الندوات والمحاضرات والتعاون مع الجامعات في مناقشة الرسائل العلمية، والمشاركة في المعارض الثقافية[٢].

ثانياً: التعريف بمكتبة المصحف الشريف:

هي إحدى المجموعات الوقفية في مكتبة الملك عبد العزيز ، وتضم مجموعة تقدر بـ(١٨٧٨) ألفٍ وثمانمائة وثمانية وسبعين مصحفاً من

(١) السابق، ص ١٩١ -١٩٣.

(٢) السابق ، ص ٢١١.

المصاحف الخطية النادرة القديمة (للقرآن الكريم) بالإضافة إلى (٨٤) أربع وثمانين ربعة قرآنية تمثل في مجملها تاريخاً للمراحل التي مر بها تدوين المصحف الشريف، من حيث الورق المستخدم للكتابة والمداد المكتوب به، وتنوع الخطوط، وتعكس مدى اهتمام العلماء المسلمين بكتاب ربهم وعنايتهم به حفظاً ودراسة وتفسيراً وترجمة لمعانيه وخطاً وزخرفة وتذهيباً، مما يعد ثروة علمية ثمينة لدراسة الخطوط وتطورها عبر العصور الإسلامية.

وتوفّي الفترة الزمنية التي نسخت فيها تلك المصاحف أحد عشر قرناً تمتد من القرن الخامس الهجري حتى أوائل القرن الخامس عشر الهجري.

ويعود تاريخ أقدم مصحف إلى عام ٤٨٨هـ، وهو بخط علي بن محمد البطليوسي، مكتوب على رق الغزال وحجمه (١٥ X ١٣سم) ويأتي بعده من حيث القدم مصحف نسخ عام ٥٤٩هـ، وهي من أزهى فترات الإبداع في فن الخطوط العربية، وهو بخط أبي سعد محمد بن إسماعيل بن محمد وحجمه (٢٠ X ٣٠) وتاريخ وقفه سنة ١٢٥٣هـ.

بينما يرجع تاريخ أحدث مصحف مخطوط إلى عام ١٤٠٥هـ وهو بخط محمد صديق فضل الله الأفغاني، وحجمه (٦٤ X ٥١سم).

ويتميز بعض هذه المصاحف عن بعض بسمات وصفات مختلفة يصعب وصف كل واحدة منها على حدة، إذ تعد كل نسخة من مصحف أو ورقة منه عملاً علمياً يحتاج للعرض والدراسة والبحث.

ومن هذه المصاحف ، مصحف مخطوط ذو حجم كبير جداً مقاسه (١٤٢,٥ X ٨٠ سم)، ووزنه ١٥٤ كيلو جراماً ،و هو بخط غلام محيي الدين سنة ١٢٤٠هـ وترجمت معاني القرآن الكريم بين سطور المصحف إلى اللغة الفارسية، ويبدو أن هذا المصحف من أكبر المصاحف الموجودة في العالم.

ومقارنة بهذا المصحف الكبير تحتفظ المكتبة بمصحفين صغيري الحجم، أحدهما مقاسه (١١ X ٧ سم) بخط هِلّين سنة ١٠١٨هـ، ومن وقف علي بن يوسف بن مصطفى داغستاني سنة ١٣٤١هـ.

والآخر مقاسه (١١ X ٧,٥ سم) بخط ابن محمد تقي محمد طالب سنة ١٠٩٥هـ ومن وقف أحمد طلعت سنة ١٢٧٧هـ.

كما تتميز المكتبة باحتوائها عدداً من المصاحف المكتوبة على رق الغزال، وتحفظ جميع المصاحف داخل خزانات خاصة بها.

وإلى جانب المصاحف في مكتبة المصحف نماذج مختلفة من قواعد الشموع التي كانت تستعمل لإضاءة المساجد والمدارس والأربطة ، ويصل قطر بعضها إلى أكثر من ٧٥سم ، أما قطر بعض الشموع فيصل إلى ١٥ سم وطولها أكثر من ٦٠ سم.

وهناك مجموعة من الستائر الذهبية وزعت في جنبات قاعة المصحف الشريف، وتعد كل ستارة منها قطعة فنية جيدة لما بذل فيها من الإتقان في الصناعة، والدقة في الإخراج، والذوق الفني والإبداع في اختيار المادة المصنوعة منها[١].

---

(١) السابق ، ص ٥٣ – ٥٧.

المبحث الثالث
الاتجاهات العددية والنوعية

يدور الحديث في هذا المبحث حول الاتجاهات العددية للمصاحف المخطوطة، إلى جانب إيضاح الاتجاهات النوعية للمصاحف من حيث بيان الشكل الوعائي (مصحف ـ ربعة) بالإضافة إلى بيان أنواع الخطوط، الورق، الأحجام، التذهيب والزخرفة ، التجليد، القراءات، التفسير، ترجمات معاني القرآن الكريم، وذلك على النحو الآتي :

أولاً: الاتجاهات العددية :

بلغ مجموع المصاحف والأرباع المنسوخة أو الموقوفة في القرن الحادي عشر الهجري (٧٠) مصحفاً تم توزيعها تنازلياً بحسب الجدول ذي الرقم (١)، حيث جاءت المصاحف المنسوخة في المرتبة الأولى وعددها (٦٤) مصحفاً تلتها المصاحف الموقوفة في القرن المشار إليه دون تحديد لتاريخ نسخها وعددها ستة مصاحف.

الجدول ذو الرقم (١)

التوزيع العددي للمصاحف المنسوخة أو الموقوفة

م	البيـــــــــــان	العدد	النسبة المئوية
١	المصاحف المنسوخة في فترة الدراسة	٦٤	٩١,٤٣٪
٢	المصاحف الموقوفة في فترة الدراسة	٦	٨,٥٧٪
	المجموع	٧٠	١٠٠٪

ثانياً: الاتجاهات النوعية:

والحديث في هذا الجانب على النحو الآتي:

١- التوزيع النوعي:

ونعني بالتوزيع النوعي هنا الشكل الذي خرج فيه المصحف في مجال هذه الدراسة، فهناك شكلان وعائيان هما:

١- المصاحف.

٢- الأرباع.

ويوضح الجدول ذو الرقم (٢) السمات النوعية للمصاحف المخطوطة حيث بلغت المصاحف (٦٩) مصحفاً بالإضافة إلى ربعة قرآنية واحدة.

الجدول ذو الرقم (٢) يبين التوزيع الوعائي للمصاحف

م	البيـــــــــــان	العدد
١	المصاحـف	٦٩
٢	الأربـــــاع	١
	المجموع	٧٠

٢- أنواع الخطوط:

نال الخط العربي في الإسلام عناية خاصة؛ فقد حرص الخطاطون المسلمون على مدى أربعة عشر قرناً على تجويد الخط العربي وتحسينه ووضع القواعد والمعايير التي تسعى إلى تجويد هذا الفن وإحكامه[١].

(١) الهيئة العليا لتطوير مدينة الرياض / المختار من إبداعات الخط العربي ـ الرياض : الهيئة العليا لتطوير مدينة الرياض ، ١٤٢٠هـ ، ص ٢١.

ويمثل الخط العربي الركيزة الكبرى للفنون الإسلامية ، ويحتل مكانة متميزة في حياة المسلمين لارتباطه بالدين الإسلامي من خلال تدوين القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وقد نتج عن هذا الارتباط أن أصبح للخط العربي قيمة دينية تجلت في اهتمام الخطاطين والنساخ المسلمين بإتقانه وإظهاره في أجمل صوره وأشكاله، وكان لانتشار الإسلام في بقاع كثيرة من الأرض واحتكاكه ببيئات وثقافات مختلفة أثر كبير في تطوير أساليب الخط العربي وتعدد نماذجه[1]، وساعد على ذلك ما تمتاز به طبيعة الخط العربي وأشكال حروفه من الحيوية بفضل ما فيها من الموافقة والمرونة وما فيها من الاختلاف في الوصل والفصل مما هيأ لها فرص التطور والابتكار بطرق وأساليب متنوعة[2].

وقد نالت المصاحف المخطوطة موضوع الدراسة حظها من العناية بالخط، فكان من بينها ما كان خطه نسخاً جميلاً أو نسخاً دقيقاً، ومنها ما جمع بين النسخ والثلث، ومنها ما كان خطه مغربياً أوكوفياً أو رقعة. ويمكن توزيع الخطوط التي وردت بها تلك المصاحف وفق الجدول ذي الرقم (٣) التالي:

---

(١) مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية/ الخط العربي من خلال المخطوطات : الرياض: المركز ، ١٤٠٦هـ ص ١١.

(٢) الهيئة / المختار من إبداعات الخط العربي ٢١.

الجدول ذو الرقم (٣)

يبين توزيع أنواع الخطوط تنازلياً

م	البيـــــــــان	عدد المصاحف	النسبة المئوية
١	النسخ	٥٧	٨١,٤٣٪
٢	المغربي	٦	٨,٥٧٪
٣	الرقعة	٥	٧,١٤٪
٤	الثلث	١	١,٤٢٪
٥	الكوفي	١	١,٤٢٪
	المجموع	٧٠	١٠٠٪

٣- الورق المستخدم للكتابة:

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝١٩﴾ (الأعلى: ١٨، ١٩). وقال تعالى: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾ (الطور: ١-٣).

كان العرب يكتبون على أكتاف الإبل واللخاف (الحجارة البيضاء العريضة الرقيقة) وعلى عسيب النخل، وكانوا يكتبون على الجلود والأوراق الوافدة من الصين في عهد بني أمية، ثم على الورق الخراساني المصنوع من الكتان[1]، ولم يستعمل الورق بكثرة إلا بعد ما أشار الفضل بن يحيى البرمكي بصناعة الكاغد، ولما ولي هارون الرشيد الخلافة وكثر استعمال الورق أمر ألا يكتب الناس إلا في الكاغد، أما الرق فظل يستعمل إلى جانب الورق حتى منتصف القرن الثالث

(١) هارون، عبد السلام/ تحقيق النصوص ونشرها ـ القاهرة: المؤلف، ١٩٦٥م ص ٢١.

الهجري[1]، وظل البردي يستعمل في الكتابة وبخاصة في مصر حتى انعدم في أوائل القرن الرابع الهجري[2].

ولكن المصاحف ـ محل الدراسة ـ كتبت كلها على الورق العادي، وجاءت المصاحف متفاوتة فيما بينها من حيث سماكة الورق وجودته. ففي حين نجد أن الغالبية من المصاحف كتبت على ورق عادي نجد أن بعضها كتب على ورق أبيض مصقول، وبعضها أصفر خفيف، وبعضها بني خفيف أو داكن، وربما يكون لطريقة الحفظ التي مرت بها المصاحف أثر مباشر في تغير ألوان الورق من حال إلى آخر.

٤- أحجام المصاحف:

المتتبع للمقاسات التي وردت بها المصاحف يجد أنها لا تخرج عن أحد شكلين: إما الشكل العمودي بحيث يكون ارتفاع المصحف أكبر من عرضه، أو الشكل الأفقي أو السفيني بحيث يكون عرض المصحف أكبر من ارتفاعه.

لكن المصاحف التي تمت دراستها في هذا البحث كانت من الشكل الأول فقط، وتنوعت مقاساتها تنوعاً كبيراً، وكان أكبرها ما كان مقاسه ٨٠ × ٥٠سم[3]. وأصغرها ما كان مقاسه ١١ × ٧سم[4]، وبين هذين المقاسين جاءت بقية المصاحف، ولمعرفة المقاسات التي وردت بها

---

(١) في مكتبة المصحف الشريف بمكتبة الملك عبدالعزيز مصاحف كتبت على الرق في فترات لاحقة مثل القرن الخامس والسادس والسابع والثامن الهجري.

(٢) مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية / الخط العربي، ص ٣٧.

(٣) هو المصحف المحفوظ برقم ١٥ في مكتبة المصحف الشريف.

(٤) هو المصحف المحفوظ برقم ٨٨٠ في مكتبة المصحف الشريف.

مصاحف القرن الحادي عشر نورد الجدول ذا الرقم (٤) التالي وأمام كل مقاس جاءت أعداد المصاحف.

الجدول ذو الرقم (٤)

مقاسات المصاحف مرتبة تنازلياً بحسب الارتفاع

م	المقاس بالسنتيمتر	عدد المصاحف	م	المقاس	عدد المصاحف	م	المقاس	عدد المصاحف
١	٥٠ X ٨٠	١	٢١	١٧ X ٢٧٫٥	١	٤١	١٣ X ٢٠	١
٢	٣٠ X ٥٠	١	٢٢	٢١ X ٢٧	١	٤٢	١١٫٥X١٩٫٥	١
٣	٢٨ X ٤٣	١	٢٣	١٩ X ٢٧	٢	٤٣	١٥ X ١٩	١
٤	٢٧ X٤٠٫٥	١	٢٤	١٨ X ٢٧	١	٤٤	١٣٫٥ X ١٩	١
٥	٢٨ X ٤٠	١	٢٥	١٦ X ٢٧	٢	٤٥	١٢ X ١٨	١
٦	٢٧ X ٣٩	١	٢٦	١٧ X ٢٦٫٥	١	٤٦	١١ X ١٨	٢
٧	٢٥ X ٣٦	١	٢٧	١٨ X ٢٦	٣	٤٧	١٧٫٥	٢
٨	٢٤ X ٣٦	١	٢٨	١٧٫٥ X ٢٦	٢	٤٨	١٢ X ١٧	١
٩	٢٢ X ٣٤٫٥	١	٢٩	١٧ X ٢٦	١	٤٩	١١ X ١٦	١
١٠	٢٢ X ٣٤	١	٣٠	١٨ X ٢٥	١	٥٠	١١ X ١٥٫٥	١
١١	٢٢ X ٣٢	١	٣١	١٥ X ٢٥	١	٥١	١٠ X ١٥٫٥	١
١٢	٢١ X ٣١	٢	٣٢	١٥ X ٢٤٫٥	١	٥٢	١٠ X ١٥	٣
١٣	١٩ X ٣١	١	٣٣	١٦ X ٢٤	١	٥٣	٩ X ١٤٫٥	١
١٤	٢١ X ٣٠	١	٣٤	١٤٫٥ X ٢٣	١	٥٤	٨ X ١٤	٢
١٥	٢٠ X ٣٠	١	٣٥	١٤ X ٢٣	١	٥٥	٩ X ١٣٫٥	١
١٦	١٩ X ٢٩٫٥	٢	٣٦	١٥ X ٢٢٫٥	١	٥٦	٨ X ١١	١
١٧	٢٠٫٥ X ٢٩	١	٣٧	١٥ X ٢٢	١	٥٧	٧٫٥ X ١١	١
١٨	١٩X ٢٩	١	٣٨	١٤٫٥ X ٢٢	١	٥٨	٧ X ١١	١
١٩	٢٠ X ٢٨٫٥	١	٣٩	١٤ X ٢١	١			
٢٠	١٨ X ٢٨	١	٤٠	١٣٫٥X٢٠٫٥	١			
المجمـوع = ٧٠								

٥- التذهيب والزخرفة:

التذهيب والزخرفة فن من فنون الكتاب التي تكسبه الروعة والجمال، ويتحقق ذلك باستخدام الألوان المختلفة وورق الذهب بعد سحقه وتحويله إلى سائل يدهن بالفرشاة، ويجد هذا الفن ساحة واسعة لتطبيقه في التراكيب المعدة بالوحدات الزخرفية بالأسلوب النباتي[١].

وقد كانت عملية إخراج المخطوط العربي تمر بعدة مراحل يأتي في مقدمتها الكتابة ثم التصوير والرسم وغالباً ما يكون عمل الناسخ منفصلاً عن عمل الرسام ، أما المرحلة الثالثة فهي الزخرفة والتحلية أو التذهيب، فالزخرفة عبارة عن أشكال هندسية أو نباتية تعرف باسم الأرابسك تزين بها المخطوطات العربية. وقد بدأت هذه الزخرفة في أول الأمر على هيئة أشكال بسيطة لم تلبث أن تطورت فأصبحت فناً له أصوله وأبعاده المختلفة.

وأغلب الظن أن الزخرفة والتحلية بدأت بالقرآن الكريم حيث لم يكن يصح أن يوجد به صور أو رسوم فاستغل المزخرفون هذه الفرصة في التأنق في زخرفة المصحف بأشكال نباتية وهندسية، وكانت بدايات السور وعلامات الوقف ميداناً خصباً لعملية الزخرفة هذه، وزيادة في التقرب إلى الله كانت هذه الزخارف تكتب بماء الذهب،

---

(١) أوغلي، أكمل الدين إحسان / الدولة العثمانية: تاريخ وحضارة -نقله إلى العربية: صالح سعداوي- إستانبول: مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، ١٩٩٩م، ٢ / ٧٥١.

وقـد أمـعنوا في هذا الجـانب بعـد ذلك فكتـبـوا المصـحف كله بماء الذهب، وقد استخدم العرب في زخرفة المخطوطات -ومنها المصاحف- ألواناً مـخـتلفـة من الأحـبـار والأصـبـاغ ولكن عـدد هذه الألوان كـان مـحـدوداً وكـانت الألوان الغـالبـة هي الأحــمـر والأزرق والأخـضـر والأصفر[1].

وكـان التـذهيب في أول الأمـر مـقـصـوراً على أجـزاء مـعـينة من الصـفـحـات مـثل الأشـرطة التي تـفـصل السطور بعـضـهـا عن بعض، والفـواصل بين الآيات، وبعض العناصـر الزخـرفـيـة التي تدل على أجزاء المصحف وأقسامه ، وكـان الشريط أهم هذه الأجزاء جميعاً وقد زين بعناصـر زخـرفـيـة مـخـتلفـة[2] . وجـرى تذهيب الصـفـحـات الأولى والأخـيـرة للقـرآن الكريم، كـمـا زينت وذهبت عـلامـات نـهـاية الآيات، وتقـسـيـمـات القـرآن الأولـيـة على شكـل (نـصف وثلث وربع. .إلخ) وبمرور الزمن تـم تذهيب فـهرس السـور وفـهرس عدد الآيات والـكـلمات والأحـرف المكتوبة على صفـحـات مـزينة[3]. ونرى في المصاحف التي

(١) خليفـة، شعـبـان عبـد العزيز ومحـمـد عوض العـايدي/ الفـهرسـة والتـصنيف للمكتبات . . الرياض: دار المريخ للنشر، (د . ت) ، ص ٣١٤، ٣١٥ .

(٢) الأحـمـصي، محـمـد عبـد الجـواد / تصـوير وتجـمـيل الكـتب العربيـة في الإسلام ــ القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٢م ، ص ٧٨ .

(٣) العـبـادي ، صـادق ــ تـاريخ تـطور كـتـابة القـرآن الكريم في بلاد فـارس " مـجلة الفيصل" ــ ع ٢٨٢ (ذو الحجة ١٤٢٠هـ / مارس ــ أبريل ٢٠٠٠م) ص ١٢ .

تمت دراستها في هذا البحث أنواعاً من العناصر الزخرفية على هيئة متشابكات ، أو رسوماً هندسية من دوائر أو أجزاء من دوائر تتماس أو تتقاطع ، أو مربعات صغيرة تقلد الفسيفساء أو عناصر معمارية كالعقود والأعمدة مثلاً وقد يعلو هذه أو ينفصل عنها عناصر نباتية مجنحة . أما فواصل الآيات فكانت مجرد دوائر في حين كانت علامات الأجزاء دوائر داخلها مربعات تتداخل مكونة أشكالاً نجمية يكتب بداخلها ما يدل على الجزء من المصحف .

ويبين الجدول ذو الرقم (٥)

عددالمصاحف من حيث التذهيب والزخرفة

م	البيـــــــــــان	العدد	النسبة المئوية
١	مذهب ومزخرف لبعض الصفحات	٥٣	٧٥,٧١٪
٢	مذهب إطار الصفحات فقط	٤	٥,٧١٪
٣	غير مذهب	١٣	١٨,٥٧٪
	المجموع	٧٠	١٠٠٪

وقد تفاوتت المصاحف الواقعة في الحقل الأول من حيث كمية التذهيب والزخرفة إلا أن التركيز في ذلك يكون على أول المصحف وبالتحديد لصفحة سورة الفاتحة والصفحة الأولى من سورة البقرة وعلى آخر المصحف ، في حين يشمل التذهيب والزخرفة في أحيان كثيرة أسماء السور وفواصل الآيات وعلامات الأجزاء والأحزاب والأرباع ومواضع السجدات ، وإطار جميع الصفحات .

وفيما يلي بيان بالمصاحف المذهبة والمزخرفة مرتبة حسب أرقام حفظها في مكتبة المصحف الشريف يوضحها الجدول ذو الرقم (٦) التالي :

الجدول ذو الرقم (٦)

يوضح المصاحف المذهبة والمزخرفة بحسب أرقام الحفظ

م	رقم الحفظ	م	رقم الحفظ	م	رقم الحفظ
١	١٣	١٩	٣٩	٣٧	٥٨
٢	١٨	٢٠	٤٠	٣٨	٥٩
٣	١٩	٢١	٤١	٣٩	٦٠
٤	٢٢	٢٢	٤٢	٤٠	٦١
٥	٢٣	٢٣	٤٣	٤١	٨٨٠
٦	٢٤	٢٤	٤٤	٤٢	١٤١١
٧	٢٦	٢٥	٤٥	٤٣	١٤١٣
٨	٢٧	٢٦	٤٦	٤٤	١٤١٥
٩	٢٨	٢٧	٤٧	٤٥	١٤١٦
١٠	٢٩	٢٨	٤٨	٤٦	١٤١٧
١١	٣٠	٢٩	٥٠	٤٧	١٤٢٠
١٢	٣١	٣٠	٥١	٤٨	١٤٢١
١٣	٣٣	٣١	٥٢	٤٩	١٤٢٢
١٤	٣٤	٣٢	٥٣	٥٠	١٤٢٣
١٥	٣٥	٣٣	٥٤	٥١	١٥٤٠
١٦	٣٦	٣٤	٥٥	٥٢	١٧٨١
١٧	٣٧	٣٥	٥٦	٥٣	١٧٨٢
١٨	٣٨	٣٦	٥٧		

ونورد فيما يلي بعض الأمثلة على الزخرفة والتذهيب من المصاحف التي شملتها الدراسة :

أولاً : مصحف شريف نسخ عام ١٠٠١هـ على ورق مقاسه ٢٣ X ١٤ سم محفوظ برقم ١٣، كتب بالمداد الأسود وعلامات الوقف بالمداد الأحمر، وقد زخرفت ديباجته التي تشمل سورة الفاتحة وأول سورة البقرة، ولم تزخرف بقية الصفحات ووضعت الفواصل بين الآيات على هيئة دوائر مذهبة منقوطة بالمداد الأحمر، وقد اهتم الخطاط بتحديد أسماء السور بالمداد الأبيض داخل شريط أحمر مشغول بزخارف ذهبية ملونة بالمداد الأزرق والأسود والأبيض والأحمر، كما وضعت علامات الأجزاء والأحزاب والأرباع والأعشار داخل دوائر مذهبة محاطة بلون أزرق .

ثانياً : مصحف شريف نسخ عام ١٠١٨هـ على ورق مقاسه١١ X ٧سم ، وهو أصغر مصحف، وكتب بالمدادين الأسود والأحمر ومسطرته ١٢ سطراً، وقد زخرفت ديباجته التي تشتمل على سورة الفاتحة وبداية سورة البقرة، بينما لم تزخرف بقية الصفحات، وقد اهتم الخطاط بوضع علامات المصحف الشريف بالحروف وليس بالزخارف ، كما اهتم بتحديد أسماء السور بالتذهيب داخل شريط مستطيل غير مزخرف[١] .

---

(١) المصحف رقم ٨٨٠ المحفوظ بمكتبة المصحف الشريف .

ثالثاً: مصحف شريف نسخ عام ١٠٣٤هـ على ورق مقاسه ٢٢٫٥ X ١٥سم محفوظ برقم ١٩ كتب بالمدادين الأسود والأحمر، وقد زخرفت وذهبت ديباجته التي تشمل سورة الفاتحة وبداية سورة البقرة بزخارف غاية في الجمال وصفاء الألوان ، ووضعت الفواصل بين الآيات على هيئة دوائر مذهبة ومزخرفة كما تم تحديد أسماء السور بالمداد الأبيض داخل شريط مذهب مشغول بزخارف ملونة بالمداد الأزرق والأحمر والوردي والأصفر، ووضعت علامات الأجزاء والأحزاب والأرباع ومواضع السجدات على هيئة زخارف شبه دائرية مشجرة بألوان ذهبية وزرقاء ووردية، وجميع الصفحات محاطة بإطار مذهب يحيط به إطار أزرق.

رابعاً: مصحف شريف نسخ عام ١٠٤٤ هـ على ورق مقاسه ١٦X١١سم محفوظ برقم ١٤١٣هـ كتب بالمداد الأسود، وقد زخرفت ديباجته المشتملة على سورة الفاتحة وأول سورة البقرة بزخارف ذهبية دائرية يحيط بها إطار ذهبي وتزينها الألوان الوردية والزرقاء.

وهو مصحف مذهب بالكامل حيث كتب جميعه في دوائر داخل مربعات مذهبة والفواصل بين الآيات على هيئة دوائر ذهبية مغلقة ،وأسماء السور لم تكتب وإنما حددت بترك شريط ذهبي عريض قبل بداية السورة، وجاءت علامات الأجزاء والأحزاب والأرباع على هيئة مشجرات ورقية صغيرة بألوان ذهبية وزرقاء وحمراء.

خامساً: مصحف شريف نسخ عام ١٠٦٦هـ على ورق مقاسه ٢٩,٥ × ١٩سم محفوظ برقم ٢٦ كتب بالمدادين الأسود والأحمر، وقد زخرفت ديباجته المشتملة على سورة الفاتحة وأول سورة البقرة بزخارف جميلة ذات أرضية ذهبية مشتملة على زخارف جميلة جداً على هيئة دوائر صغيرة، ورسوم نباتية وأشكال هندسية ويحيط ببقية الصفحات إطار مذهب عريض، ووضعت الفواصل بين الآيات على هيئة دوائر ذهبية في داخلها وردة صغيرة تنطلق منها عدة خطوط إلى محيط الدائرة، أما أسماء السور فقد كتبت بالمداد الأبيض داخل شريط ذهبي تزينه زخارف جميلة بالمداد الأزرق والوردي والأحمر. وأما علامات الأجزاء والأحزاب والأرباع ومواضع السجدات فقد وضعت على هيئة زخارف شبه دائرية وبعضها على هيئة ورقة شجرية تنطلق منها بعض الأغصان الصغيرة، وهذه جاءت بألوان مختلفة منها الذهبي والأزرق والأحمر والوردي.

سادساً: مصحف شريف نسخ عام ١٠٩٠هـ على ورق مقاسه ٢٦ × ١٧سم محفوظ برقم (٥١) كتب بالمداد الأسود وعلامات الوقف بالمداد الأحمر. وقد زخرفت ديباجته المشتملة على سورة الفاتحة وأول البقرة بزخارف جميلة هندسية وشجرية ذات ألوان متعددة على أرضية ذهبية. وأحيطت بقية الصفحات بإطار ذهبي، كما وضعت الفواصل بين الآيات على هيئة دوائر ذهبية تتوسطها خطوط صغيرة، وكتبت

أسماء السور بالمداد الأبيض داخل شريط ذهبي مشغول بزخارف ملونة بألوان زرقاء ووردية وحمراء وغيرها . أما علامات الأجزاء والأحزاب والأرباع ومواضع السجدات فقد جاءت على هيئة زخارف هندسية تشبه الدوائر المشجرة وبألوان متعددة منها الأخضر والأزرق والأحمر والذهبي.

ولمزيد من الإيضاح ينظر الملحق ذو الرقم (٢) في آخر الدراسة.

٦- التجليد :

عمل المجلد متمم لعملي الخطاط والرسام ، لأن المجلد تقع على عاتقه مسؤولية حفظ أوراق المخطوط من التلف، والعناية بمظهره الخارجي بحيث يتلاءم ذلك مع قيمة المخطوط ومحتوياته[١].

والتجليد هو أسبق فنون الكتاب العربي، فقد ذكر الداني في المقنع "أنَّ أول من جمع القرآن بين اللوحين أبو بكر رضي الله عنه"[٢] ومن النص يمكن القول إنَّ اللوحين اللذين وردا في هذه الرواية هما لوحان من خشب[٣]، وظل الجلد هو المادة المثالية لتجليد الكتب، غير أن المسلمين في العصور المتأخرة استخدموا الورق المضغوط المدهون بطبقة

---

(١) ديماند . م. س/ الفنون الإسلامية ـ ترجمة أحمد محمد عيسى ـ ط٣ ـ القاهرة : دار المعارف، ١٩٨٢م، ص ٨٦.

(٢) الداني، عثمان بن سعيد / المقنع في رسم مصاحف الأمصار مع كتاب النقط ـ تحقيق محمد الصادق قمحاوي ـ القاهرة : مكتبة الكليات الأزهرية ، (د.ت) ص ١٣ .

(٣) المنيف، عبدالله بن محمد / دراسة فنية لمصحف مبكر ـ الرياض: المؤلف ١٤١٨هـ، ص ٨٥.

من (اللاكـيـه)[١]. وسعى المجلد المسلم إلى تقـسـيم سطح الجلدة الواحدة إلى متن وإطار وأدخل الخط العربي عنصراً زخرفياً في زخرفة جلود الكتب[٢]. وكـان من اهتمـام المسلمين بفن التجليد اختـراع اللسان الذي تعددت وظائفه الفنية من حفظ الأوراق من التمزق ومنع التراب عنها[٣]. إلى جانب المساعدة في تحديد مكان الوقوف للقارئ عند توقفه عن القراءة لسهولة العودة إلى المكان الذي وقف عنده للقراءة مرة أخرى[٤]. وقد اختلفت أشكال جلود المصاحف بحسب الشكل الخارجي للمصاحف، فمنها الشبيه بالمربع ومنها ما هو أفقي ومنها ما هو عمودي أو رأسي ومنها ما يشبه الصندوق[٥].

ولم تقتصر الزخرفة على الغلاف الخارجي لجلدة الكتاب ولسانه، ولكنها امتدت إلى باطن الغلاف. وقد استخدمت طرق مختلفة في زخرفة جلود الكتب، من ذلك أن يضـغط الجلد أو يختـم بالذهب أو بدونه، وكـانت الزخرفة بالقص واللصق من الجلد أو الورق المذهب على الأرضية الملونة.

---

(١) ديماند . م . س/ الفنون الإسلامية ، ص ٨٦ .

(٢) القصيري، اعتماد/ فن التجليد عند المسلمين ـ بغداد: المؤسسة العامة للآثار والتراث، ١٩٧٩م، ص ٩٣ .

(٣) هولدين . دنكن / " أغلفة المخطوطات العربية في متحف فكتوريا وألبرت " لندن، مجلة فنون عربية، ١-٢٨ ، ص٦١ .

(٤) المنيف ، عبد الله بن محمد / دراسة فنية لمصحف مبكر ص ٨٤.

(٥) مرزوق، محمد عبد العزيز/ المصحف الشريف، دراسة تاريخية وفنية ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥م، ص ١٣٢.

وبمعاينة مصاحف الدراسة تبين أنها مجلدة جميعاً، وأن أغلب الصفات المشار إليها قبل قليل من حيث الزخرفة والتذهيب وخلافه متوافرة فيها، إلا أنه يلاحظ على بعضها أنها مفككة وتحتاج إلى تثبيت التجليد ، وتتميز أربعة منها بأنه قد عمل لها جيب خاص يشبه تجليد المصحف من حيث اللون والتذهيب والزخرفة ، كما تتميز بعض المجلدات بتغليفها من الخارج بقماش مخمل ذي ألوان جميلة وتبطين المجلدات بورق ملون ومزخرف بزخارف نباتية جميلة.

وقد توزعت ألوان المجلدات على ستة ألوان ، كان أكثرها اللون البني بواقع ٥٢ مجلداً مع تفاوت في درجة هذا اللون من حيث كونه بنياً غامقاً أو بنياً فاتحاً وتلاه اللون الأحمر بتسعة مجلدات ، ويلي هذا اللون الأخضر بستة مجلدات، وأخيراً جاءت الألوان الأزرق والأسود والسماوي بواقع مجلد واحد من كل لون.

أما ما يخص التذهيب والزخرفة فكانت تتم في الغالب بطريقة الختم أو الحفر على المجلدات وتتراوح أشكالها بين الطغراء والأهلة والنجوم والزخارف النباتية وبعض الأشكال الهندسية.

٧- التفسير وترجمات معاني القرآن الكريم:

نشأ التفسير مبكراً في عصر النبي صلى الله عليه وسلم الذي كان أول مفسر لكتاب الله، يبين للناس ما نزل عليه من القرآن الكريم[١].

---

(١) الصالح، صبحي / مباحث في علوم القرآن. ط ٣ - بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٤م، ص ٢٨٩.

وقد تنوقل تفسير بعض القرآن عن كثير من الصحابة رضوان الله عليهم، واشتهر منهم عشرة: الخلفاء الأربعة ، وابن مسعود، وابن عباس، وأبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وأبو موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير[1].

وتداول ذلك التابعون من بعدهم، ونقل ذلك عنهم، ولم يزل ذلك متناقلاً في الصدر الأول حتى صارت المعارف علوماً ، ودونت الكتب، فكتب الكثير من ذلك، ونقلت الآثار الواردة فيه عن الصحابة والتابعين ، وانتهى جميع ذلك إلى أئمة التفسير أمثال: الطبري، والواحدي، والثعالبي وغيرهم[2]، وقد اتجه العلماء في تفاسيرهم اتجاهات متباينة، فكان منها ما يسمى بالتفسير بالمأثور، وهو امتداد للتفاسير المسندة إلى الصحابة والتابعين وتابعيهم، وكان منها ما يسمى بالتفسير بالرأي، وتعددت فيه المناهج وتضاربت الأفكار، فحُمد بعضه وذم بعضه، تبعاً لقربه من هداية القرآن أو بعده عنها[3].

والقرآن الكريم إذا أريد تقريب معانيه لقوم لا يعرفون العربية، فإن ذلك يكون من قبيل الترجمات للمعاني، وليست الترجمات بمصاحف على الإطلاق، وغالباً ما تجد هذا المعنى في مقدمة كل

---

(١) السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ) / الإتقان في علوم القرآن ـ ط٣ـ القاهرة : مطبعة حجازي، ١٣٦٠هـ / ١٩٤١م، ٢ /٣١٨.

(٢) ابن الخطيب، محمد محمد عبد اللطيف / الفرقان ـ القاهرة : المؤلف، ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م، ص ١١١.

(٣) الصالح ، صبحي / مباحث في علوم القرآن ، ص ٢٩٠-٢٩١ .

ترجمة من تلك التراجم[1]. وقد أشار الإمام ابن حجر ـ وهو من كبار أئمة المحدثين ـ إلى أهمية الترجمة حيث يقول: " إن الوحي متلواً أو غير متلوّ، إنما نزل بلغة العرب. ولا يرد على هذا كونه صلى الله عليه وسلم قد بعث إلى الناس كافة، عرباً وعجماً وغيرهم، لأن اللسان الذي نزل عليه به الوحي عربي، وهو يبلغه إلى طوائف العرب، وهم يترجمونه لغير العرب بألسنتهم[2]".

وقد أصدر مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة ثلاثين ترجمة لمعاني القرآن الكريم بلغات عديدة كالفرنسية والإنجليزية والفارسية والأردية والصينية والإسبانية والإندونيسية والصومالية والكورية وغيرها. كما يتم الإعداد لإنجاز ترجمات أخرى مستقبلاً، كما أصدر تفسيراً ميسراً ومختصراً يعتمد على الأقوال الصحيحة، ويهتم بإبراز المعاني دون إطالة أو تكرار، ويعنى بالعقيدة الصحيحة، ويبتعد عن التأويل، والألفاظ الغريبة، والخوض المتكلف في القضايا الغيبية، وسيكون نواة لترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغات المختلفة[3].

---

(١) صقر، عبد البديع / التجويد وعلوم القرآن – ط٧ – بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م، ص ١١١.

(٢) ابن الخطيب، محمد محمد عبد اللطيف / الفرقان، ص ٢٢٢.

(٣) مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف / التقرير السنوي للمجمع لعام ١٤١٩هـ ـ المدينة المنورة: المجمع ١٤١٩هـ، ص ٣٠، ٣١، ٤٨.

وبمعاينة مصاحف الدراسة تبين وجود خمسة منها قد دون على حواشيها بعض جوانب التفسير، مع التركيز على نحو أوسع على أسباب النزول ، مع إشارة طفيفة إلى بعض الجوانب النحوية، وأحد هذه التفاسير كان باللغة العربية والباقي باللغة الفارسية، وهذه المصاحف هي المحفوظة في المكتبة بالأرقام (٢٠، ٣٨، ٤٣، ٥٢، ٥٥).

وقد وجدت على بعض المصاحف –محل الدراسة– ترجمات لمعاني القرآن الكريم، أحدها كان باللغة التركية ودونت بمداد أحمر بين السطور على المصحف المحفوظ بمكتبة المصحف برقم (٧٥)، وهناك ستة مصاحف كانت ترجمة معاني القرآن باللغة الفارسية، وهي المصاحف المحفوظة تحت الأرقام الآتية (١٤، ٢٠، ٤٣، ٥٢، ٥٤، ٥٥) ودونت الترجمة بمداد أحمر بين سطور المصحف، ما عدا المصحف ذا الرقم (٥٤)، فقد دونت الترجمة على حاشية المصحف .

٨- القراءات :

عرّف الزركشي القراءات بقوله " القراءات : اختلاف ألفاظ الوحي –المذكور– في الحروف وكيفيتها من تخفيف وتشديد وغيرها"(١) .

ويقول ابن الجزري : " القراءات : علم بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها معزواً لناقله"(٢) .

---

(١) الزركشي ، محمد بن عبد الله (ت٧٩٤هـ) البرهان في علوم القرآن –تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم– القاهرة : دار إحياء الكتب العربية – ١٣٧٦هـ /١٩٥٧م، ١ /٣١٨.

(٢) ابن الجزري ، محمد بن محمد (ت ٨٣٣هـ) منجد المقرئين – القاهرة : المطابع الوطنية الإسلامية ، ١٣٥٠هـ ، ص ٣ .

ولم يزل القراء يتداولون القراءات وروايتها ، إلى أن كتبت العلوم ودونت فكتبت القراءات فيما كتب من العلوم والفنون، وصارت صناعة مخصوصة، وعلماً منفرداً، وقد اشتهر ممن اعتنى بفن القراءات : أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد، وأبو عمرو الداني ، وأبو القاسم الشاطبي[1]، ومن القراء المشهورين ابن عامر ، والكسائي وعاصم بن أبي النجود وحمزة وغيرهم كثير[2] .

وتم من خلال معاينة المصاحف ملاحظة اثني عشر مصحفاً سجل على حواشي بعضها، وبين الأسطر بمداد أحمر القراءات المشهورة بين القراء، إلا أنها تتفاوت فيما بين المصاحف من حيث الطول والقصر، ومن حيث الاستمرار من أول المصحف إلى آخره فالغالب عليها أن بعضها كان باللغة العربية، وبعضها باللغة الفارسية، كما تضمن المصحف ذو الرقم (٤١) في نهايته موجزاً عن القراءات وتراجم موجزة أيضاً عن مشاهير القراء، أما أرقام المصاحف التي وجدت عليها القراءات فهي المصاحف المحفوظة بالأرقام الآتية : (٢٠، ٣٣، ٤١، ٤٣، ٤٥، ٥٤، ٥٩، ١٤١٠، ١٤١٨، ١٤٢٣، ١٧٨١).

---

(١) ابن الخطيب ، محمد محمد عبد اللطيف / الفرقان ، ص ١٠٢ .

(٢) الصالح ، صبحي / مباحث في علوم القرآن، ص ٢٤٧ – ٢٤٩ .

والغرض من ذكر الأرقام هنا التسهيل على الباحثين الذين يرغبون في إعداد دراسات حول هذه القراءات بحيث يسهل عليهم مراجعة تلك المصاحف بأرقام حفظها في مكتبة المصحف الشريف بمكتبة الملك عبد العزيز.

٩- فضائل القرآن ودعاء ختم القرآن:

جاء في نهاية أربعة عشر مصحفاً دعاء ختم القرآن، وتفرد المصحف ذو الرقم (٣٤) بالإضافة إلى ذلك بوجود رسالة في منافع سور القرآن في آخره، وكانت ثلاثة منها باللغة الفارسية والباقية وعددها أحد عشر فكانت باللغة العربية، وكانت هذه الأدعية تكتب من قبل خطاط المصحف لأنها تكون بالخط نفسه، وإذا كان الخط مزيناً بالتذهيب فإنه يناله شيء منه. والمصاحف التي ورد في نهاياتها أدعية ختم القرآن هي المصاحف ذات الأرقام الآتية: (٢٠، ٢٥، ٣١، ٣٤، ٣٥، ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٦، ٤٧، ٥٤، ٥٥، ٥٨، ١٤٢٣).

المبحث الرابع: نساخ المصاحف وإسهاماتهم

كان للنساخ دور بارز ومميز في إظهار المصاحف المخطوطة، حيث عملوا على كتابة نسخ متعددة من القرآن الكريم، وقد كان بعضهم يذكر اسمه في نهاية المصحف المخطوط الذي نسخه في حين نجد آخرين يغفلون ذلك وهناك نوع ثالث كان يكتفي بذكر شهرته أو اسمه الأول لتصل إلينا تلك المصاحف بهذا العدد الكبير من النسخ المذهبة المزينة بالزخارف البديعة التي زينت صفحاتها بالخطوط العربية المتقنة.

وقبل أن نتعرف على نساخ المصاحف وإسهاماتهم لابد من الإشارة إلى الفترات الزمنية التي تمت فيها كتابة تلك المصاحف، وذلك على النحو التالي:

أولاً: التوزيع الزمني:

إن الدارس لحركة نسخ المصاحف في القرن الحادي عشر الهجري يلاحظ أن أول مصحف تضمنته الدراسة نسخ عام ١٠٠١هـ بينما نسخ آخر مصحف في فترة الدراسة سنة ١١٠٠هـ.

ويمكن توزيع المصاحف المخطوطة على فترات زمنية تتضمن كل منها عشر سنوات ويتلوها حقل للمصاحف التي لم يتحدد تاريخ نسخها بحسب الجدول ذي الرقم (٧) التالي:

الجدول ذو الرقم (٧)

التوزيع الزمني للمصاحف المخطوطة

م	الفترة الزمنية	عدد المصاحف	النسبة المئوية
١	١٠٠١ – ١٠١٠ هـ	٤	٥,٧١٪
٢	١٠١١ – ١٠٢٠ هـ	٣	٤،٢٨٪
٣	١٠٢١ – ١٠٣٠ هـ	١	١,٤٢٪
٤	١٠٣١ – ١٠٤٠ هـ	٣	٤,٢٨٪
٥	١٠٤١ – ١٠٥٠ هـ	–	–
٦	١٠٥١ – ١٠٦٠ هـ	٢	٢,٨٥٪
٧	١٠٦١ – ١٠٧٠ هـ	٨	١١,٤٢٪
٨	١٠٧١ – ١٠٨٠ هـ	١٥	٢١,٤٢٪
٩	١٠٨١ – ١٠٩٠ هـ	١٥	٢١,٤٢٪
١٠	١٠٩١ – ١١٠٠ هـ	١٣	١٨,٥٧٪
١١	غير محدد	٦	٨,٥٧٪
المجموع		٧٠	١٠٠٪

ويتضح من الجدول السابق ما يلي:

(١) أنه خلال الفترة (١٠٠١ – ١٠١٠ هـ) لم ينسخ سوى أربعة مصاحف أحدها نسخ في عام ١٠٠١هـ والثاني في عام ١٠٠٣هـ، والثالث منها في عام ١٠٠٤هـ ،والرابع في عام ١٠١٠هـ.

أما الفترة الثانية (١٠١١ – ١٠٢٠ هـ) فقد نسخ فيها ثلاثة مصاحف فقط أحدها في عام ١٠١٣هـ، بينما نسخ الثاني في عام ١٠١٧هـ، تلاه المصحف الثالث حيث نسخ في عام ١٠١٨هـ، ويمتاز

هذا الأخير بأنه أصغر مصحف مخطوط في مكتبة المصحف الشريف حيث بلغ حجمه ١١ X ٧ سم فقط.

أما الفترة الثالثة (١٠٢١ – ١٠٣٠ هـ) فلم ينسخ فيها سوى مصحف واحد جاء نسخه عام ١٠٢٤هـ.

أما الفترة الرابعة (١٠٣١–١٠٤٠هـ) فقد جاءت متساوية مع الفترة الثانية حيث جاء فيها ثلاثة مصاحف نسخت في الأعوام ١٠٣٤هـ، ١٠٣٨هـ، ١٠٣٩هـ.

ويلاحظ هنا أن الفترة الخامسة (١٠٤١ – ١٠٥٠ هـ) لم تتضمن نسخ أي مصحف. أما الفترة السادسة (١٠٥١ – ١٠٦٠هـ) فقد شهدت نسخ مصحفين أحدهما في سنة ١٠٥١هـ ،والآخر سنة ١٠٥٨هـ.

أما الفترة السابعة الواقعة بين (١٠٦١ – ١٠٧٠ هـ) فقد شهدت تطوراً ملحوظاً في نسخ المصاحف ، حيث نسخ في هذه الفترة ثمانية مصاحف، نسخت ثلاثة منها في الأعوام ١٠٦٢هـ، ١٠٦٣هـ،١٠٦٥هـ، بينما نسخ ثلاثة منها في عام ١٠٦٦هـ في حين نسخ الاثنان الأخيران في عام ١٠٦٨هـ.

وبلغ نسخ المصاحف ذروته خلال الفترة الثامنة (١٠٧١–١٠٨٠هـ) إذ بلغ إجمالي عدد المصاحف المنسوخة في هذه الفترة خمسة عشر مصحفاً بنسبة ٢١٫٤٢٪ نسخ منها في النصف الأول سبعة مصاحف

في حين نسخ في النصف الثاني ثمانية مصاحف واستمرت الفترة التاسعة (١٠٨١ – ١٠٩٠ هـ) على المستوى نفسه من حيث عدد المصاحف المنسوخة، وقد نسخ في النصف الأول من هذه الفترة ثمانية مصاحف بينما نسخ في النصف الثاني سبعة مصاحف . إلا أن هذا الانتعاش لم يدم طويلاً حيث تراجعت قليلاً الفترة العاشرة (١٠٩١–١١٠٠هـ) في حركة نسخ المصاحف ، وهي نهاية الفترة الزمنية التي تشملها الدراسة، فقد نسخ فيها ثلاثة عشر مصحفاً بنسبة ١٨,٥٧٪ .

(٢) كما يلاحظ أن المصاحف التي تحدد تاريخ نسخها قد بلغت (٦٤) مصحفاً من المجموع الكلي البالغ (٧٠) مصحفاً، أما المصاحف الستة الباقية فلم يتبين لها تاريخ نسخ معين مع ملاحظة أن هذه المصاحف تم وقفها في الأعوام ١٠٠٣، ١٠١٤، ١٠٣١، ١٠٤٤، ١٠٤٦، ١٠٨٠هـ.

ثانياً : أسماء نساخ المصاحف :

نورد فيما يلي بياناً بأسماء النساخ مرتبة تصاعدياً بحسب تاريخ النسخ ، وفي حالة توافق الاسمين في تاريخ النسخ فيرتبان هجائياً، ويلحق بها أسماء النساخ الذين لم يذكر لهم تاريخ نسخ معين بحسب الترتيب الهجائي .

م	الاســـــم	تاريخ النسخ	ملاحظات
١	الحاج حسين بن محمد السيوسي	١٠٠١هـ	
٢	عبدالله وافل عبيدة المغربي	١٠٠٣هـ	
٣	محمد بن عبدالوهاب الحسيني	١٠٠٤هـ	ثاني مصحف ينسخه
٤	عبدالله بن محمد بن عبدالله بن يوسف بن علي الدرعي الملولي الفوالقي	١٠١٠هـ	
٥	حافظ جمعة	١٠١٣هـ	
٦	عمر بن الشافعي	١٠١٧هـ	
٧	هلين	١٠١٨هـ	
٨	—	١٠٢٤هـ	
٩	مصطفى بن عبدالله الشهير بخاتمي	١٠٣٤هـ	
١٠	حاجي محمد مهدي الجمومري	١٠٣٨هـ	
١١	عزيز محمد ولد كمال محمد (مؤذن مسجد فرحت الملك داراندرون في بلدة أحمد آباد)	١٠٣٩هـ	
١٢	محمد بن محمد مير ياده	١٠٥١هـ	
١٣	محمد حلبي بن أمر الله	١٠٥٨هـ	
١٤	محمد بن نور الله المعروف بكاغدي (من تلاميذ درويش علي)	١٠٦٢هـ	
١٥	شمس الله بن منصور خان نودي	١٠٦٣هـ	
١٦	عبدالله بن مال الله	١٠٦٥هـ	
١٧	مصطفى البواب (من تلاميذ درويش علي)	١٠٦٦هـ	
١٨	مصطفى بن ذي الفقار	١٠٦٦هـ	
١٩	مصطفى بن عمر الأيوبي	١٠٦٦هـ	
٢٠	السيد عبدالرحمن الزهني (من تلاميذ مصطفى المخلص)	١٠٦٨هـ	
٢١	—	١٠٦٨هـ	
٢٢	فضل الله ولد أبي بكر بن ملا إسماعيل	١٠٧١هـ	
٢٣	درويش علي	١٠٧٢هـ	المصحف رقم ٥٥ من نسخه

م	الاســـــم	تاريخ النسخ	ملاحظات
٢٤	حسين (كاتب أسرار السلطان)[1]	١٠٧٤هـ	
٢٥	محمد بن علي بن عبدالرحمن الحاج سلطان العلالي	١٠٧٤هـ	
٢٦	حسين سليم	١٠٧٥هـ	
٢٧	درويش مصطفى المولوي السرائي	١٠٧٥هـ	المصحف رقم ٩٠ من نسخه
٢٨	رمضان بن إسماعيل (من تلاميذ عبدالله)	١٠٧٥هـ	
٢٩	رمضان بن إسماعيل	١٠٧٦هـ	
٣٠	عبدالله	١٠٧٧هـ	
٣١	—	١٠٧٨هـ	
٣٢	حسن ولي	١٠٧٩هـ	
٣٣	محمد محمود القنوي	١٠٨٠هـ	
٣٤	محمد حمد السوسي	١٠٨٠هـ	
٣٥	محمد هاشم بن خواجه مهدي	١٠٨٠هـ	
٣٦	مصطفى بن عمر الأيوبي	١٠٨٠هـ	
٣٧	سليمان	١٠٨١هـ	
٣٨	محمد عرب زاده	١٠٨١هـ	
٣٩	محمد بن علي بن عبدالرحمن	١٠٨١هـ	
٤٠	عبد الله وردي	١٠٨٢هـ	
٤١	—	١٠٨٢هـ	
٤٢	محمد	١٠٨٤هـ	
٤٣	أحمد بن عمر الوفائي (من تلاميذ درويش علي)	١٠٨٥هـ	

(١) يطلق لفظ (كاتب) على كل من يقوم بالكتابة أو بالتحرير . وكاتب السر هو أحد الموظفين من الكتبة، وهو يدل على أن هذا الكاتب ـ بحكم عمله ـ على علم بأسرار الدولة. (انظر) : الباشا، حسن/ الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية ـ القاهرة :دار النهضة العربية ، ١٩٦٦م ، ٢/ ٩٠١، ٩٢٢ .

م	الاســـــم	تاريخ النسخ	ملاحظات
٤٤	—	١٠٨٥هـ	
٤٥	إبراهيم بن علي	١٠٨٧هـ	
٤٦	درويش أحمد (كاتب السراي الجديد)[١]	١٠٨٧هـ	
٤٧	درويش محمد بن الحاج محمد القنوي	١٠٨٨هـ	
٤٨	—	١٠٨٩هـ	
٤٩	خضر محمد	١٠٨٩هـ	
٥٠	عمر بن إسماعيل (محاسب خزينة أرضروم)[٢]	١٠٩٠هـ	
٥١	محمد جان عباس	١٠٩٠هـ	
٥٢	درويش أحمد بن محمد (كاتب السراي السلطاني)[٣]	١٠٩١هـ	
٥٣	ابن نصر الله عبدالرحيم (كاتب البهبها)[٤]	١٠٩٢هـ	

(١) أي كاتب القصر الجديد .

(٢) أي المتولي الإشراف على خزائن الأموال السلطانية من نقد وقماش وغير ذلك . (انظر) :الباشا ، حسن/ الفنون الإسلامية،١ /٤٥٣ . وأرضروم تقع شرق تركيا ، وفي أوائل التاريخ العثماني كانت أرضروم محور الطرق المارة بالقفقاس من الشرق والطرق القادمة من الشرق والجنوب عن طريق آذربيجان ،وترجع أهمية أرضروم التجارية إلى العصور القديمة . (انظر) : روبرت دبليو ــ أولسن / حصار الموصل والعلاقات العثمانية الفارسية (١٧١٨م ــ ١٧٤٣م) ترجمة : عبد الرحمن بن الحاج أمين بك الجليلي ــ الرياض : دار العلوم ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م، ص ٤٩ – ٥١ .

(٣) أي : كاتب القصر السلطاني .

(٤) به به : كلمة استحسان وتمجيد (انظر) : التونجي ، محمد / المعجم الذهبي (فارسي ــ عربي) – ط ٣ – بيروت : دار العلم للملايين، ١٩٩٢م، ص ١٢٦ .

م	الاســـــم	تاريخ النسخ	ملاحظات
٥٤	—	١٠٩٢هـ	
٥٥	عبدالله بن ملا حامد	١٠٩٣هـ	
٥٦	حافظ عثمان	١٠٩٤هـ	
٥٧	—	١٠٩٥هـ	
٥٨	ابن محمد تقي محمد طالب	١٠٩٥هـ	
٥٩	حافظ عثمان	١٠٩٧هـ	
٦٠	حسين علي (من تلاميذ خطاط المصاحف أفندي القكجوي)	١٠٩٧هـ	
٦١	الشيخ إبراهيم بن شيخ دولت	١٠٩٨هـ	
٦٢	—	١٠٩٨هـ	
٦٣	محمد رضا بن حسين النقوي	١٠٩٨هـ	
٦٤	بشير آغا بن عبدالله	١١٠٠هـ	
٦٥	علي اللباب	—	
٦٦	محمد الزكي (من تلاميذ أرنب زاده)	—	
٦٧	محمد عيسى الراشدي	—	

وبتتبع هذه الأسماء يمكن أن نستنتج الملاحظات الآتية :

(١) أن المصاحف التي ورد في نهايتها ذكر لأسماء نساخها قد بلغت (٥٨) مصحفاً فقط من المجموع الكلي لمصاحف الدراسة البالغة (٧٠) مصحفاً.

(٢) أن درويش مصطفى المولوي السرائي هو أكثر النساخ إنتاجاً حيث ورد في نهاية المصحف المؤرخ نسخه بتاريخ ١٠٧٥هـ ما نصه : (وبإتمام هذه النسخة الشريفة صارت المصاحف تسعين تماماً بخطي)[١] وجاء بعده درويش علي، حيث ورد في نهاية المصحف المنسوخ سنة

(١) مصحف محفوظ بمكتبة المصحف الشريف في مكتبة الملك عبد العزيز بالمدينة المنورة برقم ٣٣.

١٠٧٢هـ أنه المصحف رقم ٥٥[1]. وجاء بعدهما من نسخ مصحفين وهم: محمد بن عبد الوهاب الحسيني، وقد ورد في نهاية المصحف المنسوخ بتاريخ ١٠٠٤هـ أنه ثاني مصحف تشرف الناسخ بنسخه[2]. ومصطفى بن عمر الأيوبي الذي نسخ مصحفين أحدهما سنة ١٠٦٦هـ، والآخرسنة ١٠٨٠هـ. ورمضان بن إسماعيل الذي نسخ مصحفين أحدهما سنة ١٠٧٥هـ والآخر سنة ١٠٧٦هـ. ودرويش أحمد الذي نسخ مصحفين أحدهما سنة ١٠٨٧هـ والآخر سنة ١٠٩١هـ، وحافظ عثمان الذي نسخ مصحفين أحدهما سنة ١٠٩٤هـ والآخر سنة ١٠٩٧هـ.

(٣) اعتراف بعض نساخ المصاحف بفضل معلميهم والافتخار بتتلمذهم عليهم، حيث ورد قرين اسم كل منهم ما يفيد بأنه تلميذ للخطاط الفلاني، وأمثلة ذلك ما ورد بعد أسماء كل من: محمد بن نور الله، ومصطفى البواب، وأحمد بن عمر الوفائي بأنهم من تلاميذ درويش علي، وما ورد بعد اسم السيد عبد الرحمن الزهني بأنه من تلاميذ مصطفى المخلص، وأن رمضان بن إسماعيل من تلاميذ عبدالله، وأن حسين على من تلاميذ خطاط المصاحف أفندي القكجوي، وأن محمد الزكي من تلاميذ أرنب زاده.

---

(١) مصحف محفوظ بمكتبة المصحف الشريف في مكتبة الملك عبد العزيز بالمدينة المنورة برقم ٣٠.

(٢) مصحف محفوظ بمكتبة المصحف الشريف في مكتبة الملك عبد العزيز بالمدينة المنورة برقم ١٤١١.

(٤) أن عـمليـة نسخ المصـاحف لـم تكـن العـمل الرئيس لبـعض النساخ حـيث ورد قـرين أسـمائهـم ما يفـيد مـهام عـملهـم الأساسي ، وهؤلاء النساخ هم :

(أ) عزيز محمد ولد كمال (مؤذن مسجد فرحت الملك درا ندرون في بلدة أحمد آباد) .

(ب) حسين (كاتب أسرار السلطان) .

(ج) درويش أحمد (كاتب السراي الجديد) .

(د) عمر بن إسماعيل (محاسب خزينة أرضروم) .

(هـ) درويش أحمد بن محمد (كاتب السراي السلطاني) .

(و) ابن نصر الله عبد الرحيم (كاتب البهبها) .

المبحث الخامس: الموقفون وإسهاماتهم

حرص المسلمون على وقف المصاحف والكتب النافعة على المساجد والمكتبات والأربطة والذرية ، وفي هذا المبحث نتعرف على كمية المصاحف الموقوفة في مكتبة المصحف الشريف والتي تم نسخها في القرن الحادي عشر الهجري ، وعلى الفترات الزمنية التي وقفت فيها تلك المصاحف ، كما نتعرف كذلك على أسماء الواقفين وشروطهم ، من خلال صيغ الوقفيات . وبيان المستفيدين من تلك الوقفيات، وذلك على النحو الآتي :

أولاً : التوزيع الزمني للمصاحف :

المتأمل لحركة وقف المصاحف في هذه الدراسة يلاحظ أن أول مصحف تضمنته الدراسة وقف عام ١٠٠٣هـ بينما وقف آخر مصحف في فترة الدراسة سنة ١٣٥٢هـ وهناك مجموعة من المصاحف لم يتبين للباحث تاريخ محدد لوقفها .

ويمكن توزيع المصاحف الموقوفة على فترات زمنية ، هذا بالإضافة إلى حقل مصاحف غير محدد تاريخ وقفها وذلك بحسب الجدول ذي الرقم (٨) التالي :

الجدول ذو الرقم (٨)

التوزيع الزمني للمصاحف الموقوفة

م	الفترة الزمنية	العدد	النسبة المئوية
١	١٠٠١ ــ ١٠٥٠ هـ	٦	٨,٥٧٪
٢	١٠٥١ ــ ١١٠٠ هـ	٦	٨,٥٧٪
٣	١١٠١ ــ ١١٥٠ هـ	—	—
٤	١١٥١ ــ ١٢٠٠ هـ	٤	٥,٧١٪
٥	١٢٠١ ــ ١٢٥٠ هـ	٤	٥,٧١٪
٦	١٢٥١ ــ ١٣٠٠ هـ	١١	١٥,٧١٪
٧	١٣٠١ ــ ١٣٥٠ هـ	١٦	٢٢,٨٥٪
٨	١٣٥١ ــ ١٣٥٢ هـ	١	١,٤٢٪
٩	غير محدد	٢٢	٣١,٤٢٪
	المجموع	٧٠	١٠٠٪

ويمكن أن نستخلص من الجدول السابق ما يلي :

١ـ أن وقف المصاحف المنسوخة في فترة الدراسة امتد على مساحة زمنية تقدر بأربعة قرون بدءاً بالقرن الحادي عشر وانتهاء بالقرن الرابع عشر الهجري .

٢ـ أنه خلال النصف الأول من القرن الحادي عشر الهجري لم يوقف سوى ستة مصاحف ، وجاء النصف الثاني بالعدد نفسه .

ويلاحظ هنا أن النصف الأول من القرن الثاني عشر الهجري لم يتضمن وقف أي مصحف .

أما النصف الثاني من القرن نفسه فقد شهد وقف أربعة مصاحف، وجاء النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجري بالعدد نفسه.

أما النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري فقد شهد تطوراً ملحوظاً في وقف المصاحف ، حيث وُقف في هذه الفترة أحد عشر مصحفاً .

وبلغ وقف المصاحف ذروته خلال النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري إذ بلغ إجمالي المصاحف الموقوفة في هذه الفترة ستة عشر مصحفاً ، بنسبة ٢٢,٨٥٪ وشهدت السنتان الأوليان من النصف الثاني من القرن الرابع عشر الهجري وقف مصحف واحد فقط .

ويلاحظ أن هناك اثنين وعشرين مصحفاً لم يتحدد تاريخ وقفها جاءت في آخر الجدول المذكور .

ثانياً : أسماء موقفي المصاحف :

نورد فيما يلي بياناً بأسماء الموقفين مرتبة تصاعدياً بحسب تاريخ الوقف ، وفي حالة توافق الاسمين وتاريخ الوقف يرتبان هجائياً ، ويلحق بها أسماء الموقفين الذين لم يذكر لهم تاريخ وقف محدد بحسب الترتيب الهجائي .

م	الاســـم	تاريخ الوقف
١	ــــ	١٠٠٣هـ
٢	سليم أغا بن الوزير محمد باشا	١٠١٤هـ
٣	ــــ	١٠٢٤هـ
٤	الشيخ إبراهيم الملقب بالكاتب	١٠٣١هـ
٥	صالح بوشناق	١٠٤٤هـ
٦	ــــ	١٠٤٦هـ
٧	إبراهيم بن محمد السوسي	١٠٨٠هـ
٨	عباس آغا دار السعادة	١٠٨٠هـ
٩	عباس آغا دار السعادة	١٠٨٠هـ
١٠	حسن حيدر وزوجته خديج بنت علي بن حسن	١٠٨١هـ
١١	محمد الحسن	١٠٨٧هـ
١٢	حافظ عثمان	١٠٩٧هـ
١٣	مصطفى كدخدا عزبان	١١٥٨هـ
١٤	محمّد حج شريفة	١١٦٥هـ
١٥	جهان بانوا بنت قاسم دركزنلي	١١٧٣هـ
١٦	ــــ	١١٨٧هـ
١٧	عثمان بن محمّد الشنقيطي	١٢٠٣هـ
١٨	أسماء خاتون	١٢٠٧هـ
١٩	محمّد آغا رضاءالله	١٢٢٨هـ
٢٠	شريفة أمينة خانم سليمان آغا	١٢٣٨هـ
٢١	حسن حسني بك بن الصدر الأعظم السابق مصطفى نائلي باشا	١٢٥٢هـ
٢٢	ــــ	١٢٥٢هـ
٢٣	بوي أبادي السيد أحمد أفندي	١٢٥٤هـ
٢٤	شريف أزميرلي قاوقجي حاجي عثمان آغا	١٢٥٩هـ
٢٥	أحمد طلعت (معتوق المرحوم عبدالكريم بك)	١٢٧٧هـ
٢٦	فاطمة بنت المرحوم منصور بن دليم	١٢٧٨هـ
٢٧	أحمد طلعت	١٢٨٢هـ
٢٨	شريفة كاملة بنت شعراني زاده عبدالله شاكر أفندي	١٢٨٣هـ
٢٩	فاعل خير	١٢٩٣هـ
٣٠	ملا عبدالله هروي	١٢٩٣هـ
٣١	السيد أحمد اسبارته لي	١٣٠٠هـ

م	الاســـــم	تاريخ الوقف
٣٢	محمّد فخر الدين	١٣٠٤هـ
٣٣	—	١٣٠٩هـ
٣٤	محمّد عزت كشاف	١٣١٢هـ
٣٥	—	١٣١٢هـ
٣٦	خديجة كريمة مصطفى نائلي باشا	١٣٢٠هـ
٣٧	نصيب خانم	١٣٢١هـ
٣٨	—	١٣٢١هـ
٣٩	حاجي عبدالرحمن ومحمد بك وحافظ عمر أفندي وآخرون	١٣٢٣هـ
٤٠	دمير زاده الحاج محمّد البوردوري	١٣٢٥هـ
٤١	سليمان فائق أفندي	١٣٢٨هـ
٤٢	أبو رشيد	١٣٣٠هـ
٤٣	محمد على الزبادنه	١٣٣٠هـ
٤٤	محمد هاشم عبدالمؤمن (بواب باب النساء)	١٣٣٠هـ
٤٥	ابن المرحوم السيد عبدالله الفتوح التطواني	١٣٣٢هـ
٤٦	أخون حاجي بن يوسف أخون حاجي	١٣٣٣هـ
٤٧	علي بن يوسف بن مصطفى داغستاني	١٣٤١هـ
٤٨	—	١٣٥٢هـ
٤٩	أسماء خاتون	—
٥٠	الست بينا هانم بنت عبدالله	—
٥١	خديجة فاطمة	—
٥٢	خديجة بنت يعقوب خانم	—
٥٣	دولتلو محمّد علي باشا	—
٥٤	شريف الدين آغا	—
٥٥	شريفة أمينة بنده	—
٥٦	شيخ داده عثمان	—
٥٧	صالحة بنت حاجي عبدالكريم بك	—
٥٨	طه عبدالفتاح (تاجر الفحومات في مصر)	—
٥٩	عبدالله	—
٦٠	السيد عبدالله بن السيد محمّد غوث (ناظر الحرم النبوي)	—
٦١	منير علي شاه بن عبدالله (نيابة عن أخيه)	—
٦٢	ياور معتوقة والدة خديوي مصر	—

ونشير هنا إلى بعض الملاحظات المهمة التي أمكن استخلاصها على النحو التالي:

١- أن وقف المصاحف لم يكن مقصوراً على طبقة معينة من الناس؛ بل اشترك فيه فئات متعددة شملت الرجال والنساء والسلاطين والولاة والموظفين وعامة الناس.

٢- أن النسبة الأكثر من حيث الوقف هم الرجال حيث بلغوا (٤١) موقفاً في مقابل (١٥) خمس عشرة امرأة كان لهن وقفيات مصاحف.

٣- الغالبية من الموقفين ينفرد بوقف المصاحف بنفسه، في حين وجدت حالات كان الوقف فيها بالاشتراك بين اثنين أو أكثر، كما حصل بالنسبة لوقف حسن بن حيدر وزوجته خديج بنت علي بن حسن، حيث أوقفا مصحفاً في عام ١٠٨١هـ[١]. ومثل ذلك وقف حاجي عبدالرحمن ومحمد بك وحافظ عمر أفندي وآخرين حيث اشتركوا في وقف مصحف واحد[٢].

٤- وجدت حالة فردية لم يصرح فيها الموقف باسمه واكتفى بعبارة (فاعل خير)[٣].

٥- وجد ثلاثة أشخاص كل منهم أوقف مصحفين، وهم أحمد طلعت، وعباس آغا، وأسماء خاتون.

---

(١) مصحف محفوظ في مكتبة المصحف الشريف برقم ١٣٢١.

(٢) مصحف محفوظ في مكتبة المصحف الشريف برقم ٢٣.

(٣) مصحف محفوظ في مكتبة المصحف الشريف برقم ٥١.

ثالثاً: أركان الوقف وألفاظه وشروطه:

الركن هو ما كان داخلاً في قوام الشيء يتحقق ذلك الشيء بتحققه وينعدم بعدمه، وأركان الوقف أربعة:

١- الموقف الذي هو المالك.

٢- الموقوف عليه وهو المستفيد من الوقف.

٣- الموقوف وهو العين المملوكة للموقف.

٤- الصيغة التي تصدر من الموقف بمال موقوف على جهة موقوف عليها.

وألفاظ الوقف قسمان:

١- ألفاظ صريحة: هي: وقفت، وحبست، وسبلت، لعدم احتمال غيره، فمن أتى بصيغة منها صار وقفاً من غير انضمام أمر زائد إليها.

٢- ألفاظ كناية: كتصدقت، وحرمت، وأبدت. سميت كناية لأنها تحتمل معنى الوقف وغيره؛ فمن تلفظ بواحدة من هذه الألفاظ اشترط اقتران نية الوقف معه؛ أو اقتران أحد الألفاظ الصريحة؛ أو الباقي من ألفاظ الكناية معه، واقتران الألفاظ الصريحة، كأن يقول: تصدقت بكذا صدقة موقوفة أو محبسة أو مسبلة أو محرمة أو مؤبدة، واقتران لفظ الكناية بحكم الوقف، كأن يقول: تصدقت بكذا صدقة لا تباع ولا تورث[1].

---

(١) ابن قدامة، موفق الدين عبدالله بن أحمد (ت ٦٢٠ هـ)/ المغني- بيروت: دار الفكر ١٤٠٤هـ، ٦/ ٢١٢، والفوزان، صالح بن فوزان/ الملخص الفقهي ط٨ الدمام: دار ابن الجوزي، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ٢/ ١٥٩.

وبمراجعة الوقفيات المسجلة على المصاحف التي تمت دراستها في هذا البحث تبين أنها قد التزمت بأركان الوقف حيث إن الغالبية منها ذكر فيها اسم الموقف صراحة، كما أن الموقوف حدد أيضاً في نصوص الوقفيات، كما نص أيضاً على المستفيد من الوقف. أما نصوص الوقفيات فقد كتبت بعبارات مختلفة من حيث الطول والقصر والألفاظ مع التشابه من حيث المضمون، والاكتفاء أحياناً بتدوين كلمة (وقف لله تعالى) في أماكن متعددة من المصحف إما كتابة أو ختماً، وقد تفاوتت الألفاظ التي تم بها الوقف ما بين صريحة أو كناية أو الجمع بينهما أحياناً، ومن أمثلة ذلك:

(وقف لله تعالى)[1]، (وقفت وحبست وأرصدت الحاجة ياور هذا المصحف الشريف.. وقفاً مؤبداً مستمراً لا يباع ولا يوهب ولا يعار ولا يعطى لأحد..)[2]، (قد وقف هذا المصحف الشريف حسن حسني بك وقفاً صحيحاً بشرط ألا يباع ولا يرهن ولا يحبس)[3]، (أوقف لله تعالى وتصدق وتسبل بهذا المصحف الشريف السيد أحمد اسبارته لي وجعل مستقره المدينة المنورة وشرط الواقف أنه لا يغير ولا يخرج من محله ولا يشترى ولا يرهن ولا يبدل..)[4]، (أوقفت الحرمة جهان

---

(١) وقفية مسجلة على المصحف المحفوظ في مكتبة المصحف الشريف برقم ٢٨.

(٢) وقفية مسجلة على المصحف المحفوظ في مكتبة المصحف الشريف برقم ٣٠.

(٣) وقفية مسجلة على المصحف المحفوظ في مكتبة المصحف الشريف برقم ٢٢.

(٤) وقفية مسجلة على المصحف المحفوظ في مكتبة المصحف الشريف برقم ١٣.

بانوا بنت قاسم دركزنلي هذا المصحف الشريف على أولادها وأولاد أولادها وذرياتهم وأنسابهم وأعقابهم فيقرؤوا فيه من وجد منهم فإن انقرضوا ولم يبق منهم أحد فيرسل إلى المدينة المنورة.. وشرطت أن لا يباع ولا يوهب ولا يرهن..)[1]، وقد شهد على الوقفية ووقعها أربعة شهود، (وقف إبراهيم بن محمد السوسي هذا المصحف الشريف على رباط سيدنا عثمان رضي الله عنه في المدينة المنورة)[2]، (وقفت خديجة بنت يعقوب خانم هذا المصحف الشريف في المدينة المنورة على المدرسة المحمودية لا يباع ولا يرهن)[3].

ويتضح من خلال هذه الأمثلة الشروط التي اشترطها الموقفون في وقفياتهم.

رابعاً: المستفيدون من الوقفيات:

تضمنت نصوص الوقف المدونة على المصاحف تحديد المستفيدين من تلك المصاحف الموقوفة، ومن الموقفين من حدد الأطراف المستفيدة من وقفه على أولاده وأولاد أولاده وذرياتهم وأنسالهم وأعقابهم، ثم إذا انقرضوا يرسل إلى المدينة المنورة، وهذا من قبيل الوقف الذري الذي ينتقل بعد انقراض الذرية إلى الوقف الخيري كالحجرة النبوية في المسجد النبوي[4].

---

(١) وقفية مسجلة على المصحف المحفوظ في مكتبة المصحف الشريف برقم ٤٣.

(٢) وقفية مسجلة على المصحف المحفوظ في مكتبة المصحف الشريف برقم ١٤١٩.

(٣) وقفية مسجلة على المصحف المحفوظ في مكتبة المصحف الشريف برقم ١٧٦٠.

(٤) وقفية مسجلة على المصحف المحفوظ في مكتبة المصحف الشريف برقم ٤٣.

ومثل هذا النص الآتي: (قد وقفت هذا المصحف [الذي انتقل نظارته ومحافظته إليّ من أجدادي بشرط قراءتي ولكني صرت عاجزاً عنها لضعف بصري] وقفاً صحيحاً للروضة لا يبدل أصلاً بشرط ألا يباع ولا يرهن)[1].

ولكن الغالبية من المصاحف الموقوفة كانت توقف على جهات معينة في المدينة المنورة وهذه الجهات هي الروضة الشريفة بالمسجد النبوي، وخزانة الكتب بالمسجد النبوي، والمدرسة المحمودية بالمدينة المنورة، ورباط عثمان بن عفان رضي الله عنه، ومدرسة خواجة، ويوضح ذلك الجدول رقم (٩) التالي:

الجدول ذو الرقم (٩)

يوضح المستفيدين من المصاحف الموقوفة

م	المستفيد	العدد	النسبة المئوية
١	الروضة الشريفة	٢٩	٤١,٤٢٪
٢	المدرسة المحمودية	٨	١١,٤٢٪
٣	رباط عثمان بن عفان رضي الله عنه	٦	٨,٥٧٪
٤	خزانة الكتب بالحرم النبوي	١	١,٤٢٪
٥	مدرسة خواجة	١	١,٤٢٪
٦	غير محدد	٢٥	٣٥,٧١٪
	المجموع	٧٠	١٠٠٪

(١) وقفية مسجلة على المصحف المحفوظ في مكتبة المصحف الشريف برقم ٨٨٠.

المبحث السادس: النتائج والتوصيات

أولاً: النتائج :

١- تبين من الدراسة أن مكتبة المصحف الشريف يتوافر فيها عدد كبير من المصاحف المخطوطة التي كتبت عبر القرون الماضية توفِّي الفترة من القرن الخامس الهجري إلى القرن الرابع عشر الهجري، هذا إلى جانب تميز هذه المصاحف من حيث جودة الخط والتذهيب والزخرفة والتجليد.

٢- يشير الحصر البيليوجرافي في هذه الدراسة إلى أنه بلغ مجموع المصاحف المنسوخة أو الموقوفة في القرن الحادي عشر الهجري في مكتبة المصحف الشريف منذ عام ١٠٠١هـ وحتى ١١٠٠هـ سبعين مصحفاً.

٣- تكشف الدراسة أن هناك خمسة أنواع من الخطوط حظيت باهتمام نساخ المصاحف في فترة الدراسة، وهذه الخطوط هي: النسخ، والمغربي، والرقعة، والثلث، والكوفي.

٤- تشير الدراسة إلى تنوع الأحجام التي ظهرت بها المصاحف تبعاً لتنوع الخطوط، حيث إن أكبر مصحف شملته الدراسة كان مقاسه ٨٠ X ٥٠سم، بينما كان أصغر مصحف مقاسه ١١ X ٧سم.

٥- تبين الدراسة مدى العناية التي لقيتها المصاحف من حيث التذهيب والزخرفة حيث بلغت نسبة المصاحف المذهبة أكثر من ٧٥٪.

٦- تشير الدراسة كذلك إلى العناية بالمصاحف من حيث التجليد وزخرفتها في كثير من الأحيان.

٧- تبين من الدراسة وجود خمسة مصاحف توافر عليها بعض جوانب من التفسير، كما وجدت ستة مصاحف توافر عليها ترجمات لمعاني القرآن الكريم ،كما تبين أيضاً توافر بعض القراءات على أحد عشر مصحفاً ، كما ختمت أربعة عشر مصحفاً بدعاء ختم القرآن الكريم.

٨- لوحظ أن فترة الانتعاش الحقيقي لنسخ المصاحف في القرن الحادي عشر الهجري كانت خلال الفترة من عام ١٠٧١هـ إلى نهاية القرن المشار إليه إذ نسخ خلال هذه الفترة ثلاثة وأربعون مصحفاً.

٩- هناك ناسخان ينتميان إلى فئة عالية الإنتاج في نسخ المصاحف، هما: درويش مصطفى المولوي السرائي ، ودرويش علي.

١٠- تبين من الدراسة أن وقف المصاحف المنسوخة في القرن الحادي عشر الهجري امتد على مساحة زمنية تقدر بأربعة قرون بدءاً بالقرن المشار إليه وانتهاء بالقرن الرابع عشر الهجري.

١١- كشفت الدراسة عن أن وقف المصاحف لم يكن مقصوراً على فئة معينة من الناس ، بل اشترك فيه الرجال والنساء والسلاطين والولاة والموظفون وعامة الناس؛ كما أن النسبة الأكثر من حيث الوقف هم الرجال حيث بلغوا (٤١) موقفاً في مقابل خمس عشرة امرأة كان لهن وقفيات مصاحف.

١٢- تبين الدراسة أن هناك ثلاثة موقفين وقف كل منهم مصحفين، وهم أحمد طلعت، وأسماء خاتون، وعباس آغا دار السعادة.

ثانياً: التوصيات:

١- إجراء دراسات عن وقف المصاحف في مكتبة المصحف الشريف بمكتبة الملك عبد العزيز بالمدينة المنورة في فترات سابقة ولاحقة لفترة القرن الحادي عشر الهجري.

٢- إجراء دراسات عن وقف المصاحف في مكتبات المدينة المنورة وغيرها من مناطق المملكة العربية السعودية تأخذ في الاعتبار فترة زمنية معينة للتعرف على الاتجاهات الوقفية عبر العصور.

٣- إجراء دراسات على أماكن نسخ المصاحف نظراً لأهمية ذلك في توضيح الدور الذي قامت به الحواضر الإسلامية.

٤- إجراء دراسات مشابهة للتعريف بنساخ المصاحف والمخطوطات ودورهم في إثراء المكتبة الإسلامية، ومواكبة الحياة العلمية في المراكز الثقافية في فترات متعددة من الازدهار العلمي للأمة الإسلامية.

٥- دعوة أقسام المكتبات والمعلومات والوثائق في الجامعات السعودية لأن تكون تلك المصاحف موضوعات لبعض الأطروحات العلمية لدراسة أنواع الخطوط والورق والمداد المكتوب به والتذهيب والزخرفة والقراءات وترجمات معاني القرآن الكريم.

٦- ويرى الباحث أن الجامعات في العالم العربي يمكن أن تؤدي دوراً بارزاً في مساندة تلك الدراسات وذلك بتشجيع طلاب الدراسات العليا على مثل هذه البحوث واعتمادها في خطط الأقسام العلمية.

قائمة المصادر والمراجع

١- الأحمصي، محمد عبد الجواد / تصوير وتجميل الكتب العربية في الإسلام. القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٢م.

٢- أوغلي، أكمل الدين إحسان / الدولة العثمانية : تاريخ وحضارة ـ نقله إلى العربية: صالح سعداوي. إستانبول : مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية ، ١٩٩٩م ، ٢مج.

٣- ابن الجزري، محمد بن محمد (ت ٨٣٣هـ) / منجد المقرئين - القاهرة : المطابع الوطنية الإسلامية ، ١٣٥٠هـ.

٤- ابن الخطيب، محمد محمد عبداللطيف / الفرقان. القاهرة : المؤلف ، ١٣٦٧هـ١٩٤٨ / م.

٥- خليفة، شعبان عبد العزيز ومحمد عوض العايدي / الفهرسة والتصنيف للمكتبات.. الرياض: دار المريخ للنشر، (د.ت).

٦- الداني، عثمان بن سعيد / المقنع في رسم مصاحف الأمصار مع كتاب النقط ـ تحقيق محمد الصادق قمحاوي ـ القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية ، (د. ت) ، ص١٣.

٧- ديماند. م. س / الفنون الإسلامية -ترجمة أحمد محمد عيسى. ط٣- القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٢م.

٨- ربعة قرآنية من ٣٠ جزءاً محفوظة برقم ٣ في مكتبة المصحف الشريف بمكتبة الملك عبد العزيز بالمدينة المنورة.

٩- الزركشي ، محمد بن عبد الله (ت ٧٩٤هـ) / البرهان في علوم القرآن -تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم- القاهرة: دار إحياء الكتب العربية ، ١٣٧٦هـ / ١٩٥٧م.

١٠- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ) الإتقان في علوم القرآن -ط٣- القاهرة : مطبعة حجازي، ١٣٦٠هـ / ١٩٤١م.

١١- الصالح ، صبحي / مباحث في علوم القرآن – ط٣- بيروت : دار العلم للملايين ، ١٤٠٠هـ.

١٢- صقر، عبد البديع / التجويد وعلوم القرآن -ط٧- بيروت: المكتب الإسلامي ١٤٠٠هـ.

١٣- العبادي ، صادق / تاريخ تطور كتابة القرآن الكريم في بلاد فارس ـ مجلة الفيصل ـ ع٢٨٢ (ذو الحجة ١٤٢٠هـ / مارس ـ إبريل ٢٠٠٠م) ص١٠-١٥.

١٤- الفضلي، عبد الهادي / القراءات القرآنية : تاريخ وتعريف ـ جدة : دار المجمع العلمي ـ ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

١٥- الفوزان ، صالح الفوزان / الملخص الفقهي ـ ط٨ . الدمام : دار ابن الجوزي ، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م، ج ٢.

١٦- ابن قدامة، موفق الدين عبد الله بن أحمد (ت ٦٢٠هـ) / المغني ـ بيروت : دار الفكر ، ١٤٠٤هـ ، ج ٦.

١٧- القصيري، اعتماد / فن التجليد عند المسلمين، بغداد : المؤسسة العامة للآثار والتراث، ١٩٧٩م.

١٨- الكردي ، محمد طاهر / تاريخ الخط العربي وآدابه ـ ط٢ـ الرياض : الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

١٩- مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف / التقرير السنوي للمجمع لعام ١٤١٩هـ ـ المدينة المنورة : المجمع ، ١٤١٩هـ.

٢٠- مرزوق ، محمد عبد العزيز / المصحف الشريف، دراسة تاريخية وفنية ـ القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥م.

٢١- مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية / الخط العربي من خلال المخطوطات ـ الرياض : المركز ١٤٠٦هـ.

٢٢- المزيني، عبد الرحمن بن سليمان / مكتبة الملك عبد العزيز بين الماضي والحاضر ـ المدينة المنورة ـ المكتبة ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.

٢٣- المصاحف المحفوظة في مكتبة المصحف الشريف بمكتبة الملك عبد العزيز بالمدينة المنورة بالأرقام من ١٣ إلى ٦١ ، وعددها ٤٩ مصحفاً. المصحف رقم ٨٨٠، والمصاحف المحفوظة بالأرقام من ١٤٠٩ إلى ١٤٢٣ وعددها خمسة عشر مصحفاً ، والمصحف رقم ١٥٤٠، ورقم ١٧٦٠، ورقم ١٧٨١، ورقم ١٨٧٢ .

٢٤- مكتبة الملك عبد العزيز بالمدينة المنورة / فهرس مكتبة المصحف الشريف، ١٤٠٥هـ (مخطوط).

٢٥- المنيف، عبد الله بن محمد / دراسة فنية لمصحف مبكر ــ الرياض : المؤلف ، ١٤١٨هـ.

٢٦- هارون ، عبد السلام / تحقيق النصوص ونشرها- القاهرة : المؤلف ، ١٩٦٥م.

٢٧- هولدين، دنكن / أغلفة المخطوطات العربية في متحف فكتوريا وألبرت " لندن " مجلة فنون عربية، ٢٨-١ ،ص ٦١ .

٢٨- الهيئة العليا لتطوير مدينة الرياض / المختار من إِبداعات الخط العربي ــ الرياض ــ الهيئة ، ١٤٢٠هـ.

٢٩- وزارة الحج والأوقاف / مكتبة الملك عبد العزيز بالمدينة المنورة - الرياض : الوزارة ١٤٠٣هـ.

الفهرس

الموضوع الرابع :

عناية المسلمين باللغة العربية خدمةً للقرآن الكريم

عناية المسلمين باللغة العربية

خدمة للقرآن الكريم

إعداد

أ. د. أحمد بن محمد الخراط

الأستاذ بكلية الدعوة

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

بالمدينة المنورة

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم وبعد :

فقد أنعم الله عز وجل على الإنسان بنِعَمٍ لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى ، ومن أَجَلِّ هذه النِّعم وأعظمها هذا الكتابُ العزيز ، يعلِّمه ويرشده ، واصطفى له سيد البشر لأداء الرسالة المنوطة به ، وقد احتفل المسلمون بهذا الوحي الكريم أيَّما احتفال ، ورأَوا مِنْ واجبهم اللازم خدمته ، والتسابق إلى بيان كنوزه ودلالاته ، وكان مِنْ فريق العمل الذي نشط لدَرْسه وتدبُّره ثلة من الأولين ، عُنُوا بلغته ، فلم يألوا جهداً في رعايتها وصيانتها ، وما دفعهم إلى ذلك إلا رغبتهم في خدمة التنزيل العزيز ، والتشرُّف بأن يكونوا إلى جانب مأدبة الله .

وبحثنا هذا غيض من فيض ، يلقي الأضواء على طرف يسير من هذه الخدمة ، ولولا الإيجاز الذي اضطررنا إليه لاحتمل زيادة الكثير من الصفحات .

وقد اعتمدنا في كتابته المنهج الوصفي ، واجتهدنا في توثيق موارده، واخترنا مصادره من الأصيل السالف ، والنظر المعاصر، بحسب ما يلزم سياقه ، والتزمنا بعنوان كل مبحث، فلم يكن بحثنا في عناية المسلمين بعلوم اللغة العربية على نحو عام، وإنما قَيَّدْنا هذه العناية

بخدمة القرآن الكريم. وقد جاء البحث في سبعة مباحث على النحو التالي:

المبحث الأول : عناية المسلمين باللغة خدمة للقرآن الكريم .

المبحث الثاني : عناية المسلمين بالنحو خدمة للقرآن الكريم .

المبحث الثالث : عناية المسلمين بالبلاغة خدمة للقرآن الكريم .

المبحث الرابع : عناية المسلمين بالشعر خدمة للقرآن الكريم .

المبحث الخامس : عناية المسلمين بتوجيه القراءات في ضوء العربية خدمة للقرآن الكريم .

المبحث السادس: عناية المسلمين بضبط المصحف ورسمه خدمة للقرآن الكريم .

المبحث السابع : عناية المسلمين بعلم الأصوات خدمة للقرآن الكريم .

أسأل الله سبحانه التوفيق والسداد ، والحمد لله رب العالمين .

الباحث

المبحث الأول
عناية المسلمين باللغة خدمةً للقرآن الكريم

حازت العربية شرفاً عظيماً ؛ إذ نزل القرآن الكريم بلسانها المبين ، وقد اصطفاها الله سبحانه لوحيه مِنْ بين لغات البشر ، وفي إنزال القرآن الكريم باللغة العربية مَرْتَبَةٌ رفيعة لعِلْم العربية ، ووجه الدلالة [1] أنه تعالى أخبر أنه أنزله عربياً في سياق التمدُّح ، والثناء على الكتاب بأنه مبين لم يتضمن لَبْساً ، عزيزٌ لا يأتيه الباطل مِنْ بين يديه ولا مِنْ خلفه، وذلك يدلُّ دلالة ظاهرة على شرف اللغة التي أُنْزل بها .

وقد عُنِي السلف بالعربية ، وأقبلوا على خدمتها على نحوٍ شامل ، وأيقنوا أن دراستها والتأليف فيها ضربٌ من ضروب العبادة ، يتقرَّبون به إلى الله[2] .

وقد استحقَّتْ خدمة العلماء للغة القرآن الوقوف على أوجه هذه الخدمة وفروعها المختلفة ، ولا يَسَعُنا في هذا البحث الموجز إلا أن نشير إلى بعضها باختصار ، فمن ذلك :

١ – التأليف في « لغات القبائل الواردة في القرآن » . اجتهد علماء العربية في بيان أصول الألفاظ القرآنية ، وعَزَوها إلى قبائلها

---

(١) الصعقة الغضبية في الرد على منكري العربية للطوفي ٢٣٦ .

(٢) لغة القرآن للدكتور إبراهيم أبو عباة ١٦ .

الأصلية ، وبَيَّنوا المعنى المراد باللفظ القرآني لدى هذه القبيلة ؛ وذلك لأن القرآن الكريم نزل بلغة قريش التي استقَتْ مِنْ صفوة لغات العرب ما راقَها .

ومن أمثلة ذلك ما ورد في كتاب أبي عبيد القاسم بن سلام «لغات القبائل»[1] : «رَغَداً» من قوله تعالى : ﴿ ... وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا ... ﴾ (البقرة: ٣٥) يعني الخِصْب بلغة طيئ ، و «الصاعقة» مِنْ قوله تعالى : ﴿ ... فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ ... ﴾ (البقرة: ٥٥) يعني المَوْتة بلغة عُمان، و «خاسئين» من قوله تعالى : ﴿ ... كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ (البقرة: ٦٥) يعني صاغرين بلغة كنانة ، و «وسَطاً» من قوله تعالى : ﴿ ... جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ... ﴾ (البقرة: ١٤٣) يعني عَدْلاً بلغة قريش .

وقد أفاد المفسرون كثيراً من معرفة لغات العرب الواردة في القرآن الكريم ، واستندوا إليها في تفسير كثير من الآيات الكريمة ، وحدث بينهم مناقشات واختلافات في اعتماد معنى الآية المشهور ، أو الاتجاه إلى تفسيرها في ضوء لغات العرب . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ ... أَفَلَمْ يَايْئَسِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ... ﴾ (الرعد: ٣١) فهل اليأس في الآية على بابه وهو قطع الطمع عن الشيء والقنوط منه؟ قال بعضهم : هو هنا على بابه ، والمعنى : أفلم يَيْئَسِ الذين آمنوا من إيمان الكفار من قريش ، وذلك أنَّهم لَمّا سألوا هذه الآيات طمعوا في

---

(١) لغات القبائل ٤٦ .

إِيمانهم ، وطلبوا نزولَ هذه الآيات ليؤمِنَ الكفار، وعَلِم الله أنهم لا يؤمنون فقال : أفلم يَيْئَسوا من إِيمانهم . ولكن فريقاً آخر من أهل التفسير ذهبوا إِلى غير ذلك من معنى اليأس فقالوا : هو هنا بمعنى عَلِمَ وتبيَّن . قال القاسم بن معن – وهو من ثقات الكوفيين – : « هي لغة هوازن » . وقال ابن الكلبي : « هي لغة حَيّ من النخع » ومنه قول سُحَيْم :

أقول لهم بالشِّعْبِ إِذ يَأْسِرونني   ألم تَيْئَسوا أني ابن فارسِ زَهْدَم

ويدلُّ عليه قراءةُ عليّ وابن عباس وآخرين « أولم يتبيَّن » (١) .

وهذا العَزْوُ إِلى لهجات القبائل في التفسير باب واسع في مصنفات التفسير وإِعراب القرآن ، أفاد منه العلماء كثيراً في إِجلاء معنى طائفة من الآيات ، وبيَّنوا المزيد من أوجه دلالاتها .ومن الكتب التي وصلتنا في هذا الجانب : « لغات القرآن » لكلٍ من أبي عبيد ، والوزَّان ، وأبي حيان ، وابن حسنون .

٢ – وأثرُ دراسة ألفاظ القرآن في كتب « الأضداد » واضح ، ومن هذه المصنفات كتاب أبي الطيب اللغوي ، وكتاب قطرب ، وكتاب ابن الأنباري . وهي تورد المفردة اللغوية ، وتنصُّ على استعمالها في القرآن والحديث والشواهد الفصيحة من الشعر وأقوال العرب ؛ وذلك لأنَّ بعض ألفاظ العربية تُنْبئ عن المعنى وضده في الكلمة نفسها . وقد

---

(١) الدر المصون ٧ / ٥١–٥٣ .

تَصَدَّتْ هذه الدراسات لبحث مدلول اللفظ المفرد وصلته بالسياق ، ومدى اختلاف معناه باختلاف تركيبه في الجملة . يقول الدكتور محمد زغلول سلام [1] : « وكان حافز العلماء في الاجتهاد والبحث القرآنَ ؛ ذلك لأنَّ المفسِّرين والعلماء الذين شُغِلوا بدراسة أسلوبه قد اعترضَتْهم بعض العقبات ، حين اصطدموا بألفاظٍ قد يُفْهم تكرارها في مناسبات مختلفة في القرآن أنها متضادَّة أو مختلفة في معانيها ، وذلك بالقياس إلى الشاهد الشعري ، ممَّا دعا بعض الطاعنين ومَنْ يثير الشكوك إلى القول بالتناقض في أسلوب القرآن » .

ويُصَرِّح ابن الأنباري في مقدمة كتابه « الأضداد » بالدافع الرئيس الذي دفعه إلى تأليف كتابه ، فهو خدمة تفسير القرآن ومحاولة الدفاع عمَّا وُجِّه إلى لغته وأسلوبه من التناقض والإحالة ، ويقول : « هذا كتابُ ذِكْرِ الحروف التي تُوقعها العرب على المعاني المتضادَّة ، فيكون الحرف منها مؤدِّياً عن معنيين مختلفين ، ويظنُّ أهل البدع والزيغ والإزراء بالعرب أن ذلك كان منهم نقصاً مِنْ حكمتهم ، وقلَّة بلاغتهم »[2] . وقد عرض ابن الأنباري كثيراً من الألفاظ التي جاءت في القرآن ، وعدَّها بعض العلماء مِنْ قبله من الأضداد ، وهم – مِنْ وجهة نظره – قد أخطؤوا فيها التأويل ، ومذهبه في كثير من كلمات

(١) أثر القرآن في تطور النقد العربي ١٦٥ .

(٢) الأضداد ١ .

الأضداد أن الكلمة لم تُوْضَعْ في أول الأمر للمعنيَيْن المتضادَّين ، وإنما وُضِعت لأحدهما ، وتراه يميل في كتابه إلى قول بعض العلماء : «إذا وقع الحرف على معنيين متضادَّين فالأصل لمعنى واحد ، ثم تداخل الاثنان على جهة الاتساع » [1] ، وقد يكتفي بعرض الرأيين في تفسير الآية كقوله [2] : « والنِّدُّ يقع على معنيين متضادَّين . يقال : فلانٌ نِدُّ فلان إذا كان ضدَّه ، وفلان نِدُّه إذا كان مثلَه . وفسَّر الناس قوله تعالى: ﴿ ... فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ٢٢) على جهتين . قال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس : معناه فلا تجعلوا لله أعدالاً ، فالأَعْدال جمع عِدْل ، والعِدْل المثل . وقال أبو العباس عن الأثرم عن أبي عبيدة : فلا تجعلوا لله أنداداً أي : أضداداً» .

أما قطرب فله منهج آخر ، وهو التوسُّع في ألفاظ الأضداد وقَبول الكثير منها . ومن أمثلته : «المُفْرَطُ» المُقدَّم والمؤخَّر ، نحو قوله تعالى : ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ... ﴾ (النحل: ٦٢) . ويجوز أن يكون أنهم مُقَدَّمون إليها جميعاً ، ويجوز أنهم مُؤَخَّرون مُباعَدون متروكون من الثواب » .

وهكذا ساهم هذا النوع من الخدمة اللغوية في إجلاء معنى كثير من الآيات ، وأثار بين علماء العربية والتفسير مناقشات أفادت منها المكتبة

---

(١) الأضداد ٨ .

(٢) الأضداد ٢٣ .

القرآنية واللغوية على السواء .

٣ – واجتهد علماء العربية من السلف في بيان « المشترك اللغوي » وعَدُّوه خصيصةً من خصائص العربية ، وعاملاً من عوامل تنميتها وثرائها . وقد أشار العلماء إلى شواهده والمعاني التي تدور حول لفظه(١) . والمشترك اللفظي هو ما اتحدت صورته واختلف معناه ، على عكس المترادف ، أو هو اللفظ الواحد الدالُّ على معنيين مختلفين فأكثر(٢) . يقول الدكتور توفيق شاهين (٣) : « وتنوُّع معناه أتى مِنْ تنوع استعماله » ويضرب مثالاً على ذلك بلفظة « الأُمَّة » فهي بمعنى الواحد الصالح الذي يُؤْتَمُّ به ، ويكون علَماً في الخير كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا ... ﴾ (النحل : ١٢٠) وهو بمعنى الجماعة كقوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ ... ﴾ (القصص : ٢٣) وبمعنى الحين من الزمان ، نحو قوله تعالى : ﴿ ... وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ... ﴾ (يوسف : ٤٥) ، وبمعنى الملَّة والدين ، نحو قوله تعالى : ﴿ ... إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ ... ﴾ (الزخرف : ٢٣) ، وبمعنى الجنس نحو قوله تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ... ﴾ (الأنعام : ٣٨) .

---

(١) المشترك اللغوي للدكتور توفيق شاهين ١٥ .

(٢) انظر : المزهر ١ / ٣٦٩ .

(٣) المشترك اللغوي ٢٨ .

وقد أثبت هذا المشتركَ ابنُ فارس في كتابه « الصاحبي »[1] ومثَّل له بالعَين ، وسيبويه في كتابه [2] ، وأشار إلى أن مِنْ كلام العرب اتفاق اللفظين واختلاف المعنيين ، نحو قولك : « وَجَدْتُ عليه » من المَوْجِدة « وجَدْت » إذا أرَدْتَ وجدان الضَّالَّة .

وقد خدم العلماء الألفاظ القرآنية التي تسير على هذا القبيل .

ويلخص الدكتور رمضان عبد التواب عوامل نشأة المشترك اللفظي بالاستعمال المجازي ، ولم يهتمَّ أصحاب المعاجم بالتفرقة بين المعاني الحقيقية والمجازية للكلمات ، والعامل الآخر في نشأته اللهجاتُ ؛ وذلك لأنَّ بعض هذه المعاني المجازية نشأ في بيئات مختلفة ، ويُضاف إلى هذه العوامل اقتراض الألفاظ من اللغات المختلفة ، وينتهي إلى القول بأن المشترك اللفظي لا وجود له في واقع الأمر إلا في معجم لغةٍ من اللغات ، أمَّا نصوص هذه اللغة واستعمالاتها فلا وجود إلا لمعنى واحد من معاني هذا المشترك اللفظي[3] .

٤ – وثمة خدمة جليلة خاصة بمعاني المفردات القرآنية قام بها بعض علماء السلف من المَعْنيِّين بعلوم العربية ، ومن ذلك كتاب « المفردات » للراغب الأصبهاني ، وكتاب « عمدة الحفاظ في تفسير أشرف

---

(١) الصاحبي ١١٤ .

(٢) الكتاب ١ / ٢٤ .

(٣) فصول في فقه العربية ٣٣٤ .

الألفـاظ » للسـمين الحلبي . ومنهج هذا الضـرب من المصنفـات هو ترتيب موادِّ الكتاب على منهج أوائل الحروف بعد تجريدها من الحروف الزائدة ، كما هو الحال في معجم « أساس البلاغة » للزمخشري ، ثم تُذْكَرُ المعاني اللغوية الواردة داخل المادة ، ويُستشهد عليها بآيات من القرآن الكريم .

وتُعْنَى هذه المصنفات بالتعريفات اللغوية ، وتُعَدُّ مرجعاً أصيلاً في ذلك ، وتَدْعم المعاني التي توردها بالشعر والحديث وأقوال العرب .

ومن ذلك قول الراغب [1] « الحدوث كون الشيء بعد أن لم يكن، عَرَضاً كان ذلك أو جوهراً ، وإحداثهُ إيجاده . قال تعالى : ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ ... ﴾ (الأنبياء : ٢) ، ويقال لكل ما قَرُبَ عهدُه : مُحْدَث ، فعلاً كان أو مقالاً ، قال تعالى : ﴿ ... حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ (الكهف : ٧٠) وكل كلام يبلغ الإنسان من جهة السمع أو الوحي في يقظته أو منامه يقال له : حديث » . وفائدة هذا الضرب من المؤلفات جمع المعاني الواردة للمادة اللغوية الواحدة في كتاب الله ، سواء أكانت اللفظة القرآنية اسماً جامداً أم مشتقاً أم فعلاً ، فيمر المصنف بجميع هذه المعاني ، ويُمَهِّد لها بمعانيها وتعريفاتها .

٥ – استخدم القرآن الكريم طائفة من الألفاظ « الْمُعَرَّبة » ، وقد تصدَّى علماء العربية لها ، وردُّوها إلى أصولها . وقد قرر اللغويون أنه

---

(١) المفردات ١١٠ .

من المتعذِّر أَنْ تظلَّ لغةٌ بِمَأْمَنٍ من الاحتكاك بلغة أخرى ، ويعني هذا اقتراض هذه اللغات بعضها من بعض ، وتأثير إِحداها في الأخرى ، وهذا ما حدث للُّغة العربية مع جاراتها من اللغات [1] ، ويُطلق على مثل هذه الكلمات التي أخذتها العربية من اللغات المجاورة مصطلح « المعرَّب » ، ويعني هذا أن تلك الكلمات المستعارة في العربية لم تَبْقَ على حالها تماماً ، كَما كانت في لغاتها ، وإِنما طوَّعها العرب لمنهج لغتهم في أصواتها وبنيتها ، وقد طال الأمد على كثير من هذه الألفاظ في الجاهلية ، وأَلِفَ الناس استعمالها ، وصارت جزءاً من لغتهم ، وجاء القرآن فأنزله الله بهذه اللغة العربية التي أصبح بعض هذا المُعَرَّب من مقوِّماتها ، فجاء فيه شيء من تلك الألفاظ التي عَرَّبَها القوم من لغات الأمم المجاورة [2] .

ومن المصنفات المشهورة في هذا الميدان « المُعَرَّب » للجواليقي .

يقول في مقدمته[3]: « هذا كتاب نذكر فيه ما تكلَّمَتْ به العرب من الكلام الأعجمي ، ونطق به القرآن المجيد ، وورد في أخبار الرسول ﷺ والصحابة والتابعين وذكرَتْه العرب في أشعارها وأخبارها ؛ ليُعْرَفَ الدخيل من الصريح ، ففي معرفة ذلك فائدة جليلة : وهي أن يَحْتَرِس

(١) فصول في فقه اللغة ٣٥٩ .

(٢) فصول في فقه اللغة ٣٥٩ .

(٣) المعرب ٩١ .

المشتقُّ ، فلا يَجْعل شيئاً من لغة العرب لشيء من لغة العجم » .

ويتحدث الجواليقي عن المذهب الصحيح الذي يراه في مثل هذه الألفاظ فيقول : « وذلك أن هذه الحروف بغير لسان العرب في الأصل فقالوا أولئك على الأصل ، ثم لفظت به العرب بألسنتها ، فعرَّبَته فصار عربياً بتعريبها إياه ، فهي عربية في الحال أعجمية الأصل »[1]. ونحن هنا لسنا بصدد تحقيق القول في قبول نظرية المعرَّب أو نفيها عن القرآن الكريم ، وغرضنا أن نشير إلى ضرب من الخدمة اللغوية التي نهض لها علماء العربية في سبيل لغة القرآن ، وتحليل أصولها .

ومن أمثلة ذلك قول صاحب « المُعَرَّب »[2] : « وإبليس ليس بعربي ، وإن وافق « أَبْلَس الرجلُ » إذا انقطعَتْ حُجَّتُهُ ، إذ لو كان منه لصُرِفَ.

ومنهم مَنْ يقول : هو عربي ، ويجعل اشتقاقه مِنْ أبلس يُبْلس ، أي : يئس ، فكأنه أَبْلَس مِنْ رحمة الله أي : يئس منها ، والقول هو الأول » .

٦ – وبعض دراسات اللغويين اختَصَّ « بغريب القرآن » ؛ وذلك لأن القرآن قدَّم للعرب ثروة لغوية واسعة ، فاختلف الناس في مستوى أفهامهم لهذه الثروة ، ممَّا جعل اللغويين والمفسرين يعكفون على دراسة الغريب لبيان معانيه ، والاستشهاد عليه بشعر العرب وأقوالهم.

---

(١) المعرب ٩٢ .

(٢) المعرب ١٢٢ .

ومن ذلك كتاب « تفسير غريب القرآن » لابن قتيبة ، حيث يقول في مقدمته : « وكتابنا هذا مُسْتَنْبَط من كتب المفسرين وكتب أصحاب اللغة العالمين ، لم نخرج فيه عن مذاهبهم ، ولا تكلَّفْنا في شيء منه بآرائنا غيرَ معانيهم ، بعد اختيارنا في الحرف أَولَى الأقاويل في اللغة وأشبهها بقصة الآية »[1] .

ويرى الدارسون أن القرآن سبب ظهور علم الغريب بمفهومه العام، وما جرَّ إليه من حركة جمع الشعر والنوادر، وما تبع ذلك من رحلات علمية نشطة إلى البوادي[2]. ومن الكتب التي وصلَتْنَا في هذا الحقل: كتاب « الغريبَيْن » : غريب القرآن وغريب الحديث لأبي عبيد الهروي، و« بهجة الأريب في بيان ما في كتاب الله العزيز من الغريب » للتركماني، و« تذكرة الأريب في تفسير الغريب » لابن الجوزي. وقد خَدَمَتْ هذه المصنفات كتاب الله بأنها اختَصَّتْ بما يراه أصحابها داخلاً تحت مصطلح الغريب، فيمضون في شرحه وبيان آراء العلماء في دلالته، وقد كان في مصنفات الغريب مادة ذات شأن أفادت منها كتب التفسير عبر القرون؛ وذلك لأنَّ المفسِّر لا بد أن يبدأ بالمعنى اللغوي للمفردة القرآنية قبل الشروع في استنباط الأحكام منها.

ومن ذلك ما قاله ابن قتيبة[3]: « قوله : ﴿ ... وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ ... ﴾

---

(١) تفسير غريب القرآن ٤ .

(٢) المفصل في تاريخ النحو العربي ١٧ .

(٣) تفسير غريب القرآن ٦٩ .

(البقرة : ١٧٣) أي : ما ذُبح لغير الله ، وإنما قيل ذلك لأنه يُذْكر عند ذبحه غيرُ اسم الله فيظهر ذلك ، أو يرفع الصوت به ، وإهلال الحج منه، إنما هو إيجابه بالتلبية . واستهلال الصبي منه إذا وُلِدَ ، أي صوته بالبكاء » .

٧ – وثمة دراسات في « الفروق اللغوية » أفاد منها المفسرون كثيراً، واختلفَتْ وجهات نظرهم في توجيه كثير من الآيات القرآنية . ومن هذه الدراسات « كتاب الفروق في اللغة » لأبي هلال العسكري ، يقول في مقدمته : « وجعلت كلامي فيه على ما يُعْرض منه في كتاب الله وما يجري في ألفاظ الفصحاء والمتكلمين وسائر محاورات الناس »[١] ، ومن أمثلته في كتابه[٢] : « الفرق بين الهداية والإرشاد أن الإرشاد إلى الشيء هو التطريقُ إليه والتبيين له ، والهداية هي التمكُّن من الوصول إليه، وقد جاءت الهداية للمهتدي في قوله تعالى : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ (الفاتحة : ٦)، فذكر أنهم دَعَوا بالهداية وهم مُهْتدون لامَحالةَ، ولم يَجئ مثل ذلك في الإرشاد، ويقال أيضاً : هداه إلى المكروه ، كما قال تعالى : ﴿ ... فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ (الصافات : ٢٣) .

وقد ذهب جماعة من العلماء إلى وجود الترادف في العربية وقالوا :

---

(١) الفروق ٢ .

(٢) الفروق ٢٠٣ .

لا معنى لإقامة البرهان على جوازه بعد تحقُّق وقوعه ، وإنكارُ الترادف جاء من تَعَسُّفات الاشتقاقيين ، وهذا مذهب كثير من العلماء كأبي زيد والأصمعي وابن خالويه . وذهب آخرون إلى إنكار الترادف التام بين الألفاظ وأنَّ كلَّ ما يلوح باديَ الرأي أنه من المترادفات إنما هو في حقيقته من المتباينات ، على اختلافٍ في قَدْر هذا التباين ووضوحه[1] . ومثال تأثير الفروق اللغوية في تفسير القرآن ما قاله الطبري في تفسير قوله تعالى : ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ (التوبة : ٧٨) ، فقد فسَّر الطبري السِّرَّ : بأنه هو ما يُسِرُّونه في أنفسهم من الكفر بالله ورسوله ، والنجوى : ما يتناجَوْن به بينهم من الطعن في الإسلام وعَيْبهم لأهله »[2] وهذا خلاف ما يقول به بعضهم : مِنْ أن السر والنجوى مترادفان بمعنى واحد . فهذا ضرب جديد من الخدمة اللغوية عني به السلف ، وكان له أثر في فهم كثير من الآيات ، ودلالة ألفاظها .

٨ – وكتب « المذكر والمؤنث » رافد من الروافد اللغوية التي خدمت مفردات القرآن الكريم بتصنيفها حسب استعمال العرب لها مذكرةً أو مؤنثة ، وقد حفلت هذه المؤلفات بآيات القرآن الكريم ؛ لتكون شاهداً على الحكم الذي ذكرَتْه . وقد عَدَّ الأنباري في كتابه « المذكر والمؤنث »

---

(١) الفروق اللغوية وأثرها في تفسير القرآن ٨٢ .

(٢) تفسير الطبري ١٠ / ١٣٤ .

هذا الضرب من التأليف «مِنْ تمام معرفة النحو والإعراب ؛ لأن مَنْ ذَكَّر مؤنثاً ، أو أنَّث مذكراً ، كان العيب لازماً له ، كلزومه مَنْ نصب مرفوعاً ، أو خفض منصوباً ، أو نصب مخفوضاً»[١] .

ومن أمثلة ذلك قول الأنباري[٢] : «والنفس إذا أردت بها الإنسان بعينه مذكرٌ ، وإن كان لفظه لفظ مؤنث ، وتجمع ثلاثة أنفس على معنى ثلاثة أشخاص ، أنشد الفراء :

ثلاثةُ أنفسٍ وثلاثُ ذَوْدٍ لقد جار الزمانُ على عيالي

فحمله على معنى ثلاثة أشخاص ، والنفس إذا أريد بها الروح فهي مؤنثة لاغير ، وتصغيرها نُفَيْسة ، قال تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ . . .﴾ (الأعراف : ١٨٩) .

ومن أشهر كتب هذا الضرب من المؤلفات كتاب ابن الأنباري ، وكتاب المبرد ، وكتاب الفراء . وقد تكون ثمة مفردة قرآنية تحتمل التأنيث والتذكير ، ومن ذلك قول الفراء[٣] : «السَّبيل يُؤَنَّث ويُذَكَّر ، قد جاء بذلك التنزيل ، قال تعالى : ﴿ . . . هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ . . .﴾ (يوسف : ١٠٨) وقال عز وجل : ﴿ . . . وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا . . .﴾ (الأعراف : ١٤٦) .

---

(١) المذكر والمؤنث ٨٧ .

(٢) المذكر والمؤنث ٣٠٦ .

(٣) المذكر والمؤنث للفراء ٨٧ .

٩ – وثمة مصنفات تتصل بعلوم العربية اتصالاً وثيقاً ، وتختص بمواضع « القطع والائتناف في القرآن الكريم » ، وهو فنٌّ يساعد على فهم معاني القرآن ، وتدبُّر آياته . قال الزركشي[١] : « وهو فن جليل، وبه يعرف كيف أداء القرآن ، ويترتب على ذلك فوائد كثيرة واستنباطات غزيرة ، وبه تتبين معاني الآيات » .

والقطع : هو قطع الكلمة عمَّا بعدها وجوباً أو جوازاً ، وحدَّد العلماء للمصطلحات المستعملة مواضع ، ومن هذه المصطلحات[٢] : التامُّ والحسن والكافي والصالح والجيد والبيان والقبيح ، فمواضع القطع والائتناف مرتبطة بالمعنى والحكم الإعرابي . ومن أشهر كتب هذا الفن كتاب النحاس ، إذ طبَّق قواعد العلم على القرآن مرتبة بحسب السور. يقول في المقدمة[٣] : « فينبغي لقارئ القرآن إذا قرأ أن يتفهم ما يقرؤه، ويشغل قلبه به ، ويتفقَّد القطع والائتناف ، ويحرص على أن يُفْهِم المستمعين في الصلاة وغيرها ، وأن يكون وَقْفُه عند كلام مُسْتغن أو شبيه ، وأن يكون ابتداؤه حسناً ، ولا يقف على مثل ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ . . . ﴾ (الأنعام : ٣٦) لأنَّ الواقف ههنا قد أشرك بين المستمعين وبين الموتى ، والموتى لا يسمعون ولا يستجيبون، وإنما أخبر عنهم أنهم يُبعثون » .

---

(١) البرهان ١ / ٣٤٢ .

(٢) القطع والائتناف للنحاس ١١ .

(٣) القطع والائتناف ٩٧ .

ومن المصنفات التي وصلَتْنا في هذا الباب «إِيضاح الوقف والابتداء» للأنباري، و«المكتفى في الوقف والابتدا» لأبي عمرو الداني، و«منار الهدى في بيان الوقف والابتدا» للأشموني.

١٠ - وبعض هذه الدراسات المتصلة بعلوم العربية انصبَّ على «مشكل القرآن»، وكان الدافع إِليها الحِرْصَ على لغة القرآن، وردَّ المطاعن والشكوك التي أُثيرت حولها[1]. ومن أبرز الكتب في هذا الجانب «تأويل مشكل القرآن» لابن قتيبة، وقد حدَّثنا عن خدمته للتنزيل العزيز بقوله[2]: «وقد اعترض كتابَ الله بالطعن مُلْحدون، ولَغَوْا فيه وهجروا، واتَّبعوا ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، بأفهامٍ كليلة، وأبصار عليلة، ونظر مدخول، فحرَّفوا الكلام عن مواضعه، وعدلوه عن سبله، ثم قَضَوا عليه بالتناقض والاستحالة واللحن، وفساد النظم والاختلاف... فأحبَبْتُ أن أَنْضَحَ عن كتاب الله، وأرمي مِنْ ورائه بالحجج النيرة والبراهين البيِّنة، وأكشف للناس ما يَلْبِسون».

وقد بدأ ابن قتيبة موضوعات كتابه بالحكاية عن الطاعنين والردِّ عليهم في وجوه القراءات، وساق زعمهم في وجود اللحن في القرآن والتناقض والاختلاف والمتشابه، وتكرار الكلام والزيادة فيه، ومخالفة

---

(١) أثر القرآن في تطور النقد العربي ١١٤.

(٢) تأويل مشكل القرآن ٢٢.

ظاهر اللفظ معناه ، وعقد باباً سَمَّاه « تأويل الحروف التي ادُّعي على القرآن بها الاستحالة وفساد النظم » . ومن أمثلة ما عرضه قولُه : « فأما ما نحلوه من التناقض في مثل قوله تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾ (الرحمن : ٣٩) ، وهو يقول في موضع آخر : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (الحجر : ٩٢ ، ٩٣) فالجواب في ذلك أن يوم القيامة يكون كما قال تعالى : ﴿ ... مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ (المعارج : ٤) ففي مثل هذا اليوم يُسْألون ، وفيه لايُسْألون ؛ لأنهم حين يُعرضون يُوقفون على الذنوب ويُحاسَبون ، فإذا انتهت المسألة ووجبت الحجة ﴿ ... ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴾ (الرحمن : ٣٧) وانقطع الكلام وذهب الخصام »[1] .

ويعد باب « تفسير حروف المعاني »[2] من مشكل ابن قتيبة مرجعاً رئيساً في أدوات العربية ، حيث بيَّن فيه استعمال الحرف مكان حرف آخر في القرآن الكريم ، وكان يرفد حديثه بشواهد من الشعر العربي الفصيح ، وكان لدراسته أكبر الأثر في توجيه حروف المعاني في القرآن، وقد ساعده على ذلك تمكُّنه من ناحية العربية ، واطلاعه الواسع على لغة العرب .

١١ - وأسهمت « معاجم اللغة » المنهجية في بيان المعاني المحتملة

---

(١) تأويل مشكل القرآن ٦٥ .

(٢) تأويل مشكل القرآن ٥١٧ .

للمفردة القرآنية ، وأوردت أقوال أهل اللغة في ذلك . ومن المعروف أن عملية الجمع المنظَّم لمفردات اللغة وترتيبها في مصنفات معجمية أفادت الدراسات القرآنية إفادة واسعة ؛ من حيث إنها قدّمَتْ فيضاً من الشواهد والأقوال واللغات التي تدور حول المفردة القرآنية ، ولاتخلو هذه المعاجم – ولاسيما المطولة منها – من تفسير غريب القرآن ، وضبط ألفاظه ، وبيان لهجات العرب المختلفة .

ومن هذه المعاجم « تهذيب اللغة » للأزهري ، و « لسان العرب » لابن منظور ، و « تاج العروس » للزبيدي . ومن أمثلة الصلة الوثيقة بين هذه المعاجم وتفسير كتاب الله أن صاحب « اللسان » في مادة « يأس » تعرَّض لاختلاف أهل اللغة في معاني اليأس وهل يكون بمعنى العلم ؟ وأشار إلى اختلاف المفسرين في قوله تعالى : ﴿ ... أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ... ﴾ (الرعد : ٣١) وما ينجم عنه في توجيه الآية ، وسَمَّى طائفة من القبائل العربية التي تستعمل اليأس بمعنى العلم ، وعرض شواهد من الشعر العربي الفصيح التي تدعم هذا الاستعمال .

والواقع أن باب اللغة واسع ، بذل السلف من خلاله جهوداً طيبة أسهمت في فهم التنزيل العزيز وتدبُّر آياته ، ولم تنقطع هذه الدراسات عبر القرون والأجيال التالية ، وحَسْبُنا من القلادة ما أحاط بالعنق .

المبحث الثاني
عناية المسلمين بالنحو خدمةً للقرآن الكريم

اكتسب المسلمون معارف غزيرة من الوحي الكريم ، وكان من ثمار ذلك توجُّههم نحو طلبِ العلم والسعي في مدارسته ، ومن هنا جاء الحرص على خدمة القرآن الكريم ، بحسب ما توفَّر لديهم من وسائل وقدرات علمية . وإِذا كان جَمْعُ القرآن يمثل الخطوة الأولى في سبيل العناية بالقرآن الكريم ، فإنَّ وَضْعَ علم النحو يمثل الخطوة الثانية في سبل المحافظة على سلامة أداء النص القرآني ، بعد أن أخذ اللحن يشيع على ألسنة الناس [1] ، ولم يكن نزول الوحي الكريم قلباً للجوانب العَقَدية في حياة الناس فحسب ، بل كان أيضاً قلباً للعادات اللغوية التي نشؤوا عليها ، إِذ واجه العرب في قراءة القرآن ظواهر لم يكونوا في سلائقهم التي فُطِروا عليها متفقين ، وكان منها تعدُّد اللهجات ، واختلافها في القرب مِنْ لغة القرآن أو البعد عنها ، ولهذه اللغة من قواعد النطق ما لايسهل إِتقانُه على جميع المتلقِّين يومئذ ، ولابد لهم من المران حتى يألفوا النص الجديد[2] .

---

(١) مراحل تطور الدرس النحوي ٢٨ .

(٢) المفصل في تاريخ النحو العربي ٣٢ .

وقد أجمع الذين تصدَّوا لنشأة علوم العربية على أن القرآن الكريم كان الدافع الرئيس لعلماء السلف لوَضْع علم النحو والإعراب ؛ وذلك لأنَّ ظهور اللحن وتَفَشِّيَه في الكلام ، وزحفه إلى لسان مَنْ يتلو القرآن ، هو الباعث على تدوين اللغة ، واستنباط قواعد النحو منها ، وعلم العربية شأنه شأن كلِّ العلوم تتطلبه الحوادث والحاجات [1] ، وليس ثمة من علم يظهر فجأة من غير سابقةِ تفكير وتأمُّل فيما يتعلق به ، وهذا قد يستدعي غموض نشأة بعض العلوم ومعرفة واضعها الذي ابتدأها .

ويعود التفكير في علم النحو إلى ظاهرة شيوع اللحن والخشية على القرآن منها ؛ وذلك لأن رغبة العرب المسلمين في نشر دينهم إلى الأقوام المختلفة أنشأ أحوالاً جديدة في واقع اللغة ، ما كان العربُ يعهدونها من قبل ، إذ كانت الفطرة اللغوية قبل الإسلام سليمةً صافية . واستمر الحال على هذا في عصر نزول القرآن ، بَيْدَ أن الرواة يذكرون أن بوادر اللحن قد بدأت في الظهور في عهد النبي ﷺ .

ومن تلك الروايات أنه سمع رجلاً يلحن في كلامه فقال : « أَرْشدوا أخاكم » [2]. ويورد الدارسون بعض الروايات التي تدلُّ على تَسَرُّب اللحن إلى ألسنة الناس في عهد الخلفاء الراشدين ، وذلك أثر من آثار اختلاط العرب الفصحاء بغيرهم من الشعوب غير العربية ، ممَّا أضعف السليقةَ اللغوية لديهم .

---

(١) أصول علم العربية في المدينة ٢٨٦ .

(٢) المستدرك ٢ / ٤٣٩ ، كتاب التفسير ، تفسير سورة السجدة . وقال : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي .

ويروي القرطبي[1] عن أبي مُلَيكة أن أعرابياً قدم في زمان عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : مَنْ يُقرئني مِمَّا أنزل على محمد ﷺ ؟ قال : فأقرأه رجلٌ « براءة » ، فقرأ ﴿ ... أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولِهِۦ ... ﴾ (التوبة : ٣) بجرِّ « رسوله » . فقال الأعرابي : أوقد بَرِئَ الله من رسوله ؟ فإن يكن الله بَرِئَ من رسوله فأنا أبرأُ منه . فبلغ عمر مقالة الأعرابي فدعاه فقال : يا أعرابيُّ ، أتبرأ من رسول الله ﷺ ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إني قدمْتُ المدينة ، ولاعلمَ لي بالقرآن فسألت : مَنْ يقرئني ؟ فأقرأني هذا سورة براءة فقال : « أنَّ الله بريء من المشركين ورسولِه » فقلت : أوقد بَرِئَ الله من رسوله ؟ إن يكن الله برئ من رسوله فأنا أبرأ منه . فقال عمر : ليس هكذا يا أعرابي . قال : فكيف هي يا أمير المؤمنين ؟ قال : « ورسولُه » . فقال الأعرابي : وأنا أبرأ مِمَّن برئ الله ورسولُه منه ، فأمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه ألاَّ يُقرئَ الناسَ إلا عالمٌ باللغة ، وأمر أبا الأسود فوضع النحو .

ومع مرور الأيام تفشو ظاهرة اللحن في القرآن الكريم ، إلى أن أصبحت بلاءً عاماً لايخلو منه لسان كثير من الفصحاء ، حتى الذين تربَّوا في البادية ، فقد روى يونس بن حبيب أن الحجَّاج قال ليحيى بن يعمر : أتسمعني ألحن على المنبر ؟ قال يحيى : الأمير أفصح من ذلك، فألحَّ عليه فقال : حرفاً . قال الحجَّاج : أياً ؟ قال : في القرآن .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١ / ٢٤ . وانظر نزهة الألباء ٨ .

قال الحجَّاج : ذلك أشنع له ، فما هو؟ قال : تقول : «قل إنْ كان آباؤكم وأبناؤكم ...إلى قوله ﴿ ... أَحَبَّ ... ﴾ (التوبة: ٢٤) فتقرؤها «أحبُّ» بالرفع ، والوجه أن تُقرأ بالنصب على خبر كان [١].

ويذكر أن الحجَّاج قرأ «إنا من المجرمون منتقمون»[٢] وكان كثير من أبناء العرب وُلِدوا لأمهات غير عربيات ، فنشأ جيل من هؤلاء الأبناء لديه استعداد لكي يلحن في القرآن وغيره ، ممَّا جعل الحاجَة تمسُّ للبدء في وضع ضوابط يُعْرف بها الصواب من الخطأ [٣] .

ويمكن أن نضيف إلى هذه العوامل ما شاع في الوسط الاجتماعي الذي تعيش فيه الأمة الإسلامية ، إذ كان فيه مجموعة من اللغات المتداولة إلى جانب العربية ، منها الفارسية والسريانية ، وهذا الوسط الاجتماعي سوف يشهد تزاوجاً طبيعياً بين عناصره من اللغات المختلفة، ممَّا أدى إلى اتساع الفوارق بين اللغة الفصيحة واللغة المحكيَّة[٤]، ومثل هذه الفوارق تُقلق أصحاب الغَيْرة على لغة القرآن ، وبذلك ترتبط نشأة النحو بجذور الحياة الإسلامية في ذلك الزمن .

وتختلف الروايات وتتضارب في تحديد أول مَنْ شرع يُسَجِّل بعض الظواهر النحوية ، أو يبني شيئاً من الضوابط الأولية في فهم العلاقات

---

(١) طبقات النحويين ٢٨ .

(٢) الآية (٢٢) من سورة السجدة ، وانظر : البيان والتبيين ٢ / ٢١٨ .

(٣) المدارس النحوية ١٢ .

(٤) المفصل في تاريخ النحو ٣١ .

بين عناصر التركيب اللغوي . يقول الزبيدي[1] : « فكان أولَ مَنْ أصَّل ذلك ، وأعمل فكره فيه أبو الأسود ظالم بن عمرو الدؤلي ونصر بن عاصم وعبد الرحمن بن هُرْمز ، فوضعوا للنحو أبواباً وأصَّلوا له أصولاً ، فذكروا عوامل الرفع والنصب والخفض والجزم ، ووضعوا باب الفاعل والمفعول والتعجب والمضاف - وكان لأبي الأسود في ذلك فضل السبق وشرف التقدم - ثم وصل ما أصَّلوه من ذلك التالون لهم والآخذون عنهم، فكان لكل واحد منهم مِن الفضل بحسبِ ما بَسَط من القول ومَدَّ من القياس وفَتَقَ من المعاني وأوضح من الدلائل ، وبيَّن من العلل » .

ومر بنا قبل قليل رواية تُرجع الأمر إلى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذ أمر أبا الأسود بوضع النحو ، كما روي عنه أنه كتب إلى أبي موسى الأشعري ، ليوجِّه مَنْ يختاره لتعليم العربية ؛ فإنها تدلُّ على صواب الكلام [2] . وذكر صاحب « مراتب النحويين »[3] أن أبا الأسود أخذ النحو عن علي رضي الله عنه لأنه سمع لحناً ، فقال لأبي الأسود : اجعل للناس حروفاً ، وأشار إلى الرفع والنصب والجر . وذكر صاحب « نزهة الألباء » أن عليّاً سمع أعرابياً يقرأ « لايأكله إلا الخاطئين »[4] فوضع النحو .

---

(١) طبقات النحويين ١١ .

(٢) إيضاح الوقف والابتداء ١ / ٣١ .

(٣) مراتب النحويين ٢٤ .

(٤) نزهة الألباء ٨ ، والآية (٣٧) من سورة الحاقة .

ويقول الدكتور محمد خير الحلواني : « ترجع قيمة أبي الأسود الدؤلي في تاريخ النحو إلى أنه هو أولُ مَنْ اتجه بالدراسة اللغوية إلى الاستقراء والاستنباط ، وكانت قبله تقوم على محاكاة الأعراب والاختلاط بهم ، وحِفْظ الشعر والأنساب ، فتحوَّل بها إلى وضع الضوابط الدقيقة ، ورَصْد الظواهر المتبدِّلة في تراكيب العربية »[1] .

ارتبطت المعالم النحوية التي تركها أبو الأسود بواقع الحياة اللغوية البسيطة في عصره ، وقد عُني في معالمه هذه بدَفع اللحن عن قراءة القرآن ، حيث استخرج ضوابط الإعراب بحسب ما توفَّر لديه من قدرات ووسائل[2] .

وينفي الدكتور شوقي ضيف[3] أن يكون لعصر أبي الأسود علاقة بالشروع في بناء الظواهر النحوية . ولسنا في مقام تحقيق هذه النسبة ، بيد أنه يهمنا أن نشير إلى إجماع المؤرخين قديماً وحديثاً إلى أنَّ الدافع الرئيس لهذه النشأة إنما هو قراءة القرآن على نحوٍ صحيح ، وتَفَشِّي اللحن لدى عامة المسلمين وخاصَّتهم . وقد تحدث ابن خلدون في « مقدمته »[4] عن فساد السليقة العربية ممَّا أدَّى إلى وقوع اللحن في القرآن ، وشروع العلماء في حِفْظ اللسان ، ولكنه لم يُحَدِّد مَن الذي

---

(١) المفصل في تاريخ النحو العربي ١٠١ .

(٢) انظر : الإيضاح للزجاجي ٨٩ ، وفيات الأعيان ٢ / ٥٣٥ ، نزهة الألباء ٦ .

(٣) المدارس النحوية ١٨ .

(٤) المقدمة ٥٤٨ .

بدأ هذه الجهود ، يقول : « لَمَّا فسدت مَلكة اللسان العربي في الحركات المسمَّاة عند أهل النحو بالإعراب، واستُنْبطت القوانين لحفظها . . . فاسْتُعْمل كثير من كلام العرب في غير موضوعه عندهم ، مَيْلاً مع هُجْنة المستعربين في اصطلاحاتهم المخالفة لصريح العربية ، فاحتيج إلى حِفْظ الموضوعات اللغوية بالكتاب والتدوين خشية الدروس ، وما ينشأ عن الجهل بالقرآن والحديث ، فَشَمَّر كثير من أئمة اللغة واللسان لذلك وأَمْلَوا فيه الدواوين » . فابن خلدون يُنَوِّه بهمَّة علماء اللغة في تدوين ما توصَّلوا إليه من نظرات ؛ بُغْيَةَ تيسير تلاوة القرآن وفَهْمه .

وفي موضع آخر من « مقدمته » ينصُّ على الدافع الرئيس من وراء هذه الحركة العلمية ، فيقول[1] : « وخشي أهل العلوم منهم أن تَفْسُدَ تلك المَلَكة رأساً ويطول العهد بها ، فينغلق القرآن والحديث على المفهوم ، فاستنبطوا مِنْ مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة مطَّردة شبهَ الكليات والقواعد ، يقيسون عليها سائر أنواع الكلام » .

وبذلك تكون الخطوة الأولى في صَرْح تأسيس علم النحو بمنزلة ردٍّ مباشر لتسرب اللحن إلى اللسان العربي بعامة ، وإلى القرآن بخاصة ، ولابد أن يكون قد صاحَبَ ذلك جهود تمثَّلَتْ في تأمُّل اللغة والنظر في مفرداتها وتراكيبها وشواهدها ، فنجم عن تلك الجهود النواة الأولى

---

(١) المقدمة ٥٤٦ .

لعلم النحو والإعراب ، وكان الشروع في ضوابط العربية مِنْ قِبَل أصحاب النظر في اللغة . وازدهرت لإنجاز هذه المهمة حركة علمية واسعة ، وهذا يدلُّ على شعور بالحاجة اللغوية وبروز التناقض بين المثال المتجسِّد في لغة القرآن والواقع الذي صارت إليه اللغة على ألسنة الناس[١] .

والحقيقة أنَّ كلَّ الروايات التي يسردها المؤرخون مفادُها تعثُّر قَرَأة كتاب الله مِن عامة الناس وخاصتهم ، وهي تفسيرٌ لمشاعر الخوف الذي لابس المسلمين مِنْ جرَّاء شيوع اللحن .

ويضاف إلى العوامل السابقة في نشأة النحو الحاجة إلى فهم مناحي التركيب اللغوي ليصار إلى التعامل مع القرآن والاستنباط من أحكامه، وقد عدَّ العلماء الإحاطة بعلوم اللغة والنحو والتصريف من العلوم الرئيسة التي يحتاج إليها المفسِّر لكتاب الله [٢] ، ومن هنا نشأ لدى السلف كراهية شديدة تجاه ظاهرة اللحن ، وحَضٌّ على اكتساب العربية والتفقه في مواردها ، فالخليفة الراشد عمر يقول : « تَفَقَّهوا في العربية ؛ فإنها تُشَبِّب العقل وتزيد في المروءة » [٣]. وقال أُبَيٌّ بن كعب : « تعلموا العربية كما تتعلَّمون حِفْظ القرآن » [٤]. وهذا قتادة يقول : « لاأسأل عن عقل رجل لم يدلَّه عقله على أن يتعلَّم من العربية

---

(١) المفصل في تاريخ النحو العربي ٧٣ .

(٢) الإتقان ١ / ١٤٦، ١٨٠ ، ٢ / ١٧٤ .

(٣) طبقات النحويين ١٣ .

(٤) تنبيه الألباب ٧٦ .

ما يُصْلح به لسانه »[1] ، أما الأصمعيُّ فيخاف على طالب العلم إذا لم يعرف النحو أن يدخل في جملة قول النبي ﷺ : « مَنْ كذب عليَّ متعمِّداً فليتبوَّأ مقعدَه من النار » لأنه لم يكن يلحن ، فمهما رَوَيْتَ عنه ولَحَنْتَ فقد كَذَبْتَ عليه »[2].

وهكذا جَدَّ علماء العربية من السلف ، واجتهدوا إلى أن أقاموا صرح علمٍ من العلوم الإسلامية التي لا يَسْتغني عنها أحد من طلبة العلم ، وأصبحت العربية من الدين نفسه ، وأصبح تعلمها لفهم مقاصد الكتاب والسنة قربة إلى الله ، وعد كثير من العلماء تعلُّمها واجباً على المرء . يقول شيخ الإسلام ابن تيمية [3]: « واعلم أن اعتياد اللغة يؤثر في العقل والخلق والدين تأثيراً قوياً بَيِّناً ، ويؤثِّر أيضاً في مشابهة صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين ، ومشابهتهم تزيد العقل والدين والخلق . وأيضاً فإن نفس اللغة العربية من الدين ، ومعرفتها فرضٌ واجب ؛ فإنَّ فَهْمَ الكتاب والسنة فرض ، ولايُفْهم إلا بفهم اللغة العربية ، وما لايتمُّ الواجب إلا به فهو واجب » . وكان أبو عمرو بن العلاء يَعُدُّ العربية من الدين لاتنفصل عنه ولا ينفصل عنها ، فبلغ ذلك عبد الله بن المبارك فقال : صدق[4] .

---

(١) تنبيه الألباب ٧١ .

(٢) معجم الأدباء ١ / ٩٠، والحديث رواه البخاري في كتاب العلم (فتح الباري ١ / ٢٤٢) .

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم ٢٠٧ .

(٤) معجم الأدباء ١ / ٥٣ .

وبذلك تتضح لنا الصورة بجلاء ، فعلوم النحو والصرف والإعراب مرتبطة من حيث نشأتها ونشاط أعلامها ، بالحرص على لغة القرآن لكيلا يعروَها لحن ، والحرص على فهم معاني كتاب الله وتدبُّر آياته .

المبحث الثالث
عناية المسلمين بالبلاغة خدمةً للقرآن الكريم

علم البلاغة غصن باسق من دوحة علوم العربية ، وقد لقي هذا العلم من عناية السلف وجهودهم ما جعله عِلْماً قائماً برأسه ؛ ليخدم بيان الوحي المعجز ، وتفوُّقه على الأساليب البيانية الأخرى .

ويشير واقع العرب في أوائل عصر نزول القرآن الكريم إلى أن السليقة التي نشؤوا عليها في التذوق الفطري الأصيل وَفَّرَتْ عليهم تحليل مقومات روعة الكتاب العزيز ، ثم إنهم لم تكن لديهم الوسائل التي تكفي بلوغ هذا التحليل ، على نحو ما تيسَّر للأجيال التالية[1] .

ومع مرور الأيام برزت عوامل جديدة أدَّت إلى إضعاف أثر السليقة في التعامل مع النصوص الأدبية ؛ فقد اختلط العرب الفصحاء بغيرهم، ووصلَتْ دعوة الإسلام إلى أقوام مختلفين ، كما أثيرت شكوك ومطاعن في بلاغة القرآن وإعجازه ، ممَّا جعل الكثيرين لا يكتفون بهذا التفوُّق الذي تُحِسُّه نفوسهم إزاء البيان القرآني ، فمضَوا يحاولون استنباط ما يستطيعون استنباطه من وجوه البلاغة فيه ، وأصبحت دراستُهم تقوم على الدليل العقلي والحجة وتسويغ مواطن الجمال التعبيري[2] .

---

(١) انظر : التفكير البلاغي عند العرب ٣٥ ، الموجز في تاريخ البلاغة ٣٣ .

(٢) انظر : التفكير البلاغي عند العرب ٣٦ ، البيان العربي للدكتور بدوي طبانة ٤٣ .

ويُعَدُّ القرآن الكريم هو العامل الرئيس الذي ساعد على الشروع في الدراسات البلاغية بمختلف اتجاهاتها ، وكان هذا العامل أهمَّ البواعث في إثارة الهمم للبحث الجادِّ عن ترتيب وجوه الكلام ، والتمييز بين الأساليب، ومعرفة الجوانب الجمالية في نسيج تركيب الجملة العربية[١] . ويُجْمع العلماء على أنه بفضل الكتاب العزيز نشأت علوم البلاغة التي أمدَّها النص القرآني بفيض من الأمثلة البديعة في محاسن الكلام وبديع النظم[٢] .

والواقع أن القرآن الكريم أثار منذ اللحظات الأولى لنزوله حركة فكرية عند مُتَلَقِّيه ، ممَّا جعلهم يلتفتون إلى ما جاء به في أساليب التعبير والبيان ، ويُنَقِّبون عن كنوزها ، ويوازنون بين صنوف الكلام المختلفة[٣] . يقول الدكتور حمادي صمود[٤]: «غدا القرآن القطبَ الذي تدور حوله مختلف المجهودات الفكرية والعقائدية للمسلمين» .

ولو تساءلنا عن أسباب نشأة علوم البلاغة التي هي المعاني والبيان والبديع ، لَتَبَيَّن لنا أنها نشأت للدفاع عن القرآن ، والردِّ على الذين أنكروا إعجازه . وقد عَرَفَ العرب بسليقتهم اللغوية أن عجزهم عن الإتيان بمثل القرآن نابع منه ؛ بما يتميَّز به من خصائص أسلوبية وبيانية،

---

(١) البيان العربي ٢٤ .

(٢) أثر القرآن على اللغة العربية للدكتور علي جميل ١٣٥ .

(٣) أثر القرآن في تطور النقد العربي ٢٩ .

(٤) التفكير البلاغي عند العرب ٣٤ .

ولكن مع التأثُّر الجارف بالفلسفات الوافدة ذهب بعض المسلمين إلى ما عُرِفَ بنظرية الصِّرْفة[1] التي تأثرت بما يقوله الهنود عن كتابهم المقدس «الفيدا» ، إذ اعتقد البراهمة أنهم يعجزون عن الإتيان بمثله ؛ لأن براهما صرفهم عن ذلك ، وفي مقدور الخاصة محاكاته ، ولكنهم ممنوعون احتراماً . وذهب إبراهيم النظَّام المعتزلي هذا المذهب ، فكان يعتقد أن القرآن ليس في درجة من البلاغة والفصاحة تمنع من الإتيان بمثله ، فبلاغته لاتزيد على بلاغة سائر الناس ، وهو من جنس كلام البشر . ومثل هذا الرأي دفع علماء المسلمين إلى الخوض في مسائل البلاغة التي تدرس خصائص النص القرآني ، ممَّا سيكون له أثر كبير في إغناء المباحث البلاغية ، فقد أثمرت أهمَّ نظرية في تراثنا البلاغي وهي نظرية النظم[2] ، ومن هنا كان الردُّ على النظَّام ونظريته في الصِّرْفة باعثاً مهماً ومنطلقاً لعلماء البلاغة أن يُثْبِتوا تَفَوُّق الأسلوب القرآني على الأساليب البشرية وتميُّزه بصنوف البيان البديع ، وهذا الدافع جعلهم يَبُثُّون بذور علم البلاغة وفروعها المختلفة ، مما كان أساساً لاكتمال صورتها في مصنفات القرون التالية .

وإذا كان الدافع للاهتمام ببيان القرآن في أول الأمر هو الدفاع عن الكتاب العزيز أمام نزعات الشك وردُّ المطاعن ، فإنَّ دراسات جادَّة

---

(١) إعجاز القرآن للدكتور مصطفى مسلم ٥٩ .

(٢) التفكير البلاغي عند العرب ٣٨ .

شرعت في بناء منظومة واسعة ، غرضها شرح أوجه إِعجاز القرآن ودراسة أسلوبه .

وهذه الدراسات زَوَّدت مسيرة علم البلاغة بفيض من الأصول والأمثلة التي اعتمدَتْها مصنفات علوم البلاغة فيما بعد القرون الأولى[1] ، وكان اختلاف وجهات النظر في مواطن إِعجازه مادةً ثرَّة ، رفدت هذه العلوم بروافد تأصيلية في البحث البلاغي والنقد الأدبي[2]، وبذلك يتبيَّن لنا أن أهمَّ جانب ساعد على ظهور التفكير البلاغي هو الجانب المتصل بإِعجاز القرآن ، كما يتبيَّن لنا أن اتساع الدراسات البلاغية وازدهارها إِنما كان لخدمة القرآن الكريم .

وتفرع على النظر في أسلوب القرآن واتخاذه المقياسَ البلاغي الأمثل النظرُ في الأساليب الأدبية نثرها وشعرها ، والموازنة فيما بينها[3] .وكان أبو عبيدة معمر بن المثنى مِن أوائل مَنْ أَلَّفَ فيها ، وكان غرضه توضيح الأساليب القرآنية .

ويذكر ياقوت في « معجم الأدباء »[4] رواية عنه يقول فيها : « قال أبو عبيدة : أرسل إِليَّ الفضل بن الربيع إِلى البصرة في الخروج إِليه سنة ثمان وثمانين ومائة ، فقدمتُ إِلى بغداد ، واستأذنْتُ عليه ، فأَذِن لي

---

(١) أثر القرآن في تطور النقد العربي ٢٠٨ .

(٢) الموجز في تاريخ البلاغة ٤٧ .

(٣) الموجز في تاريخ البلاغة ٤٥ .

(٤) معجم الأدباء ١٩ / ١٥٨ .

فدخلتُ عليه ... ثم دخل رجلٌ له هيئة ، فأجلسه إلى جانبي ، وقال له : هذا أبو عبيدة عَلَّامة أهل البصرة ، أَقْدَمْناه لنستفيد من علمه وقال لي : إني كنت إليك مشتاقاً ، وقد سألت عن مسألة ، أفتأذن لي أن أعرِّفك إياها ؟ فقلت : هات . قال : قال الله عز وجل ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ (الصافات : ٦٥) ، وإنما يقع الوعد والإيعاد بما عُرِف مثله ، وهذا لم يُعرف . فقلت : إنما كلَّم الله تعالى العرب على قَدْر كلامهم ، أما سمعتَ قول امرئ القيس :

أيقتُلني والمَشْرَفيُّ مُضاجِعي ... ومَسْنونةٌ زُرْقٌ كأنياب أَغْوال

وهم لم يَرَوا الغول قط ، ولكنهم لما كان أمرُ الغول يَهولهم أُوعِدوا به ، فاستحسن الفضل ذلك واستحسنه السائل ، وعَزَمْتُ من ذلك اليوم أن أضع كتاباً في القرآن في مثل هذا وأشباهه ، وما يُحتاج إليه مِنْ عِلْمه ، فلمَّا رجعت إلى البصرة عملت كتابي الذي سَمَّيْتُه المجاز » .

ولم تقتصر علاقة القرآن بمنهج البحث البلاغي على الدفاع عنه والتماس وجه إعجازه ، بل إن ثمة علاقةً أخرى ، وهي الضرورة التي يُحِسُّها المسلم من جهة فَهْم معانيه[1] ، ولا يتمُّ هذا الفهم إلا بالإحاطة بأساليبه ، وما يمكن أن ينطويَ وراء تعبيراته من المعاني والمقاصد ، على قَدْر طاقة المشتغلين فيه .

ومن هنا جال علماء البيان بضروب الأسلوب القرآني ، وكان هذا

---

(١) البيان العربي ٢٥ .

من الحوافز التي وجَّهَتْ أنظارهم إلى الفنون المختلفة للتعبير الفني في الشعر والنثر ، فوضعوا مصنفات كثيرة في هذه الحقول [١] ، وكانت هذه المصنفات صدىً لبيان خصائص النظم القرآني .

وكان من جملة أغراض البحث البلاغي عندهم إثبات أنَّ ما عُرِف في أدب العرب من فنون جمالية عالية في التعبير ، وقع مثله في القرآن على صورة أجملَ وآنَق ، وقد فتحت المصنفات التي تركوها باب البحث البلاغي على مِصْراعَيْه ، ووصلَتْ بالذوق البياني إلى كثير من الأصول التي تأسَّسَتْ عليها علوم المعاني والبيان والبديع[٢]. يقول الدكتور بدوي طبانة [٣]: « من النادر أن نجد أثراً من الآثار التي عرضت للبيان العربي خلا من الإشارة إلى القرآن ونظمه ، وهذا يؤكِّد بُعْدَ أثر الدراسات القرآنية في نُمُوِّ الدراسات البيانية وتنوُّعها ، وعدم انقطاع هذا التأثر في سائر العصور » .

وعندما ازدهر التصنيف في علوم البلاغة كانت خدمة القرآن الكريم ماثلةً أمام العلماء الذين كانوا يَعُدُّون جهودهم مُنْصَبَّةً في هذا المجال ، حتى إننا لا نكاد نجد كتاباً في البلاغة مقصوراً على مباحثها النظرية ، وبعيداً عن خدمة القرآن[٤] ، فعبد الله بن المعتز مثلاً عندما شرع في

(١) أثر القرآن في تطور النقد العربي ٢٠٨ .

(٢) البيان العربي ٤٤ .

(٣) المصدر نفسه ٧٥ .

(٤) أثر القرآن في تطور النقد العربي ٢٢٥ .

البحث عن صنوف « البديع » وفنونه أشار إلى كثير من آيات القرآن ، وكان يجعل الشاهد القرآني في مقدمة شواهده ، وحين تكلَّم على ما سَمَّاه الجاحظ المذهب الكلامي قال[1] : « وهذا بابٌ ما أعلم أني وجدت في القرآن منه شيئاً ، وهو يُنْسَبُ إلى التكلُّف » .

وتُرْجِعُ معظم كتب البلاغة سبب تأليفها إلى إطْلاع الناس على مواطن أسرار البيان في القرآن ، فالرمَّاني مثلاً يحصر البلاغة في أقسام عشرة هي : الإيجاز والتشبيه والاستعارة والتلاؤم والفواصل والتجانس والتصريف والتضمين والمبالغة وحسن البيان . ثم يمضي لتفسير كل قسم في ضوء الآيات القرآنية وبيان أسرار الجمال فيها ، وذلك في كتابه « النُّكَت » [2] الذي يُعَدُّ حلقة مهمة من حلقات التأليف في البلاغة العربية .

وقد بلغ التصنيف في علوم البلاغة غاية بعيدة من النضج والإحكام على يد الإمام عبد القاهر الجرجاني الذي وضع كتابَيْه « أسرار البلاغة » و « دلائل الإعجاز » ، وكان لهما منزلة عالية من نضج التفكير البلاغي، ويتضح فيهما توجيه علوم البلاغة توجيهاً خالصاً لخدمة القرآن الكريم .

وهذا هو صاحب « الصناعتين » يقول في مقدمة كتابه : « قد علمنا

---

(١) البديع ٥٣ .

(٢) النكت في إعجاز القرآن ٧٦ .

أن الإنسان إذا أغفل علمَ البلاغة ، وأَخَلَّ بمعرفة الفصاحة ، لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خَصَّه الله به مِنْ حسن التأليف وبراعة التركيب »[1] ، بل إن العسكري في كتابه يرى أن أحقَّ العلوم بالتعلُّم وأَوْلاها بالتحفظ بعد المعرفة بالله ، علم البلاغة ، ومعرفة الفصاحة ، الذي يُعرف به إعجاز كتاب الله تعالى الناطق بالحكمة[2] .

وهذا هو يحيى بن حمزة العلوي يؤلف كتابه ويسميه « الطراز المتضمِّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز » ويتحدث في المطلب الخامس من كتابه عن بيان غرضه فيقول [3] : « واعلم أنه يراد لمقصدَيْن : المقصد الأول مقصد ديني ، وهو الاطلاع على معرفة إعجاز كتاب الله ومعرفة معجزة رسول الله ﷺ ؛ إذ لايمكن الوقوف على ذلك إلا بإحراز علم البيان والاطلاع على أسرار البلاغة والفصاحة في غير القرآن في منثور كلام العرب ومنظومه » .

ويذكر القزويني في مقدمة كتابه « التلخيص » أن موضوع إعجاز القرآن كان السبب في وَضْع الكتاب ، ويشير في مقدمته[4] إلى أن « علم البلاغة وما يتبعه مِنْ أجَلِّ العلوم قَدْراً ، وأدقِّها سراً ؛ إذ به تعرف دقائق العربية وأسرارها ، وتُكشف عن وجوه الإعجاز في نظم القرآن

---

(١) الصناعتين ٧ .

(٢) الصناعتين ٧ .

(٣) الطراز ٣٢ .

(٤) التلخيص ٢٢ .

أستارها » .

ومن هنا فإن الدارسين المحدثين لمحوا علاقة علم البلاغة بكتاب الله . يقول الدكتور مازن المبارك[1] : « وهكذا نشأت البلاغة وترعرعت تحت راية القرآن والبحث في إعجازه ، وهذا البحث هو الذي وصل بها إلى أن تصبح علماً مستقلاً يُخَصُّ بالتأليف ، بل لقد ظلَّت البلاغة بعد نضجها واستقلالها أيضاً عالقة بفكرة إعجاز القرآن والدفاع عنها » .

ويشارك القرآن الكريم في تربية الذوق البياني لدى الفرد ، ويُنَمِّي لديه حاسَّة النقد والملكة الأدبية في الكشف عن مواطن الجمال[2] ، وقد وضع البطليوسي[3] في شرحه لخطبة « أدب الكاتب » غرضَين لطلب الأدب والاهتمام بمدارسته ، أحدهما : يقال له الغرض الأدبي ، والثاني الغرض الأعلى ، فالغرض الأدبي يَحْصُل للمتأدِّب بالنظر في الأدب والشعر ، والغرض الأعلى يَحْصُل للمتأدِّب به قوة على فهم كتاب الله وكلام رسوله .

ولذلك فإن معشر البلغاء والكُتَّاب كانوا حريصين على التزود من مَعين كتاب الله ، كما كانوا يُوصون المتأدِّبين بالعكوف على أسلوبه وبيانه ؛ ليفيدوا منه في صقل أساليبهم ، وترقية بيانهم . يقول

---

(١) الموجز في تاريخ البلاغة ٤٨ .

(٢) أثر القرآن في تطور النقد العربي ٣٣٤ .

(٣) الاقتضاب للبطليوسي ١٤ .

عبد الحميد الكاتب[1] : « تنافسوا يا معشر الكتاب في صنوف الآداب وتفقهوا في الدين ، وابدؤوا بعلم كتاب الله عز وجل ثم العربية ، فإنها ثِقاف ألسنتكم ، ثم أجيدوا الخط فإنه حِلْية كتبكم ، وارْووا الأشعار ، واعرِفوا غريبها ومعانيها ، وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها ؛ فإن ذلك مُعين لكم على ما تسمو إليه هممكم » .

وهكذا نخلص إلى أن البلاغة العربية في نشأتها وتطورها وثمارها لاتنفكُّ عن القرآن ؛ إذ سَعَتْ في خدمة بيانه ، وساهمت في شرح إعجازه وبديع نظمه .

---

(١) تاريخ الأدب العربي ، د. عمر فروخ ١ / ٧٣٠ .

المبحث الرابع
عناية المسلمين بالشعر خدمة للقرآن الكريم

للشعر منزلة كبيرة في علوم العربية ؛ لأنَّه هيَّأ لها مادة واسعة في سبيل تأصيل مفردات اللغة ، وبيان نسيج تركيبها وأوجه استعمالاتها . وقد عني به علماء العربية خدمة للقرآن الكريم ؛ لأنه ديوان العرب ، وكان له قبل الإسلام منزلة سامية لدى القبائل العربية ، كما كان للشعراء مرتبة رفيعة ، بَيْدَ أن بيان القرآن المعجز لم يستطع الشعر مغالبته ، وصارت الألسنة تلهج بتلاوة النص القرآني الفريد .

ومع أن الناس كانوا يُجْمعون على تفوُّق بيانه لم يهجروا الشعر ، بل عَدُّوه عوناً لهم على فَهْم مُعْضِلات القرآن ، والوصول إلى معانيه [1] ، ومن هنا صار الشعر وسيلة ذات شأن ، أصبحت تساهم مساهمة فاعلة في تفسير القرآن ، وخدمة جوانبه المتعددة .

والواقع أن العناية بلغة الشعر والاستشهاد بها على غريب القرآن ومفرداته وبيانه ، ليست مسألة طارئة على الحياة العلمية في عصر التابعين ، وإنما كانت هذه العناية مألوفة عند الصحابة رضوان الله عليهم ؛ فقد أورد الزمخشري[2] رواية عن الخليفة الراشد عمر رضي

---

(١) أثر القرآن في تطور النقد العربي ١٩٤ .

(٢) الكشاف ٢ / ٤١١ ، وانظر : الدر المصون ٧ / ٢٢٥ .

الله عنه ، حيث سأل وهو على المنبر عن قوله تعالى﴿ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ . . . ﴾ (النحل : ٤٧) . فقام إليه شيخ من هذيل فقال : هذه لغتنا، التخوُّف التنقُّص . فسأله عمر : هل تعرف العرب ذلك في أشعارها ؟ قال : نعم . قال الشاعر :

تَخَوَّف الرَّحْلُ منها تامِكاً قَرِداً   كما تخوَّفَ عودَ النَّبْعَة السَّفِنُ[1]

فقال عمر : أيها الناس ، عليكم بديوانكم لايضلُّ . فقالوا : وما ديواننا ؟

قال : شعر الجاهلية فإن فيه تفسير كتابكم .

وقام حَبْرُ الأمة ابن عباس رضي الله عنه في ميدان الاستشهاد بالشعر على غريب القرآن بجهد متميز ، وكان له مجالس واسعة تعقد لهذا الغرض ، ويَفِدُ إليه الناس من كل حدب وصوب ، وكان يقول[2] : « إذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشعر ؛ فإن الشعر ديوان العرب » .

وقال عمرو بن دينار[3] : « ما رأيت مجلساً قط أَجْمَعَ لكل خير من مجلس ابن عباس للحلال والحرام وتفسير القرآن والعربية والشعر » .

---

(١) التامك : السنام . القرد : الذي تراكم لحمه من السِّمن . والنبعة : ضرب من الشجر الصلب . والسفن : المبرد .

(٢) طبقات القراء ١ / ٤٢٦ .

(٣) طبقات القراء ١ / ٤٢٦ .

وتحتفظ مصنفات علوم القرآن بحوار علمي مطولٍ جرى بين أحد زعماء الخوارج وهو نافع بن الأزرق وابن عباس ، فقد قال نافع لصاحبه نجدة بن عويمر : قم بنا إلى هذا الذي يجترئ على تفسير القرآن والفتيا بما لاعِلْمَ له به . فقاما إليه فقالا : نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب الله عز وجل فتفسِّره لنا ، وتأتينا بمصداقه من كلام العرب ، فإن الله عز وجل إنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين . قال ابن عباس : سَلاني عمَّا بدا لكما تجدا علمه عندي حاضراً إن شاء الله . فقالا : يا ابن عباس أخبرنا عن قول الله عز وجل: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ﴾ (المعارج: ٣٧) قال : عزين : حلق الرفاق . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم أما سمعت عبيد بن الأبرص يقول :

فجاؤوا يُهْرَعون إليه حتى ... يكونوا حول منْبره عزينا

قال نافع : يا ابن عباس أخبرني عن قول الله عز وجل ﴿ ... وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ... ﴾ (المائدة: ٣٥) قال : الوسيلة : الحاجة . قال : أوتعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم أما سمعت عنترة العبسي وهو يقول :

إنَّ الرجالَ لهم إليك وسيلةٌ ... إن يأخذوك تكحَّلي وتَخَضَّبي

ويمضي نافع يسأل ، وابن عباس يُفَسِّر ويستشهد على تفسيره ببيت من الشعر في مائتين وخمسين موضعاً من القرآن[1] ، وقد حقَّق هذه المسائل الدكتور إبراهيم السامرائي بعنوان « سؤالات نافع بن الأزرق إلى

---

(١) إيضاح الوقف والابتداء ١ / ٧٦-٩٨ ، الإتقان ١ / ١٢١ .

عبـد الله بن عبـاس » . يقـول الدكـتـور رمـضـان عـبـد التـواب [1] : « وبذلك يمكننا أن نَعُدَّ تفسير ابن عباس للقرآن على هذا النحو نواةً للمعاجم العربية ، فقد بدأت الدراسة في هذا الميدان من ميادين اللغة بالبحث عن معاني الألفاظ الغريبة في القرآن الكريم » . وكان ابن عباس يقول : « الشعر ديوان العرب ، فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب رجعنا إلى ديوانها ، فالتمَسْنا معرفة ذلك منه »[2]، وبذلك تكون دراسة القرآن الكريم والرغبة في تفسير غريبه وفهم مقاصده سبباً رئيساً من أسباب العناية بالشعر العربي . ومع مرور الأيام تزايدت الحاجة إلى هذا الاتجاه ، وتابع هذا المنحى علماء العربية والتفسير ، ولا غرابة أن تحفل كتب إعراب القرآن وتفسيرة بمادة غزيرة من الشعر العربي الفصيح ، فقد تجاوزت الشواهد الشعرية في كل من البحر المحيط وجامع القرطبي والدر المصون مثلاً أكثر من خمسة آلاف بيت .

ونجم عن العناية برواية الشعر الكشف عن أسرار الأسلوب القرآني وإعجازه ، وتفوُّقه، على أعلى مراتب الشعر البليغ الذي كانت العرب تحتفل به أيَّما احتفال ، وهي الخبيرة بمواقع النظم الرفيع ، وللجرجاني في كتابَيْه « الدلائل » و « الأسرار » ، وللباقلاني في « إعجاز القرآن » ،

---

(١) فصول في فقه اللغة ١١٠ .

(٢) الإتقان ١ / ١٢١ .

جولات واسعة في هذا الحقل ، حيث وازن هؤلاء الأئمة بين أسلوبَي القرآن والشعر ، وعرضوا أمثلة وافية ؛ وذلك لأنَّ الشعر ديوان العرب نظم فيه أصحابه عصارة بيانهم وصفوة بلاغتهم . ويرى عبد القاهر[1] أنه لَمَّا كان الشعر ديوان العرب كان محالاً أن يَعْرف القرآنَ معجزاً مِنْ جهة فصاحته إلا مَن عرف الشعر . ونودُّ أن نضرب مثالاً من كتاب «إعجاز القرآن» للباقلاني يوضِّح من خلاله تَفَوُّق الأسلوب القرآني على أعلى أساليب العرب في الشعر من حيث البلاغة والبيان، يقول[2] : «ونظم القرآن جنس متميز ، وأسلوب متخصص، وقبيل عن النظير مُتَخَلِّص . فإذا شئتَ أن تعرف عظم شأنه فتأمَّلْ ما نقوله في هذا الفصل لامرئ القيس في أجود أشعاره ، وما نبيِّن لك مِنْ عَواره على التفصيل ، وذلك قوله :

قفا نَبْك مِنْ ذكرى حبيبٍ ومنزل بِسِقْط اللِّوى بين الدَّخول فحَوْمل

الذين يتعصَّبون له ويدَّعُون محاسن الشعر يقولون : «هذا من البديع لأنه وقف واستوقف ، وبكى واستبكى ، وذكر العهد والمنزل والحبيب ، وتوجَّع واستوجع ، كله في بيت وإنما بيَّنَّا هذا ؛ لئلا يقع لك ذهابنا عن مواضع المحاسن إن كانت ، ولا غفلتنا عن مواضع الصناعة إن وُجِدَتْ» .

---

(١) دلائل الإعجاز ٧ .

(٢) إعجاز القرآن ١٦٠ .

ثم يمضي الباقلاني في نقد قصيدة امرئ القيس التي هي من غُرَر شعره، ويُبَيِّن مواضع سَقَطه، وتخلُّفه عن الأسلوب القرآني، ثم يقول[1]: «فأمَّا نهج القرآن ونظمه وتأليفه ورصفه فإن العقول تتيه في جهته، وتحار في بحره، وتَضِلُّ دون وَصْفه، ونحن نذكر لك في تفصيل هذا ما تستدلُّ به على الغرض». فلو لم يكن بين أيدي الباقلاني وأقرانه مثل هذه القصائد الشعرية لما استطاعوا أن يحققوا قاعدة «وبضدها تتميز الأشياء»؛ وذلك لبيان روعة النظم القرآني وبلاغته، ومن هنا فإن عناية علماء العربية بالشعر عناية هادفة إلى تحقيق مقاصد كثيرة في مجال علوم العربية المتعددة.

وهذه الإفادة الرحبة من المادة الشعرية في سبيل الإحاطة بلغة القرآن مَهَّدَتْ الطريق لكثير من اللغويين للقيام برحلات علمية إلى البوادي لالتقاطها من أفواه الأعراب[2]، ولولا هذا النشاط المبذول في جمع الشعر والعناية به لخدمة القرآن لاندثر الشعرالجاهلي[3].

وكلما تباعد الناس عن عصر نزول القرآن برزت الحاجة إلى معرفة غريب القرآن، فكان الشعر مِنْ أهمِّ الوسائل لفهم هذا الغريب،

---

(١) إعجاز القرآن ١٨٤.

(٢) أثر القرآن في تطور النقد العربي ٣٣.

(٣) فصول في فقه اللغة ١١١.

والإجابة عن استفسارات الناس المتجددة [1] . ثم تدخل محاولات جمع الشعر مرحلة التنظيم والجمع من خلال المجموعات الشعرية التي جمعها الثقات من اللغويين كالمفضليات والأصمعيات وجمهرة أشعار العرب ، وتضمُّ هذه المجموعات قصائد لشعراء يُستشهد بشعرهم في مضمار اللغة . وقد يَجْمَعُ أحد علماء اللغة شعر أحد الشعراء الجاهليين في ديوانٍ واحد ويشرح غريبه ، وبذلك مدَّ الشعرُ العربي حركةَ التفسير القرآنية التي بدت تنمو وتزدهر مع مرور الأيام ، كما مدَّ هذا الشعرُ معاجمَ اللغة وكتب النحو والصرف والبلاغة بشواهد غزيرة تساهم في تأصيل علومها . وقد كان للعلماء الثقات في هذه الخطوات دورٌ كبير في سَدِّ أبواب الانتحال والوضع ؛ ليكون الاستشهاد مبنياً على أسس صحيحة[2] ، وكلما ابتعد الناس عن موارد الفصاحة وتقدَّمت بهم الأيام ، صَعُبَ عليهم فَهْمُ الشعر والتعامل معه لكثرة غريبه المبثوث فيه ، فاستلزم الأمر شرحه ، ولا سيما الجاهلي الذي يكثر فيه الحوشيُّ .

ويجد الباحث في المكتبة العربية الكثير من هذه الشروح التي يتخللها الاستشهاد بآيات القرآن الكريم ، ومن ذلك كتب الأمالي والنوادر ، ومن هنا صار فن الشعر فناً قائماً برأسه ، وفرعاً من فروع

---

(١) المفصل في تاريخ النحو العربي ٣٢ .

(٢) أثر القرآن في تطور النقد العربي ١٩٤ .

المعرفة اللغوية والبيانية التي تخدم القرآن[1] . وليس غريباً أن يحتلَّ الشعر مكانة عالية في مجال البحوث القرآنية المتعددة التي تُعنى بالتأصيل ، وبذلك خالف الشعر العربي آداب اللغات الحية التي لانكاد نجد فيها مثل هذا التواصل اللغوي عبر هذه القرون المتطاولة ، ولكن بفضل القرآن بقي الشعر العربي حياً طوال فترة سالفة[2] .

---

(١) التفكير البلاغي عند العرب ٣٤ .

(٢) أثر القرآن الكريم على اللغة العربية ، د. علي جميل ١٣١ .

المبحث الخامس
عناية المسلمين بتوجيه القراءات في ضوء العربية خدمةً للقرآن

ثمة ارتباط وثيق بين القراءات القرآنية ولهجات القبائل العربية ، وقد كان مِنْ حكمة نزول هذه القراءات أن يَسَّرَتْ تلاوة الوحي الكريم والتعامل معه ، على الرغم من أن اللسان العربي تتعدَّد لهجاته على نحوٍ واسع . وفي الفترة التي سبقت نزول القرآن كان للهجة قريش السيادة على اللهجات العربية الأخرى في شبه الجزيرة العربية . وقد بلغَتْ قريش هذه المنزلة بعد مراحل عديدة من احتكاك اللهجات العربية بها ، وذلك بفضل موقعها الديني ؛ فهي المشرفة على خدمة الكعبة المشرفة ، وتَهْفو إليها أفئدة العرب جميعاً ، وبفضل النشاط التجاري الذي كانت قريش تعقده في حواضرها ، وكانت اللهجة القرشية تستقي من لهجات القبائل ما تحتاج إليه من صفوة اللغات ، حتى تمَّ تكوينُها قُبَيْل نزول الوحي .

وقد اشتملت لهجة قريش على خصائص كثيرة من لهجات القبائل الأخرى ؛ إذ استوعبت صفوة العناصر الحميدة لهذه اللهجات . فإذا قلنا : إن القرآن نزل بلغة قريش فليس معنى هذا أننا نَغُضُّ الطرف عن تأثير اللغات الأخرى في مفردات القرآن ونسيجه الصوتي ، وإنما نقصد

أن لغة قريش هي اللغة النموذجية العالية التي تكوَّنَتْ عبر مراحل عديدة ، واشتملَتْ على خصائص لهجات العرب الأخرى[1] . وقد تكفَّلَت كتب «لغات القبائل» بإسناد كل مفردة قرآنية إلى أصل قبيلتها التي انحدرت منها ، على نحو ما تبيَّن لنا في موضوع اللغة .

والحق أنَّ هذا التطور التاريخي للهجة قريش التي نزل بها القرآن كان مَحْمَدة لصالح العرب جميعاً ؛ وذلك لأنَّ هذه اللهجة أصبحت لغة الأدب والشعر وقاسماً مشتركاً لدى جميع القبائل ، ولو كانت لهجة قريش مقصورةً عليها غير معهودة عند العرب لما استطاعت هذه القبائل أن تحقِّق الانتفاع بالقرآن الكريم والتعامل معه لأنه بلهجةٍ غير لهجتها [2] ، وبذلك صار تحدِّي القرآن للعرب جميعاً يقوم بغرضه الذي سِيق من أجله ، فهو معجزٌ بالإضافة إلى قبائلهم كلها ، ولو كان التحدي مُوَجَّهاً إلى قبيلة قريش وحدها لقيل : إن القرآن جاء بما لاقدرةَ للعرب على جنسه[3] .

وقد بذل النحاة جهداً فائقاً لخدمة القرآن بمختلف قراءاته المتواترة والشاذة ، فوجَّهوها بالتعليل المستند إلى الأصول المعتمدة عندهم ، واستشهدوا على ذلك بالشواهد الفصيحة التي جمعوها من البوادي

---

(١) انظر : فصول في فقه اللغة ٧٧ ، وأثر القراءات القرآنية في الدراسات النحوية ١٥ .

(٢) أثر القراءات في الدراسات النحوية ١٦ .

(٣) المصدر نفسه ١٦ .

عبر رحلاتهم العلمية المديدة ، وقد استندوا إلى هذه القراءات في تأصيل قواعدهم ، وإرساء معالم الصناعة النحوية والصرفية ، وضبط مفردات اللغة . ومن المعلوم أن للقراءات الصحيحة شروطاً ومعايير تجعلها مقبولة ، وقد اعتمدها النحاة واللغويون والبلاغيون ، واستنبطوا منها الأصول التي بَنَوْا عليها علومهم ، وما خالف شروط القراءة الصحيحة عَدُّوه شاذاً .

وقد تحدث ابن جني عن الاحتجاج بالنوعين في مقدمة كتابه « المحتسب »[1] فذكر « ضرباً اجتمع عليه أكثر قراء الأمصار ، وهو ما أودعه ابن مجاهد كتابه الموسوم بقراءات السبعة ، وهو بشهرته غان عن تحديده ، وضرباً تعدَّى ذلك ، فسمَّاه أهل زماننا شاذاً ، أي : خارجاً عن قراءة القراء السبعة المقدَّم ذكرها ، إلا أنه مع خروجه عنها نازع بالثقة إلى قرائه ، محفوف بالروايات مِنْ أمامه وورائه ، ولعله أو كثيراً منه مساوٍ في الفصاحة للمجتمع عليه ، نعم وربما كان فيه ما تلطف صنعته ، وتعنُف بغيره فصاحته[2] ، وترسو به قدم إعرابه . . . لكن غرضنا منه أن نُري وجه قوة ما يُسَمَّى شاذاً ، وأنه ضارب في صحة الرواية بجِرانه ، آخذٌ من سَمْتِ العربية مهلة ميدانه ؛ لئلا يرى مُرىً[3] أن العدول عنه إنما هو غضٌّ منه أو تهمة له » .

---

(١) المحتسب ١ / ٣٢ .

(٢) يريد أن فصاحته متفوقة .

(٣) أي : يظن ظان .

فالقراءات المتواترة والشاذة حجة عند أهل العربية ، وإن كانت الأُولى أعلى قدراً . وقد صنف علماء العربية ثلاثة أنواع من المصنفات لخدمة القراءات في ضوء صناعتهم : الضرب الأول يختص بالمتواتر ، ومنه « الحجَّة » للفارسي و « الكشف » لمكي ، والضرب الثاني يختص بالشاذِّ ، ومنه « المحتسب » لابن جني ، و « إِعراب القراءات الشاذة » للعكبري ، والضرب الثالث يجمع بين المتواتر والشاذِّ ومنه « البحر المحيط » لأبي حيان ، و « الدر المصون » للسمين الحلبي . ويبدأ كل مصنف من هذه المصنفات بذكر صاحب القراءة وضبط قراءته ، ثم يشرع في توجيهها حسب قوانين الصناعة ، ويعربها ويشرح معناها ، ويستشهد عليها من شعر العرب ومنثورهم ، وقد يجتهد في إيجاد وحدة معنوية بين قراءتين أو أكثر ، وقد لا يكون ثمة وحدة فيسعى المؤلف في التوجيه الذي يراه في ضوء علوم العربية المختلفة ، مِنْ لغةٍ ونحو وصرف وبلاغة . ويمكننا أن نضرب ثلاثة أمثلة يمثِّل كل مثال منهجاً من مناهج التأليف المذكورة :

ذكر الشيرازي في « الكتاب الموضح في وجوه القراءات وعللها »[1] أن حمزة وحده قرأ ﴿ . . .أسْرَى. . . ﴾ (البقرة : ٨٥) بغير ألف ؛ وذلك لأنَّ « أَسْرى » أقيس من « الأُسارى » ؛ لأنَّ فَعِيلاً إنما جاء جَمْعُه على فَعْلى نحو : قتيل وقَتْلى ، وجريح وجرحى ، وأصل ذلك إنما يكون لِما

(١) الكتاب الموضح ١ / ٢٨٨ .

كان بمعنى مفعول ، وقد حُمل عليه أشياء وقعَتْ مقاربةً له في المعنى نحو: مَرْضى ، لَمَّا كان هؤلاء مُبْتَلين بهذه الأشياء التي وقعت على غير اختيارهم ، شُبِّهوا بالجرحى ، إذ كانوا أيضاً كذلك. وقرأ الباقون «أُسَارى». ووجه ذلك أن «أسيراً» جُمع ههنا على «أُسارى» تشبيهاً بكُسالى ، لَمَّا كان الأسير ممنوعاً عن الكثير مِنْ تَصَرُّفه شُبِّه بالكسلان الذي يمتنع عن ذلك ، بما فيه من العادة المذمومة التي هي الكسل، فلمَّا أشبهه في المعنى شاركه في الجمع على فُعالى» .

ويُخَرِّج ابن جني في «المحتسب»[1] قراءة الحسن ومجاهد وطلحة بن مصرف وعيسى الهمداني "وُقودها الناس" (البقرة: ٢٤) فيقول : «هذا عندنا على حذف المضاف أي : ذو وُقودها ، أو أصحاب وُقودها الناس، وذلك أن الوُقود بالضم هو المصدر، والمصدر ليس بالناس، لكن قد جاء عنهم «الوَقود» بالفتح في المصدر لقولهم : وَقَدَت النار وَقوداً ، ومثله أُولِعْتُ به وَلوعاً ، وهو حُسن القَبول منك ، كلُّه شاذ والباب هو الضم». ويأتي ابن جني بتخريجات أخرى لهذه القراءة على منهجه في الاستشهاد بلغات العرب وأشعارها .

وأشار صاحب «الدر المصون»[2] إلى ست وعشرين قراءة في قوله

(١) المحتسب ١ / ٦٣ .

(٢) الدر المصون ٥ / ٤٩٦ .

تعالى : ﴿ ... بِعَذَابٍ بَئِيسٍ ... ﴾ (الأعراف : ١٦٥) ، وبدأ بعزو كل قراءة إلى أصحابها ، ثم عُني بضبطها ضبطاً مفصَّلاً ، ثم مضى يُخَرِّج كل قراءة على حِدة ، سواءٌ أكانت متواترة أم شاذة في ضوء الصناعة العربية ؛ ليكون لها وجهٌ من القبول والتوجيه ، ثم ذكر أن أبا البقاء العكبري أضاف أربع قراءات أُخَر ، وختم كلامه بقوله : « فهذه ست وعشرون قراءة في هذه اللفظة ، وقد حرَّرْتُ ألفاظها وتوجيهها بحمد الله تعالى » .

وهكذا اشتغل النحاة بتوجيه القراءات القرآنية ، وليس غريباً أن يكون النحاة الأوائل الذين بنَوا صَرْحَ هذا العلم هم من القرَّاء كأبي عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر والخليل بن أحمد ، ولعلَّ اهتمامهم بهذه القراءات دفعهم إلى الدراسة النحوية المفصَّلة ؛ لكي يلائموا بين ما سمعوا من القراءات وما روَوْه من كلام العرب [١] .

وقد اجترأ بعض النحاة والمفسرين على تضعيف طائفة من القراءات المتواترة ، التي خالفَتْ أصولهم المقررة في اللغة أو النحو والصرف ، كما اجترؤوا على رَمْيها بالتخطئة ، أو الخروج عن سنن العربية ؛ ممَّا جعل فريقاً آخر من النحاة يَرُدُّون عليهم ، ويُثْبتون خطأ هذا المنهج في التسرُّع إلى تضعيف قراءات تشتمل على شروط القراءة المتواترة . وفي هذا الإثبات والردِّ على المتسرِّعين مَحْمَدة حَفظت لهذه القراءات هيبتَها ، واستنادها إلى وجه صحيح ، فالحكم على رَفْض ما تواتر

(١) انظر أثر القراءات في الدراسات النحوية ٥٥ .

بحجةٍ واهية ليس بالأمر السهل ، وبذلك أصبح علم توجيه القراءات علماً أصيلاً يَرُدُّ على الطاعنين ، ويجيب عن تعليلها الذي يُبَيِّن وجهها في المعنى أو الصناعة. ومن ذلك [1] قوله تعالى : ﴿ ... إِلَىٰ بَارِئِكُمْ ... ﴾ (البقرة : ٥٤) فقد رُوي عن أبي عمرو بن العلاء في الهمزة الكسر والاختلاس ، وهو الإتيان بحركة خفيَّة ، والسكون المحض ، وهذه الأخيرة قد طعن عليها جماعة من النحويين ، ونَسبوا راويَها إلى الغلط على أبي عمرو . قال سيبويه[2] : « إنما اختلس أبو عمرو فظنَّه الراوي سكَّن ولم يضبط » . وقال المبرد : « ولايجوز التسكين مع توالي الحركات في حرف الإعراب في كلام ولاشعر ، وقراءة أبي عمرو لحن » .

وبعد أن عرض السمين أقوالهم في تلحين القراءة وتضعيفها ينبري للردِّ عليهم ، وتوجيهِ قراءة أبي عمرو ، فيقول : « وهذه جرأةٌ من المبرد وجَهْلٌ بأشعار العرب ؛ فإن السكون في حركات الإعراب قد ورد في الشعر كثيراً ، ومنه قول امرئ القيس[3] :

فاليومَ أشربْ غير مُسْتَحْقِبٍ   إثماً من الله ولا واغلِ

فسكَّن « أشربْ » . وقال جرير[4] :

سِيروا بني العمِّ فالأهوازُ منزلُكُم   ونهرُ تِيرى فما تعرفْكم العربُ

(١) الدر المصون ١ / ٣٦١ .
(٢) الكتاب ٢ / ٢٩٧ .
(٣) ديوانه ١٢٢ .
(٤) ديوانه ٤٨ .

فهذه حركات إِعراب وقد سُكِّنَتْ . وقراءة أبي عمرو صحيحة ؛ وذلك أن الهمزة حرف ثقيل ، ولذلك اجْتُرِئ عليها بجميع أنواع التخفيف ، فاستثقلت عليها الحركةُ ، فقُدِّرت ، وهذه القراءة تشبه قراءة حمزة رحمه الله في قوله تعالى : ﴿ ... ومكر السيِّئ ولا ... ﴾ (فاطر : ٤٣) فإنه سكَّن همزة « السَّيِّئ » وصلاً ، والكلام عليهما واحد ، والذي حسَّنه هنا أنَّ قبل الهمزة راءً مكسورة ، والراء حرف تكرير ، فكأنه توالى ثلاث كسرات ، فحَسُن التسكين ، وليت المبرد اقتدى بسيبويه في الاعتذار عن أبي عمرو وفي عدم الجرأة عليه ، وجميع رواية أبي عمرو دائرة على التخفيف ، ولذلك يُدغم المثلين والمتقاربين، ويُسَهِّل الهمزة ويُسَكِّن » .

وهكذا نصل إِلى أنَّ علماء العربية خدموا قراءات القرآن الكريم بالتوجيه والشرح ، وبيَّنوا أصولها ، وحقَّقوا في صلتها بقواعدهم الصناعية ، وردُّوا على المجترئين عليها بالتلحين أو التضعيف ، وتجاوزوا المتواتر منها إِلى الشاذِّ ، وتَعَدَّدت مناهجهم وطرقهم في هذه السبيل .

المبحث السادس
عناية المسلمين بضبط المصحف ورسمه
خدمةً للقرآن الكريم

لو تأمَّلْنا في تاريخ الكتابة العربية ورسمها الإملائي لوجدناها سابقة للوقت الذي نزل فيه القرآن ، ولكن الرغبة الشديدة التي كانت عند السلف للعناية بالقرآن الكريم من حيث تلاوتُه وصيانتُه من اللحن هي التي دفعَتْهم في القرن الهجري الأول إلى التفكير في وسيلة عملية تعصم تالي القرآن من الوقوع في اللحن ؛ وذلك لأنَّ أصل كتابته في المصاحف العثمانية كانت خاليةً من رموز الحركات ونَقْط الإعجام ، وكان الناس قريبين من موارده الصحيحة ، فلم تكن قضية تلاوته تلاوة صحيحة مُعْضِلةً تشْغل علماء السلف ، ولكن بعد اختلاط العرب الفصحاء بغيرهم وفُشُوِّ اللحن ، أصبحوا يفكرون فيما يهدي القارئ إلى القراءة الصحيحة [1] . وسوف نشير الآن بإيجاز إلى هذه الجهود التي بذلها علماء العربية في جانبين رئيسين ممَّا يتصل برسم المصحف :

١ - رموز الحركات :

ثمة روايات تَنْسُب إلى أبي الأسود الدؤلي بداية التفكير في وضع رموز للحركات الإعرابية في سبيل ضبط الرسم العثماني الخالي من

---

(١) فصول في فقه اللغة ١١٣ .

هذه الرمــوز. وينقل أبو عــمــرو الداني في كــتــابه «المحكم في نقط المصاحف» رواية عن المبرد يقول فيها [١]: «لَمَّا وَضَعَ أبو الأسود الدؤلي النحو قال: ابْغُوا لي رجلاً، وليكُنْ لَقِناً. فطُلب الرجل فلم يوجد إلا في عبد القيس. فقال أبو الأسود: إذا رأيتني لفظت بالحرف فضممت شفتيَّ فاجعل أمام الحرف نقطة، فإذا ضممت شفتيَّ بغنة فاجعل نقطتين، فإذا رأيتني قد كسَرْت شفتيَّ فاجعل أسفل الحرف نقطة، فإذا كَسَرْت شفتيَّ بغنة فاجعل نقطتين، فإذا رأيتني قد فتحت شفتيَّ فاجعل على الحرف نقطة، فإذا فتحت شفتيَّ بغنة فاجعل نقطتين». قال المبرد: «فذلك النَّقْطُ بالبصرة في عبد قيس إلى اليوم».

وكانت نُقَط الحركات هذه تُكتب بصبغ يخالف لون المداد الذي كُتبت به الحروف ونقطها، فكان ذلك يَشُقُّ على الكاتب؛ إذ يتحتم أن يكتب بقلمَيْن ومدادَيْن مختلفين[٢].

ويبدو أنه قد أتى على صنيع أبي الأسود في شكل الحركات الإعرابية حينٌ من الدهر، ثم طرأ عليها تعديل جديد قام به الخليل الفراهيدي، فقد أورد الداني في «محكمه» رواية ثانية عن المبرد يقول فيها[٣]: «الشكل الذي في الكتب من عمل الخليل، وهو مأخوذ من صور الحروف، فالضمة واو صغيرة الصورة في أعلى الحرف؛

(١) المحكم ٦.

(٢) فصول في فقه اللغة ١١٤.

(٣) المحكم ٧.

لئلا تلتبسَ بالواو المكتوبة ، والكسرة ياء تحت الحرف ، والفتحة ألف مبطوحة فوق الحرف » . وصنيع الخليل هذا لم يستقرَّ لدى الكُتَّاب إلا بعد فترة من الزمن ، فقد كانوا لايجرؤون على استخدامه ، ويُفَضِّلون عليه نَقْط أبي الأسود بحجة اتباع سُنَّة السلف ، وكانوا يُسَمُّون طريقة الخليل بشكل الشعر[1] ، والغاية من هذا الاحتراز صيانة القرآن الكريم من التبديل والتغيير .

وتُعَلِّل مصنفات رسم المصحف شكل هذه الحركات[2] ، فالحركات كما هو معلوم : فتحة وكسرة وضمة ، فموضع الفتحة من الحرف أعلاه ؛ لأنَّ الفتح مُسْتعل ، وموضع الكسرة منه أسفله ؛ لأنَّ الكسر مُسْتفل ، وموضع الضمة منه وسطه أو أمامه ؛ لأن الفتحة لَمَّا حصلت في أعلاه ، والكسرة في أسفله ، لأجل استعلاء الفتح وتَسَفُّل الكسر بقي وسطه ، فصار موضعاً للضمة .

ويشرح الإمام أبو عمرو الداني[3] طريقة تنقيط التشديد . وثمة مذهبان ، أحدهما : أن تجعل علامته أبداً فوق الحرف ، وصورة التشديد على هذا المذهب شين . والثاني : أن تجعل علامة التشديد دالاً فوق الحرف المفتوح ، وتحته إذا كان مكسوراً ، وأمامه إذا كان

---

(١) فصول في فقه اللغة ٤٠١ .

(٢) المحكم ٤٢ .

(٣) المحكم ٤٩ .

مضموماً . فأما السكون ، فأهل المدينة يجعلون علامته دارة صغيرة فوق الحرف ، وآخرون يجعلون علامته خاء ، يريدون بذلك أول كلمة خفيف ، وبعض أهل العربية يجعل علامته هاء . قال الداني[1] : « كان سبب نَقْط المصاحف تصحيح القراءة وتحقيق الألفاظ بالحروف؛ حتى يُتَلَقَّى القرآن على ما نزل من عند الله تعالى ، وتُلُقِّي من رسول الله ﷺ ، ونُقِل عن صحابته رضوان الله عليهم ، وأدَّاه الأئمة رحمهم الله تعالى ، فسبيل كل حرف أن يُوَفَّى حقَّه بالنَّقْط ممَّا يستحقُّه من الحركة والسكون والشدِّ والمدِّ والهمز وغير ذلك ، ولا يُخَصُّ ببعض ذلك دون كله » .

ومن هنا نخلص إلى أن جهود علماء السلف في شكل الفتحة والضمة والكسرة والسكون والتشديد بدأت منذ وقتٍ مبكر ، واختلفت اتجاهاتهم في ذلك ، إلى أن استقرَّ الأمر على صنيع الخليل الفراهيدي الرجل الفذِّ الذي كان له جهود كبيرة في تاريخ علوم العربية .

٢ - نقط الإعجام :

أعجمتُ الكتابَ إعجاماً إذا نَقَطْتَه ، وكتاب معجم : منقوط . والحروف المعجمة مثل الباء والتاء والثاء والنون . ومَنْ يتتبَّع الروايات التاريخية المختلفة في تاريخ الكتابة العربية يجد أن أبا الأسود الدؤلي وتلاميذه ، وهم نصر بن عاصم وعبد الرحمن بن هرمز ويحيى بن

---

(١) المحكم ٦ .

يعمر وعنبسة الفيل وميمون الأقرن ، هم الذين قاموا بنقط الإعجام ، وهو اتخاذ نقط جديد للحروف المعجمة في المصاحف الخالية منها ، تمييزاً لها من الحروف المهملة . ويذكر الإمام الداني في « محكمه » رواية يحيى بن أبي كثير حيث يقول[1] : « كان القرآن مجرداً في المصاحف ، فأول ما أحدثوا فيه النَّقْط على الياء والتاء ، وقالوا : لابأس به هو نور له ، ثم أحدثوا فيها نُقَطاً عند منتهى الآي ، ثم أحدثوا الفواتح والخواتم » .

ويرى الداني[2] أن الصدر من السلف أخْلَوا المصاحف من التنقيط والشكل ؛ لأنهم أرادوا الدلالة على بقاء السَّعة في اللغات ، والفسحة في القراءات التي أذن الله تعالى لعباده في الأخذ بها والقراءة بما شاءت منها ، فكان الأمر على ذلك إلى أن حَدَثَ في الناس ما أوجب نَقْطَها وشكلَها .

وقد سُئل الإمام مالك عن نَقْط القرآن[3] فأجاب : « أمَّا الإمام من المصاحف فلا أرى أن يُنَقَّط ، ولا يُزاد في المصاحف ما لم يكن فيها ، وأمَّا المصاحف الصغار التي يتعلَّم فيها الصبيان وألواحهم فلا أرى بذلك بأساً » .

ومثل هذه الروايات تُنْبئ عن خشية السلف الاجتراءَ على القرآن بالتبديل والتغيير ؛ لأن مثل هذا التنقيط في العصور المتقدمة كان فيه

---

(١) المحكم ٢ .

(٢) المحكم ٣ .

(٣) المحكم ١١ .

مجال للاجتهاد ، ولم يستقرَّ أمره بعد ، ومن هنا اختلف اجتهاد السلف في نقط الإعجام ما بين مترخِّص ومانع .

ويذكر الإمام الداني[1] أن الذي دعا السلف إلى نَقْط المصاحف بعد أن كانت خاليةً من ذلك وعاريةً منه وقت رسمها وحين توجيهها إلى الأمصار « ما شاهدوه من أهل عصرهم ، مع قُرْبهم من زمن الفصاحة، ومشاهدة أهلها، مِنْ فساد ألسنتهم ، واختلاف ألفاظهم ، وتغيُّر طباعهم ، ودخول اللحن على كثير من خواصِّ الناس وعوامِّهم ، وما خافوه مع مرور الأيام وتطاول الأزمان مِنْ تزيُّدِ ذلك وتضاعُفه فيمن يأتي بعد ... لكي يُرْجَعَ إلى نَقْطها ، ويُصار إلى شكلها عند دخول الشكوك وعدم المعرفة ، ويتحقق بذلك إعراب الكَلِم وتُدرك به كيفية الألفاظ » .

وثمة روايات تاريخية تُرجع عصرَ نَقْطِ الإعجام إلى زمن الصحابة وقبل أن يُكتب المصحف الإمام في عهد عثمان رضي الله عنه . وقد أشار بعض المؤرخين[2] إلى وثيقةٍ من وثائق البَرْديّ ، يرجع عهدها إلى عام ٢٢هـ ، وفيها حروف منقوطة .

كما أن الفراء[3] نقل عن سفيان بن عيينة أن زيد بن ثابت وجد حجراً

---

(١) المحكم ١٨ .

(٢) المفصَّل في تاريخ النحو ٦٨ .

(٣) معاني القرآن ١ / ١٧٢ .

مكتوباً عليه آية من غير تنقيط فنقَّطها ، كما أن بعض الصحابة كره النقط ، ودعا إلى تجريد المصحف منه كعبد الله بن مسعود[1] . وليس المقام هنا تحقيق مَنْ بدأ بهذا العمل الجليل ، وإنما المقام أن نشير إلى أن غَيْرة علماء العربية من السلف على القرآن هي التي دفعَتْهم إلى هذين العملين : نقط الإعجام والحركات .

وسارت الكتابة العربية على الصورة التي نجدها في الرسم العثماني، ولكن اتساع استخدام الكتابة العربية في القرون الهجرية الأولى أظهر الحاجة إلى قواعد للكتابة تكون أكثر تحديداً وضبطاً ، فاتجه علماء السلف منذ القرن الهجري الثاني إلى تكميل ما قد يبدو في الكتابة العربية مِنْ ثَغَرات ، وسَعَوْا إلى توحيد ما في الكتابة الأولى من قواعد متعددة[2] .قال ابن درستويه[3] : «ووجدنا كتاب الله عز وجل لايُقاس هجاؤه، ولا يُخالَفُ خطُّه، ولكنه يُتَلَقَّى بالقبول على ما أودع المصحف» . والمذهب الذي نذهب إليه في هذه المسألة هو مذهب الجمهور في وجوب التزام الرسم العثماني في المصاحف ، وذلك في كل زمان ومكان ؛ خشيةَ تَسَرُّب الفوضى والاضطراب إلى رسمه ، لو فتحنا باب كتابته بالرسم الإملائي المعاصر . وقد سُئِل الإمام مالك:

---

(١) المحكم ١٠ .

(٢) رسم المصحف ٧٣٥ .

(٣) الكُتَّاب ١٦ .

أرأيت من استكتب مصحفاً اليوم ، أترى أن يُكتب على ما أحدث الناس من الهجاء اليوم؟ قال : « لاأرى ذلك ، ولكن يُكتب على الكتبة الأولى »[1] .

---

(١) المقنع في رسم مصاحف الأمصار ١١٩ .

المبحث السابع
عناية المسلمين بعلم الأصوات خدمةً للقرآن الكريم

امتدَّت جهود علماء العربية لتشملَ طرق أداء القرآن الكريم أداء صوتياً صحيحاً ، كما ورد عن الرسول ﷺ ، وهو ما عُرِف في دراسات السلف بالتجويد ، وعُرِف في دراسات علم اللغة الحديث بعلم الأصوات . والمقصود به إعطاء الحروف حقها ، وإخراجها مِنْ مخارجها، ووصف الأصوات التي تخرج من جهاز النطق في الإنسان . والتجويد : مصدر جَوَّد الشيء تجويداً إذا أتى بالقراءة مجوَّدة الألفاظ ، بريئةً من الجَوْر عند النطق بها[1]. وقد ترك علماء العربية في هذا الجانب مؤلفات غزيرة تشير إلى نضج وخبرة ومعرفة دقيقة بأصوات العربية ، كما توصَّلوا إلى تحليلات دقيقة ، وافقت في كثير من جوانبها جهود علم اللغة الحديث الذي توافرت له معامل الاختبار ، والأجهزة الدقيقة التي لم تتوافر للسلف .

إنَّ الوصف المتقن لحروف العربية ومخارجها في جهاز النطق لدى الإنسان [2] ، أعان قارئ القرآن كثيراً للوصول إلى الأداء الصحيح أثناء تلاوة القرآن . يقول القارئ عبد الله بن ذكوان : « يجب على قارئ

---

(١) جمال القراء ٢ / ٥٢٥ .

(٢) انظر : شرح الهداية ١ / ٧٥ .

القـرآن أن يقـرأ بتـرتيل وتَرَسُّل ، وأن يعـرف مـخـارج الحـروف في مواضعها، ويستعمل إظهار التنوين عند حروف الحلق إظهاراً وسطاً بلا تشديد ، وإخراج الهمزة إخراجاً وسطاً حسناً ، وتشديد المضاعف تشديداً وسطاً ، وتفخيم الكاف والراء والزاي والخاء والحاء والطاء ، وترقيق الراء ، وتصفية السين ، وإظهار النون عند الخاء ، وإظهار الهاء وإخراجها من الصدر ، وإدغام ما يحسن فيه الإدغام ، وإظهار ما يحسن فيه الإظهار »[1] .

لقد عَدَّ السلفُ القارئ لاحناً لحناً خفيّاً إذا لم يُوَفِّ الحرف حقَّه ، أو كان مقصِّراً في معرفة صفته التي هي له ، أو زاد على هذا الحق ، فأعطى الحرف شيئاً من الصفات لايستحقها[2] . وذكروا [3] أنه لايُتمكن التجويد ، ولايُتحصل التحقيق إلاَّ بمعرفة حقيقة النطق بالمحرك والمسكَّن والمختلس والمرام والمشم والمهموز والمسهَّل والمحقَّق ، والمشدَّد والمخفَّف والممدود والمقصور والمبين ، والمدغم والمخفى والمفتوح والممال ، كما فصَّلوا في صفات الحروف وأحكام المدود ، وتفخيم الحروف وترقيقها ، والإدغام الصغير والكبير ، وتحدَّثوا عن الصفات الأصلية الملازمة للحرف ، ولاتنفك عنه بحال كالجهر والاستعلاء

---

(١) جمال القراء ٢ / ٥٢٦ .

(٢) جمال القراء ٢ / ٥٢٩ .

(٣) شرح الهداية ١ / ٧٨ .

والإِطباق ، والصفات العَرَضية ، وهي تعرض للحرف أحياناً ، وتنفكُّ عنه أحياناً كالتفخيم والترقيق والإظهار والإدغام والمد والقصر ، وفصَّلوا في أنواع المخارج وعددها . وجاء هذا التفصيل كله في كثير من المصنفات بغية الوصول إلى الأداء الصوتي الصحيح لكتاب الله عز وجل.

ولم تقتصر جهود علماء التجويد على وضع معايير النطق بأصوات القرآن وهي مفردةٌ ، بل شملت هذه الأصواتَ وهي مركبة ، أي : نطق الصوت وهو مركبٌ مع غيره من الأصوات في الكلمة ، ومن هنا كان لهذا العلم فرعان[1] ، أحدهما : علم الصوت المفرد ، والآخر علم الصوت التركيبي . وقد أقبل العلماء على دراستهم لكلا النوعين بالنحو الذي يتَّسم بالاستقصاء والتحري وتتبُّع الصوت في السياقات الصوتية المختلفة التي ورد فيها .

وطريق هذا العلم الأَخْذُ من أفواه المشايخ العارفين بطريق أداء القرآن بعد معرفة ما يحتاج إليه القارئ مِنْ مخارج الحروف وصفاتها والوقف والابتداء والرسم[2] .

وقد شَدَّد علماء السلف في باب صفة مَنْ يجب أن يُقرأ عليه ويُنقل عنه ، على مسألة الفقه بالعربية والتحقق من العناية بأسرارها ، يقول أبو محمد مكي[3]: «يجب على طالب القرآن أن يتخيَّر لقراءته

(١) انظر : مقدمة ((التحديد في الإتقان)) للداني .

(٢) انظر : كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي ١ / ٢٧٨ .

(٣) الرعاية لتجويد القراءة ٨٩ .

ونَقْلِه وضَبْطِه أهلَ الديانة والصيانة والفهم في علوم القرآن ، والنفاذ في علم العربية والتجويد بحكاية ألفاظ القرآن ، وصحة النقل عن الأئمة المشهورين بالعلم ، فإذا اجتمع للمقرئ صحة الدين والسلامة في النقل والفهم في علوم القرآن والنفاذ في علوم العربية والتجويد بحكاية ألفاظ القرآن ، كملت حاله ووجبت إمامته » .ويقرر[1] أبو محمد مكي بأن القراء يتفاضلون في العلم بالتجويد : فمنهم مَنْ يَعْلمهُ رواية وقياساً وتمييزاً ، فذلك الحاذق الفَطِن ، ومنهم مَنْ يعرفه سماعاً وتقليداً ، فذلك الوَهِن الضعيف ، لايلبث أن يَشُكَّ ، ويدخله التحريف والتصحيف ؛ إذ لم يَبْنِ على أصلٍ ، ولانَقَل عن فَهْم .

وسيبويه مع تقدُّم زمنِه سَجَّل في أواخر كتابه وصفاً دقيقاً للأصوات العربية بقي أساساً لكثير من الدراسات التي تَلَتْه ، وقد أفاد منه المصنفون الذين ألَّفوا في تجويد القرآن ، ولاسيما في حديثه عن حروف العربية وهي مفردة ومخارجها في جهاز النطق . ومن أمثلة تدقيقه في وصف مخارج الأصوات حديثه عن الضاد الضعيفة التي تَرِد في لهجة بعض القبائل[2] : « الضاد الضعيفة تُتكلف من الجانب الأيمن ، وإن شئتَ تَكَلَّفْتها من الجانب الأيسر ، وهو أخفُّ ؛ لأنها من

---

(١) الرعاية لتجويد القراءة ٨٩ .

(٢) الكتاب ٤ / ٤٣٢ .

حافة اللسان مُطْبقة ؛ لأنك جمَعْتَ في الضاد تكلُّف الإطباق مع إزالته عن موضعه ، وإنما جاز هذا فيها ؛ لأنك تُحَوِّلها من اليسار إلى الموضع الذي في اليمين ، وهي أخفُّ لأنها من حافة اللسان ، وأنها تخالط مَخْرَج غيرها بعد خروجها ، فتستطيل حين تخالط حروف اللسان ، فسَهُل تحويلها إلى الأيسر ؛ لأنها تصير في حافة اللسان في الأيسر إلى مثل ما كانت في الأيمن ، ثم تَنْسَلُّ من الأيسر حتى تتصل بحروف اللسان كما كانت كذلك في الأيمن » .

وفي المكتبة العربية سِفْرٌ في أصوات العربية له أهمية كبيرة في هذا الجانب هو « سرُّ صناعة الإعراب » لابن جني ، يقول عنه الدكتور كمال بشر في كتابه « علم الأصوات »[1] : « أمَّا وصف ابن جني للمخارج بالصورة التي سجَّلها في كتابه وترتيبه لهذه المخارج ، فهو يدلُّ على قوة ملاحظته وذكائه النادر . والحق أن النتائج التي وصل إليها هذا العالِم في هذا الوقت الذي كان يعيش فيه ، لَتُعَدُّ معجزة له ولمفكري العرب في هذا الموضوع . وممَّا يؤكد براعتهم ونبوغهم في هذا العلم أنهم قد توصَّلوا إلى ما توصَّلوا إليه من حقائق مدهشة دون الاستعانة بأية أجهزة أو آلات تُعينهم على البحث والدراسة كما نفعل نحن اليوم » .

ويُعَدُّ هذا الكتاب امتداداً لجهود علماء العربية التي نشأت ابتداءً

---

(١) علم الأصوات ٩٥ .

في كنف القرآن الكريم بُغْية خدمة لغته وبلاغته وأصواته ، ثم توسَّعت هذه الجهود لتبني علماً شامخاً ، يُفَصِّل في أحكام العربية تفصيلاً منتشراً شاملاً ، وابن جني نفسه وهو يدرس علم الأصوات كان يقف عند الآيات القرآنية كثيراً ، وكتابه هذا حافل بدَرْسها والتدقيق في تجويدها ، والنظر في مخارج حروفها وصفات هذه الحروف ، ومن ذلك قوله[1] : « فأمَّا الحركة الضعيفة المختلسة كحركة همزة بين بين وغيرها من الحروف التي يُراد اختلاس حركاتها تخفيفاً ، فليست حركة مُشَمَّةً شيئاً من غيرها من الحركتين ، وإنما أُضْعف اعتمادُها وأُخْفيَتْ لضرب من التخفيف ، وهي بزنتها إذا وُفِّيَتْ ولم تختلس ، وكذلك غير هذه الهمزة من الحروف المخفاة الحركات نحو قوله تعالى : ﴿ ...مَالَكَ لَاتَأْمَنَّا ... ﴾ (يوسف : ١١) وغير ذلك كله محرك وإن كان مختلساً ، يدل على حركته قوله تعالى ﴿ شَهۡرُرَمَضَانَ... ﴾ (البقرة : ١٨٥) فيمن أخفى . فلو كانت الراء الأولى ساكنة والهاء قبلها ساكنة ، لاجتمع ساكنان في الوصل ليس الأول منهما حرف لين والثاني مدغماً نحو : دابَّة وشابَّة ، وكذلك قوله عز وجل ﴿ ...أَمَّن لَّايَهِدِّيَ... ﴾ (يونس : ٣٥) لايخلو من أحد أمرين : إمَّا أن تكون الهاء مُسَكَّنَةً البتة ، فتكون التاء من « يَهْتدي » مختلسة الحركة ، وإمَّا أن تكون الدال مشددة ، فتكون الهاء مفتوحة بحركة التاء المنقولة إليها ، أو مكسورة

---

(١) سر صناعة الإعراب ١ / ٥٦ .

لسكونها وسكون الدال الأولى ، وكذلك ﴿ ... يَخِصِّمُونَ ﴾ (يسٓ : ٤٩) الحكم فيهما واحد » . والمقام لايتسع للمزيد من النصوص التي خدمت قراءات القرآن وأصواته وتصريفه وتجويده خدمة دقيقة ، أفادت منها الأجيال التالية فوائد جَمَّة ، ولم يزل الغرض عند السلف خدمة كتاب الله ، وفَهْمَ أسراره ، وتيسير تناوُله .

الخاتمة

تبيَّن لنا ممَّا سبق هذا الجهد الكبير الذي بذله المسلمون من خلال علماء العربية خدمةً للقرآن الكريم . ولولا أن المقام لايسمح بالمزيد من التفاصيل العلمية والتاريخية لجاءت الكتابة أوسع من هذا الإيجاز ؛ وذلك لأن كل مبحث يستحق أن يكون فصلاً أو باباً . وقد جاء البحث في سبعة مباحث ، تحدثت في المبحث الأول عن عنايتهم باللغة خدمة للقرآن ، وظهر لنا من معالمه التأليف في لغات القبائل الواردة في القرآن ، والتأليف في الأضداد ، والمشترك اللغوي ، والمفردات القرآنية ، والألفاظ المعرَّبة ، وغريب القرآن ، والفروق اللغوية، والمذكر والمؤنث ، ومواضع القطع والائتناف ، ومشكل القرآن ومعاجم اللغة المنهجية . وانتهى المبحث إلى أن باب اللغة باب واسع بذل السلف مِنْ خلاله جهوداً طيبة أسهمت في فهم التنزيل العزيز ، وتدبُّر آياته .

وتحدثت في المبحث الثاني عن عناية المسلمين بالنحو في سبيل الغرض نفسه ، وتبين لنا من خلال هذا المبحث أن القرآن الكريم كان الدافع الرئيس لعلماء السلف لوَضْع علم النحو والإعراب ، وذلك بعد تَفَشِّي اللحن وتزاوُج اللغات المختلفة في الوسط الاجتماعي .

وجاء المبحث الثالث عن عنايتهم بالبلاغة ، وثبت لنا فيه أن القرآن

الكريم هو العامل الرئيس الذي ساعد على الشروع في الدراسات البلاغية بمختلف اتجاهاتها ؛ وذلك لدفع المطاعن والشكوك التي أثيرت حوله ، وللتأكيد على إعجازه وتفوُّقه على الأساليب الأدبية .

وأمَّا المبحث الرابع فقد جاء عن عنايتهم بالشعر في سبيل الاستشهاد به على غريب القرآن ومفرداته وبيانه ، وأشرنا إلى جهود ابن عباس رضي الله عنه في هذا السبيل ، وكلما تباعد الناس عن عصر نزول القرآن برزت الحاجة إلى معرفة غريب القرآن ، فكان الشعر من أهم الوسائل لمعرفة ذلك .

وتحدَّثْتُ في المبحث الخامس عن عنايتهم بتوجيه القراءات في ضوء العربية خدمةً للقرآن الكريم ؛ وذلك لأن هناك ارتباطاً وثيقاً بين القراءات ولهجات القبائل العربية ، وأشَرْتُ في هذا المبحث إلى نزول القرآن بلهجة قريش التي اشتملت على خصائص كثيرة من لغات القبائل ، وقد بذل النحاة جهداً فائقاً لخدمة هذه القراءات المتواترة والشاذَّة في ضوء صناعتهم المحكمة .

ويأتي المبحث السادس عن عنايتهم بضبط المصحف ورسمه ، وشرَحْتُ جهودهم في رموز الحركات ، ونقط الإعجام ، وأشَرْتُ إلى تطور الكتابة العربية إلى أن استقرَّت على ما قرره الخليل الفراهيدي من مصطلحات .

وأخيراً يأتي المبحث السابع عن عنايتهم بعلم الأصوات خدمةً

للقرآن الكريم ، فقد امتدَّتْ جهود علماء العربية لتشمل طرق أداء القرآن الكريم وقدَّموا لقارئ القرآن وصفاً دقيقاً للحروف العربية ومخارجها ، وذلك لإعطاء كل حرف حقَّه ، وتُعَدُّ جهودهم في هذا الباب متميزة ، في عصر لم يعرف الأجهزة ومعامل الاختبار .

وبذلك نخلص إلى أن القرآن الكريم هو الباعث الرئيس على نشأة علوم اللغة العربية ، ثم ازدهارها وتطورها ، فكان من حكمة الله عز وجل أن قيَّض لهذا الكتاب العزيز همَّة هؤلاء الرجال وجهودهم .

اللهم إنا نسألك التوفيق والسداد والحمد لله رب العالمين .

المراجع

١ – أثر القرآن في تطور النقد العربي : د. محمد زغلول سلام ، الطبعة الأولى ، مصر ، مكتبة الشباب .

٢ – أثر القراءات القرآنية في الدراسات النحوية : د. عبد العال سالم مكرم ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٨م الكويت .

٣ – الأضداد لابن الأنباري ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، الكويت ١٩٦٠م.

٤ – الإيضاح في علل النحو للزجاجي ، تحقيق د. مازن المبارك ، بيروت ١٣٩٣هـ–١٩٧٣م .

٥ – الأضداد لقطرب ، تحقيق : حنا حداد ، دار العلوم ، الرياض ، ١٤٠٥هـ–١٩٨٤م .

٦ – إعجاز القرآن للباقلاني ، تحقيق : أحمد صقر ، الطبعة الرابعة ، مصر ، دار المعارف .

٧ – الاقتضاب في شرح أدب الكتّاب للبطليوسي – دار الجيل ١٩٧٣م– بيروت .

٨ – إعجاز القرآن : د. مصطفى مسلم ، دار المسلم ، الرياض ، ١٤١٦هـ.

٩ – إيضاح الوقف والابتداء للأنباري ، تحقيق محيي الدين رمضان ، دمشق ١٣٩٠هـ–١٩٧١م.

١٠ – أصول علم العربية في المدينة : د. عبد الرزاق الصاعدي . مقال في مجلة الجامعة الإسلامية العدد ١٠٥ .
١١ – الإتقان في علوم القرآن للسيوطي – بيروت ، دار الفكر.
١٢ – اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية ، الرياض – مطابع المجد التجارية.
١٣ – البديع لعبد الله بن المعتز ، نشر أغناطيوس كرا تشقوفسكي .
١٤ – البيان والتبيين للجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، مصر.
١٥ – البرهان في علوم القرآن للزركشي تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، بيروت ، ١٣٩١هـ-١٩٧٢م.
١٦ – البيان العربي د. بدوي طبانة مصر ، الطبعة السادسة .
١٧ – تنبيه الألباب على فضائل الإعراب للشنتريني : تحقيق : د. معيض العوفي ، ١٤١٠هـ، جدة.
١٨ – التفكير البلاغي عند العرب : د. حمادي صمود ، تونس ، ١٩٨١م.
١٩ – تاريخ الأدب العربي : د. عمر فروخ ، بيروت ، ١٩٨١م.
٢٠ – التلخيص للقزويني : شرح عبد الرحمن البرقوقي ، بيروت .
٢١ – تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : تحقيق : السيد أحمد صقر ، بيروت ، دار الكتب العلمية .
٢٢ – التحديد في الإتقان والتجويد للداني ، تحقيق : د. أحمد الفيومي ، مصر ١٩٩٣م.
٢٣ – جامع البيان في تفسير القرآن للطبري – دار المعرفة – بيروت

لبنان ١٣٩٨هـ-١٩٧٨ م طبعة مصورة.
٢٤ - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ، دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان.
٢٥ - جمال القراء للسخاوي ، تحقيق : د. علي البواب ، مكتبة التراث ، مكة ، ١٤٠٨هـ.
٢٦ - الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي ، تحقيق: د. أحمد الخراط ، دار القلم دمشق ١٤٠٦هـ.
٢٧ - رسم المصحف : د. غانم الحمد ، بغداد ، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.
٢٨ - الرعاية لأبي محمد مكي ، تحقيق د. أحمد حسن فرحات ، دار عمار ، عمان ١٤٠٤هـ.
٢٩ - شرح الهداية للمهدوي ، تحقيق د. حازم حيدر ، الرياض ، مكتبة الرشد ، ١٤١٦هـ.
٣٠ - الصعقة الغضبية - للطوفي ، تحقيق : د. محمد خالد الفاضل، الرياض ، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.
٣١ - الصاحبي لابن فارس : تحقيق : السيد أحمد صقر ، مصر ، مطبعة الحلبي.
٣٢ - الصناعتين للعسكري ، تحقيق : علي محمد البجاوي ، مصر.
٣٣ - طبقات القراء لابن الجزري ، نشره برجستراسر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٢هـ .
٣٤ - طبقات النحويين واللغويين للزبيدي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، مصر ، دار المعارف.

٣٥ – الطراز للعلوي ، مكتبة المعارف ، الرياض ، ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م.

٣٦ – علم الأصوات : د. كمال بشر – مصر – ١٩٨٠م.

٣٧ – الفروق اللغوية وأثرها في تفسير القرآن : د. محمد الشايع – الرياض ، ١٤١٤هـ–١٩٩٣م.

٣٨ – الفروق لأبي هلال العسكري ، الطبعة الثانية عام ١٩٧٧م، بيروت.

٣٩ – فصول في فقه العربية : د. رمضان عبد التواب ، الطبعة الثانية، مصر ، مكتبة الخانجي.

٤٠ – القطع والائتناف للنحاس ، تحقيق . د. أحمد خطاب العمر ، بغداد ١٣٩٨هـ.

٤١ – الكتاب لسيبويه : تحقيق : عبد السلام هارون ، الثالثة ، ١٤٠٣هـ ، ١٩٨٣م ، مصر.

٤٢ – كتاب الكُتَّاب لابن درستويه ، تحقيق : د. إبراهيم السامرائي ، الكويت ، ١٣٩٧هـ .

٤٣ – الكتاب الموضح للشيرازي ، تحقيق : د. عمر حمدان الكبيسي ، ١٤١٤هـ–١٩٩٣ م جدة.

٤٤ – الكشاف للزمخشري ، مصر ، مطبعة الحلبي ، ١٣٨٥هـ – ١٩٦٦ م.

٤٥ – كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي ، تحقيق : د. لطفي عبد البديع – مصر ١٣٨٢هـ.

٤٦ – لغة القرآن ، مكانتها ، والأخطار التي تهددها ، د. إبراهيم أبو عباة ، الرياض ١٤١٣هـ .
٤٧ – لغات القبائل الواردة في القرآن لأبي عبيد ، تحقيق : د. عبد الحميد السيد طلب ، الكويت ، ١٩٨٥م.
٤٨ – المشترك اللغوي : د. توفيق شاهين ، مصر ، الأولى ، ١٤٠٠هـ –١٩٨٠م.
٤٩ – المدارس النحوية : د. شوقي ضيف ، دار المعارف ، مصر ، الطبعة الرابعة.
٥٠ – المعرب للجواليقي : تحقيق : د. ف عبد الرحيم ، دار القلم ، دمشق ، ١٤١٠هـ–١٩٩٠م .
٥١ – المفردات للراغب الأصبهاني ، تحقيق : محمد سيد كيلاني ، مصر.
٥٢ – المقنع في رسم مصاحف الأمصار للداني : تحقيق : محمد الصادق قمحاوي ، مصر.
٥٣ – مراحل تطور الدرس النحوي : د. عبد الله الخثران ، الإسكندرية ، ١٤١٣هـ – ١٩٩٣م .
٥٤ – معاني القرآن للفراء ، تحقيق : محمد علي النجار وأحمد نجاتي ، بيروت ، عالم الكتب ، ١٩٨٠م.
٥٥ – مفتاح العلوم للسكاكي ، مصر ، مطبعة الحلبي ١٣٥٦هـ– ١٩٣٧م.
٥٦ – معجم الأدباء لياقوت ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤٠٠هـ–

١٩٨٠م.
٥٧ – المحتسب لابن جني ، تحقيق : علي النجدي ناصف وآخرين ، مصر ، ١٣٨٦هـ.
٥٨ – مراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – مصر – مطبعة دار نهضة مصر.
٥٩ – المحكم في نقط المصاحف للداني ، تحقيق : عزة حسن ، دار الفكر – ١٤٠٧هـ .
٦٠ – الموجز في تاريخ البلاغة : د. مازن المبارك ، بيروت ، دار الفكر.
٦١ – مقدمة ابن خلدون : ابن خلدون ، الطبعة الرابعة ١٣٩٨هـ – ١٩٧٨م .
٦٢ – المزهر للسيوطي ، تحقيق : محمد أحمد جاد المولى ورفاقه ، مصر ، مطبعة الحلبي .
٦٣ – المستدرك على الصحيحين للحاكم ، دار الكتاب العربي – لبنان ، بيروت .
٦٤ – النكت في إعجاز القرآن للرماني ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، مصر ، دار المعارف .
٦٥ – نزهة الألباء للأنباري ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، مصر.
٦٦ – وفيات الأعيان لابن خلكان ، تحقيق : د. إحسان عباس بيروت .

الفهرس

عناية المسلمين باللغة العربية

خدمة للقرآن الكريم

إعداد

أ. د. سليمان بن إبراهيم العايد

أستاذ اللغويات

ورئيس تحرير مجلة جامعة أم القرى

بمكة المكرمة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله .

وبعد ، فتلقيت دعوة كريمة، من مقامٍ كريم، لغاية نبيلة، ومقصدٍ جليل؛ للمشاركة في ندوةٍ مُحِضَتْ للوحي الرَّبَّانيّ، وما استنبطته من علومٍ، وأحاط به من فنون، وتُعرِّفُ الجاهلَ، وتذكِّر النَّاسيَ جهوداً بُذِلَتْ في خدمة القرآن، وإن كان ذلك غير خافٍ على من أنزل القرآن، ولا غائبٍ عمّن لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء، بغرضِ إبراز عملٍ رائد ، وجهد ظاهر، الحديثُ عنه يشحذ الهمم ، ويحفز العاملين، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون .

وقد نصّت الدعوة على موضوع المشاركة، فلم يكن لي خيار فيه، وحدّد زمن تقديمه، كان زمناً تزاحمت عليَّ فيه الأعمال والأشغال، وكُلٌّ يقول: أنا الأولى بالتقديم، وما وقفت عن تمييل النظر، وسبر غور الموضوع، حتّى شرعْتُ فيه، ولمّا تَتَّضح لي فكرته، قد التبست معالمه، وخفيت منائره، وعَسُر مسلكه، والتوى دَرْبُه. وهو عملٌ -في نظري- لا ينهض به بحث في ندوة، ولا تأتي عليه مقالةٌ في مجلّة؛ لاتّساع مجاله، وعمق موضوعه، ومكانتِه من نفسِ كُلِّ مسلمٍ، غير أنّ كرم الدعوة ومقامها يَحتِم عليّ أن أفعل شيئاً ما، أشارك به حملة القرآن وخدمته هَمَّهم، لعلِّي أحشر معهم ، وهم قومٌ لا يشقى بهم جليسهم، والمرء يحشر مع جليسه ومع من أحبَّ، وأنال شرفاً تسمو إليه هِمّةُ المسلم.

فشرعت في العمل، وليس من سَدَمي أن أقدّم فيه إحصاءً مسروداً للدواوين المدوّنة، أو المؤلّفات المؤلّفة، أو المصنّفات المصنّفة، أو المقالات المنشورة، أو التقارير المحفوظة، ولا يَسْمو العمل ليؤرِّخ لعلمٍ من العلوم، ويستوعب الحديثَ عن نشأته، وتاريخه، ومصنفاته، وأصوله وفروعه. كما أنه ليس من هَمِّه أن يستغرق الحديث في فكرةٍ ما، استغراقاً لا يدع لغيره مقالاً، أو يُدّعى فيه الإحاطة والشمول .

بل هو محاولة لبيان تلازم علوم القرآن وعلوم العربيّة، وتآخيهما؛ حتّى إنّه لَيَعْسُرُ فَصْلُ أحدِهما عن الآخر، في النشأة والتاريخ، والتكوين والتأليف، والدوافع والمقاصد، حتّى صار بينهما تزاوج مكين، وتمازج وثيق متين، بحيث لا يستغني طالب علمٍ عن العلم الآخر ، ولا يُؤْتي شقٌّ ثمرته -على الوجه المرضيِّ- بدون الشِّقِّ الآخر؛ لافتقار كُلٍّ إلى شِقِّه، وتعذُّر استغنائه عنه. كما توحي بذلك نشأتهما وتاريخهما، وتأكيد أهل العلم ذلك، من خلال كلماتهم، ومؤلفاتهم، وتجاربهم العملية ، في الحياة العلمية .

لم يمرّ بالعربيّة حدثٌ أعظم من الإسلام ، ونزول القرآن على محمّد ﷺ ، فقد صيَّر هذا الحدث العربيَّةَ لغة مرغوباً فيها ، لا لنفوذها السياسيِّ، ولا لسبقها الحضاريّ، وإنّما لمكانتها الدينيّة ؛ إذ تسامى أهل البلاد المفتوحة إلى درس العربيّة ، والعناية بها ، من أجل تحقيق العبادة ، ومن أجل تلاوة القرآن ، ومن أجل فهم النصوص الشرعية ،

فكان من جرَّاء ذلك نشأة علوم العربية من نحو وصرف ، ولغة ومعجم، وأدب وبلاغة ، كُلّ ذلك وُجِدَ ليقومَ عليه درسٌ للعربيّة قويّ .

وصار هذا الأمر في حسٍّ المسلم عقيدةً وواجباً شرعيّاً، لا يختلف في ذلك من لغته العربيّة، ومن لغته غير العربيّة، وصارتْ لغة القرآن وما داناها من لغةٍ لغةً وهدفاً يتسامى إليه أهل الإسلام، وتَشْرَئِبُّ إليه أعناقهم، وتتطاول إليه هاماتهم ، وعدُّوا القرآن نموذجاً أعلى للبيان العربيّ ، فأقبلوا عليه يبحثون عن وجوه بيانه ، وأسرار إعجازه ، ممّا كان سبباً في نشأة علوم العربيّة .

إنّه لولا القرآن، ولولا الإسلام لم يكن هناك عربيّةٌ كما نرى، أو لبقيَتْ العربيَّةُ لغة فئةٍ معزولةٍ عن العالم ، تعيش في صحرائها، يزهد فيها العالم، ويرغب عنها إلى غيرها، غير أنَّ الإسلام نقل العربيّة إلى بُؤْرة الاهتمام العالميّ، وجعل لها الصدارة ، اهتماماً، وتعلّماً ، يطلبها العربيُّ وغَيْره، ويغار عليها كل مسلم، ويتمنّى أن يتقنها كُلّ مُصَلٍّ، ذلك أنّها تحلّ في قلبِ كلّ مسلم في أعلى مكانٍ منه، وهي أجلّ وأكبر لديه من كل لسانٍ، وكل لغة .

دخل الناس في الإسلام، وانقادوا له راغبين أو خاضعين، فتعلّموا لسانه، ورأوا أنه لا يتمُّ لهم دينٌ إلاّ بلغته، فبادروا إلى خدمتها، والعناية بها، كما بادروا إلى حفظ القرآن والسُّنَّة، ودرس التفسير والحديث، ومعرفة أصول الدين والفقه، بل جعلوا اللسان العربيّ بوّابة

إلى هذه العلوم، لا يولج إليها إلاّ به، بل نسي كثيرٌ أن له لغةً غير العربيّة، وانصرف فكره إليها، حتّى إنّ بعضهم ما كان يطيب له أن يذكر لغته الأولى وقد أكرمه الله باللسان العربي، فضلاً عن أن يقارن تلك اللغة بلسانه الجديد.

وفرغت فئاتٌ من المسلمين من غير العرب، من الموالي لخدمة اللسان العربيّ في مستوياته المختلفة: الصوتيّ، والصرفي، والتركيبي، والدلاليّ، لم يقتصر أمره على ما ورد به استعمال القرآن أو السُّنَّة، بل جاوزه إلى جمع اللغة، وإحصاء شاردها ونادرها، وحصر غريبها وشاذّها، في جهدٍ لم يتحقّق للغةٍ من اللُّغاتِ، وعملٍ لم يحظ به لسانٌ من الأَلْسنةِ، حتّى رأينا من مصنّفات العربية الشيء العجاب، ألّفه أو اكتتبه قومٌ ليسوا من أهلها نسباً، ولكنهم منهم ولاءً وحُبّاً.

أقبلت الأمّة على كتاب ربّها، وأكبّت عليه حفظاً، ودرساً، وفهماً لمعانيه، وتقيُّداً بأحكامه، وميزاً لألفاظه ومبانيه، ومعرفة لطرائق رسمه، وإسناد قراءاته، وكان لعلماء العربيّة اليدُ الطولى في خدمة القرآن، في ميادين متنوّعة، في رسمه وضبطه، ومعانيه وقراءاته، وأبنيته وألفاظه، وبلاغته وإعجازه، بل لا أبالِغُ إذا قلتُ: إنّ علوم العربية لولا القرآن ما كانت، ولا كان للعربية شأن، ولبقيت محصورةً في صحرائها القاحلة، وجزيرتها العازبة عن حياة الحضارة والمدنيّة، ولبقي أهلها على شائهم ونَعَمِهم، يتتبعون من أجلها مواقع القطر، ومنازلَ الغيث، ويعنون بما

يرتبط بهذه الحياة البسيطة، من علمٍ بالأنواء والمنازل، والأفلاك والأبراج، والريح وأوقات هبوبها، لا يجوزون هذا إلاّ إلى معرفة أنسابهم، والفخر بأحسابهم، والتمدّح بفعالهم، وإلا قول الشعر، وارتجال الخطب، وحفظ ما استجادوا من ذلك، وإلاّ نُتفاً من حِكَمٍ وأمثالٍ، تهديهم إليها تجاربهم في الحياة، لا هَمَّ لهم وراء ذلك، ليلٌ ينجلي، ونهارٌ يتجلَّى:

ليلٌ يكرُّ عليهمُ ونهارُ

في دورةٍ فلكيّة مكرورةٍ، فسبحان من غيَّر هذه الأُمَّة لتكون كما قال ابن فارسٍ: «كانت العربُ في جاهليتها على إرثٍ من إرثِ آبائهم في لغاتهم، وآدابهم، ونسائكهم، وقرابينهم، فلمّا جاء الله (جلَّ ثناؤه) بالإسلام حالتْ أحوالٌ، ونُسِخَتْ دياناتٌ، وأُبْطِلت أمورٌ، ونُقِلَتْ من اللُّغة ألفاظٌ عن مواضع إلى مواضع أخر، بِزياداتٍ زيدتْ، وشرائع شُرِعَتْ، وشرائط شُرِطت، فعَفَّى الآخِرُ الأوّلَ، وشُغِلَ القوم - بعد المغاورات والتجاراتِ، وتطلّب الأرباح، والكدح للمعاشِ في رحلة الشتاء والصّيف، وبعد الإغرام بالصيد والمعاقرة والمياسرة - بتلاوة الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيلٌ من حكيم حميد، وبالتفقُّه في دينِ الله عز وجلّ وحفظ سُنَنِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم مع اجتهادهم في مجاهدة أعداء الإسلام.

فصار الذي نشأ عليه آباؤهم، ونشؤوا هم عليه كأن لم يكن، وحتّى تكلّموا في دقائقِ الفقه ، وغوامض أبواب المواريث وغيرها من علم الشريعة، وتأويل الوحي بما دُوّن وحفظ ... فسبحان من نقل أولئك في الزمن القريب بتوفيقه عمّا ألفوه، ونشؤوا عليه، وغُذوا به، إلى مثل هذا الذي ذكرناه »[1].

هذا فِعْل الإسلام بأمَّةِ العرب ، أمّا غيرهم فهم كما قال أبو حاتم: « أقبلتِ الأمم كُلّها إلى العربيّة يتعلّمونها رغبةً فيها، وحرصاً عليها، ومحبَّة لها وفضلاً أبانه الله فيها للناس ، ليبيِّن لهم فضلَ محمّد صلى الله عليه وسلم على سائر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين، وتثبُت نبوَّته عندهم، وتتأكّد الحُجَّة عليهم، وليظهر دين الإسلام على كُلِّ دينٍ؛ تصديقاً لقوله (عزَّ وجلَّ) حيثُ يقولُ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ (التوبة: ٣٣).

ولو ذهبنا نَصِفُ اللُّغاتِ كُلَّها عجزنا عن تناول ما لم يُعْطَه أَحَدٌ قبلنا، ولكنّا نذكر من ذلك على قدر المعرفة، ومقدار الطاقةِ ، ونتكلَّم بما علمنا منه محبَّةً لإيرادِ فَضْلِ لغة العرب؛ إذْ كان فيه إظهار فضيلة الإسلام على سائر الملل، وإبراز فضل محمد صلى الله عليه وسلم على جميع الأنبياءِ والرسل عليهم الصلاة والسلام، وإن كان ذلك ظاهراً بنعمة الله، بارزاً بحمد الله؛ لأن دين الإسلام عربيّ، والقرآن عربيّ،

---

(١) أبو الحسن أحمد بن فارس (ت ٣٩٥ هـ) الصاحبي / تحقيق السيد أحمد صقر / الناشر عيسى البابي الحلبيّ وشركاه / القاهرة / ١٩٧٧ م . ص ٧٨ - ٨٣ .

وبيان الشرائع، والأحكام، والفرائض، والسنن بالعربية»[1].

لولا الإسلام، والقرآن لم تحظَ اللُّغةُ العربيَّةُ بما حظيَتْ به من خدمةٍ، بتدوين علومها، وتبويب مسائلها، وتتابع أجيالٍ فأجيالٍ على النظر فيها جمعاً، وتأليفاً، وتقعيداً، وبحثاً عن أوجه جمالها، وإعجاز قرآنها، وتمجيداً لها وتعظيماً، ليس من أبنائها ذوي الأعراق العربيّة، وإنما من أبنائها ذوي الأصول الأعجمية، ممّن كانت لغتهم الأُمّ أو الأولى غير العربيّة؛ إذ من المعروف أن عدداً غير قليل من أبناء الشعوب الإسلامية انتحلوا العربيّة، فصارت لغتهم ولسانهم، وتناسوا بل هجروا لغتهم الأُمَّ، وكتبوا في تمجيد العربية، وبيان فضلها، والتعصُّب لها ما لم يكتبه قلمٌ من صليبةٍ عربيَّةٍ، ولنا أن نمثِّل في هذا السياق بجمهرةٍ من علماء العربية وغيرهم من مثل أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) وأبي حاتم الرازي (ت ٣٢٢ هـ) وأبي علي الفارسي (ت ٣٧٧هـ) وأحمد بن فارسٍ (ت ٣٩٥هـ) وأبي حيَّان التوحيدي (ت ٤١٤هـ). وكانوا جميعاً من أعراقٍ غير عربيّة، ولم تمنعهم تلك الأعراق عن الإشادة بالعربيّة تمجيداً لها وتعظيماً، وتفضيلاً وتقديماً، ليس لهم دافع إلاّ أنهم مسلمون، قرؤوا القرآن، ورأوا ما فيه من أوجه البيان، وسر النظم، ودلائل الإعجاز، ورأوا أن لُغةً اختيرتْ لهذا الكتاب لم يكن اختيارها عبثاً؛ لأنّ

---

(١) أبو حاتم أحمد بن حمدان الرازي (ت ٣٢٢ هـ) كتاب الزينة في الكلمات الإسلامية العربية / تحقيق حسين بن فيض الله الهمداني / مركز الدراسات والبحوث اليمني / ط الأولى / سنة ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م / ص ٧٥.

الاختيار من رَبِّ العالمين، ذي الخلق والأمر، اختص بالرحمة وقسمتها، كل شيءٍ عنده بحكمةٍ ومقدار، يخلُقُ ما يشاءُ ويختار ما يشاء، له الحكمة البالغة في ذلك.

وقد حمل نزول القرآن باللغة العربية طائفةً أن يجعلوه دليل فضلها على سائر اللغات، نجد ذلك في مثل قول أبي حاتمٍ الرَّازيّ (ت ٣٢٢هـ):

« فأفضل ألسنة الأمم كلها أربعة: العربية، والعبرانية، والسريانية، والفارسية؛ لأن الله (عزّ وجلّ) أنزل كتبه على أنبيائه (عليهم السلام) آدم، ونوح، وإبراهيم، ومن بعدهم من أنبياء بني إسرائيل بالسريانية والعبرانية، وأنزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم بالعربية، وذكر أن المجوس كان لهم نبيٌّ وكتابٌ، وأنّ كتابه بالفارسيّة، هذا ما اتّفق عليه أصحاب الشرائع »[١].

وقد جعل الرّازي العربيّة أفضل اللغات الأربع، وأفصحها، وأكملها، وأتمّها، وأعذبها، وأبينها، وجعل حرص النّاس على تعلّم العربية علامة فضلها، ونقل الكتب السماوية المنزلة بغير العربية إلى العربية، ونقل حكمة العجم إليها، وما في كتب الفلسفة، والطب، والنجوم، والهندسة، والحساب من اليونانية والهندية إلى العربيّة وجهاً آخر لفضلها، في حين لم يرغب أهل القرآنِ والكتاب العربيّ في نقله إلى شيءٍ من اللُّغات، ولا قدر أحدٌ من الأمم أن يترجمه بشيء من الألسنة..

(١) أبو حاتم، الزينة ص ٧٣.

بل تعذَّر عليهم لكمال العربيّة ، ونقصان غيرها من سائر اللغات[1] .

وقد قال نحواً من هذا ابن فارس ، بل لعلّه اقتفاه في أن الترجمة الحرفية للقرآن متعذّرة، وأنه لا يمكن إلا أن يحال القرآن إلى عبارةٍ سهلة، تخلو من سمات لغة الأدب ، ثم يترجم معناها فيما بعد ، ومثل لهذا بمثل قوله ﴿ ... فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ ... ﴾ (الأنفال : ٥٨)[2] .

ولابن فارس كلامٌ نحو هذا ، ينحو إلى تفضيل العربية على غيرها لنزول القرآن بها، في كتابه (الصاحبي في فقه اللغة العربية وسنن العرب في كلامها)، وهو كتابٌ ينضح بالتمجيد والتعظيم ، وبيان فضل العربيّة على غيرها من اللُّغات، ممّا يعدُّه بعضٌ تعصُّباً غير مقبول، وهو من وجهة نظرنا عمل عظيم، وبخاصَّة إذا علمنا حقيقة البيئة المحيطة بابن فارسٍ، وهي بيئةٌ تدعو لإحياءِ المجد الفارسيّ، وإحياء اللّغة الفارسيّة ، حتّى إنّ الفارسية الحديثة كان تأسيسها في عصر ابن فارسٍ وقد سار على نقيض قومه .

وابتدأ هذا التمجيد بتقرير أنّ العربيّة توقيفٌ من عند ربِّ العالمين، ولم يسمٍّ لغةً أخرى بهذه السِّمة، وكأنّه يرى أنّ هذه ميزةٌ انفردت بها العربيّة عن لغات العالم، فكانت العربيّة وحياً حُفِظ حتّى نزل بها القرآن، فانضمَّ الوحي إلى الوحي، وهذا كأنّه يقول فيه كما أنّ للعرب وأتباعهم ديناً امتاز عن غيره بأنه وحيٌ مصون، لم تمسَّه يد التغيير،

---

(١) السابق ص ٧٣ .

(٢) انظر ، أبو حاتم ، الزينة ص ٧٤ ، وابن فارس ، الصاحبي ص ١٦ – ١٧ .

فإنّ للعرب أيضاً لغةً مصونةً مرعيَّةً برعاية الله، صانتها عن التغيير والابتذال، ورقت في مراقي المجد والسُّموّ، يحفظها ربُّها ويهيّئها، وهي أعلى لغةٍ، لنزول أعلى كتابٍ بها، وأعظم دين، وخاتم الأديان، الإسلام، هذا كلام لا يعسُرُ عليك استنباطه من كلامه. وابن فارسٍ يتوسع في التوقيف، فيرى أن العربيّة توقيف في ألفاظها، وأصواتها، وأبنيتها، وتراكيبها ، وأساليب بيانها، بل كتابتها وخطها، وعلومها من إعرابٍ، وعروض[1]، حتى إنّه عدّ ما ذكره من أصول وقياسٍ توقيفاً[2] .

كما عقد باباً لبيان أنّ «لغة العرب أفضل اللُّغات وأوسعها» ، صدّره بقوله تعالى ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ (الشعراء: ١٩٢-١٩٥) فوصفه (جلّ ثناؤه) بأبلغ ما يوصَفُ به الكلام ، وهو البيان[3] .

وهو بيانٌ متميِّزٌ لا يقتصر على مجرَّدِ الإبانةِ، وإنّما يتجاوزُ ذلك إلى قيمٍ كلامية وتعبيريّة، قلَّ أن تتوافر في غيرِ العربيّة، ممّا يُعْجزُ النَّقَلة عن نقل القرآنِ إلى لغاتهم بدرجة بيانه العربي. وهذه سمةٌ ليسَتْ مقصورةً على القرآنِ، بل هي في الكلام العربيِّ كُلِّه، جاهليِّه وإسلاميِّه، لكنّها تجلَّت أكثر في كلام ربِّ العالمين، القرآن المجيد، حتى قال ابن فارسٍ:

---

(١) انظر ابن فارس ، الصاحبي ص ٦ – ١٥ .

(٢) السابق ص ١١٢ – ١١٣ .

(٣) السابق ص ١٦ .

«إنّ كلام الله (جَلَّ ثناؤه) أعلى وأرفع من أن يضاهى، أو يقابل، أو يعارضَ به كلامٌ، وكيف لا يكون كذلك، وهو كلام العليِّ الأعلى، خالق كُلِّ لغةٍ ولسان، لكنّ الشعراء قد يومئون إِيماءً ، ويأتون بالكلام الّذي لو أراد مُريدٌ نَقْلَه لاعتاص، وما أمكن إلاّ بمبسوطٍ من القولِ، وكثيرٍ من اللّفظ»[1] . ثمّ ذكر نماذج من الشعر وكلام العرب[2]. ثمّ ذكر شيئاً ممّا جعله خصائص للعربية من القلب، وعدم الجمع بين الساكنين، والحذف، واختلاس الحركات، والإضمار، والترادف، ثمّ ختمه بقوله: «فأين لسائر الأمم ما للعرب ؟!»[3] .

ولم يقف به الأمر عند تمجيد العربيّة وتفضيلها، بل جاوز إلى بيان ما اختصّت به العربُ كالإعراب الفارق بين المعاني المتكافئةِ في اللّفظ، وعنايتهم بالشعر والعروض. مع حفظ الأنساب، والطهارة، والنزاهة عن الأدناس التي استباحها غيرهم من مخالطة ذوات المحارم[4] .

وقد بلغت العربية -كما يرى ابن فارس - غاية كمالها بعد مجيء الإسلام، وتنزُّل القرآن، فجدّت في العربيّة ألفاظ ومعانٍ، وزالت ألفاظ لزوال معانيها، ونقلت ألفاظٌ عن معانيها إلى معانٍ أخرى، كراهةً لأصل معناها، أو تأدُّباً، أو اقتفاءً لأمر الشرع، وقد هذَّب الإسلام ألفاظ

(١) السابق ص ١٦ - ١٩ .

(٢) السابق ص ١٩ ، ٢٢ - ٢٥ .

(٣) السابق ص ٢٠ - ٢١ .

(٤) السابق ص ٧٦ - ٧٧ .

العربيّة، ووجَّه العربَ لاختيار أسماء أولادهم[1] .

وقد ارتبطت العربية بالقرآن بأوثق رباط، حتى إنه ليعسر على الدارس الفصل بينهما، قال الرافعي : « إنّ هذه العربية، لغة دينٍ قائم على أصلٍ خالدٍ، هو القرآنُ الكريم، وقد أجمع الأوّلون والآخرون على إعجازه بفصاحته، إلاّ من حَفلَ به من زنديقٍ يتجاهل، أو جاهلٍ يتزندَقُ »[2] .

والقرآن هو الذي أخرج فصحاء الأدب العربيّ وبلغاءه من أمثال ابن المقفّع، ولولا القرآن والحديث، وكتب السلف وآدابهم لم يخرج أمثاله[3] .

ويحاول غير المسلمين بوعي، ومرضى القلوب بغير وعيٍ أن يعزلوا المسلمين عن قرآنهم ولُغته، حتّى عاب بعضهم على الرافعي أسلوبه، واقترح عليه ترك الجملة القرآنية، ويعنون بها اللغة العالية، والأسلوب الراقي، الذي يسمو بصاحبه إلى لغة القرآن، وأسلوبه، ومنطق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وفصحاء العرب، وأدباء العربيّة، فهذا القرآن كما هو نور لعقولنا، وحياة لقلوبنا هو حلاوة على ألسنتنا، شارة كمالٍ في منطقنا وبياننا :

يديرونني عن سالم وأُديرُهمْ وجلدة بين العين والأنف سالمُ

يخاتلوننا ليصرفونا عن لغة القرآن وبيانه، كما خاتلونا ليصرفونا عن

---

(١) انظر السابق ص ١٠١ – ١١١ .

(٢) مصطفى صادق الرافعي، تحت راية القرآن ، دار الكتاب العربيّ ، بيروت ، ط الثامنة ، ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣ م ص ١٨ .

(٣) انظر الرافعي ، تحت راية القرآن ص ٢٢ – ٢٥ .

العمل به وتلاوته، حتى صار التجديد في اللغة والبيان عند كثيرٍ هو التخلّي عن لُغةِ القرآن وبيانه، والانسياق وراء الرطانة الأعجمية، واللُّكنة المعوجّة ، والدعوة إلى أن نسوّد الصفحات بأحرفٍ عربيّة، ولغةٍ غير عربيّة، وإن تحلّت بزيِّها ورُسِمَتْ برسمها[1]. فالقرآن هو سرُّ هذه اللغة، وحياتها، قال الرافعيُّ: «إنّ هذه العربيَّة بُنيتْ على أصلٍ سحريّ يجعل شبابها خالداً عليها، فلا تهرم ولا تموتُ؛ لأنّها أُعِدَّتْ من الأَزَلِ فلكاً دائراً للنيِّرين الأرضيين العظيمين: كتاب الله، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ومن ثَمَّ كانت فيها قُوَّةٌ عجيبةٌ من الاستهواء ، كأنّها أخذةُ السِّحر، لا يملك معها البليغ أن يأخذ أو يدع»[2].

وكُلُّ حربٍ يديرها أعداؤنا وعملاؤهم للفصاحة والبلاغة، والبيان العالي لا يُقْصَدُ بها حرب اللسان والبيان، وإنما هي حربٌ لأصلهما من قرآنٍ وحديثٍ، وكلام سلف[3] .

وكان العلم باللغة شرطاً للإمامة في علوم الدّين ، وصفةً على غايةٍ من الأهمّية للأئمّةِ المجتهدين، وكان الشافعي خير مثالٍ لذلك، فقد كان له محلّ من اللغة، شهد به أهلها[4]، حتى عدّوا قوله حُجّة فيها،

---

(١) ينظر نحوٌ من هذا في كتاب الرافعي ، تحت راية القرآن ص ٢٦ – ٣٣ .

(٢) الرافعي ، تحت راية القرآن ص ٣١ .

(٣) انظر كلمة الأمير شكيب أرسلان ، ضمن كتاب " تحت راية القرآن " ص ٣٤ – ٤٢ .

(٤) أبو بكرٍ أحمد بن الحسن البيهقي (ت ٤٥٨ هـ) كتاب الرّد على الانتقاد على الشافعيّ في اللُّغة، تحقيق عبد الكريم بكّار، دار البخاريّ، بريدة، ص ٣٢ .

وجعلوه كبطنٍ من بطون العرب[1]. قال ثعلب: « يأخذون على الشافعي، وهو من بيت اللغة، يجب أن يؤخذ عنه[2]. وقد قرأ عليه الأصمعيُّ، واستفاد منه مع كبر سنِّه، وتقدُّمه في العلم والأدب »[3].

وأثنى عليه أهل اللغة الأوائل كابن قتيبة[4] (ت ٢٧٦ هـ) وأبي القاسم الخوافي[5] (ت ٤٥٠ هـ)، وأبي بكر بن دريد[6] (٣٢١هـ) وأبي منصور الأزهريّ (ت ٣٧٠ هـ) بقوله: « وألفيت أبا عبد الله محمد ابن إِدريس الشافعيّ (أنار الله برهانه، ولقَّاه رضوانه) أثقبهم بصيرةً، وأبرعهم بياناً، وأغزرهم علماً، وأفصحهم لساناً، وأجزلهم ألفاظاً، وأوسعهم خاطراً، فسمِعْتُ مبسوطَ كتبه، وأمّهاتِ أصوله من بعض مشايخنا، وأقبلْتُ على دراستها دهراً، وأسنفْتُ بما استكثرته من علم اللغة على تفهُّمها؛ إِذْ كانت ألفاظه عربيَّةً محضة، ومن عجمة المولَّدين مصونة »[7].

---

(١) البيهقي ، الردّ على انتقاد الشافعي ص ٢٩ .

(٢) البيهقي ، الردّ على انتقاد الشافعي ص ٣٠ .

(٣) السابق ص ٣٠ .

(٤) السابق ص ٣٠ .

(٥) السابق ص ٣١ .

(٦) السابق ص ٣١ .

(٧) الأزهري ، أبو منصور محمد بن أحمد (ت ٣٧٠ هـ) / الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي الذي أودعه المُزَنيّ في مختصره / ط الأولى / سنة ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م ، وزارة الأوقاف / الكويت ص ٣٣ - ٣٤ . وقد نقله البيهقي في الردّ على انتقادات الشافعي ص ٣٢ .

وقد جرتِ الأُمَّة على تفضيل المقدّمين في علم العربية في طلب القراءة، والسنة، وعلوم الشريعة. قال أبو حاتم: «من أراد السنة والأمر العتيق في الدين وقراءة القرآن، فليكن ميله إلى الحرمين وأهل البصرة، فإنّهم أصحاب اقتصادٍ في القراءة، وعلم بها وبعللها، ومذاهبها، ومجاري كلام العرب ومخارجها، وكان منهم علماء الناس بالعربيّة وكلام العرب، وكان منهم أبو الأسود الدُّؤليّ، وأبو الحارث ابنه، ويحيى بن يعمر العدواني، وعبد الله بن أبي إسحاق من بعد، وأبو عمرو بن العلاء، وعيسى بن عمر، ويونس بن حبيب، والخليل بن أحمد، وأبو زيدٍ، وسيبويه، والأخفش، فهؤلاء الأئمةُ في هذا الشأن، ثمّ بنى على ذلك من جاء بعدهم من علماء اللغة، وتفتَّقَتْ لهم الفِطَنُ، وصرف إليه كثير من النّاسِ هممهم، حتّى جعلوا له ديواناً يفزع إليه، ويعتمد عليه، وجعلوه للغة العرب معياراً، فإذا وجدوا اللّحن في كلامهم وزنوه به فقوَّموه، لأنَّ اللحنَ يزيل الحرفَ عن معناه، ويحيد به عن سننه، وليس هذا لسائر الأمم، وهو علمٌ جسيم، له خطرٌ عظيم»[1].

والحاجة إلى علوم العربية في علوم الدين كانت هي الدافع لحفظ لغة العرب، وشعرها، وكلامها، وأمثالها، وأنسابها، وسائر علومها، قال أبو حاتم: «ولولا ما بالناس من الحاجة إلى معرفة لغة العرب، والاستعانة بالشعر على العلم بغريب القرآن وأحاديث رسول الله ﷺ، والصحابة، والتابعين،

(١) أبو حاتم، الزينة ص ٨٦ – ٨٧.

والأئمّة الماضين، لبطل الشعر، وانقرض ذكر الشعراء، ولعفّى الدّهرُ على آثارهم ، ونسي النَّاسُ أيَّامَهم ، ولكنّ الحاجة بالمسلمين ماسَّةٌ إلى تعلّم اللغة العربيّة، ومعاني الألفاظ الغريبة في القرآن والحديث، والأحكام والسُّنن؛ إذْ كانَ الإسلام قد ظهر – بحمد الله – في جميع أقطار الأرض، وأكثر أهل الإسلام من الأمم هم عجمٌ، وقد دعتهمُ الضرورةُ إلى تعلُّم لغة العرب، إذْ كانتِ الأحكام والسُّنن مُبَيَّنةً بلسان العرب »[١] .

ولم تكن هذه الحاجة ظاهرةً في عهد النبوّة وصدر الإسلام ، لاستغنائهم بسلائقهم وما يسمعونه من كلام العرب؛ إذ كان الكلام مدركاً مفهوماً، وسنن العرب في كلامها ظاهرة معلومة : « قال أبو عبيدة : « إنّما أنزل القرآن بلسانٍ عربي مبين ، وتصديق ذلك في آيةٍ من القرآن ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ (الشعراء :١٩٥) وفي آيةٍ أخرى ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ ... ﴾ (إبراهيم: ٤) قال: ولم يحتج السلف ولا الّذين أدركوا وحْيَه إلى أن يسألوا النّبيَّ صلى الله عليه وسلم عن معانيه ؛ لأنّهم كانوا عرب الألسُنِ، فاستغنوا بعلمهم عن معانيه ، وعمّا فيه ممّا في كلام العرب مثله من الوجوه والتخليص، قال الزُّهْريُّ : "إنّما أخطأ النّاسُ في كثيرٍ من تأويل القرآن لجهلهم بلغة العرب" . قال أبو عبيدٍ : سمعْتُ الأصمعيّ يقولُ: سمعْتُ الخليل بن أحمد يقولُ: سمعْتُ أبا أيُّوبَ السِّخْتياني يقول: عامَّةُ من تزندقَ بالعراق لقلَّة علمهم بالعربيّة »[٢] .

---

(١) السابق ص ١٢٣ .

(٢) السابق ص ١٢٣ – ١٢٤ .

وقد قام علماء العربية بواجبهم نحو الدين والقرآن ، فجمعوا ما الحاجة داعية إلى جمعه، ودوّنوا ما علوم الشريعة مفتقرة إليه، ونظّموه بطرق تيسّر الوصول إليه، قال أبو حاتم: «ورأينا العلماء باللغة العربيّة قد كفوا النّاسَ مؤونة هذا الشأن، وأحكموه إحكاماً بيّناً، لما دوّنوه من أشعار الشعراء، وألّفوه من المصنّفاتِ، ووصفوه من الصفات في كُلِّ ما قدروا عليه، ممّا يحتاج النّاس إلى استدراكه، حتى لعلّه لم تفتهم كلمةٌ غريبةٌ، ولا حرفٌ نادر إلاّ وقد ربطوه بأوثقِ رباطٍ ، وعقلوه بأحكم عقالٍ، ورسموا في ذلك رسوماً، وعوّلوا في ذلك كلّه على الشعر، والاحتجاج به، وهذا للغة العرب خصوصاً ليس هو لسائر لُغاتِ الأمم، وذلك كُلُّه لشدّة حاجة الناسِ إلى معرفة لغة العرب، ليصلوا به إلى ما ذكرنا من معاني القرآن والألفاظ الغريبة فيه، وفي أحاديث رسول الله ﷺ والصحابة والتابعين، والأئمة الماضين، وما يجيء في الشريعة من الأسامي في أصول الفرائض والسُّنن ، ممّا الجهل به نقص ظاهر على المرء المسلم ، وشينٌ فاضح على كُلِّ ذي دين ومروءة »[1] .

وأمّا عامة المسلمين، وطُلاّب القرآن وعلم الشريعة خاصة، فقد أقبلوا على العربية، يتلقّنونها، ويتعلّمون ما فيها من سنن الكلام وطرائقه، وألفاظه ومعانيه، ويتذوّقون وجوه البلاغة فيه والبيان، امتثالاً لأمر من تجب طاعته، ورغبةً في التفقّه في الدين الذي لا يتمّ إلاّ بمعرفة اللغة.

---

(١) السابق ص ١٣٤ .

قال أبو حاتم: «وقد حثَّ النبي ﷺ أصحابه على تعلُّم اللغة والإعراب، روى أبو عُبيدٍ بإسنادٍ له عن أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أعربوا القرآن (والتمسوا غرائبه)»[١] .

وعن ابن مسعودٍ قال: «أعربوا القرآن فإنّه عربيٌّ». وقال عمر بن الخطاب: «تعلّموا إعراب القرآن كما تتعلّمون حفظه»، وفي حديثٍ آخر قال عمر: «تعلّموا اللَّحْنَ والفرائض والسُّنَّة كما تتعلّمون القرآن».

وعن يحيى بن عتيق قال: سألت الحَسَن ، فقلت: الرَّجُلُ يتعلّم العربيّة يلتمس بها المنطق، ويقيم بها قراءته، فقال الحَسَنُ: فتعلَّمْها، فإنّ الرجل يقرأ الآية، فيعيا بوجهها ، فيهلك فيها.

فلمّا كان كذلك راضَ الناسُ أنْفُسَهم بتعلُّم العربيّة، ولم يجدوا إلى ذلك سبيلاً أوضح من الشعر، فحفظوا دواوين الشعراء، وأحكموها . . .»[٢].

وقد سبق أبو حاتم إلى تقرير الاحتجاج، وأورد قِصَّة ابن عبّاسٍ مع نافع بن الأزرق، فقال: «وقد احتجَّ العلماء من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم من الفقهاء في غريب القرآن والحديث بالشعر، وقد رُوِيَ ذلك عنهم، روى أبو عُبيدةَ بإسنادٍ له عن عكرمة، قال: رأيْتُ ابْنَ عبّاسٍ وعنده نافع بن الأزرق، وهو يسأله ، ويطلب منه الاحتجاجَ باللُّغة، فسأله عن قول الله عزّ وجلَّ ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ﴾ (الانشقاق: ١٧)، فقال: وما جمع، ألم تسمع:

مُسْتَوْسِقاتٍ لو يَجِدْن سائقاً

---

(١) السابق ص ١٢٤ وقد عزا المحقّق الحديث إلى ابن أبي شيبة ، والحاكم ، والبيهقيّ .

(٢) السابق ص ١٢٤ – ١٢٥ .

قال: وسأله عن قوله: ﴿ ... قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ (مريم: ٢٤)
فقال: هو الجدول، فسأله عن الشاهد، فأنشده:

سلماً ترى الدّالج منه أزوَرا إذا يَمُجُّ في السَّرِيِّ هَرْهرا

وسأله عن قوله: ﴿ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴾ (القلم: ١٣) قال: هو الدَّعِيُّ المُلْصَقُ، أَما سمعْتَ قولَ حَسَّان:

زنيمٌ تداعاه الرِّجال زيادةً كما زيد في عرض الأديم الأكارِعُ

وروي عن أبي عبيدة أنّه سأله عن قول الله تعالى: ﴿ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴾ (القيامة: ٢٩) فقال: الشِّدَّة بالشِّدَّة، فسأله عن الشاهد، فأنشده:

أخو الحرب إنْ عَضّتْ به الحَرْبُ عَضَّها وإن شَمَّرتْ عن ساقها الحربُ شَمَّرا

وروى أبو عبيدة أيضاً عن ابن عبّاسٍ أنّه كان يُسْأَلُ عن قول الله تعالى: ﴿ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾ (النازعات: ١٤) قال: الأرض، وأنشد لأمية بن أبي الصَّلْت: وفيها لحم ساهرةٍ وَبحْرِ

وقال أبو عُبيدةَ: يجوز هذا عندي فيما كان من الغريب والإعراب، فأمّا ما كان من الحلال والحرام، والأمر والنّهي، والنّاسخ والمنسوخ، فليس لبشرٍ أن يتكلّم فيه برأيه إلاّ ما فسَّرته سُنَّةُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وقال فيه الصحابة والتابعون بإحسانٍ بعدهم»[1].

وشيء آخر يدفع الناس إلى طلب العربية، هو حجيّتها، وكونها دليلاً شرعياً فيما يرجع فيه إلى اللغة عند الخلاف: «إذا كان التنازُعُ

(١) السابق ص ٥٠.

في اسم أوصفةٍ ، أو شيءٍ مّما تستعمله العربُ من سننها في حقيقةٍ ومجاز ، وما أشبه ذلك »[1] .

وقد رتَّب ابن فارسٍ على هذا أن جعل : « العلم بلغة العرب واجباً على كُلِّ متعلِّقٍ من العلم بالقرآن والسنة والفتيا بسبب ، حتّى لا غناء بأحدٍ منهم عنه، وذلك أنّ القرآن نازلٌ بلغة العرب ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم عربيٌّ، فمن أراد معرفة ما في كتاب الله جلّ وعزّ وما في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم من كل كلمٍ غريب، أو نظمٍ عجيب، لم يجد من العلم باللُّغة بُدّاً »[2] .

وهذا يفسِّر عناية ابن فارسٍ وغيره بعلوم العربيّة ؛ لأنّهم ربطوها بأصلٍ من الأصول، وهو أن اللغة لا يتمُّ فهم القرآن، وتنزيل الأحكام منازلها إلاّ بها، وما لا يتمُّ الواجب إلاّ به فهو واجبٌ، غير أنَّ ابن فارسٍ رفع إبهام كلامه فحدّد مراده بما يجب من علم اللُّغة، فقال : « ولسنا نقولُ : إنّ الذي يلزمه من ذلك الإحاطة بكلِّ ما قالته العربُ؛ لأنّ ذلك غير مقدورٍ عليه ، ولا يكون إلاّ لنبيّ، كما قلناه أوّلاً ، بل الواجبُ علم أصولِ اللُّغةِ والسُّنن التي بأكثرها نزل القرآن، وجاءت السُّنَّة ، فأمّا أن يكلَّف القارئ أو الفقيه أو المحدّث معرفة أوصاف الإبل، وأسماء السباع ، ونعوت الأسلحة، وما قالته العربُ في الفلواتِ والفيافي، وما جاء عنهم من شواذّ الأبنية، وغرائب التصريف فلا »[3] .

---

(١) السابق ص ١٣١ - ١٣٣ .

(٢) ابن فارس ، الصاحبي ص ٤٩ .

(٣) السابق ص ٥٠ .

وقد أكّد ابن فارسٍ قولَه هذا، وربط إتقان العربيّة ومعرفة علومها وسنن العرب في كلامها بالفقه، والفتيا، والقرآن ، فقال : « فلذلك قلنا : إنّ علم اللغة كالواجب على أهل العلم ؛ لئلاَّ يحيدوا في تأليفهم أو فتياهم عن سنن الاستواء.

وكذلك الحاجة إلى علم العربيّة، فإنّ الإعراب هو الفارقُ بين المعاني، ألا ترى أنَّ القائل إذا قال : ما أَحْسَن زيد، لم يُفْرَقْ بين التعجُّب، والاستفهام، والذَّمِّ، إلاّ بالإعراب، وكذلك إذا قال : (ضربَ أخوك أخانا) و(وجهُكَ وَجْهُ حُرٍّ) . وما أشبه ذلك من الكلام المشتبه... وقد روي عن رسول الله ﷺ أنّه قال : (أعربوا القرآن) »[1].

وقد عاب ابن فارسٍ المقصّرين في علم العربية ، وهم يطلبون العلوم الشرعيّة، وقارن بين أهل عصره المتساهلين في اللحن ، وبين سابقيهم المجتهدين في إقامة ألسنتهم على طرائق العرب في الكلام فقال : « وقد كان النّاسُ قديماً يجتنبون اللّحن فيما يكتبونه أو يقرؤونه اجتنابَهُم بعضَ الذُّنوب، فأمّا الآنَ فقد تجوَّزوا حتَّى إنّ المحدِّث يُحدِّث فيلحن، والفقيه يؤلِّف فيلحن، فإذا نُبِّها قالا : ما ندري ما الإعراب؟ وإنّما نحن محدِّثون وفقهاءُ، فهما يُسَرَّان بما يُساءُ به اللَّبيبُ.

ولقد كلّمْتُ بعض من يذهب بنفسه ويراها من فقه الشافعيّ بالرتبة العليا في القياس، فقلت له : ما حقيقة القياس ومعناه؟ ومن أيِّ شيءٍ هو؟ فقال : ليس عليّ هذا ، وإنّما عليَّ إقامة الدّليل على صِحَّتِه .

---

(١) السابق ص ٥٥ .

فـقُلِ الآن في رَجُلٍ يروم إقـامـةَ الدليل على صِـحَّـةِ شيءٍ لا يعـرِفُ معناه، ولا يَدْري ما هو ! ونعوذ بالله من سوء الاختيار ! »[1] .

وتعظيم علوم العـربيـة من أجل اتصـالهـا بالقـرآن وعلوم الشـرع مستفيض منتشر، ذائع مشتهر ، تجده في كتبٍ متباينة المنزع ، مختلفة المشرب، وفي أقوالٍ لعلماء في علوم مختلفة، من تفسيرٍ وحديث، وفقهٍ وأصول، وأدب ولغة، ونحو وبلاغة، كلهم يجمعون على إعلاء شأن العربية، وأنّها ضرورة لمن يتصل بالقرآن وعلومه بسببٍ، ومن ذلك مقولة ياقوتٍ في مقدمة "معجم الأدباء" : « هذه أخبار قومٍ عنهم أُخذ علمُ القرآن المجيد، والحديث المفيد، وبصناعتهم تنالُ الإمارة ، وببضاعتهم يستقيم أمر السلطان والوزارة، وبعلمهم يتمُّ الإسلام، وباستنباطهم يُعْرَفُ الحلال من الحرام، ألا ترى أنّ القارئ إذا قرأ : ﴿ . . . أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ . . . ﴾ (التوبة : ٣) بالرفع فقد سلك طريقاً من الصّواب واضحاً، وركِبَ منهجاً من الفضل لائحاً، فإنْ كَسَرَ اللاّمَ من "رسوله" كان كفراً بحتاً، وجهلاً قُحاً .

وقد رُوِيَ أنّ أبا عمرو بن العلاء كان يقولُ: العِلْمُ بالعربيَّةِ هو الدِّين بعينه، فبلغ ذلك عبد الله بن المبارك، فقال : صَدقَ؛ لأنِّي رأيت النصارى قد عبدوا المسيح لجهلهم بذلك، قال الله تعالى : « أنا ولَّدتك من مريم وأنت نبيّي » فحسبوه يقولُ: « أنا ولدتك وأنت بُنَيِّي »

---

(١) السابق ص ٥٦ .

فبتخفيف اللام وتقديم الباء، وتعويض الضّمّة بالفتحة كفروا»[1] .

ولا يتحقق فهم صحيح للقرآن، والحديث، والفقه، وسائر علوم الشرع إلاّ بتحقُّقِ فهم صحيح للغة: أوضاعها واستعمالاتها، تراكيبها وأبنيتها، معانيها وأساليبها، ولهذا قيل: (سبيل التفسير أن يرجع في تفسير ألفاظه إلى أهل اللغة)[2].

وقال أيضاً : «لابُدَّ في فهم الشريعة من اتباع معهود الأميّين، وهم العربُ الذين نزل القرآن بلسانهم، فإن كان للعرب في لسانهم عرفٌ مستمرٌّ، فلا يصحّ العدول عنه في فهم الشريعة ، وإن لم يكن ثمَّ عُرْفٌ ، فلا يصحُّ أن يجريَ في فهمها ما لا تعرفُه ، وهذا جارٍ في المعاني ، والألفاظ، والأساليب ... ولا يستقيم للمتكلِّم في كتاب الله أو سنة رسول الله أن يتكلَّفَ فيهما فوق ما يَسَعُه لسان العرب، وليكن شأنه الاعتناء بما شأنه أن تعتني العرب به، والوقوف عندما حدث»[3] . وقد قرَّر بعض الأصوليين قاعدة في أنّ كُلَّ معنىً مستنبط من القرآن غير جارٍ على اللسان العربيِّ فليس من علوم القرآن في شيءٍ »[4].

وقد أوجب العلماء الأخذ بمطلق اللغة، وأوجبوا علم اللغة لمن كلّف

(١) ياقوت الحموي (ت ٦٢٦ هـ)، معجم الأدباء، مكتبة عيسى الحلبي، مصر/ ١ /٥٣-٥٤، وانظر كلام ابن المبارك في ١ /٧١-٧٢.

(٢) القاسمي محمد جمال الدين (ت ١٣٣٢هـ) محاسن التأويل ، الناشر عيسى الحلبيّ، ط الأولى، ١٣٧٦هـ- ١٩٥٧م ١ / ١٠ .

(٣) القاسمي ، محاسن التأويل ١ / ٩٤ - ٩٦ وانظر المقاصد للشاطبي .

(٤) السابق ١ / ٦٣ .

نفسه تفسير القرآن ، قال القاسمي في الأخذ بمطلق اللغة: «إنّ القرآن نزل بلسانٍ عربيٍّ مبين، وهذا قد ذكره جماعة ، ونصّ عليه أحمد في مواضع، لكن نقل الفضل بن زيادٍ عنه أنّه سئل عن القرآن يمثِّلُ له الرجلُ ببيتٍ من الشعر ؟ فقال: ما يعجبني ... وهو محمولٌ على من صرف الآيةَ عن ظاهرها إلى معانٍ خارجةٍ محتملة يدلُّ عليها القليل من كلام العرب ، ولا يوجد غالباً إلاّ في الشعر ونحوه ، ويكون المتبادر خلافها ، وروى البيهقي في "الشُّعب" عن مالك قال: لا أُوتى برجلٍ غير عالمٍ بلغة العرب يفسِّر كتاب الله إلاّ جعلته نكالاً»(١).

وقال ابن خلدون: «اعلم أنّ القرآن نزل بلغة العرب، وعلى أساليب بلاغتهم، فكانوا كُلُّهم يفهمونه ، ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه، وكان ينزل جملاً جملاً، وآياتٍ آياتٍ لبيان التوحيد والفروض الدّينيّة بحسب الوقائع، ومنها ما هو في العقائد الإيمانية، ومنها ما هو في أحكام الجوارح، ومنها ما يتقدَّمُ، ومنها ما يتأخَّر ، ويكون ناسخاً له ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يبيّن المجمل، ويميِّز الناسخ من المنسوخ ، ويعرِّفُه أصحابه ، فعرفوه وعرفوا سبب نزول الآيات ، ومقتضى الحال منها منقولاً عنه ، كما عُلِم من قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴾ (النصر: ١) أنها نعي النبي ﷺ وأمثال ذلك.

---

(١) السابق ١ / ٨ .

ونقل ذلك عن الصحابة (رضوان الله تعالى عليهم أجمعين) وتداول ذلك التابعون من بعدهم، ونقل ذلك عنهم ، ولم يزل متناقلاً بين الصدر الأوّل والسَّلف حتَّى صارت المعارف علوماً ودُوِّنت الكتبُ، فكُتِبَ الكثير من ذلك، ونُقِلَت الآثار الواردة فيه عن الصحابة والتابعين، وانتهى ذلك إلى الطَّبريِّ والواقديّ والثعالبي، وأمثال ذلك من المفسّرين، فكتبوا فيه ما شاء الله أن يكتبوه من الآثار، ثمّ صارت علوم اللسان صناعيّة، من الكلام في موضوعاتِ اللغة، وأحكام الإعراب ، والبلاغة في التراكيب، فوضِعَت الدواوين في ذلك بعد أن كانت ملكاتٍ للعرب، لا يُرْجَعُ فيها إلى نقل ولا كتاب، فتنوسيَ ذلك، وصارتْ تُتلَقَّى من كتب أهل اللسان، فاحتيج إلى ذلك في تفسير القرآن؛ لأنّه بلسان العرب ، وعلى منهاج بلاغتهم .

وصار التفسير على صنفين: تفسير نقليّ مسند إلى الآثار المنقولة عن السَّلفِ ... والصنف الآخر من التفسير وهو ما يرجع إلى اللسان من معرفة اللغة، والإعراب، والبلاغة في تأدية المعنى، بحسب المقاصد والأساليب، وهذا الصِّنْفُ من التفسير قَلَّ أن ينفرد عن الأوّل؛ إذ الأوّلُ هو المقصود بالذات، وإنما جاء هذا بعد أن صار اللِّسان وعلومه صناعةً .. » ثم ذكر من هذا النوع تفسير الزمخشري وتفسير شرف الدين الطيبي[1] .

---

(١) ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد ، المقدّمة / دار الكتاب العربي / بيروت، ط الأولى، سنة ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م ، ص ٤٠٦ - ٤٠٨ .

وقد كانت الصلة بين علوم العربية وعلوم القرآن منذ نشأة علوم العربية، بل كان القرآن هو السبب لظهورها، وتدوينها ، واشتغال الناس بها، وجعلها أساس العلوم؛ إذ يحكى أنَّ زياداً لما ولي العراق لمعاوية رضي الله عنه بعث إلى أبي الأسود (ظالم بن عمرو) الدُّؤلي وقال له : اعمل شيئاً تكون فيه إماماً ، تُعْرِبُ به كتابَ الله تعالى، وينتفع الناس به، فاستعفاه من ذلك، حتّى سمع رجلاً يقرأ « أنّ الله بريء من المشركين ورسولِه » بكسر اللام، فقال : ما ظننت أمر الناسِ صار إلى هذا ، أو لا أظن يَسَعُني إلاّ أنْ أضَعَ شيئاً أُصْلِحُ به نحو هذا، أو كلام هذا معناه، فوضع النحو »[1].

« فجاء أبو الأسود إلى زيادٍ، فقال له : أبْغِني كاتباً يفهمُ عَنِّي ما أقول، فجيء برجُلٍ من عبد القيس، فلم يَرْضَ فهمه، فأُتِيَ بآخر من قريش، فقال له : إذا رأيتني قد فتحتُ فمي بالحرف، فانقط نُقْطَةً على أعلاه، وإذا ضَمَمْتُ فمي فانقط نقطةً بين يدي الحرف، وإذا كسَرْتُ فمي فاجْعَلِ النقطة تحت الحرف، فإنْ أتْبعْتُ شيئاً من ذلك غُنَّةً، فاجْعَلِ النقطة نقطتين، ففَعَل ، فهذا نقط أبي الأسود »[2].

وكان علماءُ العربيّة الأوائل يجمعون إلى علم العربيّة علماً أو أكثر من

(١) أبو الطَّيِّب اللّغويّ (ت ٣٥١ هـ) مراتب النحويين / تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم / القاهرة، ص ٢٦، والمعرّي أبو المحاسن المفضّل بن محمد (ت ٤٤٢ هـ) ، تاريخ العلماء النحويّين من البصريّين والكوفيّين وغيرهم / تحقيق د. عبد الفتاح الحلو / جامعة الإمام محمد بن سعودٍ الإسلامية / الرياض / ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م ، ص ١٦٦ - ١٦٧ .

(٢) أبو الطيب، مراتب النحويين ص ٢٩ ، وانظر المعرّي تاريخ العلماء النحويّين ص ١٦٧ .

علوم القرآن، من قراءة، أو تفسير، أو غير ذلك، فقد « أخذ عبد الله بن أبي إِسحاق عن يحيى بن يعمر القراءة، وأخذها عن نصر بن عاصم »(١).

وكان أبو عمرو بن العلاء إماماً في العربيّة والقراءة، حتّى « قال شعبة لعليّ بن نصر الجهضمي : خُذ قراءة أبي عمروٍ، فيوشِكُ أن تكون إسناداً. قال أبو حاتمٍ: وكان أبو عمروٍ يكتب إِلى عكرمة بن خالدٍ في مكّة، فيسأله عن الحروف »(٢).

وممّن فاق في الإِقراء والقراءة عاصم بن أبي النّجود وابن محيصن ، وكانا يلمّان بشيءٍ من النحو(٣).

وممّن أجاد النحو من القُرّاء يحيى بن يعمر ، كان أعلم النّاس وأفصحهم، ومع ذلك لا يذكرونه ؛ لأنّه استبدَّ بالنّحو غيرُه(٤).

وكان الأوائل من أهل العلم يَعُدُّون العلم بالعربيّة منقبةً للقارئ، ومدعاةً لتفضيله على غيره، حتّى « قال أبو حاتم (عن حمزة الزّيّات) : وإنّما أهل الكوفة يكابرون فيه، ويباهتون، فقد صيَّره الجُهَّال من النّاس شيئاً عظيماً بالمكابرة والبَهْتِ، وقولُ ذوي اللِّحى العظام منهم: « كانتِ الجِنُّ تقرأُ على حمزةَ » . قال : الجنُّ لم تقرأْ على ابن مسعودٍ، والذين من بعده، فكيف خصّت حمزة بالقراءة عليه؟ وكيف يكون رئيساً وهو لا يعرفُ الساكن من المتحرّك، ولا مواضع الوقف والاستئناف، ولا

(١) انظر أبو الطيب، مراتب النحويين ص ٣٢ .

(٢) أبو الطيب ، مراتب النحويين ص ٣٥ .

(٣) انظر أبو الطيب ، مراتب النحويين ص ٤٩ .

(٤) السابق ص ٥٠ .

مـواضعَ القـطع والـوصل والهـمـز! وإنما يحـسن مـثل هذا أهل البـصـرة، لأنهـم علـماء بـالعـربية، قـرّاء رؤسـاء»[1]. وكـان الأصـمعيُّ : «لا يـفسِّـر شيـئاً من القـرآن، ولا شـيئـاً من اللُّغـة له نظير، أو اشـتـقـاق في القـرآنِ، وكذلك الحديث تحرُّجاً»[2] .

و«قـال أبو حـاتمٍ : الكسـائيُّ أعلم الكوفـيّين بالعـربيـة والقـرآن، وهو قدوتهم»[3] .

و«قال المازني : قـرأت على يعـقوب الحضـرميِّ القـرآن، فلمّـا ختـمْتُ رمى إليَّ بخاتمه، وقال: خُذْ ، ليس لك مثل» .

وختم أبو حاتم على يعقوب سبع خَتَماتٍ، ويُقالُ: خمساً وعشرين ختمةً، فأعطاه خاتمه، وقال: أقْرئ النّاسَ[4] .

«كان أبو حاتم في نهاية الثقة والإتقان، والنهوض باللُّغة والقرآن مع علمٍ واسعٍ بالإعراب أيضاً»[5] .

هذه شذراتٌ من كتاب تراجم للغويين ، ولو نقلنا نظرنا إلى كتابٍ في تراجم القُرَّاء نموذجاً لعلوم القرآن، وقرأنا في كتاب «معرفة القُرّاء الكبار للذّهبيّ (ت ٧٤٨هـ) لوجدنا فيه كثيراً من مثل: «قال اليزيديُّ: كان أبو عمروٍ قد عرف القراءات، فقرأ من كل قراءة بأحسنها، وبما يختار

---

(١) أبو الطيب ، مراتب النحويين ص ٥٢ – ٥٣ .

(٢) السابق ص ٨٣ .

(٣) السابق ص ١٢١ .

(٤) السابق ص ١٢٦ .

(٥) السابق ص ١٣٠ ، وانظر ص ١٣١ – ١٣٢ .

العرب، ومّما بلغه عن لغة النّبيّ صلى الله عليه وسلم وجاء تصديقه في كتاب الله عزّ وجلّ »[1] . ونجد مثل « أحكم العربية »[2]، ومثل « النحويّ »[3]، و« قرأ العربيّة » . ومثل « كان عاصم نحويّاً فصيحاً »[4] و« كان حمزة الزَّيَّاتُ بصيراً بالعربيّة »[5] و« إليه(الكسائي) انتهت الإمامةُ في القراءة والعربيّة »[6]، ومثل « كان أبو المنذر المُزنيّ فصيحاً نحويّاً »[7]. ومثل « كان يحيى بن المبارك اليزيديُّ فصيحاً مُفوَّهاً، بارعاً في اللُّغاتِ والآداب »[8] ومثل « ثمّ اشتغل ورشٌ بالقرآن والعربيّة فمهر فيهما »[9]. « وتبتَّلَ قالونُ لإقراء القرآن والعربيّة »[10]. وقول أبي حاتم السجستاني في يعقوب بن إسحاق الحضرميّ: « هو أعلم من رأيت بالحروف والاختلافِ في القرآنِ وعلله ومذاهبه، ومذاهب النحويّين »[11]. « وكان لا يلحن في

---

(١) الذهبي شمس الدين ، أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت ٧٤٨ هـ) معرفة القرّاء الكبار / تحقيق محمد سيد جاد الحق ، ط أولى ، القاهرة ص ٤ .

(٢) الذهبي ، معرفة القرّاء الكبار ص ٥٤ .

(٣) السابق ص ٥٥ ، ١٠٩ .

(٤) السابق ص ٧٥ .

(٥) السابق ص ٩٣ .

(٦) السابق ص ١٠١ .

(٧) السابق ص ١١٠ .

(٨) السابق ص ١٢٥ .

(٩) السابق ص ١٢٦ .

(١٠) السابق ص ١٢٩ .

(١١) الذهبي ، معرفة القرّاء الكبار ص ١٣٠ وانظر ص ١٣١ .

كلامه »[1] و« برع العبّاس بن الفضل في معرفة الإدغام الكبير، وورد أنّه ناظر الكِسائيّ في الإمالة »[2]. « وكان القاسم بن سلاّم من أعلم أهل زمانه بلغات العرب »[3] وقالوا في أحمد بن صالح « كان رجلاً جامعاً يعرفُ الفقه والحديثَ والنحو »[4]. و« صنّف محمد بن سعدان في العربيّة والقرآن »[5]. وقالوا عن أبي حاتم السجستانيّ: « له اليدُ الطُّولى في اللُّغاتِ، والشّعر، والأخبار، والعروض، واستخراج المعمّى، ولم يكُ في النّحو بذاك الماهر، وقد قرأ كتاب سيبويه مرّتين على الأخفش »[6]. ونجد مثل « المقرئ الأديب »[7]، و« المقرئ المؤدِّب »[8]، وقال أبو عليّ القاليّ عن محمّد بن القاسم الأنباريِّ: « كان يحفظ ثلثمائة ألف بيتٍ شاهداً في القرآن »[9]، وفي ترجمة أحمد بن يعقوب التائب: « له كتابٌ حَسَنٌ في القراءاتِ، وهو إمام في هذه الصنعة، ضابطٌ، بصيرٌ بالعربيّة »[10]. ومثل « كان محمد بن النّضرِ عارفاً بعللِ القراءاتِ بصيراً

---

(١) السابق ص ١٣١ .

(٢) السابق ص ١٣٣ .

(٣) السابق ص ١٤١ .

(٤) السابق ص ١٥٣ .

(٥) السابق ص ١٧٨ وانظر ترجمة هارون بن موسى ص ١٩٩ .

(٦) السابق ص ١٧٩ .

(٧) السابق ص ١٩٧ .

(٨) السابق ص ١٩٦ .

(٩) السابق ص ٢٢٥ .

(١٠) السابق ص ٢٢٧ .

بالتفسير والعربيّة »[1]، وفي ترجمة أبي بكر محمد بن مقسم: « كان من أحفظ أهل زمانه لنحو الكوفيّين، وأعرفهم بالقراءات مشهورها وغريبها وشاذّها » . قال أبو عمروٍ الدانيُّ: « هو مشهور بالضبط والإتقانِ، عالمٌ بالعربيّة، حافظ للغة، حَسَنُ التصنيف في علوم القرآن »[2]. وفي ترجمة أحمد بن نصر « عالم بالقراءة ، بصير بالعربيّة »[3]، وفي ترجمة محمد بن عبد الله بن أبي بكر الأصبهاني « ثقةٌ عالم بالعربيّة »[4]. وفي ترجمة عبد الله بن عطيّة « كان يحفظ فيما يقالُ خمسين أَلْفَ بيتٍ للاستشهاد على معاني القرآن »[5]. وفي ترجمة عبد الباقي بن الحُسَيْنِ: « كان عالماً بالعربية بصيراً بالمعاني »[6]. وفي ترجمة أبي عمر الطَّلَمَنْكي: « كان رأساً في علم القرآن : قراءاته وإعرابه »[7]. وفي ترجمة مكي « كان من أهل التبحُّر في علوم القراءات والعربية ... عالماً بمعاني القراءات »[8] وكان أحمد بن عمّارٍ (ت ٤٣٠ هـ) « رأساً في القراءات والعربيّة »[9]. وتصدر إسماعيل بن خلفٍ (ت ٤٥٥ هـ) « للإقراء زماناً ولتعليم العربية »[10]. وكان عبد الرحمن بن أحمد الرّازي

---

(١) السابق ص ٢٣٥ .

(٢) السابق ص ٢٤٧ .

(٣) السابق ص ٢٥٨ ومثله في ترجمة عليّ بن محمد الأنطاكيّ ص ٢٧٥ .

(٤) السابق ص ٢٥٩ .

(٥) السابق ص ٢٨١ .

(٦) السابق ص ٢٨٧ .

(٧) السابق ص ٣٠٩ .

(٨) السابق ص ٣١٧ .

(٩) السابق ص ٣٢٠ .

(١٠) السابق ص ٣٤١ .

العجليّ (ت ٥٠٤هـ) «عالماً بالأدب والنحو»[١]. «وكان الهذليُّ يدرس علم النحو ويفهم الكلام منه وكان مقدّماً في النحو والصرف، عارفاً بالعلل، وكان القشيريُّ يراجعه في مسائل النحو»[٢]. «وكان أبو محمّد التميميّ (ت ٤٨٨هـ) «مفسِّراً لُغويّاً»[٣]، «وتصدّر ابن شعيب لإقراء القرآن والعربية والآداب»[٤]. وفي ترجمة صاحب التجريد «قرأ العربيّة على ابن بابشاذ»[٥]. وكان عبد الله بن سعدون (ت قبل ٥٤٠ هـ) «محققاً للعربيَّة»[٦]. و«برع عبد الله بن عمرو بن هشام في العربية»[٧]. و«أخذ عنه أبو عمر بن عيّادٍ القراءات والتجويد»[٨]. «وكان أبو بكرٍ اللّخميُّ إماماً في صناعةِ الإقراء، مشاركاً في العربيّة»[٩]. وفي ترجمة يحيى بن سعدون (ت ٥٦٧) «المقرئ النحويّ... برع على الزمخشريِّ وغيره في العربيَّة»[١٠]. وكان الحسن بن أحمد الهمذانيّ (ت ٥٦٩ هـ) «إماماً في النحو واللغة»[١١]. وكان لعبد المنعم بن أبي بكر (ت٥٨٦ هـ) «حظٌّ من

---

(١) السابق ص ٣٣٧ وانظر ترجمة عبد الملك بن سلمة ص ٤٢٧ .

(٢) السابق ص ٣٤٩ .

(٣) السابق ص ٣٥٦ .

(٤) السابق ص ٣٥٩ .

(٥) السابق ص ٣٨٣ .

(٦) السابق ص ٣٩٨ .

(٧) السابق ص ٤١٩ .

(٨) السابق ص ٤١٩ .

(٩) الذهبي ، معرفة القرّاء الكبار ص ٤٢٥ .

(١٠) السابق ص ٤٢٩ وانظر ترجمة محمد بن خلف (ت ٥٨٥ هـ) ص ٤٤٢ .

(١١) السابق ص ٤٣٥ .

العربيّة »[1] . « وكان زيد بن الحسن ، أبو اليمن الكنديّ شيخَ القُرَّاء والنحاة بدمشق »[2] . « وكان شعلةُ (ت ٦٥٦ هـ) ذا معرفةٍ تامّةٍ بالعربية واللُّغة »[3] . « وانتهت إلى محمد بن عليّ الشاطبيِّ معرفة اللغة وغريبها »[4]. و« كان العماد الأصفهاني (ت ٦٨٢ هـ) فصيحاً مُفَوَّهاً، جيِّد العربيّة »[5]. وكان محمد بن أبي العلاء (ت ٥٦٩ هـ) « جيِّد المعرفة بالأدب »[6] . وفي ترجمة أبي حيَّانَ « له مصنّفات في القراءات والنحو »[7] . وفي ترجمة أبي بكر بن يوسف « ولي مشيخة القراءة والعربيّة »[8] . وطلحة بن عبد الله مهر في القراءات والعربية[9]. ووصف إسماعيل بن محمد (ت٧١٥هـ) بمعرفة القراءة، والبصر بالعربيّة[10]. و« محمد بن خالد بن بختيار النحويّ .. تخرج به جماعة في العربيّة »[11]. والحسن بن عليّ بن عُبيدة النحويّ أخذ العربيّة عن أبي السعادات بن الشجريّ[12]. وفي ترجمة عبد الرحمن بن هرمز « أوّل من وضع العربيّة بالمدينة »[13] .

---

(١) السابق ص ٤٤٤ .
(٢) السابق ص ٤٦٧ .
(٣) السابق ص ٥٣٦ .
(٤) السابق ص ٥٤٢ .
(٥) السابق ص ٥٥٠ .
(٦) السابق ص ٥٦٨ .
(٧) السابق ص ٥٧٨ .
(٨) السابق ص ٥٩٦ .
(٩) السابق ص ٥٩٧ .
(١٠) السابق ص ٥٩٩ .
(١١) السابق ص ٥٥ .
(١٢) السابق ص ٥٥ .
(١٣) السابق ص ٦٣ .

وقد قيل نحو من هذه العبارات في أمثال ابن مالك وغيره من الأئمّة، وفيما أوردناه كفاية، وهو يُصوِّر مدى الترابط والتلازم بين العربية وعلومها والقرآن وعلومه من قراءات، وتفسير، ورسم، وغير ذلك .

وأنت لو نظرت تراجم القرّاء، وتأمَّلْتَ أحوالهم لوجدت أنّ المقدَّم منهم في القراءة متقدّم في علم العربيّة، والمتوسّط متوسّط، والضعيف ضعيف، فلا تكادُ تجدُ متقدِّماً في القراءة، وترى في ترجمته مثلاً « ونظر في العربيّة »[1]، أو نحوها من العبارات التي توحي بضعف علمه في العربيّة. ولو نظرت في ترجمة أبي بكر بن محمّد المرسيّ لوجدت فيها « تصدَّر لتعليم النحو »[2]، « ولم يكن من ذلك الوقت يجاريه أحدٌ لا في القراءات ولا في النحو »[3]. و« تخرّج به جماعة في القراءات والعربية والأصول »[4]. « ولم أشاهد أحداً في القراءات مثله »[5]، ومثل هذا في ترجمة محمد بن أحمد بن بضحان[6]، وكان إحكام العربيّة مدعاةً لحذقِ الفَنّ وعلم القراءة، كما جاء في ترجمة محمد بن أيُّوبَ (ت ٧٠٥ هـ) الذي قيل عنه « أقرأ الناس دهراً، وأحكم العربية، وشارك في اللُّغة ... وكان حاذقاً بالفنّ عليماً

---

(١) السابق ص ٥٨١ .

(٢) السابق ص ٥٩٠ .

(٣) السابق ص ٥٩٠ .

(٤) السابق ص ٥٩٠ .

(٥) السابق ص ٥٩٠ .

(٦) السابق ص ٥٩٢ .

بالحلّ لحرز الأمانيّ. . . »[1]. وقد وصف يوسفَ بن إبراهيم بإحكام العربيّة[2].

وكان القرّاء سابقاً يبذلون ما يملكونه في سبيل إتقان العربيّة، قال خلف بن هشام (١٥٠–٢٢٩هـ): «أشكل عليّ بابٌ من النحو، فأنفقت ثمانيةَ آلاف درهمٍ، حتّى حذقته»[3]. وكانوا يعنون بمعرفة من أخذ عنهم القارئ علم العربية، النحو، واللغة، والأدب، والمعاني، وقد مَرَّ ما يشهد لهذا في النصوص المنقولة آنفاً.

والتميُّز في علوم العربية مدعاة الاستقلال والانفراد بقراءة، ومدعاة للاجتهاد في الاختيار «قيل: إنّ ورشاً لمّا تعمَّق في النحو اتّخذ لنفسه مقرأً ورشٍ، فلمّا جئت [القائل أبو يعقوب الأزرق] لأقرأ عليه قلت له: يا أبا سعيد، إنِّي أُحِبُّ أن تقرئني مقرأ نافع خالصاً، وتدعني ممّا استحسنْتَ لنفسك، فقلَّدته مقرأ نافع»[4]. ويظهر ممّا أوردناه من نصوصٍ أنهم ما كانوا يقنعون بإتقان علوم العربيّة صناعةً، بل كانوا يطلبون الفصاحة، وكانت الفصاحة قبل أن تُدَوَّنَ علوم العربية[5]، وقالوا في عاصم: «كان نحويّاً فصيحاً»[6] و«كان ذا نُسُكٍ وأدبٍ،

---

(١) السابق ص ٥٧٥ .

(٢) السابق ص ٥٤ .

(٣) السابق ص ١٧٢ .

(٤) السابق ص ١٥٠ .

(٥) السابق ص ٧٤ .

(٦) السابق ص ٧٥ .

وفصاحة، وصوت حَسَن»[1]. «وكان أحمد بن عبد العزيز من أطيب النّاسِ صوتاً، وأفصحهم أداءً»[2]. وقد وصف عبدالوارث التنُّوري بالفصاحة والبلاغة، قال أبو عمر الجرميُّ: «ما رأيْتُ فقيهاً أفصح منه»[3]. وفي ترجمة أحمد بن إبراهيم بن سباع الفزاري (ت٧٠٥هـ) «كان أحسن أهل زمانه قراءةً للحديث؛ لأنَّه كان فصيحاً مفوَّهاً، عديم اللّحن، عذب العبارة، طيِّب الصّوت، خبيراً باللُّغة، رأساً في العربيّة وعللها»[4].

وكان ممّا ينتقص به المقرئ أو القارئ قصوره في العربية، كما قال أبو حيّان في حسن بن عبد الله التلمساني (ت ٦٨٥ هـ)« كان بربريّاً، في لسانه شيءٌ من رطانتهم، وكان مشهوراً بالقراءات، عنده نزرٌ يسيرٌ جدّاً من العربيّة، كألفيةِ ابن معط، ومقدمة ابن بابشاذ، يحلّ ذلك لمن يقرأ عليه»[5]. وقد ردَّ الذّهبيّ على أبي حيَّان قوله فيه، وقال: «إنّه كان عارفاً بالعربيّة، بل قويّ المعرفة، ويكفيه أن يشرح ألفيّة ابن معطٍ للناس ..»[6]. وكان القصور في علم العربيّة مدعاةً إلى القصور في علم القراءاتِ، كما

(١) السابق ص ٧٦.

(٢) الذهبي، معرفة القرّاء الكبار ص ٢٥٤.

(٣) السابق ص ١٣٥.

(٤) السابق ص ٥٧١.

(٥) السابق ص ٥٦١.

(٦) السابق ص ٥٦٠ – ٥٦١.

قيل في محمد بن منصور (ت ٧٠٠ هـ): «إنّه لم يبرع في العربيّة ... وكان متوسِّط المعرفةِ في القراءات »[١]. وقال عاصمٌ: «من لم يحسنِ من العربيَّةِ إلاّ وجْهاً لم يُحْسِنْ شيئاً »[٢].

واتّفق القُرّاءُ مع أهل العربيّة على ممارسة صنعة التأديب؛ إذ كثيراً ما نجد في تراجمهم «المؤدّب»، «وقام على التأديب». وهي أوصافٌ استأثر بها أهل العربية، رواة الأدب أوّل الأمر.

وبعد، فلعلّ هذه النظرة العجلى في كتابٍ ترجم للنحاة واللغويين، وآخر ترجم للقراء ما يقفنا على صلةٍ وثيقة بين علوم القرآن وعلوم العربية، وكأنّهما توأمان، لا ينفكُّ أحدهما عن الآخر. والنوعان من العلوم مختلفان. فأوّلهما غاية، والعلوم الأخرى خدمٌ له، والثاني آلةٌ يتوصَّل بها إلى فهم النوع الأوّل، وخدمته وإتقانه. ولا نغالي إذا قلنا: إنّ علوم العربية على اختلاف أنواعها، إنّما وُجِدَتْ لخدمة القرآن وعلومه، ولعلّ المسلمين لم يُعْنوا بالعربية وآدابها، ولم يخدموها إلاّ لأنّها تمسُّ أو تخدم القرآنَ وعلومه، من قراءةٍ، ورسم، وإعراب، وبلاغة، وإعجاز، ومعنى وتفسير.

تلاقت جهود علماء العربيّة، وجهود خدمة القرآن في ميادين، يُهمّنا منها ما كان لعلماء اللغة العربية جهدٌ بارزٌ فيها، وما كان فيه

---

(١) السابق ص ٥٦٩ .

(٢) السابق ص ٧٥ .

الدافع القرآني جليّاً واضحاً، ويمكن لنا أن نحصر الموضوع في الأصناف التالية :

- علم الرسم ، ومدى إسهام علماء العربيّة في ذلك .
- ألفاظ القرآن، ومدى مشاركة اللُّغويين في شرحها، وتصنيفها، ودرسها .
- معاني القرآن الكريم ، وتفسيره ، وإسهامهم في ذلك .
- الاحتجاج للقراءات وبها .
- جهود علماء العربية في بيان إعجاز القرآن، وأوجه بلاغة القرآن .
- دراسات عامة حول القرآن .

إنَّه لا يمكننا أن نفصل علماً من علوم العربيّة عن القرآن، ولا أن نجعل نمطاً من الدراسة القرآنية بمعزلٍ عن العربية، وفنونها ، وعلومها، وأوّل هذه الدراسات ما يتعلّق بالرسم ؛ إذ من المعروف المسلَّم أنّ للخطِّ غيرَ رسمٍ، ويُهِمُّنا هنا رسمُ المصحفِ، والرسم المعتاد، والأصل أن يتَّفق الرسمانِ؛ غير أَنّ رسم المصحف اختصَّ بأمورٍ، وانفرد بأشياءَ خرج بها عن أصول الرسم المعتاد، وبعض قواعده، وصورِ كتابة بعض الكلمات .

إنّنا لو نظرنا في سير أعلام العربيّة الأوائل لوجدنا فيها قولَ أبي الأسود لكاتبه : «إذا رأيتني قد فَتحْتُ فمي بالحرف، فانقط نقطةً فوقه على أعلاه، فإنْ ضممْتُ فمي فانقط نقطةً بين يدي الحرف، وإن كَسرْت فاجْعلِ النُّقطة تحت الحرف، فإن أتبعْتُ شيئاً من ذلك غُنَّةً

فاجعل مكان النقطة نقطتين»[١]. فهذا النقط يختلف عن نقط نصر ابن عاصم ؛ إذْ مَرْجعُ هذا إلى ضبط حرفِ الإعراب بالحركاتِ الثلاثِ، مع بيانِ ما فيه من الغُنَّةِ إن كانت في حال التنوين .

وهذا النقط يختلف عن نقط الإعجام المنسوب إلى نصر بن عاصم، ويحيى بن يعمر، فهذا النّقط يميز بين المعجم من الحروف والمهمل، مثل نقط الجيم والخاء، وإهمال الحاء .

وهذان – أيضاً – يختلفان عن الشّكل المنسوب إلى الخليل الذي أخذ نقط أبي الأسود، وحوّر فيه ، ثمّ جاء الخالفون فنقّحوه، وهذا الشكل شاملٌ لجميع أحرف الكلمة في جميع أحوالها، سواء أكانت متحركة ، أم ساكنة ، مخفَّفة أم مُشَدَّدةً، ولا داعي للحديث عنه هنا؛ لأن هذا المقام مقام إشارة[٢]. وما أريد حصر ما كتب في الرسم ممّا لعلماء العربيّة فيه أثر واضح .

ولا يمكن دارِس الرسم (الإملاء) في العربيّة أن يفصل ما بين الرسمين: رسم المصحف، والرسم المعتاد .

---

(١) أبو سعيدٍ السيرافي (ت ٣٦٨هـ) / أخبار النحويين البصريّين ، تحقيق د. محمد إبراهيم البنا / دار الاعتصام / القاهرة / ط الأولى سنة ١٤٠٥هـ–١٩٨٥م/ص٣٥ وقد تقدّم الخبر في هذا البحث .

(٢) انظر مقالة عن المصحف الكوفي ، كتبها الشيخ محمود سيبويه البدويّ ، ص ٣٢٨– ٣٣٣ من مجلة كلية القرآن والدراسات الإسلامية – المدينة – العدد الأوّل – عام ١٤٠٢ – ١٤٠٣ هـ . وانظر لأبي عمروٍ الدانيّ (ت ٤٤٤ هـ) كتاب النقط، ت محمد أحمد دهمان / دار الفكر / دمشق / صورة ط الثانية ١٤٠٣هـ– ١٩٨٣ م، ص ١٢٤ – ١٢٦ .

لو نظرْتَ فيما كتبه ابن قُتيبة في كتاب « أدب الكاتب » لوجدت الربط بين الرسمين جليّاً واضحاً من خلال القواعد والاختيار، والأمثلة، حتى إنّك لتشعر أن الرسم القرآني هو الأصل من خلال أمثلته. قال: « تكتب الصلوة والزكوة والحيوة بالواو اتّباعاً للمصحف، ولا تكتب شيئاً من نظائرها إلاّ بالألف، مثل « قطاة » و« قناة » و« ملاة »[١]. وقال: « وتكتب « لئلاّ » مهموزة وغير مهموزة بالياء؛ وكان القياسُ أن تكتب بالألف، ألا ترى أنّك تكتب « لأن » إذا كانت اللام مكسورة بالألف ؛ وكذلك يجبُ أن تُكتب إذا زيدت عليها « لا »، ولم يحدُثْ في الكلام شيءٌ غير معنى الإباء، إلاّ أنَّ النّاسَ اتَّبعوا المصحف ، وكذلك «لَئِنْ فَعَلْتَ كذا لأفعلنَّ كذا» كتبت بالياء اتِّباعاً للمصحف، وكان القياس أن تكتب بالألف لأنّها «إنْ» زِيدتْ عليها اللاَّمُ »[٢] وانظر حديثه عن رسم « اللّيل واللّيلة »[٣]. ورسم « أيّها الرجل وأيُّها الأمير» بألفٍ وغير ألف[٤]. وفي رسم « يحيى » قال « إنّ الكُتّاب اجتمعوا على أن كتبوه بالياء، ولم يلزموا فيه القياسَ، وأَحسبهم اتَّبعوا فيه المصحف »[٥]. وبيَّن مخالفة الكُتَّاب لرسم المصحف في نحو « صغراهم، وكُبراهم، وحصاك، ونواك، ورماهم، فدلاّهما بغرور »[٦].

(١) ابن قتيبة عبد الله بن مسلم ، أدب الكاتب ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط الرابعة عام ١٣٨٢ هـ / القاهرة ص ٢٠١ .

(٢) ابن قتيبة ، أدب الكاتب ص ١٩٧ – ١٩٨ .

(٣) السابق ص ٢٠٠ .

(٤) السابق ص ٢٠٢ .

(٥) السابق ص ٢٠٥ .

(٦) السابق ص ٢٠٦ .

ومثل هذا لا يخلُّ بمذهبه في أن الرسم هو الأصل، بل إنّ استحسانه لمخالفة المصحف في بعض الرسم لا يُخِلُّ، كما في قوله: « ... على ذلك كُتَّاب المصحف، وإن شئت كتبت ذلك بألفين على مذهب التحقيق، وهو أعجَبُ إليّ »(1). ولا يُخِلَّ به مثل قوله: « وليس بمستعملٍ إلاّ في كتاب المصحف »(2). ومثل « هذا الّذي عليه المصحف، ومتقدِّمو الكُتّاب، وقد كتبه بعضُ الكُتَّاب بياءٍ قبل الواو « مستهزئون » و« مقرئون » وذلك حسن »(3). ومثل « كتبت [الموْءودة] في المصحف بواوٍ واحدة، ولا أستحبُّ للكاتب أن يكتبها إلاّ بواوين ... »(4). ومثل « وقد خالف الكُتّاب في هذا المصحفَ »(5). وقد اختار ابن قتيبة ما ذهب إليه الكُتّاب. ومثل « وكتب بعضهم [مثل بئيس] بياءٍ واحدة اتّباعاً للمصحف، وكتبه بعضهم بياءين، وهو أَحَبُّ إليّ »(6).

والأصل عند ابن قتيبة توافق الرسمين، بل عدَّ موافقة الرسم حُجَّةً أو دليلاً للترجيح، مثل « والحذف أجود، وبالحذف كتبتْ في المصحف إلاّ في حرفٍ واحد « يسألون عن أنبائكم »(7).

---

(1) السابق ص ١٨٨ - ١٨٩ ويقصد كتابة همزة الاستفهام إذا اجتمعتْ مع همزة القطع، نحو « أإذا ... » « أإنّك ... ».

(2) السابق ص ٢٠٨.

(3) السابق ص ٢١١.

(4) السابق ص ٢١٢.

(5) السابق ص ٢٠٦.

(6) السابق ص ٢١٢.

(7) السابق ص ٢١٢.

وقد جعل ابن فارسٍ رسم المصحف حُجَّةً، فقال : «فصار ذلك كُلُّه حُجَّةً، وحتّى كرِهَ من العلماء تَرْكَ اتّباع المصحف من كره ... قال الفَرَّاءُ: اتّباع المصحف – إذا وجدت له وجهاً من كلام العرب ، وقراءة القُرَّاء – أَحَبُّ إليَّ من خلافه ... والذي قاله الفَرَّاءُ حَسَنٌ ، وما بحسَنٍ قولُ ابن قتيبة في أحرفٍ ذكرها، وقد خالفَ الكُتَّابُ المصحفَ في هذا»[1] .

وكأنّي بابن فارس يرى التزام رسم المصحف أو تقديمه على مذاهب الكُتّاب، في حين يرى ابن قتيبة أنّ الأصل توافق الرسمين، ولا يلزم اطّراده .

والفرق بين الرسمين أنّ رسم المصحف إنّما يكون اتّباعاً لمرسوم المصحف الأوّل، في حين يختلف الرسم المعتاد حَسَب اجتهادِ الكُتّابِ وعلماء العربية واختياراتهم، غير أنَّ أصل الرسم في العربيّة هو رسم المصاحف، والرسم الآخر فرعه، وهو –وإن خالفه في أشياء – عائدٌ، وراجع إليه، غير خارج عليه.

إنّه لا يُهمُّنا أن نسرد مؤلّفاتِ رسم المصحف أو مرسوم المصاحف، فهذا له ميدانٌ آخر، وما هو بعسير، وإنّما يُهمُّنا إسهام علماء العربية، وعنايتهم بالرسم، وصلة هذا الإسهام بخدمة القرآن .

ويكفي علماء العربيّة شرفاً أنّهم رفعوا الإيهام عن الخطّ العربيِّ بإعجامه، ونقطه ، وشكله، وهذه خدمة للقرآن في أعلى الدرجات من الخدمة .

وقد سخَّر علماء العربيّة دراستهم الصوت العربيَّ لخدمة القرآن

---

(١) ابن فارس ، الصاحبي ص ١٤ – ١٥ .

وقراءاته، وابتعدوا عن الدرس العبثيِّ الّذي يعتمد الوصف سبيلاً له، من دون تفريق بين الجيِّد والرديء، والحسن والقبيح ، والمستجاد والمرذول، وجعلوا الدّرس الصّوتيَّ يتفيَّأُ ظلال القرآن، يستحسنون ما يستحسنه القُرَّاءُ، ويستهجنون ما يستهجنونه، نجد في كتاب سيبويه مثلاً أنّ أصوات العربيَّة تسعةٌ وعشرونَ حرفاً، « وتكون خمسةً وثلاثين حرفاً ، بحروفٍ هُنَّ فُروعٌ، وأصلها من التِّسعة والعشرين، وهي كثيرةٌ يُؤْخَذُ بها، وتستحسن في قراءة القرآن والأشعار ... وتكون اثنين وأربعين حرفاً بحروفٍ غير مستحسنةٍ، ولا كثيرة في لغةِ من ترتضى عربيَّته، ولا تستحسن في قراءة القرآن ولا في الشعر »[1] .

وقد ربط سيبويه درسَ الحروف بأحكامِ القراءة والتجويد، وأخذ بعض أمثلته من القرآن، ووافق ما عند القرّاء في أفهامهم وأحكامهم، وينصُّ أحياناً ما يقع منه في القرآن[2]. ترى ذلك في حديثه عن الإمالة والإدغام، وهذا لا يطعن فيه أن يأخذ سيبويه معظم أمثلته من الحديث الدارج، وكلام الناس المتداول المعتاد.

وقد تابع النحويُّون سيبويه في درس الصوت العربيّ، وجعلوا نموذجه العالي هو صوت القُرّاء المسندين، الذين أخذوا قراءتهم مشافهة، عرضاً أو سماعاً عن المشايخ المجيدين، بأسانيدهم المتصلة .

---

(١) سيبويه ، عمرو بن عثمان (ت ١٨٣ هـ) الكتاب ، تحقيق عبد السلام هارون ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ٤ / ٤٣٢ .

(٢) سيبويه ، الكتاب ، انظر مثلاً ٤ / ٤٦٩ .

ويكفي أن يشار إلى اللُّغويين بفخارٍ بعمل لُغويٍّ حاز الشهرة، وشُهِدَ له بالجودة، إنّه كتاب أبي الفتح عثمان بن جني (ت ٣٩٢ هـ) «سرّ صناعة الإعراب» وقد عرض فيه لدراسة الحروف العربيّة مفردةً حرفاً حرفاً، حتّى أتى عليها كلّها، وقد شاع في الكتاب الاستشهادُ بالآياتِ.

ولطريقة تلقِّي القرآن عن الأشياخ فضلٌ عظيم على الفصحى حرمت منه لغاتٌ أخرى، ممّا جعل نظامها الصوتي عرضةً للاضطراب، والتطوّر غير المنضبط، أمّا الصوتُ العربيُّ فإنّ المتلقّن للقرآن يتلقَّنُه عن شيخه، والشيخ يصغي له، ويصحح ما يقع فيه من خطأ أو انحراف، وإن دقَّ أو جلَّ عن العامة، ويروض لسان تلميذه حتى يتقن محاكاة شيخه، وتصحّ في لسانه الحروف من مخارجها وعلى صفاتها.

ولم يقف الأمر باللُّغويّين عند هذا الحدِّ في درس الصوت العربيِّ من خلال القرآن، بل شاركوا أصحاب القراءة، والمبدعين في التجويد عملهم، فلا يكادُ يخلو كتابٌ من ذكر آرائهم، والاستناد إلى ما قرَّروه، ممّا لا تدعو حاجة إلى بيانه وشرحه.

«والقراءة والأداء – كما يقول الرافعي – أمران يتعلّقان باللفظ، ويبنيان على وجوه اللغة التي قام بها»[1]. وأحْكِمَتِ الصِّلةُ بين القراءة واللغةِ، حَتَّى عُدَّتْ موافقة القراءةِ العربيةَ بوجهٍ من الوجوه شرطاً في صحّتها وقبولها، سواء أكان هذا الوجه أفصح أَمْ فصيحاً، مجمعاً

(١) الرافعي، مصطفى صادق (ت ١٣٥٦هـ) / تاريخ آداب العرب / دار الكتاب العربي / بيروت / ط الثانية / ١٣٩٤ هـ – ١٩٧٤ م، ٤٦/٢.

عليه ، أم مختلفاً فيه اختلافاً لا يضرُّ مثله[1]. ترى ذلك بيّناً في كلماتٍ لأهل اللغة، مثل قول الفرّاء «اتباع المصحف إذا وجدتُ له وَجْهاً من كلام العرب، وقراءة القُرّاء أَحَبُّ إليَّ من خلافه »[2]. وكلام الفرّاء وإن كان صريحاً في رسم المصحف، إلاّ أنّه ينطبق على القراءة والأداء .

وقد جَعَلَ المتأخِّرون من القُرّاء شروط القراءة الصحيحة ثلاثة جمعها ابن الجزري بقوله :

فكُلُّ ما وافَق وَجْه نَحْوِ — وكان للرسم احتمالاً يَحْوي
وصَحَّ إسناداً هو القرآنُ — فهذه الثلاثة الأركانُ »[3]

وقال البنّا : « فإذا اجتمعت هذه الثلاثة في قراءةٍ وجَب قبولها، سواء كانت عن السَّبْعة أم عن العشرة ، أم عن غيرهم من الأئمة المقبولين، نصّ على ذلك الدانيُّ وغيره ممن يطول ذكرهم »[4].

وبإقامة أحكام العربية بنية وتركيباً، يتحقّق الإيقاع الجيِّد في الأداء، وبه يرتّل القرآن كما قال أبو حاتم الرّازيّ: « النحو معيار جميع كلام

(١) ينظر في هذا كتب القراءات ، ومعاني القرآن للفرّاء ٢ / ٢٩٣ ، والصاحبي ص١٥ ، وتاريخ آداب العرب ٢ / ٥٥ .

(٢) الفرّاء ، يحيى بن زيّاد (ت ٢٠٧) / معاني القرآن ، تحقيق أحمد يوسف نجاتي وآخرين ، ط أولى / القاهرة ٢ / ٢٩٣ .

(٣) ابن الجزريّ ، محمد بن محمّد (ت ٨٣٣) /طيبة النشر في القراءات العشر ضمن إتحاف البررة بالمتون العشرة في القراءات والرسم والآي والتجويد ، مطبعة مصطفى الحلبي / مصر / عام ١٣٥٤ هـ - ١٩٣٥ م ص ١٦٩ .

(٤) البنّا ، أحمد بن محمد (ت ١١١٧هـ /إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر/ تحقيق د. شعبان محمد إسماعيل / الناشر عالم الكتب / بيروت / مكتبة الكليات الأزهرية / القاهرة / ط أولى عام ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م ، ١ / ٧٠ .

العرب، ما كان منه منثوراً، وما كان منه شعراً، وما كان منه سجعاً، وغير ذلك من وجوه كلام العرب، وبالنّحو يرتّل القرآنُ الّذي هو كلام الله عزّ وجلّ فيعرب كُلُّ حرفٍ منه به ، ويقوَّم عليه ، حتى لا يترك حرفٌ واحد إلاّ ويُعطَى حَقَّه من الإعراب، وهكذا كان الفصحاء من العرب يفعلون في كلامهم كُلّه، يُعْطُون كُلَّ حرفٍ حظّه من الإعراب »[1] .

صحيحٌ أنّ مُقَوِّماتِ الإيقاع ليست محصورةً في إقامة الإعراب على وجهه، لكنّه من أهمِّها، إلى جانب إتقان أحكام التجويد، خاصّة ما يتعلق بالغنة، والمدّ ، وأنواع المدود وقدر حركاتها ، ومعرفة الأحكام الخاصَّةِ لبعض الحروف، مع تحقيق الحروف بأدائها من مخارجها وعلى صفاتها، وهي أمورٌ إذا لاقَحَتْ موهبة فطرية، وطبيعةً طَيِّعةً ، مع دربةٍ وممارسة، وتثقيف، وحسن تأتٍّ، مع جمالٍ فطريّ للصوت، وسلامةٍ لأعضاء النطق، وتأثّر القارئ بما يقرأ، كان منها تلاوة هي الغاية في الإيقاع والسلاسة، من دون نكير أو نشازٍ، وهذا من مقاصد القراءة« ليس منّا من لم يتغنَّ بالقرآن »[2] و« ما أَذِن الله لشيء كإذنِه لنبيٍّ حَسَنِ الصّوتِ أن يتغنَّى بالقرآن »[3] .

---

(١) أبو حاتم ، الزينة ص ٩٠ – ٩١ .

(٢) الحديث عند البخاري ، الصحيح الجامع ، كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى ﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ . . . ﴾ ١٣ / ٤١٨ ، وأبو داود في السنن كتاب الصلاة ، باب استحباب الترتيل في القراءة ، ٢ / ١٥٦ ، وأحمد في المسند رقم (١٤٦٩) .

(٣) الحديث عند البخاري ، الصحيح الجامع ، كتاب فضائل القرآن ، باب "من لم يتغنَّ بالقرآن" ٩ / ٦٠ – ٦١ وكتاب التوحيد باب قول الله تعالى ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ . . . ﴾ وباب قوله ﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ . . . ﴾ ومسلم كتاب صلاة المسافرين باب (استحباب تحسين الصوت بالقرآن) ١ / ٥٤٥ رقم الحديث (٧٩٢) . ورواه من أصحاب السنن أبو داود والنسائي .

وهذا لا يقلّل من أهميـة اللغة أصواتاً وبنية وتركيباً في تحقيق الإيقاع في القراءة، بل هي شرط لا يمكن أن يتحقّق إيقاعٌ بدون الأمور اللغويّة المذكورة وقد أدرك القرّاء ذلك ووعوه ، فقاموا به على وجهه .

أمّا ألفاظ القرآن فهي ميدانٌ برزتْ فيه صلةُ علوم اللُّغة بعلوم القرآن بأجلى معانيها؛ «إِذْ في القرآنِ ألفاظٌ تسمَّى الغريب أو الغرائب، لا من جهة نكارةٍ في لفظها، أو شذوذٍ في بنيتها ، أو استكراهٍ لمعناها، لأنّ القرآنَ نزل بأحلى لغة العرب لفظاً، وأجملها صوتاً وأوفاها تركيباً، وبأوضحها دلالة في المعنى، وإنّما يراد بوصف الغرابة أن تكون حَسَنةً مستغربةً في التأويل، بحيث لا يتساوى في العلم بها أهلها وسائر الناس»[1] .

وقد أسهم أهل العربيّة في هذا الجانب، وأبدعوا فيه، ولا غرو في ذلك، فهذا الجانبُ أقربُ الجوانب إلى إبداعهم، وهو أقربُ الميادين إلى ميدانهم، بل هم فرسانه، وأصحاب الكلمة فيه، يتّضح هذا من نظرةٍ عجلى في بداية التصنيف في الغريب، أو في كلماتِ القرآن وألفاظه .

ومن تقرير الحقيقة أن نقرِّر أنّ ظهور التأليف في غريب القرآن، وألفاظه، وكلماته ، يُعَدُّ البداية الحقيقيّة، أو بداية نشأة التأليف في معجم العربيّة، بل كان« تفسير غريب القرآن ومشكله أولى الحركات العلمية التي رآها العرب، ورأى بعضُ من فسَّر الغريب أنّ كثيراً منه غريبٌ عن الأفهام؛ لأنّه ليس من لغة قريش، وإنّما جاء في القرآنِ من لغاتِ القبائل الأخرى، فأشار

---

(١) الرافعي ، تاريخ آداب العرب ٢ / ٧١ .

إلى ذلك، وسمع بعضهم الآخر ممّن اختلط بهم من أهل الكتاب، ومن أهل البلادِ القريبةِ من الحجاز، ومن أهل الأقطار المتاخمة لبلاد العرب، والتي دخلت تحت سيطرة الإسلام، أنّ بعض هذه الألفاظ موجودٌ في لغاتٍ أخرى، فأشاروا إلى ذلك، فكأنّما جمعت هذه المحاولات الأولى بين تفسير الغريب، والمشكل، والإشارة إلى أصله في اللّغات القبليّة والأجنبيّة، وكانت هذه المحاولاتُ العين التي استقى منها اللُّغويُّون بعد، وسبحوا فيما خرج منها من جداول، أصبحت أنهاراً»[1].

إنّنا لو رجعنا إلى تاريخ التأليف في ألفاظ القرآن لوجدنا مثل ما يعزى إلى ابن عبّاسٍ (ت ٦٨ هـ) وكتاب أبان بن تغلب (ت ١٤١هـ) وكتاب محمد بن السائب الكلبي الكوفي (ت ١٤٦هـ) وعبد الرحمن بن محمد الأزديّ الكوفيّ (من أهل القرن الثاني).

ثمّ جاء من بعدُ أبو فيدٍ مُؤَرِّج بن عمروٍ السدوسيّ البصري (ت١٧٤ هـ) فألّف كتاباً لم يصل إلينا، ومثله أبو سعيد البكري (من أهل القرن الثاني) ثمّ تلاهما طائفةٌ، منهم أبو محمّد يحيى بن المبارك اليزيديّ (ت ٢٠٢ هـ) والنضر بن شميل (ت ٢٠٣) وأبو عبيدة معمر بن المثنّى (ت ٢١٠ هـ) وأبو الحسن الأخفش سعيد بن مسعدة (ت ٢١٥ هـ) وأبو عبيدٍ القاسم بن سلاّم (ت ٢٢٤ هـ) ومحمد بن سلاّم الجمحي (ت٢٣١ هـ) وأبو عبد الرحمن عبد الله بن محمد العدويّ (ابن اليزيديّ) تلميذ الفرّاء، وابن قتيبة

---

(١) نصّار، حسين، المعجم العربي نشأته وتطوّره / دار مصر للطباعة / القاهرة / ط الثانية / عام ١٩٦٨ م، ص ٣٢.

(ت٢٧٦ هـ) وأحمد بن يحيى ثعلب (ت ٢٩١ هـ) ومحمد بن الحسن بن دينارٍ الأحول، وأبو جعفر بن محمد بن يزداد الطبري[١]، وهؤلاء عاشوا في عصر واحد، تقاربت وفياتهم ، وتأثّر بعضهم ببعضٍ، وأغلب كتبهم ضاعَتْ إلاّ ما نُقِلَ منها في الكتب اللاّحقة .

وقد وصل إلينا منها «غريب القرآن» لابن قتيبة، وقد طبع، وقد قال في مقدمته: «وكتابنا هذا مستنبطٌ من كتب المفسِّرين، وكتب أصحاب اللغة العالمين، لم نخرج فيه عن مذاهبهم ، ولا تكلَّفْنا في شيءٍ منه بآرائنا غير معانيهم، بعد اختيارنا في الحرف أولى الأقاويل في اللغة، وأشبهها بقصَّةِ الآية»[٢]. وهذا يؤكّد التلازم أو التآخي بين علوم القرآن وعلوم العربية.

ثمّ توالى المؤلِّفون في غريب القرآن في القرون التالية، وكان من أشهرهم محمد بن عُزيز السجستاني (ت٣٣٠ هـ) وكتابه مطبوع، وأبو القاسم الحسين بن محمد الرَّاغب الأصفهانيّ (من رجال القرن الخامس) وقد تجلّى في معجمه منهج لغويٌّ متميِّزٌ، صنعةً ومادّةً. ومحمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرَّازيّ (من علماء القرن السابع) ألّف كتابه "تفسير غريب ألفاظ القرآن العظيم" منتزعاً من مصادر لغوية، وكُتب تفسير، مثل كتب الزّجّاج، والفَرّاء، والأزهريّ،

(١) نصّار ، المعجم العربي ص ٤٠ .

(٢) ابن قتيبة ، عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦ هـ) تفسير غريب القرآن / تحقيق السيد أحمد صقر / الناشر عيسى الحلبي / القاهرة عام ١٣٧٨هـ - ١٩٥٨م ص ٤ .

والجوهريّ، والزمخشريّ، وابن عزيز، وأبي عبيدٍ الهرويّ صاحب الغريبين[1].

ولم ينقطع التأليف في لغة القرآن، وغريبه ، وألفاظه حتّى عصرنا الحاضر، ومادّة هذه الكتب لم تكن حجراً عليها، وإنّما دخلت في صميم المعجم العربيّ، لم يخرج عنها إلاّ ما لا يُعَدُّ تفسيراً أو شرحاً للفظ، وهي تُمثِّل أساس المعجم العربيّ، أو هي كما قال الراغب: « ألفاظ القرآن هيَ لُبُّ كلامِ العرب وزبدته، وواسطته، وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء، والحكماء، في أحكامهم وحِكمهم، وإليها مفزعُ حُذَّاقِ الشعراءِ، والبلغاء، في نظمهم ونثرهم، وما عداها وعدا الألفاظ المتفرّعات عنها والمشتقّات منها بالإضافة إليها كالقشور والنّوى بالإضافة إلى أطايب الثمرة، وكالحُثالة والتبن بالإضافة إلى لُبوبِ الحنطة »[2].

وخدمة القرآن بإيضاح آيه، وبيان أحكامه، كانت غاية مُؤَلِّفي اللُّغة والمعاجم حتّى قال أبو إبراهيم الفارابيّ (ت ٣٥٠ هـ) في مقدمة معجمه « ديوان الأدب » : « وقد أنشأت بتوفيق الله (تعالى) . . . كتاباً عملْتُ فيه عملَ من طَبَّ لمن حَبَّ، مشتملاً على تأليفٍ لم أسبقْ إليه، وسابقاً بتصنيفٍ لم أُزاحَمْ عليه، وأودعْتُه ما استعملَ من هذه اللُّغة، وذكره

(١) الرازي ، محمد بن أبي بكر (القرن السابع) / تفسير غريب القرآن العظيم / تحقيق د. عبد الرحمن الحجيلي / ط. الأولى / عام ١٤١٧ هـ- ١٩٩٦ م، ١ / ٤٨ .

(٢) الراغب الأصفهاني (القرن الخامس) معجم مفردات ألفاظ القرآن ، تحقيق نديم مرعشليّ / دار الكاتب العربي / عام ١٣٩٢ هـ- ١٩٧٢ م ، ص « ن » من المقدمة .

النّحارير من علماء أهل الأدب في كتبهم، ممّا وافق الأمثلة التي مُثِّلَتْ، والأبنية التي أوردت، ممّا جرى في قرآنٍ، أو أتى في سُنَّةٍ، أو حديثٍ، أو شعرٍ، أو رجزٍ، أو حكمةٍ، أو سجع، أو مثل، أو نادرة .

فأمّا القرآن فوحيٌ أوحاه الله تعالى إلى الرسول عليه الصلاة والسلام مع رُوحِ القدسِ بلسانٍ عربيّ مبين، وهو كلام الله، وقول الله، وتنزيل الله، مفصّلاً فيه مصالح العباد في معادهم ومعاشهم ، ممّا يأتون ويذرون ، ولا سبيلَ إلى علمه وإدراك معانيه إلا بالتبحُّر في علم هذه اللُّغةِ . . . »[١] .

وقد « نزل القرآن الكريم، والمخاطبون به قومٌ عرب، أولو بيانٍ فاضل، وفهمٍ بارع، أنزله (جَلَّ ذكره) بلسانهم، وصيغة كلامهم الّذي نشؤوا عليه، وجُبلوا على النطق به، فتدرّبوا به ، يعرفون وجه خطابه، ويفهمون فُنونَ نظامه، ولا يحتاجون إلى تعلّم مُشْكِله، وغريب ألفاظه، حاجةَ المولَّدين النّاشئين فيمن لا يعلم لسانَ العرب حتّى يُعَلَّمَه، ولا يفهم ضُروبَه وأمثاله، وطرقه، وأساليبه حتّى يُفهَّمَها .

وبين النَّبيُّ ﷺ للمخاطبين من أصحابه رضي الله عنهم ما تمسُّ الحاجَةُ إليه من معرفةِ بيانٍ لمجمل الكتاب وغامضه، ومتشابهه، وجميع وجوهه التي لا غنى بهم وبالأُمَّةِ عنه، فاستغنوا بذلك عمّا نحن إليه محتاجون، من معرفة لغات العرب، واختلافها، والتبحُّر فيها، والاجتهاد في تعلّم العربيّة الصّحيحة التي بها نزل الكتاب، وورد البيان .

فعلينا أن نجتهد في تعلُّم ما يتوصَّلُ بتعلُّمه إلى معرفة ضروب خطاب

---

(١) الفارابي ، إسحاق بن إبراهيم (ت ٣٥٠ هـ) ديوان الأدب ، تحقيق د. أحمد مختار عمر / القاهرة عام ١٣٩٥ هـ ، ١ / ٧٢ – ٧٣ .

الكتاب، ثُمَّ السُّنن المبيّنة لجمل التنزيل، الموضّحة للتأويل، لتنتفي عنّا الشبهة الداخلة على كثيرٍ من رؤساء أهل الزيغ والإلحاد، ثمّ على رؤوس ذوي الأهواء والبدع، الذين تأوّلوا بآرائهم المدخولة، فأخطؤوا، وتكلَّموا في كتاب الله (جلَّ وعزّ) بلكنتهم العجميّة، دُونَ معرفةٍ ثاقبةٍ، فضلّوا وأضلُّوا »[١] .

ثمّ أردف كلاماً للشافعيِّ ببيان « أَنّ على الخاصَّة الّتي تقومُ بكفاية العامة فيما يحتاجون إليه لدينهم الاجتهاد في تعلّم لسان العرب ولغاتها ، التي بها تمام التوصُّل إلى معرفة ما في الكتاب والسُّنن والآثار، وأقاويل المفسّرين من الصحابة والتابعين، من الألفاظ الغريبة، والمخاطباتِ العربيّة، فإنّ من جَهِلَ سعة لسان العرب وكثرة ألفاظها وافتنانها في مذاهبها جَهِلَ جُملَ علم الكتاب، ومن علمها، ووقف على مذاهبها، وفَهِم ما تأوّله أهل التفسير فيها، زالت عنه الشبه الدَّاخلةُ على من جَهِلَ لسانها من ذوي الأهواء والبدع »[٢] .

هذه النصوص، والكلمات، وكثير غيرها في التُّراثِ اللُّغويِّ تهديك إلى الدّافع الحقيقيِّ وراء هذا التراثِ اللُّغويِّ المعجميّ، وهو خدمة القرآن وتيسير فهمه وتلاوته، ورفع ما يحيط بفهمه من شبه، ودحض صرفه إلى التأويلات الفاسدة، والآراء الزَّائغة .

وقد كان الدَّافع الدّينيّ لهذه الأعمال اللُّغويَّة بارزاً واضحاً من كلماتهم، وعملهم، حتّى صار هذا الدّافع شعاراً يمتاز به التصنيف

(١) الأزهريّ أبو منصور محمد بن أحمد (ت ٣٧٠ هـ) / تهذيب اللغة / تحقيق جماعةٍ / المؤسسة المصرية العامة للكتاب / القاهرة ١ / ٤ (مقدمة الكتاب) .

(٢) الأزهري ، التهذيب ١ / ٥ (المقدمة) .

اللُّغويّ العربيّ، الّذي يخالِفُ كُلَّ تصنيفٍ لغويّ آخر في لغةٍ أخرى .

وأنت لو أردت أن تأخذ التصنيف اللُّغويَّ بمعزلٍ عن القرآن وعلومه والشرع وأحكامه، ما استطعْتَ ؛ لأنّ هذه العلومَ قد تمازجت، وانفتح بعضها على بعض، وأصبح بعضها يفضي إلى بعض ، ويخدم بعضها بعضاً .

وقد بلغ الأمر أن يعتقد أهل الإسلام أنّ علوم الإسلام لا تكمل إلاّ بعلم لغة القرآن، وفهم أساليب العرب في خطابها وحديثها ، وهي عقيدة أيَّدتها الشواهد والأدلة، ومسالك علماء الأمصار في مختلف الأقطار، كلُّهم يجمعون على ذلك، ويردون ما سواه، وفي هذا ردٌّ على فئةٍ تدعو إلى عزل اللغة وعلومها عن القرآن وعلومه، زاعمة أن اللغة يمكن أن تقدّم لغير المسلمين، وحينئذٍ يصعُبُ إلزامُهم بالمعاني والقيم الإسلامية، وهي دعوى مآلها تجريد العربية وعلومها من روحها الحيَّةِ النّابضة ، وسلخها من أُسِّ مقوّماتها وأمتنها .

ومن أنماط ألفاظ القرآن ما يسمَّى الوجوه والنظائر، وهو فرعٌ من فروع التفسير، ويقصد بالوجوه اللّفظ المشترك الّذي يستعمل في عِدَّة معانٍ كلفظ الهدى، له سبعة عشر معنىً في القرآن . . . والنظائر الألفاظ المتواطئة التي تستعمل بمعنىً واحدٍ ، مثل جوادٍ وكريم(١).

---

(١) الزركشي ، محمد بن عبد الله (ت ٧٩٤ هـ) / البرهان في علوم القرآن ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم / الناشر عيسى الحلبي / القاهرة ١ / ١٠٢ وينظر أيضاً مقدمة تحقيق الأشباه والنظائر لمقاتل بن سليمان (ت ١٥٠هـ) لمحققه د. عبد الله شحاتة ص ٨٤ وانظر الدراسة المفصّلة التي كتبتها محقّقة كتاب «التصاريف تفسير القرآن ممّا اشتبهت أسماؤه وتصرَّفَتْ معانيه» لهند شلبي ص ٢٨ فما بعدها . وقد ذكرت المؤلفات في هذا الفنّ .

وكأن الأوّل من باب المشترك اللّفظي، والثاني من باب الترادف .

وقد أَلَّفَ في هذا الفنِّ أقوامٌ، منهم مقاتل بن سليمانَ البلخيّ (ت١٥٠ هـ) ويحيى بن سلاّم (ت ٢٠٠ هـ)[1] وأبو العبّاس محمد بن يزيد المبرّد (ت ٢٨٥ هـ) ألَّف كتاباً صغيراً باسم « ما اتّفق لفظه واختلف معناه من القرآن المجيد ». وأبو عبد الله الحُسين الدَّامغانيّ (ت٤٧٨ هـ) وكتابُه «إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم». والمؤلفات في هذا الفنِّ كثيرة، أوصلها بعضهم إلى ثلاثةٍ وعشرين مُؤلَّفاً .

وقد أَلَّف من أهل اللغةِ غير المبرّد أبو الحسين أحمد بن فارسٍ (ت٣٩٥ هـ) واسم كتابه الأفراد، وأبو منصورٍ عبد الملك الثعالبيّ (ت٤٢٩ هـ) ألّف كتاب "الأشباه والنظائر"، ومجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت ٨١٧ هـ) خصّص أجزاءً من كتابه « بصائر ذوي التمييز» لذكر الوجوه والنّظائر .

وألّف غيرهم ممّن لهم مشاركاتٌ في علومٍ أخرى، كابن الجوزي، والسيوطيّ، وهذا النّمط ذو علاقةٍ قويّةٍ باللُّغة ، وهي تجمع بين الوضع اللُّغويّ، والاستعمال القرآني، ولهذه الصلة نكاد نجزم أنّ مادّة كتب الوجوه والنّظائر قد دخلت المعجم العربيّ باعتبارها أحد روافده .

وعلماء اللغة عنوا بهذا النمط عنايةً مستقلّة بمؤلّفاتٍ قائمةٍ بذاتها،

---

(١) يحيى بن سلاّم (ت ٢٠٠ هـ) ، التصاريف تفسير القرآن ممّا اشتبهت أسماؤه وتصرّفت معانيه ، تحقيق هند شلبي / الشركة التونسية للتوزيع عام١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠م ص٢٨ - ٣٨ . من مقدمة المحقّقة.

أو بإدخال مادّتها في مادة المعجم، وهو فنّ يتّصل - كما أسلفت - بالمشترك اللّفظي، والمترادف، ولا نخرج عن القصد لو قلنا: إنّ هذا العلم يفتقر أساساً إلى اللُّغة لمعرفةِ أوضاع الكلمات ، واستعمالاتها، وتتبع ما ورد منها في القرآن، وما يستشهد لها به من كلام العرب .

وقد أسهم اللّغويُّون بدراسة حروف المعاني والأدواتِ في القرآن من خلال مؤلّفاتهم النحويّة، من مثل مغني اللبيب لابن هشامٍ، وبصائر ذوي التمييز للفيروزآباديّ، ثمّ جاء في عصرنا شيخنا محمد عبد الخالق عضيمة، وألّف كتابه «دراسات لأسلوب القرآن الكريم» وخصّ مجلّداته الثلاثة الأولى لحروف المعاني والأدوات في القرآن ، وقد استقرأ كُلَّ حرف وكُلَّ أداة في القرآن، وأورد استعمالاتها، ومعناها في كل موقعٍ وردتْ فيه، واستدرك على النحاة أشياء فاتتهم، وحشد كثيراً من أقوال النحاة والمفسّرين في عملٍ معجمي يُسهِّل لك الوصول إلى المادة المرادة .

وهم في درسهم حروف المعاني والأدوات قد جعلوا من الشواهد القرآنية أساساً لتحديد معاني الحروف والأدواتِ، وتعدّد تلك المعاني، بحسب السِّياقات والتراكيب. والقرآن في هذه الأعمال إمّا مفسَّر مشروح يستشهد لمعانيه بما يؤيِّدها من أقوالِ العرب، وأمثالهم، وحكمهم، وأراجيزهم، وأشعارهم، وإمّا شواهد تبيَّن بها المعاني سواء وافقت معاني الأداة أو الحرف في معناه، أو زادتْ عليه.

وعلى كُلٍّ فألفاظ القرآن هي أساس الصنعة المعجميّة، وأساس

التـأليف في المعـجم العـربيّ، ولا يسـتطيع مـؤرّخ المعـجم العـربي أن يتجاوز كلمات القرآن، وأنّها البداية الأولى للتأليف المعجميّ، بل الدافع الأساس لنشأة المعجم العربيّ، والدرس اللغويّ، وهو أمرٌ ظاهر لا يسوغ لأحدٍ تجاهله، أو التقليل من شأنه وأثره.

أمّا « معاني القرآن » فقد كان لعلماء العربيّة فيها إسهامٌ واضح، صار فيما بعد من مصادر التفسير، ولو رجعنا إلى كتب المعاني لوجدنا لأهل العربيّة الأوائل جهداً بارزاً واضحاً، تلقّته الأُمَّة بالقبولِ، ويكفي أن نشير هنا إلى ثلاثة كتبٍ، هي:

١ - مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنّى (ت ٢١٠ هـ) من مقدّمة كتابه اتّفاق كلام العرب والقرآن في الألفاظ، والتراكيب، والمدلولات، والاستعمالات، وأنّ القرآن إنّما نزل بلغة العرب، وجاء على طرائقهم في البيان والكلام، قال أبو عبيدة: « قالوا: إنّما أنزلَ القُرآنُ بلسانٍ عربيٍّ مبين، وتصداق ذلك في آية من القرآن، وفي آيةٍ أخرى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ... ﴾ (إبراهيم: ٤) فلم يحتج السَّلف ولا الّذين أدركوا وحيه إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن يسألوا عن معانيه، وعمّا فيه ممّا في كلام العربِ مثلُه من الوجوه والتلخيص، وفي القرآن مثل ما في الكلام العربيِّ، من وجوه الإعراب، ومن الغريب، والمعاني »[١].

---

(١) أبو عبيدة، معمر بن المثنى (ت ٢١٠ هـ) / مجاز القرآن، تحقيق فؤاد سزكين / ط الثانية عام ١٣٩٠ هـ القاهرة، ١ / ٨.

ثم ذكر نماذج وأمثلة من القرآن قبل البدء بسوره[1] . ثمّ أجمل الحديث بقوله: «ففي القرآن ما في الكلام العربيِّ من الغريب والمعاني، ومن المحتمل من مجاز ما اختصر، ومجاز ما حُذِف، ومجاز ما كُفَّ عن خبره، ومجاز ما جاء لفظه لفظ الجمع ، ووقع على الجميع، ومجاز ما جاء لفظه لفظ الجميع، ووقع معناه على الاثنين، ومجاز ما جاءَ لفظه خبر الجميع على لفظ خبر الواحد ، ومجاز ما جاء الجميع في موضع الواحد إذا أُشْرِكَ بينه وبين آخر مفردٍ، ومجاز ما خُبِّر عن اثنين، أو عن أكثر من ذلك، فجعل الخبر للواحد، أو للجميع، وكُفَّ عن خبر الآخر، ومجاز ما خُبِّر عن اثنين، أو أكثر من ذلك، فجعل الخبر للأوّل منهما، ومجاز ما خُبِّر عن اثنين أو عن أكثر من ذلك، فجعل الخبر للآخر منهما، ومجاز ما جاء من لفظ خبر الحيوان والموات على لفظ خبر الناس ؛ والحيوان كلّ ما أكل من غير الناس، وهي الدَّوابُّ كلُّها، ومجاز ما جاءت مخاطبته مخاطبة الغائب، ومعناه مخاطبة الشاهد، ومجاز ما جاءت مخاطبته مخاطبة الشاهد، ثمّ تُركت وحُوِّلتْ مخاطبة هذه إلى مخاطبة الغائب، ومجاز ما يزاد من حروف الزائد، ويقع مجاز الكلام على إلقائهن، ومجاز المضمر استغناءً عن إظهاره، ومجاز المكرّر للتوكيد، ومجاز المجمل استغناءً عن كثرة التكرير، ومجاز المقدَّم والمؤخَّر، ومجاز ما يحوّل من خبره إلى خبر غيره بعد أن يكون من سببه، فيجعل خبره للذي من سببه ، ويترك هو. وكُلُّ هذا جائز قد تكلّموا به»[2].

---

(١) أبو عبيدة ، مجاز القرآن ١ / ٨ – ١٨ .

(٢) السابق ١ / ١٨ – ١٩ .

ويظهر من إيراد هذا النّص أنّ المقصود بالمجاز ليس تفسير الكلماتِ تفسيراً لغويّاً معجميّاً فحسب ، وإنّما يخرج إلى الاستعمالات، والتراكيب، وأساليب العرب في الخطاب، وخروج الكلام عن ظاهر ما يَدُلُّ عليه، وكُلُّ هذه يجمعها أنها معانٍ. ولا يبعد عن كتاب « مجاز القرآن » كتاب أبي الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش (ت ٢١٥ هـ)؛ إذ عُنِي بما عُنِيَ به أبو عبيدة من تفسير الألفاظ، وشرح المعاني، وبيان أوجه الأساليب، وأغراض الخطاب، وخروج الأساليب عن ظاهرها، وزاد على ذلك عنايته بالظاهرة النحوية ، والقراءات القرآنية، وقد أبان عن آراءٍ له في الرسم والقراءة .

ويقال : إنّ الكسائي طلب من الأخفش تأليف هذا الكتاب، فجعله إماماً، وعمل عليه كتاباً في المعاني، ثم عمل الفرّاء كتابه في المعاني عليهما، كما يقوله الأخفش[1]. وقد خلا كتاب الأخفش المطبوع من مقدمة، كمقدمة أبي عبيدة.

أمّا كتاب « معاني القرآن » للفرّاء يحيى بن زياد (ت ٢٠٧) فهو أمالٍ أملاها في مجالس في السنوات الثانية، والثالثة، والرابعة بعد المائتين، وقد أفاد فيه من أعمالٍ سبقته، كما تقدّم ، وعُنِي بما عُنوا به، وزاد عليهم عنايةً خاصّةً بالظاهرة النحوية، والرسم، والقراءة، ونثر في كتابه كثيراً من مصطلحات الكوفيين وآرائهم .

(١) الزُّبيدي ، أبو بكر محمد بن الحسن (ت ٣٧٩ هـ) طبقات النحويين واللُّغويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ص ٧٠ .

ويتّفق الثلاثةُ على أنّ الغرض من تأليفهم هو دفع الشبه عن القرآن ، وما يرمي به الملاحدة والزنادقة القرآن من خللٍ واضطراب، وتناقض، وقد جعلوا عُدَّتهم وسلاحهم لردِّ تلك الشُّبه لغة العرب، وأساليبهم البيانية، وطرائقهم الكلامية، وتقرير أنّ القرآن لم يخرج عن طرائق العرب ورسومهم ، ولا عن معهودهم وسَنَنِهم في الحديث والخطاب .

وقد استوفى المفسِّرون فيما بعدُ خلاصة ما في هذه الكتب الثلاثة وغيرها، فلو نظرنا مثلاً في تفسير الطبريّ لاستطعنا ردّ ما فيه ممّا يرجِع إلى المعاني، وتفسير الألفاظ، والكلام عن سَنن العرب في كلامها إلى كتب ثلاثة أو أكثر، وإن لم يصرّح بها، وهي « المجاز »، و« معاني القرآن » للفرّاء، و« غريب القرآن » وصنوه « تأويل مشكل القرآن » لابن قتيبة .

ثمّ إنّ المصنّفين في « معاني القرآن » كأنّهم شغلوا بأصل اللغات، وإن لم ينسوا فرعها؛ لأنّ الأصل يبحث في رسوم العرب في مخاطباتها، ومالها من الافتنان تحقيقاً ومجازاً . . . وهذه هي الرُّتْبةُ العليا؛ لأنّ بها يعلم خطاب القرآن والسُّنَّة، وعليها يُعَوِّلُ أهل النظر والفتيا ، وذلك أنّ طالب العلم العلويّ يكتفي من أسماء الطويل باسم الطويل، ولا يضيره أن لا يعرف الأشقَّ والأمقَّ، وإن كان في ذلك زيادة فضل .

وإنّما لم يضره خفاءُ ذلك عليه ؛ لأنّه لا يكاد يجدُ منه في كتاب الله (جلّ ثناؤه) شيئاً فيحوج إلى علمه ... ولو أنّه لم يعلم توسُّع العرب في مخاطباتها لَعَيَّ بكثيرٍ من علم محكم الكتاب والسُّنَّة، ألا تسمع قولَ الله

(جلّ ثناؤه) : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ . . . ﴾ (الأنعام: ٥٢) إلى آخر الآية، فسرُّ هذه الآية في نظمها لا يكون بمعرفة غريب اللُّغة والوحشيِّ من الكلام، وإنّما معرفته بغير ذلك ممّا لعلّ كتابنا (أي الصاحبي) هذا يأتي على أكثره بعونِ الله (تعالى) »[1] . وقد صدق ابن فارسٍ في هذا ، ووفّى بما وعد ؛ فكُلُّ المباحث المتعلّقة بالحروف، ومعاني الكلام إنّما هي في معرفة رسوم العرب في مخاطباتها، وقد قرنها بخطاب القرآن والسنة، وقد كان جُلُّ اعتماده على كتاب معاني القرآن، وكتب العربية ، والتفسير .

وقد كان ميدان المعاني ميداناً فسيحاً، ولج منه الطاعنون على كتاب الله، الزّائغون عن نور اليقين، المحرومون من نور هدايته، وحلاوة بيانه وطلاوته، ونظرة عجلى فيما أورده ابن قتيبة في كتابه "تأويل مشكل القرآن" من طعونهم، وشبههم، وضربهم القرآن بعضه ببعض، واتباع متشابهه، وترك محكمه، وترك الرجوع إلى ما يناظر كتاب الله من كلام العرب، وبيانهم، وزعم التناقض في القرآن، وطلبهم أن يحوي كتاب الله كُلّ فنٍ عرفوه، ليكون جامعاً، ويصدق فيه قوله (تعالى) : ﴿ . . . مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ . . . ﴾ (الأنعام: ٣٨) على حدِّ زعمهم، في أمورٍ سببها جهلهم، وجعلهم اختلاف القراءة اختلافاً، وليس باختلافٍ، ورميهم القرآنَ باللّحن، والطّعن بحكمة إنزال

---

(١) ابن فارس ، الصاحبي ص ٣ – ٤ .

المتشابه، وعيبهم مجازات القرآن، والمجاز - كما زعموا - نوع من الكذب، ودلالات ألفاظه، كالأضداد، والقلب، وأساليبه وما فيها من حذف واختصار، وزيادة وتكرار، وطرائق التعبير فيه من كنايةٍ وتعريض، ومخالفة ظاهر اللفظ ومعناه .

وقد قال ابن قتيبة في صدر كتابه: «وإِنّما يعرف فضل القرآن من كثر نظره، واتّسع علمه، وفهم مذاهب العرب وافتنانها في الأساليب، وما خصَّ الله به لغتها دون جميع اللغات؛ فإِنّه ليس في جميع الأمم أُمَّةٌ أُوتيتْ من العارضة والبيان، واتّساع المجال، ما أوتيته العرب خِصِّيصى من الله، لما أرهصه في الرسول، وأراده من إِقامة الدليل على نبوَّتهِ بالكتاب، فجعله عَلَمَه، كما جعل عَلَمَ كُلِّ نبيّ من المرسلين من أشبه الأمور بما في زمانه المبعوث فيه»[1].

وقد كان اعتماد ابن قتيبة على أقوال سابقيه، ولغات العرب، قال: «فألَّفْتُ هذا الكتاب، جامعاً لتأويل مشكل القرآن ، مستنبطاً ذلك من التفسير بزيادة في الشرح والإيضاح، وحاملاً ما لم أعلم فيه مقالاً لإمامٍ مطّلع على لغات العرب؛ لأُرِيَ المعانِدَ موضعَ المجاز، وطريق الإمكان ، من غير أن أحكم فيه برأيٍ، أو أقضي عليه بتأويل»[2] .

---

(١) ابن قتيبة ، عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦ هـ)، تأويل مشكل القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، ط الثانية، دار التراث / القاهرة / عام ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣م ، ١٢ .

(٢) ابن قتيبة ، تأويل مشكل القرآن ص ٢٣ .

وقد وصف هؤلاء الّذين عناهم بكتابه، فقال: «وقد اعترضَ كتاب الله بالطعن ملحدون، ولغوا فيه وهجروا، واتبعوا ﴿ ... مَاتَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ ... ﴾ (آل عمران: ٧) ثمّ قضوا عليه بالتناقض، والاستحالة، واللّحن، وفساد النّظم، والاختلاف، وأدلوا في ذلك بعللٍ رُبَّما أمالتِ الضّعيفَ الغُمرَ، والحَدَثَ الغرَّ، واعترضت بالشبه في القلوب، وقدحت بالشكوك في الصدور»[١].

فكان هؤلاء الزّنادقة يأخذون ما اشتبه من معاني القرآن، ويجعلون منه شُبهاً يقذفون بها في قلوب المؤمنين، كي ينتزعوا إيمانهم من جذوره، ويزرعوا الشكّ مكان اليقين، ظنّاً منهم أنّهم قادرون على إضلالِ الخلق وإهلاكهم، والله يهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيم.

وقد جرتْ حكمةُ الله أن ينتدبَ لهذا القرآن من يذبُّ عنه، وأن يستنبت من كُلِّ جيلٍ ذادة عن كتابه، وحراساً لدينه، يدفعون عنه حيف الظالمين، وشبه الملحدين، وأكاذيب المرجفين، وفرى الجاحدين، وطغيان الطاغين، ليهلك من هلك عن بيّنة، ويحيا من حَيَّ عن بَيِّنةٍ.

وما ذكره هؤلاء من شبهٍ ترجع في غالبها إلى بابٍ واحد، هو باب اللُّغة والبيان، وكُلّ ما في القرآن جارٍ على طرائق العرب في الخطاب، وسننها في القول، وإن كان ظاهره غير ذلك، كما قال ابن قتيبة: «وليستْ تخلو هذه الحروف من أن تكون على مذهبٍ من مذاهب أهل الإعراب ...»[٢].

---

(١) السابق ص ٢٢.

(٢) السابق ص ٥٦ – ٥٧.

وأكّد هذا المعنى بقوله الآخر: «إنّ القرآن نزل بألفاظ العرب ومعانيها، ومذاهبها في الإيجاز والاختصار، والإطالة والتوكيد، والإشارة إلى الشيءِ، وإغماض بعض المعاني، حتّى لا يظهر عليه إلاّ اللّقنُ، وإظهار بعضها، وضرب الأمثال لما خفي، ولو كان القرآن ظاهراً مكشوفاً، حتّى ليستوي في معرفته العالم والجاهل، لبطل التفاضُل بين الناسِ، وسقطت المحنةُ، وماتت الخواطر ...»[1].

ثمّ قال: «وعلى هذا المثال كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلام صحابته والتابعين، وأشعار الشعراء، وكلام الخطباء، ليس منه شيءٌ إلاّ وقد يأتي فيه المعنى اللّطيف الذي يتميَّزُ فيه العالم المتقدِّمُ، ويقرُّ بالقصور عنه النَّقاب المبرِّز»[2].

وتكفينا هذه النّصوصُ لمعرفة مكان «معاني القرآن» وما لها من أثرٍ في التصنيف اللُّغويِّ، الّذي قصد إلى الدّفاع عن القرآن، وبيان شبه المشبّهين، وزيغ الزَّائغين، وبيان وجه فريتهم، وأنّهم جهلوا لغة العرب، وخفيت عليهم أنماطها، فوقعوا فيما وقعوا فيه من شكّ، ولا يرفع هذا الشّكَّ، ولا يدفع هذا الزَّيغَ إلاّ معرفة ما للعرب من أساليب وافتنان في الحقيقة والمجاز، وهو عين ما قام به المؤلّفون في المعاني، وتجلّى أكثر عند ابن قتيبة في كتابه «تأويل مشكل القرآن». فكان هذا العمل لدفع الشبه عن القرآن، بردِّ طعن الطاعنين، وتأييد ذلك بكلام العرب،

---

(١) السابق ص ٨٦.

(٢) السابق ص ٨٧.

وتعرّف طرائقه، وأنماطه ، وتعدّد طرقه وأساليبه، وكان في هذا العمل مِنَّةٌ عظمى على العربيّة وأهلها، وخدمةٌ جُلّى للقرآن وبيانه.

وهذه البابة من العلم بحاجةٍ إلى أن تسترعي نظر طالبي علوم القرآن وعلوم العربيّة؛ لأنّها مما دقَّ حتّى كاد يخفى، ومِمّا أهمل حتّى كاد ينسى، في ظلّ انصراف طلاّب العربيّة إلى قواعد يتحفّظونها، والاكتفاء بمصنفات متأخِّري النحاة، بمعزلٍ عن أصل البيان، وفي ظلِّ اشتغال طلبة علوم القرآن بمنظوماتٍ في التجويد والقراءة، يكرِّرونها بمعزلٍ عن أصول علمهم الشريف، ونشأته الأولى.

غنيٌّ عن التأكيد أن القرآن أعلى نصّ في العربية، وأقواه من حيث صحة سنده، وكيفية هذه الصحة، وينفرد عن غيره من نصوص العربية، بأنّه رُوِي سماعاً شيخاً عن شيخ يبلغون به رسول الله صلى الله عليه وسلم عن جبريل عليه السلام عن ربِّ العالمين. وليس في الدنيا نصّ تحقّقت فيه هذه الميزة. ولا غَرْو أن يجعله علماء العربية، كما جعله علماء الشريعة الحجّة الأولى لإثباتِ اللغة. وتقرير قواعدها، وأن يجعلوه في مرتبةٍ أسمى وأعلى من قياساتهم النحوية، فكان من ذلك ما يسمّونه الاحتجاج بالقراءات ولها ، وهو نمطٌ لم يكن وليد قرنٍ متأخر كالرابع الهجري مثلاً ، كما قد يتبادر إلى الذهن من ظهور مؤلّفاته، وأنّ رجاله المؤسِّسين جميعاً، أو أكثرهم على الأقلِّ عاشوا فيه، بل نجد من هذا شيئاً غير قليل في كتب النحاة الأوائل، ومقالاتهم، ومجالسهم، وأماليِّهم، وما ذلك على العربيّة بغريبٍ؛ لأنّها

في أصل وضعها، ونشأتها إنّما قامت لتخدم القرآن، وتبين عن وجه ما يخفى وجهه ، بالتنظير له من كلام العرب شعرها ونثرها ، ولعلّ ما مرَّ من حديثٍ عن «معاني القرآن» كافٍ في شرح الفكرة وبيانها .

كما لم تخلُ كتب «معاني القرآن» من توجيه للقراءات، وبيان نظائرها من كلام العرب، ومن آراءٍ في القراءة احتجاجاً وقبولاً وردّاً ، وربطاً بالرسم، والرأي النحوي .

وقد أسهم علماء العربيّة في هذا النمط من العلم ابتداءً بجمع القراءات، الذي يقال: إنّ أوّل من عمد إلى التصنيف فيه رجلٌ من أهل اللغة في صدر القرن الثالث هو أبو عبيد القاسم بن سلاّم الهروي (ت٢٢٣ هـ) ألّف كتابه «معاني القراءات» .

وقد ألّف بعده ابن قتيبة كتاباً في «وجوه القراءات» . ويفهم من ذكره له في «تأويل مشكل القرآن» أنّه كتابٌ في توجيه القراءات، وتخريجها على مذاهب العرب في كلامها .

وقد كان الاحتجاجُ للقراءاتِ باباً واسعاً لخدمة اللُّغة العربيّة، وتقوية بعض وجوهِها، وقد عرف النحويُّون هذا الاحتجاج منذ بداية التأليف في علوم العربية، نجد ذلك في كتاب سيبويه، ومن تبعه من النحاة. ينظِّرون للقراءة بكلامِ العرب شعره ونثره، فلمّا كان القرن الرابع سبَّع في أوّله أبو بكر بن مجاهدٍ (ت ٣٢٤) «السّبعة»، وألّف كتابه، وتلقّت الأُمَّةُ تسبيعه بالقبولِ، وظهر منذ ذلك الزّمن توجيهاتٌ واحتجاجاتٌ للقراءات سواءٌ كانت سبعيَّةً أو غيرها .

ولو ألقينا نظرة على تآليف الاحتجاج للقراءات في القرن الرابع لوجدنا أبا بكرٍ محمد بن مِقْسَم (ت ٣٥٦ هـ) يؤلِّف كتاباً بعنوان «احتجاج القراءات» وفي أوّل القرن وقبله ألّف أبو بكر بن السّرّاج (ت٣١٦ هـ) «احتجاج القراءة». ويقال: إنّه شرع فيه ولم يتمَّه، ثمّ ألّف أبو عليّ الفارسيّ كتاب «الحجة في علل القراءات السبع» وقِرنُه أبو عبد الله الحُسَين بن أحمد بن خالويه (ت٣٧٠ هـ) كتاب «إعراب القراءات السبع وعللها» وألّف من هذه الطبقة أيضاً، أبو منصور الأزهري (ت ٣٧٠ هـ) كتاباً في «معاني القراءات». ثم ألّف بعدهم أبو الفتح عثمان بن جني (ت ٣٩٢ هـ) ألّف كتاب «المحتسِب في تبيين وجوه شواذّ القراءاتِ، والإيضاح عنها» وقد أراد به أن يستكمل عمل شيخه أبي عليّ. كما ألّف في آخر هذا القرن أبو زرعة عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة كتابه «حُجَّة القراءات».

وفي القرن الخامس ظهر مكّيّ بن أبي طالبٍ (ت ٤٣٧ هـ) فألّف كتابه «الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها» وغيره، ثمّ تواتر التأليف في جمع القراءات والاحتجاج لها فألّف في القرن السادس ابن الباذش (ت ٥٤٠ هـ) كتابه «الإقناع».

والكتب في القراءات تخريجاً وتوجيهاً واحتجاجاً أكبر من أن نأتي عليها في هذه العجالة، ولسردها مقامٌ آخر، لكن يكفينا أن نشير إلى بعضها إشارة خاطفة، وفيه غنيةٌ، وكفاية، لما قصدنا إليه.

وقد أسهم هذا النوعُ من التأليف في إثراء العربيّة ، وخدمة لغة القرآن، وكان إِضافةً لدرس العربيّة اتخذ القرآن محوراً ، وجعله مداراً يدورُ حولَه، وكم من مسألةٍ عازبة ، يعزُّ عليك أن تجدها في المطوّلات النحوية ، ثمّ تجدها منشورةً مبسوطةً في كتب توجيه القراءات .

ثمّ إنّ كتب توجيه القراءات تمزج مستويات الدرس اللُّغويِّ الأربعة بعضها ببعض: الصوتي ، والصرفيّ ، والنحويّ ، والدّلاليّ ، وتعدُّ من أرقى الدراسات التطبيقية في اللغة العربية ، وهي تمثِّل اللحمة القويّة بين علوم العربيّة وعلوم القرآن، وتصوّر التآخي بينهما في أعلى مراتبه، وأسمى درجاته؛ لأنّها تتخذ النَّصّ المقدَّسَ مجالاً للدرسِ ، وترومُ خدمته ، ورفع ما يحيق بفهمه من حواجز، وتيسير ذلك الفهم من خلالِ تناوُلٍ لغويّ ميسَّرٍ يعتمد التحليل، والإعراب، وذكر النظائر ، والاستئناس بالرأي أو الآراء الأخرى، وتخريج ما في القراءة على كلام العرب ، أو آراء العلماء ومذاهبهم .

وممّا يتّصل بموضوع الاحتجاج للقراءات إعرابُ القرآن، وهو أمرٌ جذب أنظار اللُّغويين منذ عصور الازدهار اللُّغويِّ، نجد أمثلةً لذلك في التصنيف خلال القرن الرابع الهجريّ؛ أَلَّف ابن خالويه كتابه «إعراب ثلاثين سورة» وينسب من قبل لمحمد بن يزيد المبرّد (ت ٢٨٦ هـ) كتابٌ في إعراب القرآن، بل لقطربٍ محمد بن المستنير (ت ٢٠٦ هـ) ينسب كتابٌ أيضاً. ولثعلبٍ أحمد بن يحيى (ت ٢٩١ هـ) ولابن فارس (ت٣٩٥ هـ) .

وهناك كتب في إِعراب القرآن ، شُهِرت ، مثل « البيان في إِعراب غريب القرآن » للكمال بن الأنباري (ت ٥٧٧ هـ) ، ولأبي البقاء العكبري (ت ٦١٦ هـ) كتابٌ أيضاً طبع باسم « إِملاء ما منّ به الرحمن » و« التبيان في إِعراب القرآن » . ولابن هشام (ت ٧٦١ هـ) تأليف في إِعراب القرآن باسم « المسائل السفريّات » في إِعراب مواضع من القرآن .

وللمتأخرين كتب كثيرةٌ ، يصعب حصرها ، لعلّ من أشهرها كتاب« البحر المحيط » لأبي حيَّان الأندلسي (ت ٧٤٥ هـ) و« دراسات لأسلوب القرآن الكريم » لشيخنا محمد عبد الخالق عضيمة (ت١٤٠٦هـ) ، وكتب الإِعراب لا تعرض لإِعراب الواضحات من الكلمات ، وإِنّما تعنى بما يكون في إِعرابه إِشكالٌ أو خلافٌ ، أو اختلاف في المعنى ، أمّا ما فعله بعض المتأخرين من إِعراب كُلِّ كلمةٍ في القرآن ، فهذا أقرب إِلى العبث، وهو إِخراجٌ للقرآن عمّا أنزِلَ من أجله .

والملحوظ أنّ النحويّين يتباينون حين تناول إِعراب القرآن ، فمنهم من يحشد لجمع أكبر عددٍ من أوجه الإِعراب الممكنة والمفترضة ، بل المحالة، ومنهم من يسلك طريقاً أقربَ إِلى القصد ، فلا يتّسع في إِيراد الأقوال إِلاّ بقدر، ومنهم من يربط هذا الاتّساعَ بصحّة المعنى ، واستقامة التركيب، وتحقُّق القصد ، وهذا أقربُ إِلى بيان القرآن ؛ إِذْ من الضّروريِّ مراعاةُ الجوانب البلاغيّة والأسلوبية عند التخريج النحويّ، وذكر الأوجه الممكنة في الإِعراب، فلا يكفي لصحّة الإِعراب استقامة التخريج النحويّ، وهو أمرٌ النحاةُ بحاجةٍ إِلى تطلّبه والبحث

عنه، وعدم الغفلة عنه، وليتهم يبحثون حين تخريج الآيات على أوجه الإعراب عن أعلى الوجوه بلاغةً، وأرفعها فصاحةً، وأقواها بياناً، فلا يكتفى بمجرَّد الجواز والإمكان ، الذي إن قبلناه في كلامِ الأعراب والشعراء، فلا ينبغي لنا أن نقبله في كلام الله .

ثمّ إنّ الاشتغال بالتكثر من أوجه التخريج والإعراب ، وترجيح بعضها على بعضٍ قد يشغلنا عن « معاني القرآن »، ويجعل ما نقوم به أقرب إلى درسٍ في الإعراب، لا يكادُ يتّصل بالقرآنِ ، وهو يُعْرِبُ القرآن .

وهناك فنٌّ من التأليف حول القرآن يُعْنى بوقوفه، وابتداءاته ، وهو شديد الارتباط بالدّرس اللُّغوي؛ لأنه يتّصل بالمعنى المراد، أو بالصنعة اللفظية، والأدب، والحكم النّحويّ ، وقد تتوقَّفُ عليه أحكامٌ شرعيّة .

وألَّف في هذا الفنّ جماعة من أهل العربية، منهم أبو بكر بن الأنباري (ت ٣٢٨ هـ) ألّف كتاب « إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عزّ وجلّ » . وأبو جعفر النّحاس (ت ٣٣٨ هـ) كتابه « القطع والائتناف » .

وهو فنٌّ عُنِي به الصحابة، وتلقّوه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتناقلته الأجيالُ من بعد، وقد جعلوا من صفات من يتقن الوقوفَ ما حكي عن مجاهدٍ أنّه قال: « لا يقومُ بالتّمام إلاّ نحويٌّ عالمٌ بالقراءة ، عالم بالتفسير، عالم بالقصص »[1] . كما يحتاج إلى معرفة علوم وفنونٍ أخرى

---

(١) النّحّاس أبو جعفر أحمد بن محمد (ت ٣٣٨ هـ)، كتاب القطع والائتناف / تحقيق د. أحمد خطّاب العمر ، وزارة الأوقاف العراقية / ط الأولى ، بغداد / عام ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م ، ١ / ٩٤ .

كي يتقن الوقف، وقال أبو جعفرٍ النحاس: «قد صار في معرفة الوقف والائتناف التفريق بين المعاني، فينبغي لقارئ القرآنِ إذا قرأ القرآن أن يتفهَّمَ ما يقرؤه، ويشغل قلبه به ، ويتفقّد القطع والائتناف ، ويحرِصَ على أن يفهم المستمعين في الصلاة وغيرها ، وأن يكون وقفه عند كلام مستغنٍ أو شبيه ، وأن يكون ابتداؤه حَسَناً»[1] . وهذا يتطلّب من القارئ أن يعرفَ علوماً وفنوناً .

ثم إنّ من الوقف ما هو واضح مفهومٌ معناه ، ومنه مشكل لا يدرى إلاّ بسماعٍ، وعلم بالتأويل ، ومنه ما يعلمه أهل العلم بالعربيّة واللّغة ، فيدري أين يقطع ؟ وكيف يأتنف »[2] .

وكُلُّ من ألّف في وقوف القرآن كان يعوِّلُ على العربية والمعاني اللُّغوية، وتمام المعنى، وكان من هذا عملٌ رائع خدم العربيّة ، ولفت الأنظار إلى ما وراء وقف المتكلّم من سرٍّ معنويّ أو لفظيّ .

ثمّ إنّ هذا العلم قد قصرتِ العناية به في العصور المتأخّرة، خاصَّةً لدى طُلاّب العربيّة، وهو علم على قدر من الأهمية كبير، وبخاصَّة في فهم المعنى بطريقة وقف القارئ، إن كان الوقف كاملاً، أو كان ناقصاً، بطريقة تشعر السامع بالمعنى المراد ، ويعمد إليها القارئ .

وكم من معنىً لاح بسبب وقفةِ قارئ، وكم من معنى اختلط، أو لُبِّس، أو عُمِّي بسبب وقفة، وهذا هو معنى قولهم « ينبغي لقارئ

---

(١) أبو جعفر النحاس ، القطع والائتناف ١ / ٩٧ .

(٢) السابق ١ / ٩٨ .

القرآن أن يتفهَّم ما يقرؤه ». وهذا أمرٌ زائد على ما يدرسه أهل العربيّة في باب « الوقف » لأنّه إنّما يعنى بالصورة اللّفظيّة للفظ الموقوف عليه، ولا يبحث فيما وراء ذلك .

ولم تَخْلُ الدراسات العامَّةُ التي كتبت حولَ القرآن من تفسيرٍ نقليّ، أو تفسيرٍ موضوعيّ، أو أحكام، أو أنماطٍ أخرى من التفسير، أو ما حول التفسير، لم تخل من توظيف اللغة، كما لم تخلُ من خدمةٍ للغة العربية بوجهٍ ما، لا تخفى على أحدٍ، وبيانها من توضيح الواضحات، وهو ثقيلٌ على النّفس.

أمّا ما يتعلّق بالإعجاز والبلاغة فهذا الأمر من الوضوح بما يكفينا ويغنينا عن أن نردِّدَ ما قاله الآخرون ، فلولا القرآن لم يكن ثمَّ بحثٌ في إعجاز، ولا عمل في البلاغة، فالبلاغة إنّما وُلِدَتْ لتبينَ عن إعجاز القرآن .

وهذا الموضوع لم يكفّ أهل العلم عنه منذ نشأة علوم العربيّة حتّى عصرنا الحاضر، كُلّها تحاول بيان وجهٍ من وجوه الإعجاز، وبلاغة القرآن والكثير منها مُتَّجه إلى الجانب البيانيّ. وقد قدّمت هذه الدراسات للعربية نمطاً فريداً من الدراسات البيانيّة لم تَنْعَمْ بها لُغةٌ من اللُّغاتِ، وهذا كاف، ولاتساع الموضوع، ولأنّه خُصَّ بمحورٍ خاصٍّ يَجْملُ بنا أن نتركه لغيرنا، لأنّهم أحق به، وأولى ، وأقدر على الكتابة فيه، وفيما قدّمناه عن عناية المسلمين باللغة العربية خدمة للقرآن كفاية .

وبعد، فقد آن لنا أن نثني عنان القلم بالقول :

إنَّه لا يمكن المسلمين أن يقيموا دينهم ، أو أن يفهموا قرآنهم من

غير استعانةٍ باللغة العربية، وإنه لولا القرآن لما تقدّمت علوم العربية، وتميّزت عن غيرها من علوم اللّغاتِ الأخرى، ولما كان فيها الأنماط التي مازتها عن غيرها، بل إنّ بعض أنماط علوم العربيّة لولا القرآن ما كانت ولا وُجِدتْ، ولا فَكَّر فيها أحد.

وإنّ هناك فئة تحاوِلُ فصل الأُمَّةِ عن دينها بحيلة بَتٍّ صلة اللغة العربية بالقرآن والحديث، وإبعاد علوم العربيّة عن الصبغة الدينيّة، ويتظاهرون مع ذلك بحبٍّ العربيّة، والحرص على تعليمها، لكن بشرط أن تفصل عن العلوم الشرعية، وأن لا يكون للدين وتعليماته هيمنة عليها، فظهرت دعواتٌ إلى إقامة أقسامٍ للعربيّة على هذه الأسس، تربِّي أبناءها على غير لغة القرآن، وإن كتبت بالحرف العربيِّ، ويدرسون غير لغة القرآن ، وإن سمّوها بعلومٍ عربيّة.

إنّ هناك حرباً يستهدف بها القرآن ؛ لكنّها لا تستطيع أن تخلع قناعها وتهجم على ما تريد مباشرة ، لأنّها سوف تُرَدُّ وتُصَدُّ ، فيصرفون حربهم إلى لغة القرآن ، فيحاربون كُلّ لسانٍ يحاكي بيان القرآن في جزالته، وفصاحته، ويستبدلون بذلك كُلَّ أسلوبٍ فجّ ، وتركيبٍ ركيكٍ، وهم في ذلك لا يحاربون نمطاً من أنماط التعبير ، ولا يحاربون اللّغة العربيّة نفسها، ولكنّهم يعلنون حرباً ضروساً على القرآن[1] .

ومن مظاهر فصل اللُّغة عن قرآنها أن يدَّعيَ بعض الكُتَّاب أنّ اللُّغةَ إنّما حُفِظَتْ لا بسببِ ارتباطها بالقرآن ، ولكن بسبب انكفائها على

(١) ينظر كلمة لشكيب أرسلان ، ضمن كتاب «تحت راية القرآن» للرافعي ص ٣٥ .

نفسها وانغلاق أهلها، كما هو الحال في اللُّغة الصينية ، كما يقولون ، وقد غاب عن هذا وأضرابه «أَنَّ العربيّة بنيت على أصل سحريّ ، يجعل شبابها خالداً عليها، فلا تهرم، ولا تموتُ ؛ لأنّها أُعِدَّتْ من الأزل فلكاً دائراً للنيِّرين الأرضيّين العظيمين، كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن ثمَّ كانت فيها قُوَّة عجيبة من الاستهواء كأنّها أخذةُ السحر، لا يملك معها البليغ أن يأخذ أو يدع»[1] .

ويزعم هؤلاء أنّ البلاغة يمكن أن تكون بمعزلٍ عن القرآن ، وأن الفصاحة يمكن اكتسابها من غير القرآن، وهذا ما لم يقل به أحد من قبل، وليأتنا هؤلاء بواحدٍ استطاع بمعزلٍ عن القرآن، وما كان على نمطه من الكلام جزالةً وقُوَّةً، وحلاوةً وطلاوةً أن يجعل من نفسه أديباً ذا بيانٍ ولسان .

والغَضُّ من قدر العربيّة ، والنيل من مكانتها، وأنّها ضرورة لكلِّ علمٍ شرعيّ، ليس بِدْعاً عصريّاً ، بل أشار الزمخشري إلى بعض منتحليه ، وردَّ عليهم فقال: « . . . وذلك أنّهم لا يجدون علماً من العلوم الإسلاميّة، فقهها وكلامها، وعلمي تفسيرها وأخبارها إلاّ وافتقاره إلى العربيّة بَيِّنٌ لا يُدْفَعُ، ومكشوفٌ لا يتقنَّعُ ، ويرون الكلامَ في معظم أبواب أصول الفقه ، ومسائلها مبنيّاً على علم الإعراب، والتفاسير مشحونةً بالرِّوايات عن سيبويه، والأخفش، والكسائيّ ، والفرّاء ، وغيرهم من النحويّين البصريّين والكوفيّين ، والاستظهار في مآخذ النّصوص بأقاويلهم، والتّشبُّث بأهداب فسرهم، وتأويلهم، وبهذا

---

(١) الرافعي ، تحت راية القرآن ص ٣١ .

اللسانِ مناقلتهم في العلم، ومحاورتهم، وتدريسهم، ومناظرتهم، وبه تقطر في القراطيس أقلامهم، وبه تَسْطُر الصُّكوكَ والسِّجلات حُكّامهم، فهم ملتبسون بالعربيّة أَيّةً سلكوا غير منفكين عنها أينما وجّهوا، كُلٌّ عليها حيثما سيّروا . . . »[1]. ثم قال: «وإنّ الإعراب أجدى من تفاريق العصا، وآثاره الحسنة عديد الحصى، ومن لم يتّقِ الله في تنزيله، فاجترأ على تعاطي تأويله، وهو غير معرب، فقد ركِبَ عمياءَ، وخَبَطَ خَبْط عشواء، وقال ما هو تَقوّلٌ وافتراءٌ وهُراءٌ، وكلامُ الله منه براء، وهو المرقاة المنصوبة إلى علم البيان، المطلع على نكت نظم القرآن، الكافل بإبراز محاسنه، الموكل بإثارة معادنه، فالصادُّ عنه كالسَّادِّ لطرق الخير كيلا تسلك، والمريد بموارده أن تعاف وتترك »[2] .

وبعد، فقد وضح لنا مدى التلازم أو التآخي بين علوم العربية، وعلوم القرآن حتّى غدا كُلٌّ واحدٍ لا يتم إلا بالآخر، وهذه لحمة أكدها افتقار كُلٍ إلى الآخر، كما اتضح من خلال ما قدّمته، إذْ لا يستطيع دارس علوم القرآن أن يفيد منها كما ينبغي إلاّ بدرسٍ للعربية وعلومها المختلفة جادٍّ، في حين لو تخلّت علوم العربية عن القرآن، أو نأتْ لتحوّلت جُثَّةً هامدةً، ولفقدت روحها الفاعلة، ولفقدت ما فيها من مُقوّماتٍ أسلوبيّة، وبيان ناصع .

كما وضح لنا مدى خطورة الدعوة إلى التخلّي عن مزايا الجملة

---

(١) الزمخشريّ أبو القاسم محمود بن عمر (ت ٥٣٨ هـ) المفصّل في علم العربيّة / ط الثانية / دار الجيل / بيروت ص ٣ .

(٢) الزمخشري ، المفصّل ص ٤ — ٥ .

القرآنيّة، ولغة القرآن؛ التي تغذوها النُّصوصُ من القرآن والسُّنَّة ، والتراث العربيّ الأصيل شعراً ونثراً، وهذه الدعوة من الخطورة بحيث تخفى إلاّ على اللبيب، وقليلاً ما هو ، والسُّموّ يتطلَّب شيئاً من المجاهدة، والعمل الشاقّ .

إنّ القرآن هو السِّرُّ في بقاء العربيّة وخلودها، أدرك هذا أعداؤها، كما أدركه أهلها، نجد تأكيد ذلك في دراساتٍ عربيَّةٍ، وأخرى غير عربيّة، بل إنّ هذا هو الّذي خلّد العربيّة، ورفعها إلى أن تكون ممّا يتسامى الناسُ في تحصيله؛ إذْ صارت العربيّة فيما بعد لغة الدين، ولغة العلم ، ولغة علية القوم، فتسامى النّاسُ في تعلُّمها، وتباروا في إتقانها لمجموع هذه الدّوافع، حتّى صار من غير أهلها من امتاز على أهلها، وهذه الدّوافع تعود كلها إلى القرآن ، فالقرآن هو الدَّافع الحقيقيّ الّذي جعل من العربيّة مقصداً يتبارى الجميع في تحقيقه .

إنه يجب الحذر أشدَّ الحذر من دعواتٍ تدعو إلى فصل القرآن عن العربيّة، بل فصل سلطة القرآن على العربيّة، وأنّه يجب أن ندرس العربيّة بوصفها لغةً لا ترتبط بالقرآن، مثلها في ذلك مثل أيٍّ لغة، وقد جرَّت هذه الفكرة إلى أن يفكر أناسٌ بإيجاد أقسام للعربيّة لا تهيمن عليها السُّلْطة الدّينيّة، ولا تهيمن عليها الاتجاهات القرآنية .

كما يجب أن نكون في حذرٍ شديدٍ من تجريد تعليم العربيّة عن الدّوافع الدينيّة، خاصّةً في مجال تعليمها لغير أهلها؛ إذْ قد تغرينا بعض مكاسبَ عاجلة محدودة، أو طلبات وقتيّة من شركاتٍ عاملةٍ في بلادنا، أو راغبين في تعلُّمها من غير المسلمين، هذه العلوم قد تغري

بعضاً ، وينادي بأن لا نثقل عليهم بربط العربية بالدين، ونصوصه ، وعلينا أن نجرّدها من كلّ ما يربطها بالدين أو القرآن، شأنها في ذلك شأن أيٍّ لغةٍ أخرى ، وأذكر أنّني مَرَّةً قابلت صينيّاً تعلّم العربيّة، وهو يقول : إنكم في المملكة العربية السعودية في برامجكم عيب، وهو ربطها بالدين والقرآن ، وكان بعض الحاضرين قد أعجبه كلامه أو رأيه، ورأى فيما يقوله وجهةَ نظرٍ مقبولة .

ثم إنّ هذا التجريد أو الفصل يرفع عنها هيبتها وقداستها التي اكتسبتها من ارتباطها بالقرآن ، ويجعلها لغةً من اللُّغاتِ ، ليس لها أَيُّ امتياز .

إنّه لا يسعُنا في هذا المقام إلاّ أن نشيد بتلك الجهود الضّخمة التي بذلها المسلمون من غير العرب في خدمة اللغة العربية كتابةً وتأليفاً، ودرساً، ودفاعاً عنها، ونشراً لها في مواقع من العالم ، وفِئاتٍ من المجتمع .

وقد كان للعربية ، وهي لغة القرآن أثر بارزٌ في لغات العالم الإسلاميّ الأخرى، كالفارسيّة مثلاً ؛ إذِ امتزجَتِ اللُّغتانِ في تكوين لغةٍ جديدةٍ، اعتمدت الحرف العربيّ ورسمه، وحاكت اللغة العربيّة في معجمها، وأوزانها، وعروضها، وقد أخذت الفارسيّة الألفاظ الإسلاميّة، كما هي من غير تغييرٍ يذكر، ولا يغيبُ عن أذهاننا محافظة المسلمين من غير العرب على الخطّ العربي في كتابة لغاتهم، وتمسُّكهم به، ممّا يُعَدُّ خطّاً من خطوط الدفاع عن العربيّة. ويعدّ دافعاً لتمسُّك العرب بخطّهم ورسمهم .

إنّه يجب علينا أن نعيد الترابط بين علوم القرآن وعلوم العربيّة، وذلك بربط الثانية بالأولى حين ندرس الأصوات، وحين ندرس الأبنية

والتراكيب، وحين ندرس المعجم ، فتجعل الدراسة الصوتية دراسةً تطبيقية من خلال الصوت العربيّ المتمثّل في قراءة القرّاء المجيدين ، وفيما سطره التجويد من أصواتٍ في صفاتها ومخارجها، كما نعنى بكلماتِ القرآن ، وأنّها أصلُ اللُّغة ولبُّها، كما يقول أهل اللغة ، وأن نعنى بدراسة إعراب القرآن وأحكامه النحويّة بما ينمّي الذَّوقَ ويرقِّيه .

كما يجب من طرفٍ آخر تقوية عناية المشتغلين بعلوم القرآن بعلوم العربيّة؛ لأنّها ضرورةٌ لهم، ولأنّها تعين في تكوين حِسٍّ لُغَويّ تدرك به أسرار التعبير، ويفرق بين الأساليب ، ولأنّها تقومُ مقام التكوين الفطريّ الّذي يعتمد على تلقِّي اللّغةِ عن البيئة، كما كان العرب يفعلون، وكما هي حال الجيل الأوّل الّذي تلقّى وبدأ درسَه بمعارف بسيطة، استحالت فيما بعدُ إلى علومٍ .

إنّ عودة دارسي القرآن وعلومه إلى اللغة العربية، نصوصاً وعلوماً ليست بدعاً، أبدعه عصرنا، بل دعوة مدويةٌ أرسلها الخليفة الراشد الثاني عمر الفاروق حين قال، وهو على المنبر عن قوله تعالى ﴿أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ...﴾ (النحل: ٤٧) فقال له رجلٌ من هذيل: التخوّف عندنا التنقُّص، ثمّ أنشده :

تخوَّف الرَّحْل منها تامكاً قَرِداً   كما تخوّف عُودَ النّبعة السَّفِنُ

فقال عمر :« أيُّها النّاسُ ، تمسَّكوا بديوان شعرِكم في جاهليّتكم ، فإن فيه تفسير كتابكم»[١] .

---

(١) القاسمي ، محاسن التأويل ١ / ١٠١ .

هناك من يلحّ أن تكون علوم العربيّة في تنظيم التعليم الجامعيّ تابعةً لعلوم القرآن، ويعيبُ أن تكون مادّةٌ مثل القراءات من اهتمامات أقسام اللغة العربيّة، وما ذلك بعيبٍ ، بل يعيب أن يكون للقراءات قسم في كلية اللغة العربيّة، والحق أن لا عيبَ في ذلك لشدّة اللحمة، والترابط بين النوعين: علوم القرآن وعلوم العربية . ولا يعني هذا تبعيّة علمٍ لعلم، فالأصل هو القرآن وعلومه، والعربيّة وعلومها إنّما هي خدمٌ للقرآن وعلومه. وقد تغلغلت علوم العربية في صلب علوم القرآن، من قراءةٍ وتفسير ، حتّى إنّه ليعسُر على الدارس فَصْلُ تلك العلوم عن بعض .

وإن من الواجب أن لا تخلو أقسام اللغة العربية من موادّ الدراسات القرآنية، خاصة ما يتعلّق بالتجويد والقراءة ، وإعراب القرآن، وتفسيره، وإنّ القرآن الأولى أن يكون مجالاً للدروس التطبيقية في اللغة العربيّة، لأسبابٍ لا تخفى على ذي بصيرة .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلّى الله وسلّم على محمد وآله وصحبه.

الفهرس

الموضوع الخامس :

عناية المسلمين بإبراز وجوه الإعجاز في القرآن الكريم

عِنَايَةُ المُسْلِمِينَ بِإِبْرَازِ وُجُوهِ الإِعْجَازِ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ

إعداد
أ.د. محمّد بن السيّد راضي جبريل
الأستاذ بكلّيّة أصول الدين
جامعة الأزهر - بالقاهرة

مقدمة البحث

الحمد لله حمداً كثيراً طيبا مباركاً فيه، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وإمام المرسلين، ورحمة الله للعالمين محمد بن عبد الله النبي الصادق الأمين، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد:

فلقد بعث الله تعالى رسله -صلوات الله عليهم جميعاً- إلى خلقه بدعوة واحدة، أصول الاعتقاد فيها: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وشرع لهم شرائع أساسها: الطهارة والعفاف في الأخلاق، والاستقامة والقصد في السلوك، والعدل والنصفة في المعاملات، والنصح للأمة في الولايات: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ ... ﴾ (الشورى: ١٣).

وبقيام رسل الله بدعوتهم على أكمل وجه وأتمه، وبثباتهم عليها كما أمرهم الله تعالى استجلبوا عداوة الطواغيت، وأثاروا أنصار الشر ممن أضلهم الشيطان، وزين لهم سبيل الغيّ فاتخذوه سبيلا، وهؤلاء هم المجرمون الذين أخبر الله خبرهم في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ (الفرقان: ٣١) ولقد دفعت العداوة هؤلاء المجرمين إلى محاولة الإتيان على بنيان دعوة الرسل من

القواعد، فانطلق كفار كل أمة في جحود ظاهر للحق يكذبون رسولهم، ويتهمونه بشتى التهم. ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ (فاطر: ٤).

فكان من نصر الله تعالى لهؤلاء الرسل الكرام أن أيدهم في مواجهة تكذيب الكفار بالمعجزات، وهي الآيات الخوارق التي تفحم المعاندين، وتثبت المؤمنين، ولقد شاءت حكمة الله تعالى أن تكون معجزات الأنبياء السابقين في أممهم حسية يراها المشاهدون، ويعاينها الحاضرون: كناقة صالح، وبرد النار وسلامها على إبراهيم، وعصا موسى، وإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى بإذن الله لعيسى صلوات الله عليهم جميعا، وأكثر ما كانت المعجزات الحسية في بني إسرائيل، وما كان ذلك إلا لفرط بلادتهم، وغلظ حسهم، ثم ختم الله تعالى رسله إلى خلقه بمحمد صلى الله عليه وسلم، وكما أيد من قبله بتلك المعجزات الحسية أيده كذلك بكثير منها، كتلك التي كان يطلبها المشركون تعنتاً، فيجابون إلى بعضها ولا يؤمنون[١]. ولا يجابون إلى أكثرها، رحمة من الله تعالى أن ينزل بهم العذاب عند تكذيبهم بها، كما جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ۚ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ (الإسراء: ٥٩).

---

(١) كما حدث في معجزة انشقاق القمر، وحديثها عند البخاري في الصحيح: كتاب التفسير، باب (وانشق القمر).

كما كان الكثير من هذه المعجزات الحسية[1] يحدث ابتداء على مرأى من المؤمنين، فيكون ذلك مواساة لهم، وتثبيتا لقلوبهم، وتعميقا ليقينهم.

لكن المعجزة الكبرى لهذا النبي الخاتم ﷺ كانت من نوع آخر، إنها المعجزة العقلية الباقية،التي تخاطب الأجيال في كل عصر، يراها ويقرؤها الناس في كل حين، إنها القرآن الكريم، الذي أعجز الفصحاء، وانقطع أمامه البلغاء في الأمة العربية، التي سما بيانها، ولمع ذكاؤها، فكان المعجزة الباقية للرسالة الخاتمة.

إن اختصاص النبي الخاتم ﷺ بمعجزة القرآن الباقية خلافا للرسالات السابقة يأتي إيضاحه وتعليله كذلك في حديثه صلوات الله وسلامه عليه: (ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة)[2].

---

(١) قد استفاضت الأخبار الصحيحة بالعديد من هذه المعجزات لرسول الله صلى الله عليه وسلم ،كتكثير الطعام بين يديه، ونبع الماء وفورانه من بين أصابعه حتى يتطهر ويرتوي الجمع الكثير من أصحابه من الماء القليل، وكذلك سماع تسبيح الطعام وهو يؤكل أمامه، وحنين الجذع إليه عند انتقاله صلى الله عليه وسلم إلى منبر صنع له ليخطب الناس عليه، وكل ذلك عند البخاري رحمه الله في صحيحه، يرجع في ذلك إلى: كتاب المناقب، باب علامات النبوة.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي، وأول ما نزل.

وفي معنى الحديث أقوال تصح في مجملها، ولعل أوضحها أن المراد: أن معجزات الأنبياء السابقين انتهت بانتهاء عصورهم، فلم يعاينها إلا من حضرها، أما معجزة القرآن فهي باقية إلى يوم الدين فهو في كل عصر خارق للعادة في أسلوبه وبلاغته وسائر وجوه إعجازه ومنها إخباره بالمغيبات، فلا يمر عصر من الأعصار إلا ويظهر شيء مما أخبر به أنه سيكون يدل على صحة دعواه، وكذلك فالمعجزات الماضية كانت حية تشاهد بالأبصار، وأما القرآن فمعجزة عقلية تشاهد بالبصيرة، فيكون من يتبعه لأجلها أكثر، لأن الذي يشاهد بعين الرأس ينقرض بانقراض مشاهده، والذي يشاهد بعين العقل باق يشاهده كل من جاء بعد الأول[1].

ولهذا رد الله تعالى على المشركين طلبهم لخوارق الآيات، وسؤالهم المعجزات بكفاية القرآن وعدم الحاجة إلى غيره من الآيات، وذلك في قوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (العنكبوت: ٥٠، ٥١).

ولقد عرف المسلمون منذ عصر نزول القرآن شأن معجزته فأكبروه، وبذل علماؤهم جهودهم، ووقفوا الكثير من أعمارهم على إبراز وجوه إعجاز هذا الكتاب الكريم، واستمرت هذه الجهود المباركة موفورة إلى يوم الناس هذا، فسجلت القرون المباركة وما بعدها من تاريخ المسلمين كتابات في هذا المجال لم ينقطع مددها، ولم يتوقف تتابعها.

---

(١) يراجع في ذلك ما قاله ابن حجر رحمه الله تعالى في (فتح الباري): ٩ / ٧.

ولقد أولت المملكة العربية السعودية -فيما نهضت به من أعباء خدمة الإسلام في شتى مجالاته- كتاب الله تعالى مزيد حياطة ورعاية، تمثلت في هذا الصرح الإسلامي الشامخ، وهو مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف الذي قام ويقوم بفضل من الله تعالى بخدمة كتابه الكريم من طباعة للمصحف، وتفسير للقرآن، وترجمة لمعانيه، وإثراء للدراسات القرآنية في شتى مجالاتها، وأخيراً وليس بآخر كان من معالم هذه الجهود المباركة دعوة المجمع إلى ندوة علمية عن (عناية المملكة العربية السعودية بالقرآن الكريم وعلومه) شملت عدة محاور تضمنت موضوعات شتى تصب كلها في هذا الهدف النبيل، هدف خدمة القرآن الكريم.

وتلبية لدعوة كريمة من أمانة المجمع يأتي هذا البحث في (عناية المسلمين بإبراز وجوه الإعجاز في القرآن الكريم) مشاركة متواضعة في هذا العمل الكبير.

وصلب الموضوع في هذا البحث يتناول قضيتين، الأولى: قضية التأصيل التاريخي لموضوع الإعجاز، وذلك من خلال المصنفات التي تناولته عبر قرون الإسلام، وأقوال أصحابها في أوجه الإعجاز المعتبرة، والثانية: بيان أوجه الإعجاز التي دارت حولها أقوال العلماء.

ولكن يسبق ذلك لتمام الفائدة، ولحاجة البحث مسائل تتعلق ببيان المراد بمصطلح إعجاز القرآن، وأهمية علم الإعجاز، وحاجة المفسرين إليه، ومناط الإعجاز المتفق عليه عند علماء الأمة، ورد ما يخالف ذلك.

أسأل الله العلي القدير أن يوفق لإتمامه على النحو الذي يرضيه سبحانه، وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم، وأن ينفع به، ويثيبني بما هو أهله عز وجل، وأن يتجاوز عما يكون فيه من تقصير هو من لوازم البشر، والله من وراء القصد وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه.

بيان المراد بـ (إعجاز القرآن):

مصطلح "إعجاز القرآن" -كما يبدو من صياغته- مركب إضافي، طرفاه كلمتا: (إعجاز) و(القرآن) ولمعرفة المراد بهذا المركب يلزم تحديد معنى طرفه الأول وهو كلمة (الإعجاز) ثم معرفة المراد بالمصطلح كله عند إضافة هذه الكلمة إلى (القرآن).

فما معنى الإعجاز؟

الإعجاز: مصدر أعجز، ومادة الكلمة هي العجز، وكلام أهل اللغة في معناها يدور حول الضعف، وعدم القدرة على النهوض بالأمر، وكذلك القعود عما يجب فعله.

قال ابن منظور: (العجز: نقيض الحزم -والعجز: الضعف، والمعجزة بفتح الجيم وكسرها: مفعلة من العجز: عدم القدرة، وفي الحديث: كل شيء بقدر حتى العجز والكيس[1]-. وقيل أراد بالعجز: ترك ما يجب فعله بالتسويف)[2].

(١) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب القدر، باب كل شيء بقدر.

(٢) لسان العرب: مادة (عجز).

ومقتضى آخر الكلام فيما ساقه صاحب اللسان أن العجز أعم من أن يكون ضعفا وانعدام قدرة، وإنما يمكن أن يعني ترك الأمر تسويفا، مما يفهم منه أن ما ترك في حيز القدرة عليه، لكن الباعث على تركه هو الكسل الحامل على التأجيل والتسويف.

لكن لنا في أصالة معنى العجز في الدلالة على عدم القدرة، وأن ترك الفعل عجزاً إنما يكون لعدم القدرة عليه في الأصل.

أقول: لنا في ذلك حديث الرسول ﷺ: (اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل..)[1].

قال ابن حجر رحمه الله تعالى: (إن الهم لما يتصوره العقل من المكروه في الحال، والحزن لما وقع في الماضي، والعجز ضد الاقتدار، والكسل ضد النشاط)[2].

فالجمع في الحديث بين الاستعاذة من كل من العجز والكسل فيه دلالة على تغاير المعنى فيهما، فالأول عدم القدرة، والثاني عدم النشاط والنهوض للأمر.

وعليه فالإعجاز: هو جعل من يقع عليه أمر التحدي بالشيء عاجزاً عن الإتيان به، ونسبته إلى العجز، وإثباته له، فالإعجاز بالنسبة للمعجز هو الفوت والسبق، يقال أعجزني فلان أي: فاتني، وبالنسبة للعاجز عدم القدرة على الطلب والإدراك، وقال الليث: (أعجزني فلان إذا عجزت عن طلبه وإدراكه)[3].

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الدعوات، باب الاستعاذة من الجبن والكسل.

(٢) فتح الباري ١١/ ١٧٨.

(٣) لسان العرب: مادة (عجز).

إذا كان هذا معنى الإعجاز، فبإضافته إلى القرآن، ومنهما يكون مصطلح: (إعجاز القرآن) كما سبق بيانه يكون المراد: إثبات القرآن عجز الخلق عن الإتيان بما تحداهم به، وهو أن يأتوا بمثله أو بشيء من مثله، فهو من إضافة المصدر إلى فاعله، والمفعول محذوف للدلالة على عموم من تحداهم القرآن، وهم الإنس والجن، وكذلك ما تعلق به الفعل محذوف للعلم به، وهو القرآن أو بعضه كما ثبت في كثير من آيات التحدي.

ويكتمل بيان المراد بهذا المصطلح إذا عرفنا أن إعجاز القرآن مَن تحداهم عن الإتيان بمثله أو بشيء من مثله ليس أمراً مقصوداً لذاته، وليس هو الغاية في نفسه، ولكن المقصود هو اللازم الناتج عن هذا الإعجاز، وهو إثبات أن هذا الكتاب حق، ووحي من عند الله تعالى، ومقتضى ذلك كله إثبات صدق الرسول صلى الله عليه وسلم فيما جاء به قومه من الرسالة، ودعاهم إليه من الإسلام، وعليه فإن حقيقة الإعجاز وهي إثبات العجز لمن وقع عليه التحدي استلزمت إظهار هذا العجز، وهذا الإظهار بدوره استلزم إظهار صدق رسول الله ﷺ وهو المقصود الأول من الإعجاز.

أهمية علم الإعجاز والضرورة الداعية إليه

من بداهة القول أن الله تعالى أنزل القرآن الكريم على رسوله ﷺ هداية للناس في شتى مناحي حياتهم إلى أقوم طريق وأهدى سبيل، وذلك مما ينبئ عنه حذف متعلق الهداية في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ...﴾ (الإسراء: ٩).

بل إن هذا الهدف الأعظم هو أول ما يطالع القارئ لكتاب الله تعالى مفتتح المصحف في أول سورة منه بعد الفاتحة ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى﴾ (البقرة: ١، ٢).

ومن المعلوم أن الاهتداء بالقرآن فرع عن معرفة وفهم معانيه، وطريق ذلك علم التفسير، ذلك العلم الذي نبتت نابتته الأولى في عهد رسول الله ﷺ، عندما كان يسأله أصحابه رضوان الله عليهم عما يشكل عليهم فهمه من القرآن، فيجيبهم، وكذلك عندما كان ﷺ يعلمهم ابتداء ما يعلم أنهم في حاجة إلى تعلمه، ولا سبيل لهم إليه إلا ببيانه ﷺ، كانت تلك البذور الأولى، ثم نما علم التفسير، وتطور عبر قرون الإسلام، من الرواية إلى التدوين والتصنيف مما لا مجال لتفصيله هنا.

أقول: إن هدي القرآن، وهو مقصود نزوله إنما يكون بتفسيره، ومعرفة ما فيه من الناسخ والمنسوخ، والعام والخاص، والمحكم والمتشابه، والحلال

والحرام وغير ذلك، ولذلك كان من تعريف العلماء لعلم التفسير ما قاله بدر الدين الزركشي: «هو علم نزول الآية وسورتها وأقاصيصها، والإشارات النازلة فيها، ثم ترتيب مكيها ومدنيها، ومحكمها ومتشابهها، وناسخها ومنسوخها، وخاصها وعامها، ومطلقها ومقيدها، ومجملها ومفسرها.. وزاد فيها قوم فقالوا: علم حلالها وحرامها ووعدها ووعيدها، وأمرها ونهيها، وعبرها وأمثالها»(١).

وحول هذا المعنى جاء تعريف الزرقاني- رحمه الله تعالى- لعلم التفسير في عبارة أجمل فيها تفصيل الزركشي، مبينا الغرض النهائي لهذا العلم فقال: «والتفسير في الاصطلاح: علم يبحث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية»(٢).

ولما كان الهدف النهائي من ذلك كله هو الاهتداء بالقرآن المترتب على فهم معانيه التي يتوصل إليها بتفسيره فإنا نستبيح لأنفسنا أن نقول في تعريف التفسير: «إنه علم يتوصل به إلى معرفة كيفية الانقياد لأمر الله تعالى فيما أنزله على رسوله ﷺ»، وذلك أن ما سبق من التعريفات إنما يؤدي إلى الغاية نفسها.

وإذا كان القرآن قد أنزله الله تعالى بلسان عربي مبين فإن القيام على تفسيره لابد أن ينبني على معرفة باللغة العربية وخصائصها، ودلالات ألفاظها، وأوجه بلاغتها.

---

(١) البرهان في علوم القرآن: ١٦٣، ١٦٤.

(٢) مناهل العرفان في علوم القرآن: ٢ / ٣.

ولذلك يذهب الشيخ الطاهر بن عاشور إلى: «أن مفسر القرآن لا يعد تفسيره لمعاني القرآن بالغاً حدّ الكمال في غرضه ما لم يكن مشتملا على بيان دقائق من وجوه البلاغة في آيه المفسَّرة، بمقدار ما تسمو إليه الهمة من تطويل واختصار، فالمفسر بحاجة إلى بيان ما في آي القرآن من طرق الاستعمال العربي، وخصائص بلاغته».

ثم نراه ينحي باللائمة على من لم يجعل ذلك في التفسير له غرضا، فيقول: «فمن أعجب ما نراه خلو معظم التفاسير عن الاهتمام بالوصول إلى هذا الغرض الأسمى إلا عيون التفاسير، فمن مقل مثل معاني القرآن لأبي إسحاق الزجاج، والمحرر الوجيز للشيخ عبد الحق بن عطية الأندلسي، ومن مكثر مثل الكشاف، ولا يعذر في الخلو عن ذلك إلا التفاسير التي نحت ناحية خاصة من معاني القرآن مثل أحكام القرآن، على أن بعض أهل الهمم العالية من أصحاب هذه التفاسير لم يهمل هذا العلق النفيس كما يصف بعض العلماء كتاب أحكام القرآن لإسماعيل بن إسحاق بن حماد المالكي البغدادي، وكما نراه في مواضع من أحكام القرآن لأبي بكر بن العربي».

«ثم إن العناية بما نحن بصدده من بيان وجوه إعجاز القرآن إنما نبعت من مختزن أصل كبير من أصول الإسلام، وهو كونه المعجزة الكبرى للنبي ﷺ، وكونه المعجزة الباقية»[1].

---

(١) التحرير والتنوير: ١/ ١٠٢.

وإذا كان كلام صاحب التحرير مبنياً على رؤية التلازم بين معرفة علوم العربية وفهم معاني القرآن الذي يتعين طريقاً للاهتداء به، فإن هذا الاهتداء فرع آخر بل ونتيجة لتلك الدراسة التي تؤكد إعجاز القرآن، ذلك أنا نرى أن هناك ترابطاً لا ينفك بين النص المعجز والمعنى الشامل لسبل الهداية كلها، هذا الترابط يمكن وصفه –إن صح التعبير– بأنه ترابط ما بين المقدمات والنتائج، فغرض الإعجاز مقدمة نتيجته الهداية، أو إن شئت فقل إن غرض الإعجاز أمر يسبق في التقرير غرض الهداية، لأن الناس إذا دعوا إلى العمل بمنهج ما فلابد من قناعتهم بسلامة مصدر هذا المنهج حتى ينقادوا له عن طمأنينة، والإعجاز –في هذا المجال– قد أدى الغرض فأوفى، فبه عرف أن القرآن كلام رب الناس وخالقهم، والأعلم بما يصلح لهم ويُصلحهم، ناهيك عن إعجاز ما تضمنه القرآن في مجال الهداية كذلك من سمو تشريعه، وعلو دعوته.

وهذا وما سبق يؤكد أن العناية بعلم (إعجاز القرآن) إجمالا وتفصيلا من أكثر الأمور ضرورة، وهو ما نبه عليه العلماء قديما وحديثا.

قال القاضي أبو بكر الباقلاني رحمه الله تعالى: «ومن أهم ما يجب على أهل دين الله كشفه، وأولى ما يلزم بحثه، ما كان لأصل دينهم قواما، ولقاعدة توحيدهم عماداً ونظاماً، وعلى صدق نبيهم ﷺ برهانا، ولمعجزته ثبتا وحجة، لا سيما والجهل ممدود الرواق، شديد النفاق، مستول على الآفاق، والعلم إلى عفاء ودروس».

ثم يقول: «وقد كان يجوز ممن عمل الكتب النافعة في معاني القرآن، وتكلم في فوائده من أهل صنعة العربية وغيرهم من أهل صناعة الكلام أن يبسطوا القول في الإبانة عن وجه معجزته والدلالة على مكانه، فهو أحق بكثير مما صنفوا فيه: من القول في الجزء، ودقيق الكلام في الأغراض، وكثير من بديع الإعراب، وغامض النحو، فالحاجة إلى هذا أمس والاشتغال به أوجب»[1].

لقد منَّ الله تعالى على علماء الأمة بحفظ هذا العلم، فأولت إعجاز القرآن وبيانه للناس جل اهتمامها، وتتابعت في ذلك المصنفات كما سيأتي بيانه، وظلت ترى مع ذلك أن الكلام في إعجاز القرآن واجب لا يسع الأمة في مجملها تركه.

قال السيد محمد رشيد رضا في تقديمه لكتاب (إعجاز القرآن) لمصطفى صادق الرافعي: «فالكلام في وجوه إعجاز القرآن واجب شرعاً، وهو من فروض الكفاية، وقد تكلم فيه المفسرون، وبلغاء الأدباء والمتأنقون»[2].

وما زال العلماء والأدباء من بعد رشيد رضا والرافعي يعنون بالقرآن الكريم من جهة إعجازه، وسيظلون على ذلك بعون الله تعالى خدمة لهذا الكتاب الكريم، الذي شرفنا الله تعالى بالانتساب إليه، ومنّ علينا بالاهتداء به: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ﴾ (الزخرف: ٤٤).

---

(١) إعجاز القرآن للباقلاني: ٢٢، ٢٣.

(٢) إعجاز القرآن للرافعي: ٢٠.

مناط الإعجاز في القرآن الكريم

إجماع أهل العلم المعتد بإجماعهم، والذي ارتضته الأمة منهم منعقد على أن القرآن الكريم معجز بذاته، أي بلفظه الذي نزل به جبريل على الرسول ﷺ، وهو ما يتعلق -من بين أوجه الإعجاز- بالناحية البلاغية ابتداءً، مع ما تضمنه القرآن من أوجه أخرى ترجع إلى ذاته لفظاً ومعنى، وهو ما سيأتي تفصيل له في ثنايا البحث إن شاء الله تعالى عند الكلام على تأصيل قضية الإعجاز تاريخيا في كتابات العلماء قديما وحديثا، وكذلك عند الكلام على هذه الأوجه تفصيلا فيما تمخضت عنه هذه المصنفات.

ولكن يحسن قبل ذلك حتى يصفو ذهن القارئ وعقله لتدبر ما يمكنه من أوجه الإعجاز في القرآن الكريم أن ننبه إلى دفع قول في مضمار الكلام على الإعجاز شاع في ساحة التناول لهذا الموضوع على الرغم من فقدانه لأي دليل معتبر يسنده من عقل صحيح، أو واقع تاريخي، بل تتظاهر الأدلة كلها ضده، مما يحكم ببطلانه.

وقد كان بالإمكان -بل وكنا نميل- أن نضرب عن ذكره صفحاً إلا أن تردد صداه في مصنفات الإعجاز قديما وحديثا وإن كان مقرونا ببيان بطلانه جعلنا نرى أن الإشارة إليه مع رده -ولو بإجمال- أمر لازم، حتى لا يجيء البحث خلوا من ذلك فيقع في وهم القارئ ولو احتمالا أن هذا القول له حظ من القبول، وأعني بهذا القول ما شاع بين البعض من أن أساس الإعجاز في القرآن هو الصرفة، فما شأن القول بالصرفة هذا؟.

القول بالصرفة يقوم أساساً على اعتبار أن القرآن في ذاته، أي بلفظه وأسلوبه غير معجز، وأن عدم إتيان العرب بمثله ليس علته عدم قدرتهم على ذلك، فهم البلغاء الفصحاء، ولكن العلة في ذلك راجعة إلى أن الله تعالى قد صرفهم عن المحاولة، وسلب علمهم الذي كان يمكن به -في نظر القائل بذلك- أن يأتوا بمثل القرآن، فهم كانوا قادرين، لكنهم لم ينشطوا لهذا الأمر، أو لم تتوفر الدواعي لديهم للمعارضة ابتداءً.

وقد ورد هذا التفسير للقول بالصرفة في عبارات العلماء من قديم قال الخطابي: «وذهب قوم إلى أن العلة في إعجازه الصرفة، أي صرف الهمم عن المعارضة، وإن كانت مقدوراً عليها، إلا أن العائق من حيث كان أمراً خارجاً عن مجاري العادات صار كسائر المعجزات»[1].

أي أن الصرف أو المنع الذي سماه الخطابي عائقا لما كان أمراً خارجاً عن العادة صار هو المعجز لا القرآن.

وقال الرماني: «وأما الصرفة، فهي صرف الهمم عن المعارضة، وعلى ذلك كان يعتمد بعض أهل العلم في أن القرآن معجز من جهة صرف الهمم عن المعارضة، وذلك خارج عن العادة كخروج سائر المعجزات التي دلت على النبوة». وما قاله الرماني قريب مما قاله الخطابي إلا أنه زاد فقال: «وهذا عندنا أحد وجوه الإعجاز التي يظهر منها للعقول»[2]. مما يشي بنوع قبول لهذا القول.

---

(١) "بيان إعجاز القرآن" ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص ٢٢.

(٢) "النكت في إعجاز القرآن" ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص ١١٠.

وقال الباقلاني رحمه الله: «فإن قيل: فلِمَ زعمتم أن البلغاء عاجزون عن الإتيان بمثله مع قدرتهم على صنوف البلاغات، وتصرفهم في أجناس الفصاحات؟ وهلا قلتم: إنَّ مَن قدر على هذه الوجوه البديعة، وتوجه من هذه الطرق الغريبة كان على مثل نظم القرآن قادراً، وإنما يصرفه الله عنه ضرباً من الصرف، أو يمنعه من الإتيان بمثله ضرباً من المنع، أو يقصر دواعيه دونه مع قدرته عليه ليتكامل ما أراده الله من الدلالة ويحصل ما قصده من إيجاب الحجة، لأن من قدر على نظم كلمتين بديعتين لم يعجز عن نظم مثلهما، وإذا قدر على ذلك قدر على ضم الثانية إلى الأولى وكذلك الثالثة حتى يتكامل قدر السورة، فالجواب...»[1].

وظاهر مما قاله العلماء -على هذا الرأي- أن إعجاز القرآن لم ينشأ من أنه قد بلغ في بلاغته حد الإعجاز الذي لا تطيقه قدرة البشر، بل لصرف من وقع عليهم التحدي عن التوجه للمعارضة، وأن أسباب هذا الصرف ترجع إلى:

أ- انعدام الدواعي الباعثة على هذه المعارضة.

ب- عدم النشاط والانبعاث إلى المعارضة، وبالتالي عدم تعلق الإرادة بها مع وجود الدواعي إليها.

جـ- تعطيل المواهب البيانية، وتعويق القدرة البلاغية، وسلب الأسباب العادية إلى المعارضة، وذلك على نحو مفاجئ عند المحاولة، رغم تعلق الإرادة بها، وتوجه الهمة إليها.

(١) إعجاز القرآن للباقلاني: ٥٥، ٥٦.

وظاهر كذلك مما سبق أن هذا القول بما بني عليه يسلب القرآن الكريم خاصة إعجازه الذاتية، وهو من الخطورة بالقدر الذي يترتب عليه فقد أهم دلائل صدق رسالة النبي ﷺ، ولذلك فإنه قول ساقط بذاته عند أدنى فكر وتأمل، ولا يحتاج في إبطاله إلى عناء، وسوف نشير بإيجاز إلى أوجه بطلانه تحقيقا لما أشرنا إليه من عدم الإطالة، وتوفيراً للجهد وادخاراً له لبيان الأوجه المعتبرة عند العلماء في إعجاز القرآن.

وسنشير أولاً إلى ما يبطل تلك الأسباب التي ظهر من كلام العلماء أن الصرفة كانت من أجلها، ثم نعقب بذكر شواهد أخرى تدل على بطلان القول بالصرفة وسقوطه.

أما أول الأسباب التي ساقوها: وهو انعدام دواعي العرب إلى معارضة القرآن، وأنهم لو توافرت تلك الدواعي عندهم فلربما عارضوه، فيرده ما سجله تاريخ هؤلاء العرب مع القرآن، وما أثبته تواتر النقل من توفر تلك الدواعي التي من بينها أن القرآن تحداهم في أكثر من موضع منه بأن يأتوا بمثله، أو بعشر سور أو بسورة من مثله، وقطع بأنهم لن يفعلوا ذلك ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝٢٣ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (البقرة: ٢٣، ٢٤)، ولو تظاهر على ذلك الإنس والجن ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (الإسراء: ٨٨).

كما أن القرآن قد أثار حميتهم -وهم مضرب المثل في الأنفة وإباء الضيم- بما شنه عليهم من حرب شعواء على معتقداتهم التي توارثوها، وسفه عقولهم، وعقول آبائهم، ونعى عليهم الشرك والجهل، وهم مع ذلك قوم صناعتهم البيان، وفخرهم في التنافس في ميدان الكلام، فكيف مع سكوتهم على هذا الضيم الذي لو وجدوا سبيلا إلى دفعه لسلكوه مسرعين، كيف يقال بعدم توافر الدواعي لديهم؟.

أما ثاني هذه الأسباب: وهو عدم انبعاثهم ونشاطهم، وعدم تعلق إرادتهم بالمعارضة مع وجود الدواعي، فينقضه كذلك التاريخ والواقع، فقد سجل هذا التاريخ محاولاتهم المستمرة في الكيد للإسلام، حتى وصل الأمر إلى تآمرهم على قتل الرسول ﷺ، وتبع ذلك ما كان بعد الهجرة وإقامة دولة الإسلام في المدينة من خوضهم الحروب ضد الإسلام، وإقدامهم على بذل أموالهم وإراقة دمائهم، وسبي ذراريهم في هذه السبيل، فكيف يقال بعد ذلك إنهم لم ينشطوا إلى المعارضة، وقد بذلوا في بديلها أضعاف أضعاف ما كانوا يبذلونه فيها من جهد لو كانت في مقدورهم؟.

وأما ثالث هذه الأسباب: وهو تعطيل مواهبهم وسلب قدراتهم فجأة مع توافر الدواعي، وانبعاث النشاط، فيرده أنه: لو كان الأمر كذلك لأثر عنهم الاعتذار بهذا التفاوت العلمي بين ما في القرآن وما عندهم، وذلك ليقللوا من شأن القرآن في ذاته، وأنه ما كان إعجازه إلا لصرفهم عنه، ولكن ذلك لم يذكر عنهم أبداً.

فإذا أضفنا إلى ذلك :

١- أن القرآن الكريم بلفظه وعبارته قد بهر العرب بتفوق بيانه، وأثار أسلوبه وعبارته إعجابهم، وأعلنوا أنهم ما رأوا مثله شعراً ولا نثراً، ومقتضى ذلك أن إعجاز القرآن لذاته لا لشيء خارج عنه، وإلا لو كان كلاماً كسائر الكلام ما لفت أنظارهم، ولا أخذ بألبابهم.

قال عبد القاهر الجرجاني: «إنه لو لم يكن عجزهم عن معارضة القرآن وعن أن يأتوا بمثله لأنه معجز في نفسه، لكن لأن أدخل عليهم العجز عنه، وصرفت هممهم وخواطرهم عن تأليف كلام مثله، وكان حالهم على الجملة حال من أعدم العلم بشيء قد كان يعلمه، وحيل بينه وبين أمر قد كان يتسع له لكان ينبغي أن لا يتعاظمهم، ولا يكون منهم ما يدل على إكبارهم أمره، وتعجبهم منه، وعلى أنه قد بهرهم، وعظم كل العظم عندهم، بل كان ينبغي أن يكون الإكبار منهم والتعجب للذي دخل عليهم من العجز»[١].

٢- لو كان القول بالصرفة صحيحا لما كان القرآن معجزاً، قال الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله تعالى: «لو قلنا إن الذي منع العرب عن الإتيان بمثله هو الصرفة ما كان القرآن هو المعجز، وإنما يكون العجز منهم، ولم يكونوا عاجزين، وإنما يكون قد أعجزهم الله، ولم يعجزهم القرآن ذاته، وقد كان القرآن هو معجزة النبي ﷺ، والقول بالصرفة ينفي عنه خواص الإعجاز»[٢].

---

(١) دلائل الإعجاز: ٣٩٠، ٣٩١.

(٢) المعجزة الكبرى: ٦١.

٣- ثم إن القول بالصرفة يرده قول الله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (الإسراء: ٨٨).

قال السيوطي -رحمه الله تعالى- بعد ذكره الآية الكريمة: «فإنه يدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم، ولو سلبوا القدرة لم يبق لهم فائدة لاجتماعهم، لمنزلته منزلة اجتماع الموتى، وليس عجز الموتى مما يحتفل بذكره، هذا مع أن الإجماع منعقد على إضافة الإعجاز إلى القرآن، فكيف يكون معجزا وليس فيه صفة إعجاز! بل المعجز هو الله تعالى حيث سلبهم القدرة على الإتيان بمثله»[١].

هذا هو القول بالصرفة قد بيناه، وبينا ما يترتب عليه، كما بينا بطلانه! أما عن نشأته فبإيجاز نقول: قد شاعت في كتابات المؤلفين نسبة هذا القول بعامة إلى المعتزلة، وأن أول من جاهر به منهم هو أبو إسحاق إبراهيم بن سيَّار الشهير بالنظام (ت سنة ٢٢٤هـ) فقد ذهب إلى أن القرآن حق، ولكن تأليفه ونظمه ليس بحجة، لكن من الإنصاف أن نبين أن هذا الكلام عنه يعبر عن شطر رأيه في قضية الإعجاز، وأما الشطر الآخر فعنده أن إعجاز القرآن راجع إلى ما فيه من الإخبار بالمغيبات.

---

(١) الإتقان في علوم القرآن: ٢/١٠٠٦.

قال الشهرستاني يعدد المسائل التي انفرد بها النظام عن أصحابه: التاسعة قوله في إعجاز القرآن: «إنه من حيث الإخبار عن الأمور الماضية والآتية، ومن جهة صرف الدواعي عن المعارضة، ومنع العرب من الاهتمام به جبراً وتعجيزا، حتى لو خلاهم لكانوا قادرين على أن يأتوا بسورة من مثله بلاغة وفصاحة ونظما»[1].

هذه المقولة للنظام: «وإن لم يكتب لها حظ من القبول عند جماهير العلماء، بل كانوا على خلافها، وعملوا جهدهم في ردها، إلا أنها أثرت عن البعض في فترات لاحقة مختلفة، فقد نسبت كذلك إلى الشريف المرتضى الذي عاش في القرن الرابع الهجري، والذي فسر الصرفة بأن الله سلب العرب العلوم التي يحتاج إليها في المعارضة ليجيئوا بمثل القرآن. يذكر ذلك الرافعي عنه ثم يقول: «فكأنه يقول: إنهم بلغاء يقدرون على مثل النظم والأسلوب، ولا يستطيعون ما وراء ذلك مما لبسته ألفاظ القرآن من المعاني، إذ لم يكونوا أهل علم، ولا كان العلم في زمنهم، وهذا رأي بيِّن الخلط»[2].

وممن حُكي عنه القول بالصرفة كذلك ابن حزم الظاهري (ت سنة ٤٥٦هـ) الذي قال في سبب الإعجاز: «لم يقل أحد إن كلام غير الله تعالى معجز، لكن لما قاله الله تعالى وجعله كلاما له أصاره معجزاً ومنع من مماثلته»[3].

---

(١) الملل والنحل: ١/٥٦، ٥٧.

(٢) إعجاز القرآن للرافعي: ١٤٤.

(٣) الفصل في الملل والأهواء والنحل: ٣/١٩.

وقد رأينا فيما سبق كيف حمل العلماء على هذا القول وفَنَّدوه كالباقلاني وعبد القاهر وغيرهم، ومع هذا فقد تردد صدى هذا القول فيما بعد، وترك آثاره في فكر بعض المفسرين -من المتكلمين- عن الإعجاز كأبي عبد الله فخر الدين الرازي (ت سنة ٦٠٤هـ) الذي قال في معرض تفسيره لقول الله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (الإسراء: ٨٨)، ما نصه: «اعلم أنا في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ . . . ﴾ (البقرة: ٢٣)، بالغنا في بيان إعجاز القرآن، وللناس فيه قولان: منهم من قال: القرآن معجز في نفسه، ومنهم من قال: إنه ليس في نفسه معجزاً إلا أنه تعالى لما صرف دواعيهم عن الإتيان بمعارضته مع أن تلك الدواعي كانت قوية كانت هذه الصرفة معجزة، والمختار عندنا في هذا الباب أن نقول: القرآن في نفسه إما أن يكون معجزاً أو لا يكون، فإن كان معجزاً فقد حصل المطلوب، وإن لم يكن معجزا بل كانوا قادرين على الإتيان بمعارضته، وكانت الدواعي متوافرة على الإتيان بهذه المعارضة، وما كان لهم عنها صارف ومانع، وعلى هذا التقدير كان الإتيان بمعارضته واجباً لازما، فعدم الإتيان بهذه المعارضة مع التقديرات المذكورة يكون نقضاً للعادة فيكون معجزاً، فهذا هو الطريق الذي نختاره في هذا الباب»[1].

(١) مفاتيح الغيب: مجلد ١١، ج ٢١ ص ٥٤.

وهو كلام من الرازي فيه من التردد في الحكم ما يفتح الباب ولا يغلقه أمام جواز القول بالصرفة، بل لعله إليه أقرب وهو أسلوب غير مرضيّ في مثل هذه القضايا الحاسمة.

ومهما يكن من أمر فإن القول بالصرفة وإن أنكرناه ورفضناه بشدة إلا أنه أمر واقع في مصنفات من كتبوا في الإعجاز مثل الخطابي والرماني كما أسلفنا، وكذلك من جاء بعدهم، سواء كان ذلك منهم تأييداً أو رفضا، لكننا لا نستطيع أن نمنع أنفسنا من الأسى على استدعائه كل هذا الجهد حوله مما كان يمكن أن يتوافر لغيره من الدراسات القرآنية النافعة، ونحن بهذا مع الرافعي -رحمه الله- فيما لفت النظر إليه عندما قال: «على أن القول بالصرفة هو المذهب الفاشي من لدن قال به النظام،يصوبه فيه قوم ويشايعه عليه آخرون، ولولا احتجاج هذا البليغ لصحته، وقيامه عليه، وتقلده أمره، لكان لنا اليوم كتب ممتعة في بلاغة القرآن وأسلوبه، وإعجازه اللغوي، وما إلى ذلك، ولكن القوم -عفا الله عنهم- أخرجوا أنفسهم من ذلك كله، وكفوها مؤنته بكلمة واحدة تعلقوا عليها، فكانوا فيها جميعا كقول الشاعر الظريف الذي يقول:

كأننا والماء من حولنا قوم جلوس حولهم ماء»(١)

وهذا الذي ذكره الرافعي إنما يعبر عن حرص شديد على نفي الشوائب عن موضوع أوجه إعجاز القرآن الكريم، وتوفير كل الجهد لدراستها بما يبرزها للأجيال المتعاقبة واضحة جلية، وإلا فإن القول بالصرفة في ذاته بما يحمله من دلائل بطلانه قد كان سببا في استنهاض همم العلماء للكتابة في إعجاز القرآن، وهذا ما سنعرض لبيانه في القضية التالية:

---

(١) إعجاز القرآن للرافعي: ١٤٦.

قضية الإعجاز: تأصيل تاريخي وأقوال في أوجه هذا الإعجاز

شهد القرن الثاني وأوائل القرن الثالث الهجريين مقولة النظام (ت سنة ٢٢٤هـ) بالقول بالصرفة في إعجاز القرآن -كما سبق بيانه- وما إن شاعت تلك المقولة حتى استنفرت أمة القرآن عقول العلماء لردها، وبيان بطلانها كما أوضحنا من قبل، وكذلك لإبراز أوجه إعجاز القرآن الكريم المتعددة.

فنهض أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت سنة ٢٥٥هـ) في القرن الثالث الهجري لهذا الأمر، فصنف كتابا سماه: (نظم القرآن) وهو كتاب مفقود، وإنما تشير إليه المراجع الأخرى من كتب الجاحظ نفسه، أو من كتب غيره .

تقول الدكتورة عائشة عبد الرحمن: «في القرن الثالث ظهرت كتب في الإعجاز تحمل في الغالب عنوان "نظم القرآن" وللجاحظ كتاب بهذا الاسم لم يصل إلينا وإن كان الجاحظ أشار إليه في كتابه "الحجج"»[١].

وقديما قبل ذلك أشار الباقلاني -رحمه الله تعالى- إلى هذا الكتاب وإن لم يورده في موضع الثناء، إذ رأى أنه لم يأت فيه بجديد يعول عليه، قال: «وقد صنف الجاحظ في "نظم القرآن" كتابا لم يزد فيه على ما قاله المتكلمون قبله، ولم يكشف عما يلتبس في أكثر هذا المعنى»[٢].

---

(١) الإعجاز البياني للقرآن: ١٩.

(٢) إعجاز القرآن للباقلاني: ٢٤.

وقد اختلفت الأنظار في حقيقة رأي الجاحظ في إعجاز القرآن، فالبعض يرى أن تلمذته للنظام أثرت في مذهبه في الإعجاز، وأنه تابع شيخه في القول بالصرفة وإن لم يصرح بذلك.

قال د. أحمد جمال العمري: «وجاء الجاحظ وعمل بمبدأ الالتزام الأدبي النقلي تابع أستاذه النظام، وإن كان لم يذكر ذلك صراحة في بادئ الأمر، ولكنه تحفظ نوعا ولعل تحفظه أن يصرح علانية بموافقته على رأي النظام كان نتيجة لردود الفعل التي أحدثها رأى النظام في المجتمع الإسلامي خاصة عند جماعة السلف، فلم يرد الجاحظ أن يكون هو الآخر هدفاً لهذا التيار الجارف الذي تعرض له أستاذه.. لذلك نراه يدور حوله أول الأمر، لكنه لا يعلنه صراحة»[١].

بينما يرى الشيخ محمد أبو زهرة -رحمه الله- غير ذلك فيقول: «وإن أول ما كتب في إعجاز القرآن من ناحية البيان كان في الوقت الذي جاء فيه القول بالصرفة بين نفي وإثبات كما أشرنا، وأول من عرف أنه تصدى للكلام في الإعجاز في نظم القرآن هو الجاحظ تلميذ النظام، الذي أنكر عليه قوله، وعابه في منهاجه الفكري من أنه يظن الظن، ثم يجعله أصلا يجري عليه القياس مصححا لقياسه بالمنطق، والعيب في أصل القول الذي بنى عليه، لا في الأقيسة التي أجرى بها مشابهاته»[٢].

---

(١) مفهوم الإعجاز القرآني حتى القرن السادس الهجري: ٤٩.

(٢) المعجزة الكبرى: ٦٢، ٦٣.

وعلى كلٍ، فإنه حتى لو صح كلام القائلين بإضمار الجاحظ للقول بالصرفة وميله إليه فإن ذلك لا يغض من كونه أول من نهض لإبراز الإعجاز القرآني في نظمه[1] وعرض بلاغة القرآن في آياته، في الإيجاز والحذف والزوائد والفصول والاستعارات، وجمع المعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة إلى آخره، وقوله عن القرآن بصفة عامة: « وفي كتابنا المنزل الذي يدل على أنه صدق: نظمه البديع الذي لا يقدر على مثله العباد مع ما سوى ذلك من الدلائل التي جاء بها من جاء به »[2].

وفي أواخر القرن الثالث الهجرى وضع أبو عبد الله محمد بن يزيد الواسطي (ت سنة ٣٠٦هـ) كتابا سماه "**إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه**" وهو يعد بناء على ما ابتدأه الجاحظ، وإلى كتاب الواسطي هذا ينسب الرافعي السبق في بسط القول في الإعجاز، فيقول: « بيد أن أول كتاب وضع لشرح الإعجاز وبسط القول فيه على طريقتهم في التأليف إنما هو فيما نعلم كتاب "إعجاز القرآن" لأبي عبد الله محمد ابن يزيد الواسطي »[3].

ثم جاء القرن الرابع الهجري، وفيه ألف أبو الحسن علي بن عيسى الرُّمَّاني (ت سنة ٣٨٦هـ) كتابا صغيراً سماه: "**النكت في إعجاز القرآن**" وقد جاء في شكل جواب عن سؤال وُجِّه للرماني عن ذكر

---

(١) يراجع في ذلك: إعجاز القرآن للرافعي: ١٥١.

(٢) الحيوان: ٤ / ٨٥.

(٣) إعجاز القرآن: ١٥٢.

نكت إعجاز القرآن دون التطويل والحجاج، فلخص جوانب الإعجاز في وجوه سبعة: ترك المعارضة مع توافر الدواعي وشدة الحاجة، والتحدي للكافة، والصرفة، والبلاغة، والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة، ونقض العادة، وقياسه بكل معجزة، لكنه يوجه الاهتمام من بينها إلى البلاغة، فيبين أنها على ثلاث طبقات، منها ما هو في أعلى طبقة، وما هو في أدنى طبقة، وما هو في الوسائط بين أعلى طبقة وأدنى طبقة، وبعد أن يشرح كل واحدة يجعل البلاغة في عشرة أقسام: الإيجاز، والتشبيه، والاستعارة، والتلاؤم، والفواصل، والتجانس، والتصريف، والتضمين، والمبالغة، وحسن البيان، ثم يفسرها باباً باباً، مستشهداً لها بالقرآن، ثم يتكلم بإيجاز في آخر الرسالة على بقية أوجه الإعجاز الستة التي سبق له ذكرها[1].

وفي القرن نفسه كتب أبو سليمان حَمْد بن محمد بن إبراهيم الخطابي (ت سنة ٣٨٨هـ) الذي عاصر الرماني (بيان إعجاز القرآن) وفيه أشار إلى أن الناس قد أكثروا الكلام في باب إعجاز القرآن قديما وحديثا، وذهبوا فيه كل مذهب، ولم يصدروا عن رأي، وناقش القول بالصرفة، وتعرض لما تضمنه القرآن من الإخبار عن غيوب المستقبل، وعَدَّه نوعاً من أنواع إعجازه، ولكنه لم يرتضه سراً للإعجاز وأساساً يعول عليه؛ حيث إنه ليس بالأمر العام الموجود في كل سورة من سور

(١) ينظر شواهد ذلك في رسالة (النكت في إعجاز القرآن) للرماني، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن في سلسلة ذخائر العرب، طبع دار المعارف ص ٧٥ وما بعدها.

القرآن، ثم انتقل إلى موضوع البلاغة وأن إعجاز القرآن من جهتها، وأن أكثر العلماء على ذلك، ولكنه عاب عليهم في تسليمهم هذه الصفة للقرآن نوعاً من التقليد، وضرباً من غلبة الظن دون التحقيق، وبدأ معالجة ذلك على طريقته هو، فذكر أقسام الكلام المحمود وهي: البليغ الرصين الجزل، والفصيح القريب السهل، والجائز الطلق الرَّسل، وأن القسم الأول أعلى طبقات الكلام وأرفعه، والثاني أوسطه وأقصده، والثالث أدناه وأقربه، وأن القرآن قد حازت بلاغته من كل قسم من هذه الأقسام حصة، كما بَيَّن أن القرآن إنما صار معجزا لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمنا أصح المعاني من: توحيد، وتحليل وتحريم، وأن الإتيان بمثل هذه الأمور، والجمع بين أشتاتها حتى تنتظم وتتسق أمر تعجز عنه قوى البشر، وفي النهاية لفت النظر إلى وجه في الإعجاز ذهب عنه الناس -على حسب قوله- وهو صنيع القرآن بالقلوب وتأثيره القوي في النفوس(١)، وهو ما يمكن أن نسميه بالإعجاز النفسي.

وجاء بعد ذلك واحد من أشهر من كتبوا في إعجاز القرآن وانتشرت كتبهم، وهو الإمام أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت سنة ٤٠٣هـ) فألف كتابه (إعجاز القرآن) الذي قال في سبب تأليفه: «وسألنا سائل أن نذكر جملة من القول جامعة: تسقط الشبهات، وتزيل الشكوك التي تعرض للجهال، وتنتهي إلى ما يخطر

(١) ينظر في شواهد ذلك رسالة (بيان إعجاز القرآن) للخطابي ضمن المصدر السابق: ص ٢١ وما بعدها.

لهم، ويعرض لأفهامهم، فأجبناه إلى ذلك متقربين إلى الله عز وجل، ومتوكلين عليه، وعلى حسن توفيقه ومعونته».

وقد ذكر في الفصل الثالث[1] من هذا الكتاب جملة من وجوه الإعجاز متمثلة في: الإخبار عن الغيوب المستقبلة، وقصص الأولين، وبديع نظم القرآن، وعجيب تأليفه، وما فيه من الشريعة والأحكام التي يتعذر على البشر مثلها.

وفي الفصل الرابع[2] يشرح عددا من هذه الوجوه، وهو في كل ذلك يذكر شواهد القرآن التي تؤيد كلامه.

وفي أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجرى أفرد القاضي عبد الجبار أحمد بن خليل بن عبد الله (ت سنة ٤١٥هـ) من كتابه "**المغني في أبواب التوحيد والعدل**" -البالغ عشرين جزءاً- واحداً من هذه الأجزاء لإعجاز القرآن وهو الجزء السادس عشر.

يقول الدكتور عبد الفتاح لاشين: «وهو في هذا الجزء لا يلقى الإعجاز لقاءً مباشرا، بل يقدم له بمباحث كثيرة تستنفد الجزء الأكبر من هذا الكتاب، فهو يقرر أولا صحة القرآن وتواتر نقله، والدواعي التي تقوم لهذا التواتر وتتضافر على الاحتفاظ به كاملا بعيداً من أي تحريف أو تبديل.. ثم يتعرض للإعجاز، وينصب موازين البلاغة ليقيم بها الكلام البليغ»[3].

---

(١) إعجاز القرآن للبا قلاني: ٢٤، ٢٥.

(٢) المصدر نفسه: ٨٤ وما بعدها.

(٣) بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبار، وأثره في الدراسات البلاغية: ٤٦٦.

كما أفرد أبو محمد علي بن أحمد بن حزم الظاهري (ت سنة ٤٥٦هـ) لإعجاز القرآن فصلا من الجزء الثالث من كتابه (الفصل في الملل والأهواء والنِّحَل) تحدث فيه عن عدد من وجوه الإعجاز باختصار، وهو ممن نسب إليهم القول بالصرفة كما مر.

وفي القرن الخامس كذلك ألف الإمام أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني (ت سنة ٤٧١هـ) كتابه (دلائل الإعجاز) الذي كشف فيه عن وجوه إعجاز القرآن كما رآها، وأنها في بلاغته وفصاحته، وردَّ فيه على المعتزلة قولهم بالصرفة، وقد صرح بما يراه في إعجاز القرآن من أول الأمر، فقال: «أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمه، وخصائص صادفوها في سياق لفظه، وبدائع راعتهم من مبادئ آيه ومقاطعها، ومجاري ألفاظها ومواقعها»[١].

كما كتب رسالة عنوانها (الرسالة الشافية في إعجاز القرآن)[٢]. وفيها تناول بعض نواح من فكرة الإعجاز ركز فيها على موقف العرب المعاصرين لنزول القرآن من أمثال الوليد بن المغيرة، وعتبة بن ربيعة وغيرهما ممن أقروا راغمين أن القرآن ليس من كلام البشر.

---

(١) دلائل الإعجاز: ٣٩.

(٢) وهي الرسالة الثالثة من: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن التي سبق التنويه بها كما أنها مطبوعة في ذيل كتاب (دلائل الإعجاز) طبع دار المدني، ط ثالثة ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.

وفي القرن السادس خصص القاضي عياض بن موسى اليحصبي (ت سنة ٥٤٤هـ) فصلا في الجزء الأول من كتابه: (الشفا بتعريف حقوق المصطفى) لإعجاز القرآن بدأه بقوله: «اعلم وفقنا الله وإياك أن كتاب الله العزيز منطو على وجوه من الإعجاز كثيرة، وتحصيلها من جهة ضبط أنواعها في أربعة وجوه: أولها حسن تأليفه والتئام كلمه وفصاحته ووجوه إيجازه وبلاغته الخارقة عادة العرب»[1].

ثم عرض لبقية وجوه الإعجاز فعدّ منها: صورة نظمه العجيب وأسلوبه الغريب، وما انطوى عليه من الإخبار بالمغيبات، وما أنبأ به من أخبار القرون السابقة، والأمم البائدة، والشرائع الدائرة إلى أن قال: «هذه الوجوه الأربعة بينة لا نزاع فيها ولا مرية»[2]. ثم عرض بعد ذلك لوجوه أخرى إجمالا فقال: «وقد عدّ جماعة من الأئمة ومقلدي الأمة في إعجازه وجوها كثيرة منها: أن قارئه لا يمله، وسامعه لا يمجه، بل الإكباب على تلاوته يزيده حلاوة، وترديده يوجب له محبة، ولا يزال غضا طريا، وغيره من الكلام ولو بلغ في الحسن والبلاغة مبلغه يمل مع الترديد، ويُعادى إذا أعيد، وكتابنا يستلذ به في الخلوات، ويؤنس بتلاوته في الأزمات»[3].

(١) الشفاء: ١/٢١٧.

(٢) المصدر نفسه: ١/٢٢٩.

(٣) المصدر نفسه: ١/٢٣٢.

ثم توالت المؤلفات في الإعجاز عبر القرون التالية، فكتب الإمام فخر الدين الرازي (ت سنة ٦٠٤هـ) كتابه (نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز) وكتب أبو يعقوب يوسف بن أبى بكر محمد بن على السكاكي (ت سنة ٦٢٦هـ) كتابه (مفتاح العلوم) وقد بحث فيه قضية الإعجاز، فبدأ عرض هذه القضية بالتسليم بأن إعجاز القرآن من جهة نظمه وبلاغته أمر لا نقاش فيه ولا جدال عليه، إلا أنه يلزم لإدراك ذلك -وهو لا يدرك إلا بالتذوق- ما يلزم من تربية حاسة الذوق التي تكشف عن أسرار القرآن وإدراك بلاغته وأساليبه، وذلك بتدريب المبتدئين، والأخذ بأيديهم ووضعها على مفاتيح العلوم التي تربي فيهم ذلك الذوق[١].

وفي القرن السابع كذلك كتب أبوعبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبي (ت سنة ٦٧١هـ) فصلا في مقدمة تفسيره: (الجامع لأحكام القرآن) ذكر فيه نكتا في إعجاز القرآن ووجوه ذلك الإعجاز عدّد فيها تلك الوجوه، وجعلها في عشرة: النظم البديع، والأسلوب المخالف لجميع أساليب العرب، والجزالة التي لا تصح من مخلوق بحال، والتصرف في لسان العرب على وجه لا يستقل به عربي، والإخبار عن الأمور التي تقدمت في أول الدنيا إلى وقت نزوله، من أمي ما كان يتلو من قبله من كتاب ولا يخطه بيمينه، والإخبار عن المغيبات في المستقبل إلى آخر ما عده من ذلك[٢].

---

(١) يراجع في ذلك: إعجاز القرآن ونظمه عند السكاكي للدكتور فوزي عبد ربه: ٩٠.

(٢) يراجع ذلك في مقدمة تفسير القرطبي: ١ / ٧٣ وما بعدها طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٧م.

وفي القرن الثامن ألف بدر الدين الزركشي (ت سنة ٧٩٤هـ) كتابه (البرهان في علوم القرآن) وضمّن مباحثه نوعاً في معرفة إعجاز القرآن الكريم، قال فيه بعد استعراض بعض المصنفات في الإعجاز، وبعد استعراضه آيات التحدي بالقرآن: (وإعجاز القرآن ذكر من وجهين: أحدهما إعجاز متعلق بنفسه، والثاني بصرف الناس عن معارضته) ثم رد القول بالصرفة من وجوه، وبعدها ذكر أوجها للإعجاز من بينها: تأليف القرآن ونظمه الخاص به، وكذلك ما فيه من الإخبار عن الغيوب المستقبلة، وما تضمنه من إخباره عن قصص الأولين، وإخباره عن الضمائر -أي السرائر- من غير أن يبدو من أصحابها ما أكنته ضمائرهم من قول أو فعل، مثل قول الله تعالى: ﴿ ... وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ... ﴾ (المجادلة: ٨) إلى آخر تلك الأوجه[١].

وفي القرن التاسع سلك برهان الدين بن عمر البقاعي (ت سنة ٨٨٥هـ) طريقة التطبيق في إظهاره لإعجاز القرآن، فألف كتابه (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور) جمع فيه من أسرار القرآن، وأتقن الكلام في فن المناسبات بين الآيات والسور كما ينبئ عنه اسم الكتاب، وهو من باب إعجاز القرآن في حسن تأليفه وتفرده في ذلك.

---

(١) البرهان في علوم القرآن: ٢ / ١٠١ وما بعدها.

ثم كان القرن العاشر الذي شهد فارساً من فرسان هذا الباب، وعلما من أعلام الإسلام، وهو الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت سنة ٩١١هـ) الذي ألف سفره القيم (الإتقان في علوم القرآن) وضمنه ثمانين نوعا من مباحث علوم القرآن، خصص النوع الرابع والستين منها للكلام في إعجاز القرآن، فقدم بين يدي الكلام في ذلك بذكر بعض من أفرد الموضوع بالتصنيف من أعلام العلماء الذين مضى ذكر كثير منهم، مثل: الخطابي والرماني والباقلاني والرازي وغيرهم، ثم تكلم على أنواع المعجزات، والفرق بين معجزات السابقين من الأنبياء ومعجزة النبي ﷺ وهي القرآن، ثم عرض آيات التحدي، وردّ القول بالصرفة، ثم ذكر أقوال العلماء في وجه إعجازه، فلخص ما قاله السابقون في ذلك، ثم ختم بنقل ما أورده القاضي عياض في أوجه الإعجاز الأربعة، وما تلاها من أوجه ذكرناها عند الكلام على ما تضمنه كتاب (الشفا) في موضعه.

وفي القرن الثالث عشر ألف العلامة شهاب الدين الآلوسى (ت سنة ١٢٧٠هـ) تفسيره الموسوعي (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني) وعلى عادة كثير من المفسرين قدم بمقدمات قيمة ضمنها فوائد جليلة، جعل الفائدة السابعة منها في بيان وجه إعجاز القرآن، تكلم فيها على أوجه الإعجاز عند كثير من العلماء، ولم يرتض الكثير من أقوالهم وبخاصة ما قاله المعتزلة، وما قاله الجاحظ،

وكذلك المرتضى من الشيعة، وردّ أكثر هذه الأقوال، وناقش أقوالاً أخرى، حتى انتهى إلى أن قال: «وقد أطال العلماء الكلام على وجه إعجاز القرآن، وأتوا بوجوه شتى الكثير منها خواصه وفضائله، مثل الروعة التي تلحق قلوب سامعيه، وأنه لا يمله تاليه، بل يزداد حباً له بالترديد، مع أن الكلام يُعادى إذا أعيد[1]. وكونه آية باقية لا تعدم ما بقيت الدنيا مع تكفل الله تعالى بحفظه، والذي يخطر بقلب هذا الفقير: أن القرآن بجملته وأبعاضه حتى أقصر سورة منه معجز بالنظر إلى نظمه وبلاغته، وإخباره عن الغيب، وموافقته لقضية العقل، ودقيق المعنى، وقد تظهر كلها في آية، وقد يستتر البعض كالإخبار عن الغيب، ولا ضير ولا عيب، فما يبقى كافٍ، وفي الغرض وافٍ»[2].

وفي القرن الرابع عشر تصدى مصطفى صادق الرافعي (ت سنة ١٣٥٦هـ) لقضية الإعجاز بكتاب قيم هو: (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية) تكلم فيه على معنى الإعجاز ومذاهب القدماء فيه، ومؤلفاتهم في فنه، ثم تكلم على حقيقة الإعجاز، واشتدت وطأته على القائلين بالصرفة، كما نقد كثيراً من العلماء الذين ألفوا في الإعجاز مثل المرتضى من الشيعة وغيره.

---

(١) يشير بذلك إلى ما قاله القاضي عياض في "الشفا" مما ذكرناه قبل قليل.

(٢) روح المعاني: ١ / ٣١.

ففي أول كلامه يحدد مفهومه للإعجاز فيقول: «وإنما الإعجاز شيئان: ضعف القدرة الإنسانية في محاولة المعجز ومزاولته على شدة الإنسان واتصال عنايته، ثم استمرار هذا الضعف على تراخي الزمن وتقدمه، فكأن العالم كله في العجز إنسان واحد ليس له غير مدته المحدودة بالغة ما بلغت»[1].

أما وجه الإعجاز الذي يرتضيه فيبينه بقوله: «أما الذي عندنا في وجه إعجاز القرآن وما حققناه بعد البحث، وانتهينا إليه بالتأمل وتصفح الآراء وإطالة الفكر، وإنضاج الروية، وما استخرجناه من القرآن نفسه في نظمه ووجه تركيبه، واطراد أسلوبه، ثم ما تعاطيناه لذلك من التنظير والمقابلة، واكتناه الروح التاريخية في أوضاع الإنسان، وآثاره وما نتج لنا من تتبع كلام البلغاء في الأغراض التي يقصد إليها، والجهات التي يعمل عليها، وفي رد وجوه البلاغة إلى أسرار الوضع اللغوي، التي مرجعها إلى الإبانة عن حياة المعنى بتركيب حي من الألفاظ يطابق سنن الحياة في دقة التأليف، وإحكام الوضع، وجمال التصوير، وشدة الملاءمة».

ثم يقول: «فالقرآن معجز في تاريخه دون سائر الكتب ومعجز في أثره الإنساني، ومعجز كذلك في حقائقه»[2].

---

(١) إعجاز القرآن للرافعي: ١٣٩.

(٢) المصدر نفسه: ١٥٦.

ومن بعد الرافعي كتب الكثيرون في إعجاز القرآن، مثل: الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني في مبحث من مؤلفه: (مناهل العرفان في علوم القرآن) والشيخ محمد عبد الله دراز في: (النبأ العظيم) والشيخ بديع الزمان النورسي: (إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز) (من كليات رسائل النور) والشيخ محمد أبو زهرة في: (المعجزة الكبرى) والدكتورة عائشة عبد الرحمن في: (الإعجاز البيانى للقرآن) إلى جانب العشرات من الرسائل العلمية الجامعية التي تتناول إعجاز القرآن في جوانبه المختلفة.

وهكذا نجد أنه لم يخل عصر من العصور عبر القرون الإسلامية المباركة –سواء في فترات النشاط أو الفتور العلمي– من تناول إعجاز القرآن بالتأليف تقعيداً أو تطبيقاً، مما ينطق بأن هذا المدد العلمي المتتابع إنما هو في ذاته أثر من آثار إعجاز القرآن الكريم.

أما أوجه الإعجاز التي تمخضت عنها هذه المؤلفات، والتي تعمقت في دراسات العلماء، ودرست باستفاضة، وسيقت لها الأمثلة والشواهد، فذلك ما سنلقى عليه الضوء فيما يلي:

وجوه الإعجاز في القرآن الكريم

نستطيع مما سبق عرضه من كتابات العلماء قديما وحديثا في إعجاز القرآن أن نستخلص ما عدوه وجوهاً لهذا الإعجاز، ذكروها صراحة واستقلالاً وبينوها، أو أشاروا إليها ضمنا وأوجزوها، وهذه الوجوه نذكرها فيما يلي:

أولاً: إعجازه في بلاغته وفصاحته:

لعل إعجاز القرآن الكريم بلفظه من أهم وجوه إعجازه إذا لم يكن أهمها على الإطلاق؛ لأنه يتعلق بالقرآن ذاته في بنيته اللغوية لا ينفك عنها، ولا يرتبط -كما سيأتي بيانه في وجوه أخرى- بحال المنزل عليه، أو حال المخاطبين، أو الفترات الزمانية، ومن ثم كان هذا الوجه أول ما تناوله العلماء بالبحث، وكان قدرا مشتركاً بينهم في الحديث عن الإعجاز، كما أفردوه بالتصنيف مثل الباقلاني في (إعجاز القرآن) والجرجاني في (دلائل الإعجاز)، والرافعي في (إعجاز القرآن) والشيخ محمد عبد الله دراز في (النبأ العظيم) أو جعلوه أكثر الأوجه بياناً إذا تكلموا فيه مع غيره، ولهذا أيضا كان حقيقا بالبدء به وجعله في صدارة وجوه الإعجاز.

وبداية نقول: إنه لم يبلغ نمط من أنماط كلام العرب فيما قالوه شعراً أو نثرا، أياً كانت قوته بلاغة وفصاحة أن يكون قريبا من بلاغة القرآن

وفصاحته، فقد بلغ القرآن في مضمار البلاغة والفصاحة الطرف الأعلى، وهو ما يمكن أن نسميه حدَّ الإعجاز، لأن هذا كان الميدان الذي تحدَّى القرآن فيه العرب، وهم فرسانه، ولقد اطرد هذا التفوق اللغوى في القرآن سورة سورة، وآية آية، ومن ثم كان التحدي فيه أن يأتوا بسورة من مثله مما ينطبق على طويل السور وقصيرها.

وأصدق دليل على هذا الإعجاز موقف مَن تحَّداهم القرآن من فصحاء العرب من هذا التحدي عجزاً واستسلاماً مع حرصهم على تكذيب القرآن، وللقاضي عياض في ذلك عبارات جامعة تذكر جانبا من هذا الموقف في العجز، والاعتراف بإلهية المصدر القرآني -رغم الجحود والكفر- وأمثلة يسيرة تشهد لذلك نذكرها بنصها لتمام الفائدة.

قال رحمه الله تعالى: «فلم يزل ﷺ يقرعهم أشد التقريع، ويوبخهم غاية التوبيخ، ويسفه أحلامهم، ويحط أعلامهم، ويشتت نظامهم، ويذم آلهتهم وإياهم، ويستبيح أرضهم وديارهم وأموالهم، وهم في كل هذا ناكصون عن معارضته، محجمون عن مماثلته، يخادعون أنفسهم بالتشغيب بالتكذيب، والإغراء بالافتراء، وقولهم: إن هذا إلا سحر يؤثر، وسحر مستمر، وإفك افتراه، وأساطير الأولين، والمباهتة والرضا بالدنيئة كقولهم: قلوبنا غلف، وفي أكنة مما تدعونا إليه، وفي آذاننا وقر، ومن بيننا وبينك حجاب، ولا تسمعوا لهذا

القرآن والغَوا فيه لعلكم تغلبون، والادعاء مع العجز بقولهم: لو نشاء لقلنا مثل هذا، وقد قال لهم الله "ولن تفعلوا" فما فعلوا ولا قدروا، ومن تعاطى ذلك من سخفائهم كمسيلمة كشف عواره لجميعهم، وسلبهم الله ما ألفوه من فصيح كلامهم، وإلا فلم يخف على أهل الميز منهم أنه ليس من نمط فصاحتهم، ولا جنس بلاغتهم، بل ولّوا عنه مدبرين، وأتوا مذعنين من بين مهتد وبين مفتون، ولهذا لما سمع الوليد بن المغيرة من النبي ﷺ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ ... ﴾ (النحل: ٩٠). الآية قال: والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغدق، وإن أعلاه لمثمر، ما يقول هذا بشر، وذكر أبو عبيد أن أعرابيا سمع رجلا يقرأ: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ ... ﴾ (الحجر: ٩٤). فسجد وقال: سجدت لفصاحته، وسمع رجلاً آخر يقرأ: ﴿ فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ ... ﴾ (يوسف: ٨٠). فقال: «أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام»[١].

وإذا كان العرب -وهم بهذه المنزلة بلاغة وفصاحة- قد عجزوا هذا العجز التام المطبق، فغيرهم أشد عجزاً، وأبعد هزيمة.

لقد عني العلماء بإبراز بلاغة القرآن في هذا المضمار تطبيقا، ولو تتبعنا ذلك من خلال أبواب البلاغة المتعارف عليها لاستغرق ذلك تفسير القرآن كله، ولكن حسبنا أمثلة في أبرز مجالاتها، وهي الإيجاز، والتشبيه، والاستعارة، نذكرها موجزة غير مطولة:

---

(١) الشفا: ١/ ٢١٩، ٢٢٠.

فمن أشهر ما ضربوه مثلا في باب الإيجاز قول الله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ... ﴾ (البقرة: ١٧٩). فإنهم قارنوه بما استحسنوه من كلام العرب : (القتل أنفى للقتل) فظهر البون شاسعا، والتفاوت بعيداً في البلاغة والإيجاز كليهما، وذلك من وجوه أربعة، أولها: أن عبارة القرآن أكثر فائدة مما قاله العرب لاشتمالها على ما قالوه مع زيادة معان حسنة، منها إبانة العدل لذكره القصاص، وإبانة الغرض المرغوب فيه لذكره الحياة، ومنها الاستدعاء بالرغبة والرهبة لحكم الله به. الثاني: أنها أوجز، فإن عبارة القرآن (القصاص حياة) عشرة أحرف، وأما (القتل أنفى للقتل) فأربعة عشر حرفاً. الثالث: بعد عبارة القرآن عن الكلفة بالتكرير الشاق على النفس. والرابع: حسنها بتأليف الحروف المتلائمة، وهو مدرك بالحس، وموجود في اللفظ، فإن الخروج من الفاء إلى اللام أعدل من الخروج من اللام إلى الهمزة، لبعد الهمزة من اللام، وكذلك الخروج من الصاد إلى الحاء أعدل من الخروج من الألف إلى اللام، فباجتماع هذه الأمور كان القرآن أبلغ وأحسن، وإن كانت عبارة العرب بليغة.

وأما التشبيه: فمن أشهر ما ذكروه فيه قول الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ (النور: ٣٩).

ففيه إخراج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه، وقد اجتمعا في بطلان المتوهم مع شدة الحاجة إليه، ولو قيل في معناه: يحسبه الرائي ماءً ثم يظهر أنه على خلاف ما قدّر لكان بليغا، وأبلغ منه لفظ القرآن، لأن الظمآن أشد حرصا على تحقيق حسبانه، وتعلق قلبه به، ثم بعد هذه الخيبة حصل على الحساب الذي يصيره إلى عذاب الأبد في النار، وتشبيه أعمال الكفار بالسراب من حسن التشبيه، فكيف إذا ضمن مع ذلك حسن النظم، وعذوبة اللفظ، وكثرة الفائدة، وصحة الدلالة؟.

وأما الاستعارة: فقد أوردوا فيها قول الله تعالى: ﴿... وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا ...﴾ (مريم: ٤). فأصل الاشتعال للنار، لكنه في هذا الموضع أبلغ، وحقيقته كثرة الشيب في الرأس، إلا أن الكثرة لما كانت تتزايد تزايداً سريعا صارت في الانتشار والإسراع كاشتعال النار، وله موضع في البلاغة عجيب، وذلك أن انتشار الشيب في الرأس لا يتلافى كاشتعال النار[1].

ويعد الباقلاني كذلك من أبرز من سلكوا هذا الباب في الموازنة بين ما ورد في القرآن من ضروب البلاغة وبين أبلغ ما حفظ عن العرب من ذلك مما عُدّ في أقصى درجاتها، وذلك في الفصلين السابع والثامن من كتابه (إعجاز القرآن).

---

(١) للمزيد من ذلك يراجع (النكت في إعجاز القرآن) للرماني، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: ص ٧٦ وما بعدها.

لقد ظل القرآن أسلم وأبعد ما يكون في فصاحته وبلاغته عن أي طعن من فصحاء العرب رغم تشوف كفارهم إلى ذلك، ورغم أن انتقاد الكلام، كان دأبهم شعراً ونثراً، واستدراك بعضهم على بعض كان ديدنهم رغم قلة الدواعي.

ومما ورد في ذلك ما ذكره الرافعي من استدراك الخنساء على حسان ابن ثابت في شعر أنشده بعكاظ، قال فيه:

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

ولدنا بني العنقاء وابن محرق فأكرم بنا خالاً وأكرم بنا ابنما

فقالت الخنساء: ضعف افتخارك، وأبرزته في ثمانية مواضع، قال: وكيف؟ قالت: قلت "لنا الجفنات" والجفنات ما دون العشر، فقللت العدد، ولو قلت: "الجفان" لكان أكثر، وقلت: "الغر" والغرة البياض في الجبهة، ولو قلت: "البيض" لكان أكثر اتساعاً، وقلت: "يلمعن" واللمع شيء يأتي بعد الشيء، ولو قلت: "يشرقن" لكان أكثر، لأن الإشراق أدوم من اللمعان، وقلت: "بالضحى" ولو قلت: "بالعشية" لكان أبلغ في المديح، لأن الضيف بالليل أكثر طروقاً، وقلت: "أسيافنا"، والأسياف دون العشر، ولو قلت: "سيوفنا" كان أكثر، وقلت: "يقطرن" فدللت على قلة القتل، ولو قلت: "يجرين" لكان أكثر، لانصباب الدم، وقلت: "دما" والدماء أكثر من الدم، وفخرت بمن ولدت، ولم تفتخر بمن ولدوك»[1].

(١) إعجاز القرآن للرافعي: حاشية ص ٢٢٥.

ومثل ذلك أو أقل منه لم يحدث في كلمة من القرآن فضلا عن آية رغم كثرة دواعي القوم للطعن والمعارضة.

ثانياً: إعجازه في نظمه وأسلوبه:

لقد تفرد أسلوب القرآن ونظمه، وتفوق على أساليب العرب ونظمهم رغم بلاغتهم، وبلوغهم الغاية في هذا المضمار، ومن أبرز شواهد هذا التميز ما يلي:

أولاً: جمع القرآن في أسلوبه ونظمه بين مقصدين: مقصد الموعظة، ومقصد التشريع، فنظمه يفيد بظاهره السامع ما يحتاج إلى علمه، وهو في ذلك يشبه خطب العرب، ومع ذلك فقد ضم معناه ما يستخرج منه العلماء الأحكام الكثيرة في التشريع، وفي الآداب وغيرها.

ثانياً: تفننه، وبداعة تنقلاته من فن إلى فن بطرائق الاعتراض والتذييل والتنظير، والإتيان بالمترادفات عند التكرير تجنبا لثقل تكرار الكلمة، وإكثاره من أسلوب الالتفات، وهو من أعظم أساليب التفنن عند العرب.

ثالثاً: عدوله عن تكرار اللفظ والصيغة فيما لا يقتضي التكرار بقصد التهويل ونحوه، ومما عدل فيه عن التكرار قوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ ...﴾ (التحريم: ٤). فجاء في الآية لفظ قلوب جمعاً مع أن المخاطب امرأتان ولم يكرر الصيغة ويقل "قلباكما" تجنبا لتعدد صيغة المثنى[١].

---

(١) يراجع في المزيد من ذلك: التحرير والتنوير: ١/١١٥-١١٧.

رابعاً: براعته في تصريف القول، وثروته في أفانين الكلام، إذ يبرز المعنى الواحد بألفاظ وطرق مختلفة بمقدرة عظيمة لا تباريها أو تقاربها مقدرة من فصحاء العرب، ولما كان المقام ليس مقام استقصاء، فإن الأمثلة تكفي في الدلالة على المراد:

(أ) ففي مجال طلب الفعل من المخاطبين أورد في ذلك صيغا كثيرة منها:

١- الإتيان بصريح مادة الأمر: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا... ﴾ (النساء: ٥٨).

٢- الإخبار بأن الفعل مكتوب على المكلفين: ﴿ ... كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ... ﴾ (البقرة: ١٨٣).

٣- الإخبار بكونه على الناس ﴿ ... وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ... ﴾ (آل عمران: ٩٧).

٤- الإخبار عن الفعل بأنه خير: ﴿ ... وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ... ﴾ (البقرة: ٢٢٠). وغير ذلك كثير في هذا المجال.

(ب) وفي مجال النهي عن الفعل استعمل وسائل متعددة منها:

١- الإتيان في جانب الفعل بمادة النهي: ﴿ إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ... ﴾ (الممتحنة: ٩).

٢- نفي الحل عنه: ﴿ ... لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ... ﴾ (النساء: ١٩).

٣- وصفه بأنه ليس براً: ﴿ ... وَلَيۡسَ ٱلۡبِرُّ بِأَن تَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا... ﴾

(البقرة: ١٨٩). وغير ذلك كثير في هذا المجال.

(ج) وفي مجال تعبيره عن إباحة الفعل استخدم طرقا كثيرة منها:

١- التصريح في جانبه بمادة الحل: ﴿ ... أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ ... ﴾ (المائدة: ١).

٢- نفي الإثم عنه: ﴿ ... فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ... ﴾ (البقرة: ١٧٣).

٣- الأمر به مع قرينة صارفة عن الطلب: ﴿ ... وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ ... ﴾ (البقرة: ١٨٧). وغير ذلك كثير في هذا المجال[١].

خامسا: ومما تميز به أسلوب القرآن الكريم تصرفه في حكاية أقوال المحكي عنهم، بصياغتها على ما يقتضيه أسلوب إعجازه لا على الصيغة التي صدرت بها.. قال الطاهر بن عاشور: «فهو إذا حكى أقوالا غير عربية صاغ مدلولها في صيغة تبلغ حد الإعجاز بالعربية، وإذا حكى أقوالا عربية تصرف فيها تصرفا يناسب أسلوب المعبر، مثل ما يحكيه عن العرب، فإنه لا يلتزم حكاية ألفاظهم، بل يحكي حاصل كلامهم، وللعرب في حكاية الأقوال اتساع مداره على الإحاطة بالمعنى دون التزام الألفاظ، فالإعجاز الثابت للأقوال المحكية في القرآن هو إعجاز للقرآن لا للأقوال المحكية»[٢].

هذا طرف من بيان إعجاز القرآن في نظمه وأسلوبه، وبالجملة فهذا الوجه والذي قبله يقوم بهما لفظ القرآن، ويتفرد عن غيره من الكلام،

---

(١) يراجع في ذلك مناهل العرفان للزرقاني: ٢ / ٣١٩-٣٢١.

(٢) التحرير والتنوير: ١ / ١٢٠، ١٢١.

وما أحسن قول أبى سليمان الخطابي: «وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة: لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم، وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة، حتى لا ترى شيئا من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظما أحسن تأليفاً وأشد تلاؤماً وتشاكلاً من نظمه، وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها، والترقي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها.. وقد توجد هذه الفضائل على التفرق في أنواع الكلام، فأما أن توجد مجموعة في نوع واحد منه، فلم توجد إلا في كلام العليم القدير، الذي أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء عددا»[١].

وكما قلنا من قبل.. فإن الإعجاز اللغوي وجه لا يتسرب إليه الطعن بأي حالة، فبلاغة القرآن وفصاحته لا تخلو منها سورة من سور القرآن الكريم، ولا آية من آياته، وهذا قد يخالف وجوه الإعجاز الأخرى التي ساقها العلماء مثل الحديث عن الأخبار الماضية وسير الأولين، أو الآيات التي تشير إلى حقائق علمية، أو نحو ذلك:

«لذلك كان نظم القرآن أعدل الآراء في وجوه الإعجاز وبيان سببه، وهذا الرأي هو الذي مال إليه الحذاق من أهل الصنعة، وأخذ به الجمهور من العلماء»[٢].

---

(١) بيان إعجاز القرآن: ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: ص ٢٧.

(٢) مع القرآن في إعجازه وبلاغته، د. عبد القادر حسين: ص ١١٤.

ثالثاً: إعجازه في إخباره بالغيوب المستقبلة:

مما جاء به القرآن الكريم في مجال إعجاز البشر أنه أخبر بأمور تقع في المستقبل، فجاءت كما أخبر، لم تتخلف أو تتغير، وهذا ما لا سبيل للبشر إليه بحال، وذلك في القرآن كثير، لكنا سنضرب أمثلة منه تكون دليلا على ما سواها.

أولاً: لعل أوضح ما يذكر في هذا المجال ما جاء في آيات التحدي بالقرآن ذاتها، فقد أخبر الله تعالى أن الكفار سيعجزون عجزاً كاملاً مطبقاً عما وجهوا به من التحدي أن يأتوا بمثل القرآن أو بسورة من مثله، وذلك في قوله سبحانه: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (الإسراء: ٨٨) وقوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ (البقرة: ٢٣، ٢٤). فكان الأمر كما أخبر، يشهد بذلك الواقع، فلم يستطع عربي -فضلا عن أعجمي- أن يقوم بهذا التحدي ويأتي بسورة من مثله.

ثانياً: إخبار القرآن بالتمكين للمسلمين، ونصرهم وتأمينهم، وذلك في قول الله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ

فِى ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنًا يَعۡبُدُونَنِى لَا يُشۡرِكُونَ بِى شَيۡـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ (النور: ٥٥). وقد مكن الله لهم بالفعل، وظهر الإسلام، وقامت دولته، وملكت مشارق الأرض ومغاربها في وقت يسير كما هو معروف في تاريخ الإسلام، ونسأل الله تعالى أن يعيد هذا التمكين وأن يعز الإسلام وأهله.

ثالثاً: إخباره بنصر المؤمنين وإحقاق الحق، وهزيمة الكفار واندحارهم، أخبر بذلك قبل أول قتال في بدر، وذلك في قول الله تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴾ (آل عمران: ١٢). وقوله سبحانه: ﴿ سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ (القمر: ٤٥). وقد نزلت هذه الآية في مكة، وقد حدث ما أخبرت به في المدينة في بدر بدقة كانت مثار عجب عند الصحابة رضوان الله عليهم أنفسهم، حتى إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما نزلت: ﴿ سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ قال: أي جمع يهزم؟ أي جمع يغلب؟ فلما كان يوم بدر رأى رسول الله ﷺ يثب في الدرع وهو يقول: ﴿ سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾، فعرف تأويلها يومئذ(١).

رابعاً: إخباره بدخول النبي ﷺ والمسلمين المسجد الحرام آمنين، وذلك في قول الله تعالى: ﴿ لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ

---

(١) يراجع في ذلك: تفسير ابن كثير ٤/ ٢٦٦.

ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَۖ فَعَلِمَ مَا لَمۡ تَعۡلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتۡحًا قَرِيبًا ﴾ (الفتح : ٢٧) . وقد تحقق ذلك ودخله النبي ﷺ وأصحابه في عمرة القضاء[1] .

خامساً : إخباره بانتصار الروم بعد هزيمتهم المنكرة أمام الفرس، وذلك في قول الله سبحانه : ﴿ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (الروم : ٢-٥) . وقد تحقق ذلك في أقل من عشر سنين كما ورد في حديث ابن عباس[2] .

سادساً : إخباره بعدم تمني اليهود الموت، وذلك في قول الله تعالى : ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٦ وَلَا يَتَمَنَّوۡنَهُۥٓ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (الجمعة : ٦-٧) . وذلك متحقق دوما، فلم يحدث -ولن يحدث- أن تمنى يهودي الموت -ولو ادعاءً- مناقضة للقرآن .

---

(١) السيرة النبوية الصحيحة : ٢ / ٤٦٥ .

(٢) أخرجه الترمذي في تفسير سورة الروم (٣١٩٣)، وأحمد (١ / ٢٧٦) والطبراني في المعجم الكبير (١٢ / ٢٩)، والحاكم في المستدرك (٢ / ٤١٠) كلهم من طريق أبي إسحاق الفزاري عن سفيان الثوري عن حبيب بن أبي عمرة عن سعيد بن جبير عنه .

قال الترمذي : حسن صحيح غريب . وصححه الحاكم ووافقه الذهبي .

والأمثلة أكثر من أن تحصى في هذا المقام. وبعدما ذكرنا فإن لنا تعقيبا وبيانا نسوقه فيما يلي:

(أ) المقصود من هذا الوجه من وجوه الإعجاز هو إثبات أن القرآن وحي من عند الله تعالى باعتبار ذلك دليلا لا يقبل الجدل؛ إذ ليس في مقدور أحد من البشر أن يتنبأ بشيء فيصدق كما قال تماما، ولو حدث ذلك مرة أو مرات على سبيل الافتراض، فإن ذلك لا يمكن أن يكون أمراً دائما مطرداً.

(ب) أن هذا الوجه دليل إعجاز للقرآن في مجمله، بمعنى أنه قد يوجد في بعض السور ولا يوجد في الكثير منها، فهو من علامات الإعجاز التي يوصف بها القرآن بوصفه وحياً، وليس من خصائص ألفاظه، وبهذا التفسير لا يمكن المماراة في هذا الوجه بأن يقال: إن العرب معذورون إذا قالوا: إننا قادرون على معارضة القرآن متمكنون من الإتيان بمثله غير أنه يشتمل على ما لا يمكن معرفته، ومن ثمَّ الإتيان بمثله.

وبالجملة، فإنه دليل إعجاز، ولكن لا يستقل بالغرض في إثبات إعجاز القرآن، فهو ليس بالأمر العام في كل سورة من سور القرآن، وعليه فإن موطن التحدي هنا إذا قلنا به مقدمة للإعجاز إنما يواجه به من ادعى أن القرآن من عند محمد ﷺ.

رابعاً: إعجازه في إخباره عن القرون السابقة والأمم البائدة:

لقد حفل القرآن بأخبار السابقين الأولين من الرسل مع أقوامهم، ومن غير الرسل، فجاء فيه قصص: آدم ونوح وإبراهيم وهود وصالح وشعيب ولوط وموسى ويحيى وزكريا وعيسى وغيرهم عليهم جميعاً السلام، كما جاء فيه قصص: ابني آدم، وأصحاب الكهف، وأصحاب السبت، وأصحاب الجنة، وأصحاب الأخدود، ولقمان، وقارون وغيرهم.

ولما كانت القسمة العقلية في معرفة الأحداث والوقائع وأخبارها في القرآن بالنسبة لرسول الله ﷺ -وهو الذي جاء قومه بذلك- تقتضي واحداً من أربعة فروض، فإن تحقيق هذا الوجه من الإعجاز يقتضي عرض هذه الفروض على واقع الرسول ﷺ ليتبين أن ما جاء به وحي من عند الله تعالى:

الفرض الأول: حضوره ﷺ، ومشاهدته أحداث هذه القصص، وإخباره بذلك عن معاينة، وذلك مردود بالواقع والتاريخ بداهة، وعلى الرغم من ذلك لفت القرآن النظر إلى ذلك في أكثر من موضع، ففي قصة مريم يقول الله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ (آل عمران: ٤٤). وفي قصة يوسف عليه السلام يقول: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ (يوسف: ١٠٢). وفي قصة موسى

عليه السلام يقول: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (القصص: ٤٦).

الفرض الثاني: أن يكون النبي ﷺ قد قرأ هذه القصص، وعرف أخبارها من مصادر مكتوبة، ثم نقلها إلى القرآن، وذلك مردود بأنه كان أميا لا يقرأ ولا يكتب، وتلك حقيقة عرفها العرب، كما سجلها القرآن واحتج بها عليهم: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ (العنكبوت: ٤٨).

الفرض الثالث: أن يكون قد تعلمها تلقيا ومشافهة عن غيره، وذلك مردود بأنه لم يعرف عنه ﷺ أنه جلس إلى معلم أو تلقى عن أحد، ولما حاول المشركون ادعاء ذلك عليه ﷺ وقعوا في عثرة عمرهم، وسوءة فعلهم، فقد فضحهم القرآن إذ نسبوا تعليمه إلى حداد رومي لا يدري شيئا عن أخبار السابقين، ولا يعرف شيئا عن فصاحة العربية وبلاغتها: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ (النحل: ١٠٣).

لم يبق إلا الفرض الرابع والأخير -وهو الحق الذي لا معدل عنه-: وهو أن النبي ﷺ قد أوحي إليه بها في جملة ما أوحي إليه من القرآن، فهي حق من حق كما وصفها الله تعالى في أكثر من موضع: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ... ﴾ (آل عمران: ٦٢).

﴿ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ ... ﴾ (القصص: ٣).
﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ... ﴾ (الكهف: ١٣).

فإذا أضفنا إلى ذلك أن كثيراً من قصص القرآن قد سبق ذكره في كتب أهل الكتاب من التوراة والإنجيل، وأن أحداً من هؤلاء لم يستطع أن يطعن في حقيقة من حقائق القصص القرآني –بل القرآن هو الذي صوب لهم– عرفنا يقينا، وقامت الحجة وألزمت الجميع أن هذا القصص بما جاء فيه كله وحي من عند الله عز وجل.

وهنا ننبه كما نبهنا في الوجه السابق أن هذا الوجه دليل إعجاز لا يستقل بإثبات ذلك للقرآن سورة سورة، وآية آية، فهناك سور كثيرة تخلو من القصص وأخبار السابقين، وعليه فإن موطن التحدي هنا إنما يواجه من كان في مثل حال النبي ﷺ –في الفروض التي ذكرنا آنفاً– أن يجيء بمثل ما جاء به رسول الله ﷺ.

خامساً: الإعجاز النفسي:

يقول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله تعالى: «ما أظن امرأ سليم الفكر والضمير يتلو القرآن أو يستمع إليه ثم يزعم أنه لم يتأثر به. قد نقول: فلم يتأثر به؟ والجواب: أنه ما من هاجس يعرض للنفس الإنسانية من ناحية الحقائق الدينية إلا ويعرض القرآن له بالهداية وسداد التوجيه».

«إن القرآن الكريم بأسلوبه الفريد يرد الصواب إلى أولئك جميعا، وكأنه يعرف ضائقة كل ذي ضيق، وزلة كل ذي زلل، ثم تكفل بإزاحتها كلها، كما يعرف الراعي أين تاهت خرافه، فهو يجمعها من هنا وهناك، لا يغيب عن بصره ولا عن عطفه واحد منها حتى الذين يكذبون بالقرآن ويرفضون الاعتراف بأنه من عند الله.. إنهم يقفون منه مثلما يقف الماجن أمام أب ثاكل! قد لا ينخلع من مجونه الغالب عليه، ولكنه يؤخذ فترة ما بصدق العاطفة الباكية، أو مثلما يقف الخلي أمام خطيب يهدر بالصدق، ويحدث العميان عن اليقين الذي يرى ولا يرون.. إنه قد يرجع مستهزئا، ولكنه يرجع بغير النفس التي جاء بها»[1].

هذا التأثير النفسي الذي أشار إليه الشيخ -رحمه الله- هو من أظهر خصائص القرآن الكريم التي تبرز عند سماعه، فيمضي سامعه في تفكير يملك عليه أقطار نفسه، فيفضي به إلى الإيمان إذا صفت نفسه واستقامت فطرته، أو يفضي به إلى مزيد من العناد يدفع به هذا التأثير الغالب خشية الاقتناع به إذا كان السامع غليظ القلب جاحداً للحق مظلم النفس، وعندها يأتي من أبواب التدليس والكذب ما يعلل به هذا العناد.

ولكل مما ذكرنا مما يفضي إليه تأثير القرآن في نفوس سامعيه أمثلة:

---

(١) نظرات في القرآن: ١٢٧، ١٢٨.

فمن أمثلة التأثير المفضي إلى الإيمان ما أخرجه البخاري[1]. من حديث جبير بن مطعم أنه قال سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴾ (الطور: ٣٥-٣٧). كاد قلبي أن يطير.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: «قوله: " كاد قلبي أن يطير" قال الخطابي: كأنه انزعج عند سماع هذه الآية لفهمه معناها، ومعرفته بما تضمنته، ففهم الحجة فاستدركها بلطيف طبعه». ثم قال: «فلهذا انزعج جبير حتى كاد قلبه يطير، ومال إلى الإسلام»[2].

ومن هذا القبيل كذلك ما ورد في قصة إسلام عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- عند سماعه القرآن في بيت أخته فاطمة وكانت قد سبقته إلى الإسلام، والقصة وإن لم ترد من طريق صحيحة إلا أن دلالتها غير منكورة.

قال الدكتور أكرم ضياء العمري في عرضه لقصة إسلام عمر رضي الله عنه: «أما قصة استماعه القرآن يتلوه الرسول ﷺ في صلاته قرب الكعبة، وعمر مستخف بأستارها، وكذلك قصته مع أخته فاطمة حين لطمها لإسلامها، وضرب زوجها سعيد بن زيد، ثم اطلاعه على صحيفة فيها آيات وإسلامه، فلم يثبت شيء من هذه القصص من طريق صحيحة».

---

(١) في صحيحه: كتاب التفسير، باب من سورة الطور.

(٢) فتح الباري: ٨/٦٠٣.

«ولكن الحافظ ابن حجر ذكر بأن الباعث له على دخوله الإسلام ما سمع في بيت أخته فاطمة من القرآن»[1].

«ولا شك أن القرآن ببيانه الساحر، وروعة تصويره لمشاهد القيامة، وصفة الجنة والنار كان له تأثير في اجتذاب عمر إلى صف المسلمين، لأن عمر كان يتذوق الكلام البليغ ويعجب به، وعدم ثبوت الروايات حديثياً لا يعني حتمية عدم وقوعها تاريخياً»[2].

أما التأثير الذي قوبل بالعناد لدفعه وعدم الاستسلام له، فمن أمثلته ما ذكره السيوطي وغيره من مجيء عتبة بن ربيعة إلى النبي ﷺ وكلامه إياه فيما جاء به قومه مما يخالف ما هم عليه، وأن النبي ﷺ تلا عليه سورة فصلت إلى قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ وعند ذلك أمسك عتبة بيده على فم رسول الله ﷺ وناشده الرحم أن يكف، وأنه قام لا يدري بما يراجع رسول الله ﷺ، ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قومه حتى أتوه فاعتذر لهم وقال: والله لقد كلمني بكلام، والله ما سمعت أذناي بمثله قط، فما دريت ما أقول له[3]. وعاند عتبة وظل على كفره، وكان من قتلى المشركين في بدر.

(١) يشير إلى ما ذكره ابن حجر في الفتح: ٧/١٧٦.

(٢) السيرة النبوية الصحيحة: ١/١٨٠، ١٨١.

(٣) يراجع في ذلك: الدر المنثور للسيوطي: ٧/٣١٠، ٣١١.

ومن هذا القبيل كذلك ما أخرجه الحاكم[1]. وصححه عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ، فقرأ عليه القرآن، فكأنه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال: يا عم إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالا، قال: لم؟ قال: يعطونكه، فإنك أتيت محمدا لتعرض لما قبله، قال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالاً، قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له وأنك كاره له، قال: وماذا أقول؟ فوا لله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجز ولا بقصيد مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقوله شيئاً من هذا، ووالله إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى، وإنه ليحطم ما تحته، قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه، قال: فدعني حتى أفكر، فلما فكر قال: هذا سحر يؤثر يأثره عن غيره، فنزلت ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ۝٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ۝٢٣ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ (المدثر: ١١-٢٤).

إن الأثر الذي يحدثه القرآن أعظم من أن تقوم له من الأرض جبالها الرواسي ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الحشر: ٢١).

---

(١) المستدرك: كتاب التفسير، تفسير سورة المدثر: ٢/٥٠٦، ٥٠٧.

وفي طبيعة هذا الأثر لدى المؤمنين جاء قول الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ (الزمر: ٢٣).

وفي طبيعة هذا الأثر لدى المعاندين جاء قول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ (الإسراء: ٤١). وفي كليهما على طريق المقابلة جاء قول الله تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ (الإسراء: ٨٢).

هذا هو أثر القرآن تنطق به آياته المباركة، وينطق به كذلك واقع الناس في كل وقت، ومازلنا نشاهد هذا الأثر في نفوس سامعيه: خشوعاً وخضوعاً للحق إذا صفت الفطرة واستقامت النفوس، وخوفاً من سطوة هذا الأثر إذا أظلمت القلوب وأصرت على الكفر، فتتخذ حينئذ من أجل ذلك وسائل تحول بينها وبين هذا التأثير، قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ (فصلت: ٢٦).

ذلك هو ما اصطلح على تسميته -من بين وجوه إعجاز القرآن- بالإعجاز النفسي، وهو موضع عناية علماء المسلمين من قديم، قال القاضي عياض مشيراً إلى تأثير القرآن في النفوس وهو يعد وجوه

الإعجاز «ومنها: الروعة التي تلحق قلوب سامعيه وأسماعهم عند سماعه، والهيئة التي تعتريهم عند تلاوته لقوة حاله، وإنافة خطره، وهى على المكذبين به أعظم حتى كانوا يستثقلون سماعه، ويزيدهم نفورا كما قال تعالى، ويودون انقطاعه لكراهتهم له ... وأما المؤمن فلا تزال روعته به وهيبته إياه مع تلاوته توليه انجذابا، وتكسبه هشاشة لميل قلبه إليه، وتصديقه به»[1].

سادساً: إعجاز القرآن في هديه وتشريعه:

جاء القرآن الكريم بشرائع الهدى لإصلاح الخلق، وإقامتهم على طريق الحق والفلاح، فلم تسمُ شريعة من الشرائع أن تبلغ ما في شريعة القرآن من: إحكام، ويسر، ودقة، ذلك أنها شريعة الله تعالى التي تنطلق في تكاليفها من رحمته سبحانه بعباده، ومراعاة مصالحهم وقدراتهم البشرية، قال الله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ... ﴾ (البقرة: ٢٨٦) قال سبحانه: ﴿ ... يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ... ﴾ (البقرة: ١٨٥). وقال عز وجل: ﴿ ... مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ ... ﴾ (المائدة: ٦).

لقد ألزم تشريع القرآن بالواجبات إلزاما، ثم هو بعد ذلك جعل للضرورات أحكامها ﴿ ... فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (المائدة: ٣). ﴿ ... فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الأنعام: ١٤٥).

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى: ١/ ٢٣٠، ٢٣١.

وجعل للرخص مجالاتها: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (النحل: ١٠٦).

لقد تميز تشريع القرآن وهديه بسوقه ما يسوق من تكاليف الدين موصولة بمصدرها، وبكونها مما أمر الله به سبحانه، فهي بذلك ليست في إتيانها كمالا يمكن الوقوف دونه، أو ترفا يمكن التنازل والاستغناء عنه، وإنما هي من صميم إيمان المؤمن، وكذلك يمتاز بسوقه لهذه التكاليف في إيجاز لفظي يسهل استيعابه، ويمكن معرفة ذلك من قول الله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (الأنعام: ١٥١-١٥٣).

وكذلك من قول الله سبحانه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ .... وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (الإسراء: ٢٣ – ٣٥). وكما جاء ذلك في سورة الفرقان في الآيات: ٦٣ – ٧٦ وفي سورة لقمان في الآيات: ١٣ – ١٩.

كما تميز تشريع القرآن وهديه بتوازن دقيق –لا تستقيم حياة البشر إلا به– بين تطلعهم إلى الدنيا وحاجتهم فيها، وسعيهم إلى الآخرة وتشوقهم إلى ثوابها، فجاء من آيات القرآن ما يرسي جوانب هذا المنهج في قول الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (الأنعام: ١٤١، ١٤٢).

وقوله سبحانه: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف: ٣١–٣٣).

وكذلك في قول الله عز وجل: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (القصص: ٧٧).

كما تميز تشريع القرآن وهديه بتلطفه إلى النفوس البشرية عند تكليفها بما يريد؛ ليقودها قوداً جميلا إلى الامتثال، وييسر عليها المشقة بما يرتبه على صالح العمل من عظيم الأجر.

فهو إذا تعرض لتشريع الزكاة –والأنفس شحيحة بالمال– جعلها طهرة للمال: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (التوبة: ١٠٣).

وإذا تعرض لتشريع الحج –وهو عبادة مبنية على المشقة غالباً– قرنه بمنافع مشهودة للحجيج، فقال: ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴾ (الحج: ٢٧، ٢٨).

وإذا تعرض للأمر بالصلاة بين أنها طريق للطهارة من الآثام، والبعد عن الفواحش: ﴿ ... وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ (العنكبوت: ٤٥).

وإذا تعرض لأصول الإيمان والعبادات مجتمعة وصفها بالبر، ورتب عليها التقوى، فقال: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ (البقرة: ١٧٧).

وهو يخاطب في النفس البشرية رغبتها في النعيم، ورهبتها من

الجحيم: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴾ (المؤمنون: ١٠١-١٠٣).

وهو بعد ذلك كله يعين على الأعمال الصالحة بضمان ثوابها لكل عامل دون تفرقة في جنس العاملين ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (النحل: ٩٧).

ومن أشهر من لفت النظر إلى هذا الباب في القرآن الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله تعالى- في تفسيره الموسوم (أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن) فإنه عند تفسير قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ (الإسراء: ٩). قال ما نصه: «وهذه الآية الكريمة أجمل الله جل وعلا فيها جميع ما في القرآن من الهدى إلى خير الطرق وأعدلها وأصوبها، فلو تتبعنا تفصيلها على وجه الكمال لأتينا على جميع القرآن العظيم، لشمولها جميع ما فيه من الهدى إلى خيري الدنيا والآخرة، ولكننا إن شاء الله تعالى سنذكر جملاً وافرة في جهات مختلفة كثيرة من هدي القرآن للطريق التي هي أقوم بيانا لبعض ما أشارت إليه هذه الآية الكريمة، تنبيها ببعضه على كله من المسائل العظام، والمسائل التي أنكرها الملحدون من الكفار، وطعنوا بسببها في دين الإسلام لقصور إدراكهم عن معرفة حكمها البالغة»[1].

---

(١) أضواء البيان: ٣/ ٤٠٩.

وبالفعل ساق الشيخ من ذلك مسائل متعددة ذكر فيها هدي القرآن للطريق التي هي أقوم وأعدل في مجالات كثيرة لا يتسع المقام لذكرها، فليرجع إليها من شاء في هذا التفسير في المجلد الثالث منه.

وممن اهتم بهذا الجانب كذلك الشيخ محمد أبو زهرة –رحمه الله تعالى– في كتابه (المعجزة الكبرى) وكذلك الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني –رحمه الله تعالى– في كتابه (مناهل العرفان في علوم القرآن).

وبالجملة: فإن هدي القرآن وتشريعه في إصلاح حياة البشر، وفي مراعاته لكل طوائفهم، وصلاحه لكل أزمنتهم وعصورهم تشريع معجز، لا يرقى إليه ولا يستطيعه تشريع بشري.

سابعاً: الإعجاز العلمي:

في القرآن الكريم ما يزيد على ألف آية تتحدث عن معالم هذا الكون، وتذكر مفرداته من: السموات والأرض، والشمس والقمر، والكواكب والنجوم، والجبال والبحار والأنهار، والمطر والرعد والبرق.. إلى آخره وإذا كانت هذه الآيات قد ذكرت تلك المفردات في سياق لفت الأنظار إلى مظاهر قدرة الله عز وجل في الخلق، استدلالاً على تفرده سبحانه بالربوبية والألوهية، وقياساً عليها أحقية البعث الذي أنكره الكفار، فإنها مع ذلك قد جاءت في أسلوب وعبارة تفتح أمام العقل البشري آفاقا واسعة للتفكير في دلالاتها عبر عصوره المتعاقبة من بعد نزول القرآن، فيقوم لديه من هذه الدلالات في كل عصر ما يشهد بالحق الذي جاءت به.

وفي عصرنا الذي نعيشه، وفي غضون عشرات قليلة من السنين، وبالقياس إلى تاريخ البشرية الممتد وصلت المكتشفات العلمية المتعلقة بالكون في آفاقه، وفي أنفس مخلوقاته ما لم تصل إليه من قبل.

وانطلاقاً من اهتمام المسلمين بكتاب ربهم تبارك وتعالى، فإن علماءهم في هذا المجال بدؤوا يمعنون النظر والفكر في هذه الآيات، ويتلمسون فيها من جوانب القدرة -فيما أشارت إليه- ما يعد جانبا من جوانب الإعجاز القرآني، يصلح لدعوة الناس إلى دين الله سبحانه، في زمن فتن الناس فيه بالعلم، وبما تحقق من منجزاته فتنة عظيمة، وهذا ما يطلق عليه -من جوانب الإعجاز القرآني- الإعجاز العلمي.

وفي إيضاح يراه مهماً، يفرق أحد أبرز علماء الجيولوجيا -وهو الأستاذ الدكتور زغلول راغب النجار الذي عمل أستاذا للجيولوجيا في بعض جامعات العالم، ومنها جامعة الملك فهد للبترول والمعادن بالظهران بالمملكة العربية السعودية، وضم إلى ذلك اهتماما كبيرا بدراسة القرآن الكريم وعلومه- بين التفسير العلمي والإعجاز العلمي، فيقول: «إن التفسير العلمي للقرآن الكريم يقصد به أن يوظف أهل كل جيل كل المعارف المتاحة لهم في حسن فهم دلالة القرآن الكريم» ويزيد كلامه وضوحاً فيقول: «في مجال التفسير العلمي لا يتردد الإنسان أن يوظف كل المعارف المتاحة، الثابت منها وغير الثابت، لأن التفسير يبقى جهداً إنسانيا يصيب الإنسان فيه ويخطئ، وخطأ

الإنسان في التفسير لا ينسحب على جلال القرآن الكريم، بل ينسحب على المفسر، لذلك لا بد لنا من توظيف كل المعارف المتاحة لحسن فهم دلالة الآيات القرآنية -طبعا بعد التأهل للقيام بهذه المسؤولية الخطيرة- وهي التعرض لكلام الله، وهذا التأهل يقتضي فهماً للغة العربية وقواعدها وأسرارها، وفهما لأسباب النزول، وفهما للناسخ والمنسوخ، وفهما للمأثور من تفسير رسول الله ﷺ، لذلك لابد أن ينفر من كل جيل نفر من الناس يتأهلون لهذه العدة، ويعرضون فهما جديداً للآيات القرآنية، خاصة في مجال القضايا العلمية، والقضايا الكونية، بحيث لا يعتمد على التفسيرات القديمة فقط، ولذلك أقول: إن التفسير العلمي للقرآن الكريم لا نخاف أن نوظف فيه كل المعارف المتاحة من نظريات فروض -حقائق علمية قطعية- القوانين، فكل هذا يوظف».

«أما بالنسبة للإعجاز العلمي، فلا يجوز لنا أن نوظف فيه إلا الحقائق العلمية القاطعة، لأن الإعجاز نريد به أن نثبت للناس -مسلمين وغير مسلمين- أن هذا القرآن العظيم الذي نزل على نبي أمي في أمة أمية قبل ١٤٠٠سنة يحتوي من حقائق هذا الكون على ما لم يستطع الإنسان أن يتوصل إلى معرفته إلا بعد جهود مضنية وقبل عشرات السنين فقط»[١].

---

(١) مجلة (العلميون) عدد يونيو سنة ١٩٩٧م ص ٤٨.

وإذا كنا سنوافق هذا العالم الجليل على قوله، فلابد من تحوُّط نسوقه بين يدي هذه الموافقة، وهو: أن المفسر للقرآن على هذا النحو، بل وكل مفسر ينبغي أن يصوغ عبارته بطريقة تفهم بأن ما قاله إنما هو فهمه من الآيات، الذي استطاع أن يتوصل إليه بعد أخذه بأدوات التفسير التي تؤهله لذلك، فلا يقطع بأن ما فهمه من الآية هو مراد الله تعالى منها.

وهذا الأمر ينسحب على الإعجاز العلمي من جهة أن ما جاء في الآيات من مظاهره إنما هو توسيع لمدلول هذه الآيات في جوانب أخرى، إضافة إلى ما كان من جوانب سابقة، وسيأتي مزيد إيضاح لذلك .

على أننا نود أن ننبه هنا على أمرين على جانب كبير من الأهمية:

أولهما: أنه لن يكون هناك تعارض أو تناقض بأي حال، ولا من أي نوع بين أي نص قرآني صريح في دلالته، وبين أي حقيقة علمية بلغت يقين المعاينة، والمشاهدة، ضرورة أن خالق الكون سبحانه هو منزل القرآن الكريم، ولن يكون تناقض أبداً بين قول الله تعالى وبين خلقه ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (الملك: ١٤).

ثانيهما: أن القرآن الكريم في الأساس كتاب هداية، أنزله الله تعالى لإخراج الناس من الظلمات إلى النور: ﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ . . . ﴾ (الإسراء: ٩). ﴿ الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ (إبراهيم: ١).

تلك هي مهمة القرآن الأصلية، وقد وضحت سبل الهداية فيه: في عقائده وتشريعاته، وكانت مظاهر القدرة في الآيات الكونية فيه -كما بينّا- وسيلة من وسائل الاحتجاج للحق الذي جاء به.

فالقرآن -والأمر كذلك- ليس كتاباً في العلوم التطبيقية مثل الطب أو الفيزياء أو الفلك أو الهندسة أو الزراعة أو التعدين ونحوها، وإنما هو دستور للهدى والحق، لكنه مع ذلك يتضمن في سياق آياته وفي رسم طريق الهداية للبشر من المعارف فيما سبق من العلوم بطريق التبع حقائق تدهش أهل التخصص في تلك العلوم، فيستقر في عقولهم من جراء ذلك ما يرسخ يقينهم، ويثبت إيمانهم إن كانوا مؤمنين أصلا أو يقيم الدليل عندهم على حق كانوا في شك فيه -وهو صدق القرآن- إن كانوا غير مؤمنين، فيهتدون إلى الإسلام، وبذلك يتحقق المقصود النهائي من القرآن وهو الهداية -كما أسلفنا- أو تقوم الحجة عليهم في هذا الباب كما قامت في غيره من أبواب أخرى إن ظلوا على كفرهم مقيمين.

ونعود إلى اهتمام علماء المسلمين بهذا الجانب من جوانب الإعجاز في القرآن الكريم، لنجد أن جهوداً كبيرة قد بذلت في هذا المجال، ولعل من أبرز ما تمخضت عنه هذه الجهود: إنشاء هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة في إطار رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة، تلك الهيئة التي حددت أهداف نشاطها فيما يلي:

أولاً: وضع القواعد والمناهج، وطرق البحث العلمي التي تضبط الاجتهادات في بيان الإعجاز العلمي للقرآن والسنة.

ثانياً: إعداد جيل من العلماء والباحثين لدراسة المسائل العلمية والحقائق الكونية في ضوء ما جاء في القرآن والسنة.

ثالثاً: صبغ العلوم الكونية بالصبغ الإيمانية، وإدخال مضامين الأبحاث المعتمدة في مناهج التعليم في شتى مؤسساته ومراحله.

رابعاً: الكشف عن دقائق معاني الآيات القرآنية الكريمة، والأحاديث الشريفة المتعلقة بالعلوم الكونية في ضوء الكشوف العلمية الحديثة، ووجوه الدلالة اللغوية، ومقاصد الشريعة الإسلامية دون تكلف.

خامساً: إمداد الدعاة والإعلاميين في العالم :أفراداً ومؤسسات بالأبحاث المعتمدة للانتفاع بها، كلٌ في مجاله.

سادساً: نشر هذه الأبحاث بين الناس بصورة متناسبة مع مستوياتهم العلمية والثقافية، وترجمة ذلك إلى لغات المسلمين المشهورة، واللغات الحية في العالم.

وكان من إصداراتها من الكتب في هذا المجال: علم الأجنة في ضوء الكتاب والسنة، المصب والحواجز بين البحار في القرآن الكريم، تأصيل الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، أوجه الإعجاز العلمي في القرآن والسنة في ١–عالم النحل، ٢– اللبن، ٣– الحبة السوداء، ٤– علم

الأجنة في ضوء القرآن والسنة "باللغة الإنجليزية"، ٥- المفهوم الجيولوجي للجبال في القرآن والسنة (باللغة الإنجليزية)، ٦- إعجاز القرآن الكريم في وصف أنواع: الرياح والسحب والمطر، ٧- تأملات في الإعجاز العلمي في القرآن والسنة حول: الإنسان في الارتفاعات العالية الإحساس بالألم، ٨- الإعجاز العلمي في آيات السمع والبصر في القرآن الكريم، ٩- من أوجه الإعجاز العلمي للقرآن الكريم في عالم البحار، إلى غير ذلك من الكتب، والأشرطة المرئية[1].

ويطول بنا المقام إذا نحن حاولنا التوسع في ذكر الأمثلة والشواهد على الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، ومع ذلك لا ينبغي أن يخلو البحث من مثل هذه الشواهد، وبخاصة ما التزم فيها جانب الرشد وفق ما قدمناه من الضوابط،فلم يقطع فيه الباحث بأن ما ذكر فيه هو مراد الله تعالى، وإنما استشهد بالدلالة اللغوية لعبارة القرآن على ما كشف عنه العلم في الجانب العلمي.

وفي هذا الإطار نسوق قول الله تعالى في سورة النبأ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝٦ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ ففي إبراز وجه الإعجاز العلمي فيها يقول الأستاذ الدكتور زغلول راغب النجار:

(١) يراجع ذلك في نهاية كتاب: (من أوجه الإعجاز العلمي للقرآن الكريم في عالم النبات) ص: ٤٦، ٤٧ وهو من إصدارات الهيئة، تأليف: د. قطب عامر فرغلي، د. السيد محمد زيدان الطبعة الأولى سنة ١٤١٧هـ.

«من أروع الحقائق الكونية التي وردت في هذا السياق أن الله تعالى قد جعل الجبال أوتاداً ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ (النبأ: ٦، ٧) ووصف الجبال بأنها أوتاد هو من أبلغ صور الإعجاز العلمي في كتاب الله، وهذه شهادة صدق بأن القرآن الكريم كلام الله، وأن محمداً ﷺ هو خاتم أنبيائه ورسله، وأنه ﷺ كان موصولاً بالوحي، معلما من قبل خالق السموات والأرض ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ (النجم: ٣، ٤).

«ففي الوقت الذي يصف فيه القرآن الكريم الجبال بأنها أوتاد قبل أربعة عشر قرناً، نجد كل المجامع اللغوية والعلمية إلى يومنا هذا تعرف الجبل بأنه: نتوء أرضي يرتفع بارزاً فوق ما يحيط به من الأرض بصورة تفوق ارتفاع التل، ويختلف الدارسون في تحديد ارتفاع كل من الجبل والتل، فبينما يضع بعضهم الحد الفاصل بين هذين الشكلين من أشكال سطح الأرض عند ارتفاع ٣٠٥ أمتار فوق مستوى سطح البحر، نجد آخرين يرفعونه إلى ضعف هذا الرقم، ومن ثم فإنهم يقصرون الجبال على المرتفعات الأرضية التي تفوق ٦١٠ أمتار فوق سطح البحر، ويعدون كل ما دون ذلك من التلال أو الربى، والربوة عندهم هي التل المرتفع».

«وانطلاقاً من ذلك فإن "معجم مصطلحات علوم الأرض" يعرف الجبل بأنه: تل مرتفع، أو بصياغة أدق ربوة مرتفعة، أو مرتفع أرضي يفوق في ارتفاعه الأراضي المجاورة له بشكل ملحوظ.

وفي معجم البيئة الطبيعية "الفطرية" يعرف الجبل بأنه : "نتوء أرضي مرتفع بشكل ملحوظ تحيط به منحدرات شديدة تصل ارتفاعاته إلى مستوى الجروف البارزة، أو القمم الفردية السامقة، وليس للجبل ارتفاع محدد، وإن وصل ذلك في بريطانيا عادة إلى ما فوق –٦٠٠ متر أو ٢٠٠٠ قدم– إلا إذا ارتفع الجبل فجأة من أرض منخفضة محيطة به" .

وفي دائرة المعارف البريطانية الجديدة يعرف الجبل بأنه : "منطقة من الأرض تعلو الأراضي المحيطة بها نسبيا بشكل واضح، وتضيف : وعليه فإن ما يدعى بالتلال في مناطق السلاسل الجبلية العظيمة كجبال الهملايا تعد جبالاً لو وجدت في إطار منطقة أخرى أقل تضاريس" .

« وبالمثل تعرف دائرة المعارف الأمريكية الجبل بأنه : جزء من سطح الأرض يرتفع فوق مستوى المنطقة المحيطة به وتضيف : وبصفة عامة يتناقص ارتفاع السلاسل الجبلية على مراحل حتى يصل إلى مستوى السهول مروراً بمرحلة التلال، إلا أنه في بعض الأحوال تكون عملية الانتقال من الجبال إلى السهول فجائية على هيئة منحدرات شديدة » .

ويتضح مما تقدم أن جميع التعريفات البشرية للجبال، اللغوية منها والعلمية تقتصر على تضاريس الأرض الناتئة بشموخ فوق باقي المناطق الأرضية المحيطة بها، سواء كانت تتميز بقمم سامقة أم لا، أو بسفوح متدرجة في الانخفاض، أو فجائية في الانحدار، التي عادة ما توجد

في مجموعات متوازنة أو شبه متوازنة من الأطواق الطولية، أو المجموعات أو النظم أو السلاسل الجبلية، أو في محاور جبلية عملاقة للقارات، توجد بينها اتجاهات سائدة لمحاورها الطولية، وإن كان من الممكن للجبل أن يوجد على هيئة مرتفع منفرد معزول.

إن الدراسات الميدانية قد أثبتت منذ منتصف القرن الثامن عشر الميلادي أن القشرة الأرضية تزداد في السمك تحت كل التضاريس المرتفعة فوق سطح البحر -مثل الجبال، الربى، التلال، الهضاب، القارات- ويبلغ سمك القشرة الأرضية مداه في المناطق الجبلية، حيث تندفع مادة الجبل لتخترق الغلاف الصخري للأرض -الذي يبلغ سمكه في المتوسط مائة كيلومتر- لتطفو في مادة لزجة شبه منصهرة، عالية الكثافة، توجد تحت الغلاف الصخري للأرض مباشرة، وتعرف باسم -النطاق الضعيف- وتحكم مادة الجبل الطافية في نطاق الضعف هذا قوانين الطفو التي تؤمن لكتلة الجبل دعما طافيا يعين الجبل على الانتصاب فوق سطح الأرض، وسبحان القائل: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾ (الغاشية: ١٧-١٩).

وكلما أخذت عوامل التعرية من قمم الجبال ارتفعت تلك الجبال بفعل مادة وشاح الأرض، ويظل الأمر كذلك حتى تتساوى تلك الامتدادات العميقة للجبال مع سمك الغلاف الصخري للأرض،

وحينئذ يتوقف الجبل عن الارتفاع وتصل الامتدادات العميقة للجبال إلى أضعاف مضاعفة لارتفاعها فوق سطح الأرض، وتتراوح بين عشرة أضعاف وخمسة عشر ضعفا بناء على التباين في كثافة الصخور المكونة للكتلة الجبلية.

وعلى ذلك: فإن امتدادات الجبال تحت سطح الأرض تفوق ارتفاعاتها فوق سطحها بأضعاف مضاعفة، تصل إلى أكثر من خمسة عشر ضعفا، فقمة :إفرست" التي يبلغ ارتفاعها فوق سطح البحر حوالي التسعة كيلومترات تقريبا (٨٨٤٨ متر) لها امتدادات في الغلاف الصخري للأرض يصل إلى حوالي ١٣٥ كيلو مترا.

وهنا تتضح صورة من أروع صور الإعجاز العلمي في القرآن الكريم الذي نزل قبل أربعة عشر قرنا ليصف الجبال بأنها "أوتاد" ففي كلمة واحدة -أوتاد- شمل التعبير القرآني وصف كلٍ من الشكل الخارجي للجبال فوق سطح الأرض، وامتداداتها العميقة تحت ذلك السطح، كما وصف وظيفة الجبال، وهى تثبيت الغلاف الصخري للأرض في مادة الوشاح اللدنة، الموجودة تحت ذلك الغلاف الصخري مباشرة، تماما كالوتد الذي يندس معظمه تحت سطح الأرض، بينما يرتفع الجزء الأصغر منه فوق ذلك السطح.

«فسبحان الذي أنزل هذا الوصف الدقيق للجبال قبل أربعة عشر قرنا على خاتم أنبيائه ورسله، وسبحان الذي حفظ لنا هذا الوصف

الدقيق شاهداً على أن القرآن الكريم كلام الله الذي أبدع هذا الكون بعلمه وحكمته وقدرته»[1].

بقي بعد ذلك أن ننبه على وجوب وضع هذا الوجه من الإعجاز في موضعه الصحيح، فإننا وإن قلنا به، ورغبنا فيه، وعددناه وسيلة لدعوة فريق من الناس إلى الحق، إلا أن ذلك ليس معناه أن كون القرآن حقا وصدقا يتوقف على القول بالإعجاز العلمي، حتى يتكلف البعض ذلك تكلفاً يوقع في أخطاء تعود في النهاية على الباحث في هذا المجال بعكس مقصوده، فالقرآن الكريم قد ثبت صدقه وكونه وحياً من عند الله تعالى بما سبق من وجوه الإعجاز الأخرى وبغيرها من الأدلة.

ومن ثم فنحن مع الأستاذ سيد قطب -رحمه الله تعالى- عندما نعى على المتكلفين في هذا الأمر، وبَيَّنَ كيفية التعامل مع هذا الوجه من الإعجاز في اعتدال لا شطط فيه ولا غلو، قال رحمه الله:

«وكل محاولة لتعليق الإشارات القرآنية العامة بما يصل إليه العلم من نظريات متجددة متغيرة -أو حتى بحقائق علمية ليست مطلقة كما أسلفنا- تحتوي أولا على خطأ منهجي، كما أنها تنطوي على معان ثلاثة كلها لا يليق بجلال القرآن الكريم:

---

(١) مجلة (القافلة): العدد ٧، المجلد: ٤٣ رجب سنة ١٤١٥هـ، ديسمبر سنة ١٩٩٤م، مقال بعنوان: "من آيات الإعجاز العلمي في القرآن" أد/ زغلول النجار من ص١ إلى ص ٤.

الأولى: هي الهزيمة الداخلية التي تخيل لبعض الناس أن العلم هو المهيمن والقرآن تابع، ومن هنا يحاولون تثبيت القرآن بالعلم، أو الاستدلال له من العلم، على حين أن القرآن كتاب كامل في موضوعه، ونهائي في حقائقه، والعلم ما يزال في موضوعه ينقض اليوم ما أثبته بالأمس.

والثانية: سوء فهم طبيعة القرآن ووظيفته، وهي أنه حقيقة نهائية مطلقة تعالج بناء الإنسان بناءً يتفق -بقدر ما تسمح به طبيعة الإنسان النسبية- مع طبيعة هذا الوجود وناموسه الإلهي، حتى لا يصطدم بالكون من حوله، بل يصادقه ويعرف بعض أسراره.

والثالثة: هي التأويل المستمر -مع التمحل والتكلف- لنصوص القرآن كي نحملها ونلهث بها وراء الفروض والنظريات التي لا تثبت ولا تستقر، وكل يوم يجد فيها جديد.

« وكل أولئك لا يتفق وجلال القرآن ،كما أنه يحتوي على خطأ منهجي كما أسلفنا، ولكن هذا لا يعني ألا ننتفع بما يكشفه العلم من نظريات -ومن حقائق- عن الكون والحياة والإنسان في فهم القرآن .. كلا! إن هذا ليس هو الذي عنيناه بالبيان، ولقد قال الله سبحانه: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ... ﴾ (فصلت: ٥٣). ومن هذه الإشارة أن نظل نتدبر كل ما يكشفه العلم في الآفاق وفي الأنفس من آيات الله وأن نوسع بما يكشفه مدى المدلولات القرآنية في تصورنا »[١].

---

(١) في ظلال القرآن: ١/ ١٨٢، ١٨٣.

فالقول بالإعجاز العلمي للقرآن، والبحث فيه أمر لا بأس به، بل هو مرغوب ومطلوب فيما أشرنا إليه من زيادة يقين المؤمن لإيناسه وتثبيته على الحق بما يرى من دلائله آناً بعد آن، وكذلك من إقامة الحجة على الكافر في مجال فتن البشر بمنجزاته في مرحلة من الزمن تقدمت فيها العلوم المادية تقدما غير مسبوق.

هذا وهناك وجوه للإعجاز ذكرها العلماء ولم نتطرق إليها لضيق المقام، وهي:

١-كون القرآن محفوظاً من الزيادة والنقصان على مر الدهور والأزمان.

٢-تيسير حفظه.

٣- شموله على جميع البراهين والأدلة على توحيد الألوهية والربوبية.

٤- إعجاز القرآن في أسمائه وأوصافه.

٥- إعجاز القرآن في حروف المعجم.

خاتمة البحث

وبعد.. فهذا ما منّ الله تعالى به من الحديث في موضوع: (عناية المسلمين بإبراز وجوه الإعجاز في القرآن الكريم) عالجنا فيه بقدر ما يقتضيه المقام، ويتسع له المجال ما يلي:

(١) بيان الحكمة من تأييد الله تعالى رسله بالمعجزات، وأنه إذا كانت معجزات الأنبياء السابقين حسية فقد كانت المعجزة الكبرى للنبي ﷺ عقلية، وهي القرآن الكريم، إضافة إلى ما أعطاه الله تعالى كذلك من المعجزات الحسية، وذلك لكون رسالة النبي ﷺ عالمية، وكونها خاتمة الرسالات.

(٢) التعريف بمصطلح "إعجاز القرآن الكريم" بما يحدد المراد به، ويبين غايته، وهو أن المراد به: إثبات القرآن عجز الخلق عن الإتيان بما تحداهم به، وهو أن يأتوا بمثله أو بشيء من مثله، وأن لازم ذلك هو: إثبات أن هذا الكتاب حق، وأنه وحي الله تعالى إلى رسوله ﷺ، بما يقتضيه ذلك من إثبات صدقه ﷺ فيما جاء به من الرسالة.

(٣) إيضاح أهمية علم الإعجاز والضرورة الداعية إلى بحثه: من أن القرآن الكريم جاء هدى للناس، والاهتداء به فرع من فهم معانيه، وأنه لما كان قد نزل بلسان عربي مبين، فإن القيام على تفسيره لابد له من معرفة تامة بالعربية وخصائصها، ودلالات ألفاظها، وأوجه بلاغتها، وذلك من علم الإعجاز.

(٤) تأكيد أن مناط الإعجاز المتفق عليه عند جماهير المحققين من علماء هذا الشأن هو لفظ القرآن الذي نزل به على رسول الله ﷺ، وهو ما يتعلق –من بين أوجه الإعجاز– بالناحية البلاغية ابتداء، إضافة إلى ما تضمنه من أوجه أخرى ترجع إلى ذاته لفظا ومعنى، مع رد القول بالصرفة الذي شاع بين بعض العلماء رغم أنه لا يستند إلى دليل، بل يقوم الدليل على بطلانه.

(٥) تأصيل قضية الإعجاز، وما قاله العلماء في أوجهه مما كتبوه فيه تأصيلاً تاريخيا تبين منه أنه منذ القرن الثالث الهجري، وحتى عصرنا الحاضر لم ينقطع مدد الكتابة في إعجاز القرآن، وإبراز أوجهه مما يدل على مدى عناية المسلمين بهذا الكتاب الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

(٦) تحقيق القول بقدر ما سمح مجال البحث في أوجه الإعجاز القرآني، باستخلاص ما جاء بحثه منها في كتابات العلماء، وهي: إعجاز القرآن في بلاغته وفصاحته، وإعجازه في نظمه وأسلوبه، وفي إخباره بالغيوب المستقبلة، وفي إخباره عن القرون السابقة والأمم البائدة، وكذلك في إعجازه النفسي، ويقصد به تأثير القرآن الكريم في النفوس عند قراءته أو الاستماع إليه، ثم إعجازه في هديه وتشريعه، وأخيراً: الإعجاز العلمي، وهو ما أثاره وتوسع فيه العلماء في مجال العلوم الكونية في العصر الحديث، وبعد تقدم العلوم المادية، وتطور البحث في علوم الطبيعة تطورا كبيرا في مجالاتها المتعددة ،مما لم تشهده البشرية من قبل عبر عصورها المختلفة.

(٧) التنبيه على أن أوجه الإعجاز في القرآن الكريم منها ما يلازم القرآن، ويطَّرد فيه: سورة سورة، وآية آية، وعليه المعول، وبه كان التحدي، وذلك مجاله الإعجاز اللغوي بمعناه العام بما يشمل الإعجاز في البلاغة والفصاحة، وفي النظم والأسلوب، ومنها ما يكون الإعجاز فيه متعلقا بجوانب منه غير مطرد فيه، مثل بقية الأوجه الأخرى، فتساق من باب كونها شواهد صدق ظاهرة لهذا الكتاب الكريم.

أسأل الله الكريم سبحانه أن يجعله خالصا لوجهه، وأن يتقبله بمنه وكرمه، وأن يجعله لبنة نافعة في صرح الخدمة لهذا الكتاب الكريم الذي نفتديه بمهجنا وأرواحنا.

﴿... رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (البقرة: ٢٨٦).

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك وأنعم على سيد ولد آدم محمد بن عبد الله النبي الأمي وعلى آله وصحبه أجمعين.

أهم مراجع البحث

١-الإتقان في علوم القرآن -الحافظ جلال ا لدين السيوطي- تقديم وتعليق د. مصطفى ديب البغا- دار ابن كثير بيروت ط: أولى ١٤٠٧هـ.

٢- إعجاز القرآن -القاضي أبو بكر الباقلاني- دار إحياء العلوم بيروت ط: أولى ١٤٠٨هـ.

٣-إعجاز القرآن والبلاغة النبوية -مصطفى صادق الرافعي- دار الكتاب العربي ط: ثالثة ١٩٢٨م.

٤-الإعجاز البياني للقرآن الكريم - د. عائشة عبد الرحمن- دار المعارف مصر ط: ثانية ١٩٨٧ م.

٥-البرهان في علوم القرآن -بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي- دار الكتب العلمية بيروت ط: أولى ١٤٠٨هـ.

٦- بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبار-د. عبد الفتاح لاشين- دار الفكر العربي ١٩٨٧م.

٧- التحرير والتنوير -الشيخ محمد الطاهر بن عاشور- دار سحنون تونس دون تاريخ.

٨- تفسير القرآن العظيم -الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل ابن كثير- دار المعرفة بيروت ١٤٠٣هـ.

٩- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: للرماني، والخطابي، والجرجاني -تحقيق محمد خلف الله أحمد، ود .محمد زغلول سلام- سلسلة ذخائر العرب - دار المعارف مصر ط: رابعة ١٩٩١ م.

١٠- الجامع لأحكام القرآن -أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي- الهيئة المصرية العامة للكتاب ط: ثانية ١٩٨٧م.
١١- دلائل الإعجاز- الإمام عبد القاهر الجرجاني-دار المدني جدة ط: ثالثة ١٩٩٢م.
١٢- روح المعاني-شهاب الدين الألوسي البغدادي- دار التراث العربي بيروت ط: ثانية دون تاريخ.
١٣- السيرة النبوية الصحيحة - د. أكرم ضياء العمري- مكتبة العلوم والحكم بالمدينة المنورة ط: سادسة ١٤١٥هـ.
١٤- الشفا بتعريف حقوق المصطفى -القاضي عياض بن موسى اليحصبي- مكتبة دار التراث بالقاهرة دون تاريخ.
١٥- صحيح البخاري للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري مع فتح الباري للحافظ أحمد بن حجر العسقلاني- دار المعرفة بيروت دون تاريخ.
١٦- صحيح مسلم للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري، حققه ورقم أحاديثه محمد فؤاد عبد الباقي -دار إحياء التراث العربي- دون تاريخ.
١٧- الفصل في الملل والأهواء والنحل -علي بن أحمد بن حزم الظاهري- دار المعرفة بيروت ١٩٨٣م.
١٨- في ظلال القرآن -سيد قطب- دار الشروق ط: تاسعة ١٤٠٠هـ.
١٩-لسان العرب -ابن منظور- دار المعارف مصر دون تاريخ.

٢٠- المعجزة الكبرى -الإمام محمد أبو زهرة- دار الفكر العربي مصر ١٩٩٨م.

٢١-مفاتيح الغيب -فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازي- دار الفكر بيروت ط: ثالثة ١٤٠٥هـ.

٢٢- مفهوم الإعجاز القرآني حتى القرن السادس الهجري -د.أحمد جمال العمري- دار المعارف مصر ١٩٨٤م.

٢٣- الملل والنحل -أبو الفتح محمد بن عبدالله الشهرستاني- دار صعب بيروت ١٩٨٦م.

٢٤-مناهل العرفان في علوم القرآن -محمد عبد العظيم الزرقاني- دار الفكر بيروت ١٤٠٨هـ.

٢٥- من أوجه الإعجاز العلمي للقرآن في عالم النبات -د. قطب فرغلي، د. السيد زيدان- هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة ط: أولى ١٤١٧هـ.

٢٦- نظرات في القرآن -الشيخ محمد الغزالي- دار الكتب الحديثة ط: ثالثة دون تاريخ.

"**من المجلات العلمية**":

٢٧- العلميّون -تصدر عن نقابة العلميين في مصر- عدد يونيو ١٩٩٧م.

٢٨- القافلة -تصدر عن شركة أرامكو بالمملكة العربية السعودية- العدد السابع، المجلد الثالث والأربعون رجب ١٤١٥هـ - ديسمبر ١٩٩٤م.

الفهرس

عِنَايَةُ المُسْلِمِينَ بِإِبْرَازِ وُجُوهِ الإِعْجَازِ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ

إعداد

الشيخ حسن بن عبد الفتاح أحمد

رئيس مجموعة مراقبة النّص
بمجمّع الملك فهد لطباعة المصحف الشّريف
بالمدينة المنوّرة

المقدمة

الحمد لله القائل: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ (صٓ: ٢٩) والصلاة والسلام على من قال الله له: ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ ﴾ (القيامة: ١٩) صلى الله وسلم وبارك على نبي الهدى ومصباح الدجى محمد الذي أنار الله به السبل وألف بين مناهجها حتى صارت سبيلا واحدا يدعو إلى الله على بصيرة هو ومن اتبعه. ورضي الله عن السائرين في سبيل الحق هداة مهتدين بنور القرآن، مستمسكين بعروته الوثقى التي لا تفصمها هجمة هوى، ولا تغادر عنها بثبوت الحق زعزعة النفس ضلالا وغواية، رضي الله عن أولئك الذين استعملهم في سبيل القرآن حَفَظَة لرايته، واستنطق بهم ما طواه العداء للقرآن من أعدائه، فراح الكرام العالمون يسلون سيوف البيان والإفصاح عن براهين تَبايُنِ كلام الله عن كلام الخلق. أسكنهم الله فسيح جناته لقاء ما أفسحوا من مجالات الدراسة، وجزاء ما أسهموا به من ضروب الكياسة، وكل هذا يمثل مظهرا من مظاهر معنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (سورة الحجر: ٩).

أما بعد:

فكل كتاب يَرِثُّ كلامُه بكثرة البحث فيه، وتنضو الأفكار منه،

وينضب عطاؤه إلا القرآن الكريم، فإنه كلما قرأته ألفيت نفسك غير التي كانت بالأمس تقرأ، فالقرآن هو هو، وما تَلَقَّاه قارئه اليوم غير ما فتح عليه منه بالأمس، فإنك لا تجد واحدا من الكتب غير القرآن يعطيك هذا، يؤتيك كل يوم نفسا تقرأ في كل مرة أول مرة، إذ حين تقرؤه ألف مرة تكون كمن قرأ ألف كتاب، ومن يستزده يزده.

"ومن إعجاز القرآن أن يظل مشغلة الدارسين والعلماء جيلا بعد جيل، ثم يبقى أبدا رحب المدى سخيَّ المورد، كلما حسب جيل أنه بلغ منه الغاية امتد الأفق بعيداً وراء كل مطمح، عاليا يفوق طاقة الدارسين"(١).

وتجلّت عظمة الإسلام في كون معجزتِه الخالدةِ هو القرآن، والقرآن كلام، وكل ما عدا الكلام في تغير وتطور مستمر، والكلام البشري وحده الذي إن لم يَقِل في عطائه لم يزد، وكل كلام له حد يبلغه معناه، والقرآن لا حد لمعناه وإن حصر كلامُه بين دفتي المصحف.

إنه لبرهان خالد ساطع الدلالة على صحة الدعوة الإسلامية الخاتمة وصدقها.

ولما كانت اللغة مطايا المعاني، تبدّى لدى الأوائل أن الكلام من حيثيات مختلفة مقصود التحدي، فأبدى المختصون منهم وجوه إعجاز

---

(١) من كتاب الإعجاز البياني للقرآن – عائشة عبد الرحمن "بنت الشاطئ" ص ١٧.

فيما يتعلق بلغة القرآن ونظمه، وأساليب الكلام وسائر ما عَنَّ لهم وعَرض في دراستهم. فتشعبت في ذلك فنون وعلوم، ونشأت معارف.

وحين تحوَّلَ العرب من جودةٍ إلى اختلالٍ في أركان القريحة العربية في قواعدها وألفاظها، نجد تحولا عجيبا يؤكد بقاء هذا الكتاب على نفس صورة عظمته لدى الأوائل، فكانت وجوه الإعجاز مضيئة عمر الأمة الخاتمة منذ عهدها الأول وحتى عصرنا هذا، وإلى ما شاء الله.

وتمثلت عناية المسلمين بهذا المجال أولَ الأمر في صورة الدفاع عن القرآن حتى أصبح هذا علما أفضى إلى علم كالبلاغة، واستقر بقاء الثاني أمارة على الأول، فالبلاغة مفتاح كشف وجه الإعجاز، ووجوه الإعجاز أساس علم البلاغة.

والقرآن كنز يستفتحه كل عصر بأدواته ليأخذ منه ما تسنى له من جواهره ودرره، وهو كريم كلما استثير أعطى، قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "من أراد العلم فليثور القرآن فإنه فيه علم الأولين والآخرين"[1]؛ لذلك كان علينا أن نستزيد من العلم بالقرآن بكثرة مدارسته، فإنه لا يخلق على كثرة الرد، بل تَرْكُه دون إثارة فيه أفدح خسارة، فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: "سَيَبْلَى القرآنُ في

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه ١٠ / ٤٨٥. نقلا عن كتاب معرفة شأن القرآن إعداد محمد أبو البشر رفيع الدين ص ٨٦.

صدور أقوام كما يبلى الثوب، فيتهافت، يقرؤونه لا يجدون له شهوة ولا لذة، يلبسون جلود الضأن على قلوب الذئاب، أعمالهم طمع لا يخالطه خوف، إن قصروا قالوا سنبلغ، وإن أساؤوا قالوا سيُغفر لنا إنا لا نشرك بالله شيئاً"(١).

وهو غير مُتَبَذَّل، وخفاؤه في يسره، تمر به مرَّ الغافل فلا يزجي إليك منه شيئا، إذ هو لنزاهته أغفل منك عنك إن غفلت عنه، وإن أعطيته نفسك أعطاك رفده، وهو حَمَّال أوجه، وإلى هذه النكتة أشار أبو الدرداء رضي الله عنه حين قال: "لا يكون الرجل فقيها حتى يحمل الآية الواحدة على محامل متعددة"(٢).

ويدور القرآن مع الزمن فيفيض عليه من سَيْبه حسب طلعة السائرين على مدرجات هذا الزمن، وكلما امتدت إليه يد لم يُصْفِرْها، أو لهفة ظمأى ما صد عنها، بل كان الرُّواء، يعطي لكلٍ شِرْبَه، وعلى حسب الدِّلاء يكون العطاء.

اثنان لا يخجل أحدهما من الآخر ولا يستحي منه ولا يعارضه، القرآن كتاب الله المقروء، والكون كتابه المنظور، لذلك لا تصادفُ نَفْرةً من أحدهما في مواجهة الآخر.

---

(١) أخرجه الدارمي في سننه رقم ٢٣١٢ كتاب فضائل القرآن باب تعاهد القرآن، نقلا عن الكتاب السابق الإشارة إليه، ص ٧٩.

(٢) الفوز الكبير في أصول التفسير، ولي الله الدهلوي ص ٩٨.

ولقد قال الله تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ (يونس: ١٠١) وحين كفّ الإنسان نظره عن رؤية القدرة الإلهية في الكون، أنزل الله كلمته المسموعةَ في هذا القرآن، فألح القرآن في دعوته إلى أن يُفْترى شيء من مثله، وإذ قالوا: افتراه وليس من عند الله دعاهم إلى افتراءِ مثله، وعجزوا جميعاً متظاهرين متعاونين أو فرادى ناكصين ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (الإسراء: ٨٨).

واستحكمت الغيرة في نفوس العلماء وراعهم أن ينال أحد من كتاب الله فأخذوا في بيان إعجازه وجوها عدة. حتى أفضت الدراسة إلى اعتبارِ رُؤيةِ التطابق بين القرآن وآفاق الكون في علوم العصر الحديثة وُجوهاً للإعجاز، أو بينه وما في النفس من دقائق الأسرار.

وتدخل ضمن هذين الإطارين منظوماتٌ أخرى فرعيةٌ تدل على مدى سَعة وجوه الإعجاز القرآني، وكثرة القائمين على العناية بها .

ولم يَحْبُ الله أمة بمثل ما أوتيت أمة الإسلام، فقد خَصَّها بالفضل كله، بنبيها الخاتم ﷺ، وبكتابه الخالد المعجز،وكونِها خيرَ أمة أخرجت للناس.

وجعل عصمتَها بكتابه سرَّ قوتها، وتمسكَها به سبيلَ هدايتها؛ فهو الكتاب الذي وصفه النبي ﷺ حين قال: "مأدبة الله والنور المبين، والشفاء النافع، عصمةٌ لمن تمسك به، ونجاة لمن اتبعه، لا يزيغ فيستعتب،

ولا يعوج فيقوم، ولا تنقضي عجائبه، ولا يخلق من كثرة الرد"(١).

المعجزة القولية الكبرى، يحوي في سَعته أعاظم العجائب الكونية، ردًّ على طالبي الآيات الحسية ليردهم إليه، فأخرس في نفوسهم الكلامَ بإقامة التوجيه نحو القرآن وحده.

وقد حكى عنهم قولهم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ۖ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ...﴾ (العنكبوت: ٥٠، ٥١).

ولم يكن التحدي من القرآن إلا لمن لم يقبل كونه كلام الله،فحين يكون كلاما لأحد من البشر يتصور عدم انفراد قائله بمثله، ولم يكن لأحد أبداً أن يحوز ميزة في كلام لم يبلغه في درجته سابق أو لاحق.

وها هو القرآن عبر القرون جميعا يمد تحديه شامخا ما نال منه أحد أبداً إلا كما قيل:

كناطحٍ صخرةً يوماً ليوهنها فلم يَضِرْها وأوهى قرنَه الوَعِلِ

وتنوعت أساليب العناية وأشكالها حين تناول المهتمون بإبراز وجوه الإعجاز على أنحاء عدة، تعرف ذلك من خلال هذه الأوراق البالغة في الدلالة قصورَ مَن خطّ ما فيها. وأسأل الله تعالى القبول والتوفيق إنه سميع قريب.

كاتبه

حسن عبد الفتاح أحمد

---

(١) أخرجه الحاكم من حديث عبد الله بن مسعود ١/ ٥٥٥.

سبب اختيار الموضوع

لم يقترح لي موضوع من جملة ما طرح، مما أربك سرعة الشروع في تقصي جوانب البحث بصفة شمولية، لذلك رحت أفاضل بين الموضوع والآخر على أسس شخصية فردية بحتة، وكلما استقرت النفس على موضوع بكرةً حادت عنه عشية، إلى أن هداني الله تعالى إلى موضوع "**عناية المسلمين ببيان وجوه إعجاز القرآن الكريم**" .

وصَمدَت في نفسي فكرة البحث في هذا الموضوع حيث يدعمها واقع المسلمين اليوم . وكأنهم بحاجة ماسة فعلا إلى آية، لا أقول ليؤمنوا بالقرآن، ولكن ليعلنوا هم لأنفسهم أنهم جادون في الأخذ بما في هذا الكتاب .

وحفظ الله الكتابَ تتنوع فيه المعارض، فصروح الطباعة صورة من صور الحفظ، والمنتديات المتعلقة بها وجوه التباحث في القرآن الكريم صورة ثانية، والهيئات الدولية كالتي تتبع رابطة العالم الإسلامي والمنوط بها دراسات الكتاب والسنة عموما، وبيان وجوه الإعجاز فيهما خصوصاً مظهر آخر .

ومن الواجب أننا بعد بيان مثل هذه الوجوه للإعجاز القرآني علينا أن نخرج من ضيق القول إلى سعة العمل ورحبه، فالكلام لا يجدي دون تجسيده في صورة عملية .

نعم ... حين نجوب أرجاء إثارة الكلمات القرآنية تمطرنا سموات عليائها بسامي المعاني، ولكن نجتزئ من الموضوعات ما يناسب إطار البحث دون تجوز أو تجاوز .

وابتناءُ أمرٍ على غير أساس ينزع إلى التعجيل به وإن أقيم، وكذلك مظهر الدين لا يبقيه عدم جوهره وهو الإيمان، لِذلك يلزم الدخول إلى القرآن بسابق إيمان بحت بأنه غالب قاهر لسلطان العقل ونظريات العلم، متعانق هو والحقائق بآصرة الصدق والثبات، وإلا فما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون؟ .

لهذا وغير هذا اخترت هذا الموضوع، موردا نفسي موارد التقحم بغير أهلية البحث، أشابه أهله وإن لم أشبه أدناهم .

عسى الله أن يجعل في عجز القصور قبولا، وفى قصور العجز منالا، وأن يكون الذي حمل على نفسه تتبع خطو السابقين قد أجمل في سبيلهم المسير، والله الهادي إلى سبيل الرشد وسواء الصراط .

والحمد لله رب العالمين ،،،

مظهر العناية بماهية الإعجاز

مادة عجز في "القاموس المحيط" أوردها الفيروزآبادي على النحو التالي:

العجز مثلثة وكَنَدُسٍ وكَتِفٍ مُؤَخَّر الشيء جمعه أعجاز، وأعجزَه الشيءُ فاته، وأعجز فلانا وجده عاجزا وصيره عاجزا، والتعجيز التثبيط والنسبة إلى العَجِزِ.

ومعجزة النبي ﷺ ما أَعْجَزَ به الخصمَ عند التحدي، والهاءُ للمبالغة وعاجز فلانٌ ذهب فلم يُوْصَلْ إليه، وفلاناً سابَقَه فعَجَزَه فسبقه، وإلى ثِقَةٍ مال إليه. وتَعَجَّزْتُ البعيرَ ركبتُ عَجُزَه.

وقوله تعالى: ﴿... مُعَاجِزِينَ...﴾ "أي يعاجزون الأنبياءَ وأولياءهم، يقاتلونهم ويمانعونهم ليصيروهم إلى العجز عن أمر الله تعالى، أو معاندين مسابقين أو ظانين أنهم يعجزوننا[1].

وعرَّف الرازي في محصله المعجز بأنه "أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي، مع عدم المعارضة". وعقَّب بمحترزات التعريفِ فقال:

"وإنما قلنا -والكلام للفخر الرازي- أمر: لأن المعجز قد يكون إتيانا بغير المعتاد، وقد يكون منعاً من المعتاد، وإنما قلنا: إنه خارق للعادة: ليتميز به المدعى عن غيره، وإنما قلنا: إنه مقرون بالتحدي: لئلا يتخذ

---

(١) باب الزاي فصل العين ٢/١٨٧، ١٨٨ من القاموس المحيط لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي الطبعة الثانية، مصطفى البابي الحلبي. بتصرف.

الكاذب مُعْجِزَ مَنْ مضى حجة لنفسه، وليتميز عن الإرهاص والكرامات. وإنما قلنا : إنه مع عدم المعارضة : ليتميز عن السحر والشعبذة" [1].

والمعجزة أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي ،سالم عن المعارضة وهي : إما حسية، وإما عقلية[2].

والمعجز بهذا المعنى يدخل فيه من وجوه الإعجاز ما اتُّفِقَ عليها وما اخْتُلِفَ فيها، ويخرج عنه ما قاله أبو الحسن الأشعري على النحو الذي سيأتي إن شاء الله بيانه عند تقسيم الوجوه .

ولقد أجمع عامة الباحثين من علماء العربية والتشريع والفلسفة والفرق المختلفة، أن القرآن معجز، فما معنى أنه معجز؟

للجواب عن معنى الإعجاز ثَمَّةَ تعريفان للإعجاز[3]:

أحدهما : هو المعتمد لدى جمهور العلماء والباحثين وهو : أن القرآن قد سما في علوه إلى شأو بعيد بحيث تعجز القدرة البشرية عن الإتيان بمثله، سواء كان هذا العلو في بلاغته أو تشريعه أو مغَيَّباته أو غير ذلك.

---

(١) كتاب المحصل "وهو محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من الحكماء والمتكلمين" لأبى عبد الله محمد بن عمر بن حسين فخر الدين الرازي (٥٤٤هـ-٦٠٦هـ) (١١٤٨م-١٢٠٩م) (تقديم وتحقيق، الدكتور/حسين أتاي مكتبة التراث ٢٢ شارع الجمهورية ــ القاهرة ــ صـ٤٨٩ الطبعة الأولى.

(٢) الإتقان للسيوطي صـ١٠٠١ .

(٣) من روائع القرآن تأملات علمية وأدبية في كتاب الله عز وجل د/ محمد سعيد رمضان البوطي. مكتبة الفارابي – دمشق، صـ١٢٥بتصرف يسير .

ثانيهما: تفرد به[1] أبو إسحاق إبراهيم بن سيار بن هاني النظام (ت ٢٣١هـ) اللغوي والمعتزلي المعروف ثم تبعه في ذلك بعض الناس من فرقته وجماعته، فالإعجاز عنده هو: أن الله قد صرف قدرات عباده وسلب همتهم وحبس ألسنتهم عن الإتيان بمثله.

وإتماماً للفائدة فإنه إذا كان النظام أول من جاهر بالقول بالصرفة، إلا أن ابن الراوندي أحمد بن يحيى المتوفى سنة ٢٩٨هـ في كتابه "فضيحة المعتزلة" الذي رد به على كتاب الجاحظ " فضيلة المعتزلة "هو أول من أثار مذهب الصرفة المشهور ونَسَبَهُ إلى أبي إسحاق إبراهيم النظام، وذلك ما أورده أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد بن عثمان الخياط المعتزلي في كتابه "الانتصار" الذي ينقض فيه كتاب ابن الراوندي "فضيحة المعتزلة "[2].

والتعريف الأول يجعل مصدر الإعجاز علو منزلة القرآن عن مستوى الطوق البشري .

والتعريف الثاني يجعل المصدر حبس القدرات وصرف الهمم عن معارضته وتقليده، فالمنع هو المعجز وليس القرآن .

وابن حزم يروي في كتابه "الفصل"[3] كلاماً عزاه إلى الباقلاني إذ

---

(١) مقالات الإسلاميين للأشعري ١/٢٩٦.

(٢) قضية الإعجاز القرآني ص ١٤٣.

(٣) الفصل ٥/١١ .

يقول عنه: "ورأيت للباقلاني في فصل من كلامه، أن الناس ليسوا بعاجزين عن مثل هذا القرآن ولا قادرين عليه، ولا هم عاجزون عن الصعود إلى السماء، ولا عن إحياء الموتى، ولا عن خلق الأجسام ولا اختراعها، ولا قادرين على ذلك . هذا نص كلامه دون تأويل منا عليه، ثم قال : إن القدرة لا تقع إلا حيث يقع العجز" .

ومن أراد الرجوع إلى الرد على هذا الكلام الذى أسماه ابن حزم بالهوس فليطالعه عند كلامه على المعجزات .

وإيراد كلام الباقلاني هنا مقصود، لبيان جملة من الأقوال التي ضربت في معنى الإعجاز بسهم، لكن الباقلاني جعل الناس مناط بيان الإعجاز، ويفهم من قوله، أن الناس على جبلتهم لا يوصفون بعجز ولا قدرة، فمن أودعت فيه قدرة كان قادرا، ومن أودع فيه العجزُ صار عاجزاً .

وأقول : إنه لا تُعْلم القدرة إلا حيث يبرز العجْزُ، فمن عجز عن أمر فإن هذا الأمر يكون مقدورا عليه من غيره حتما، لأنه لا يوصف العاجز إلا حيث لم يتحقق منه الأمر،والأمر حتما لا يُعْلم إلا حيث يقع مقدورا من الغير .

ويسوق ابن حزم[1] قولاً للأشعري بأن المعجز الذي تحدى الناسَ بالمجيء بمثله هو الذي لم يزل مع الله تعالى ولم يفارقه قط ولا نزل إلينا ولا سمعناه .

---

(١) الفصل ٣/ ١٥.

ويقول ابن حزم في رده على ذلك: "وهذا كلام في غاية النقصان والبطلان، إذ من المحال أن يكلف أحد أن يجيء بمثل ما لم يعرفه قط ولا سمعه، وأيضا فيلزمه -ولابد بل هو نفس قوله-: إذا لم يكن المعجز إلا ذلك فالمسموع المتلو عندنا ليس معجزا، بل مقدور على مثله، وهذا كفر مجرد، لا خلاف فيه لأحد، فإنه خلاف للقرآن لأن الله تعالى ألزمهم بسورة أو عشر سور منه وذلك الكلام الذي هو عند الأشعري هو المعجز ليس له سور ولا كثير، بل هو واحد فقط، هذا القول. والحمد لله رب العالمين".

ويذكر الأشعري في "مقالات الإسلاميين" قولا لهشام وعباد[1] هو أنهما قالا: لا نقول إن شيئا من الأعراض يدل على الله سبحانه، ولا نقول أيضا: إن عرضا يدل على نبوة النبي ﷺ. ولم يجعلا القرآن علما للنبي ﷺ، وزعما أن القرآن أعراض[2].

ومن جميع ما سبق نخلص إلى نتيجة مفادها: أن الناظر إلى القرآن ككلام يحوي أعاجيب لا تنقضي، قال بالإعجاز القرآني، وبيَّن وجوها منه على نَحْوِ مَا سيرد إن شاء الله، ومن نظر إلى كلام الله النفسي جعله هو المعجز، وهذا حق متى علم، وهو لم يطلع عليه أحد بعد،

(١) هشام بن عمرو الغوطي من المعتزلة توفي ٢٢٦هـ، وصاحبه عباد بن سليمان الضمري من الطبقة السابعة من المعتزلة ت سنة ٢٥٠هـ. انظر الملل والنحل للشهرستاني، ط مؤسسة ناصر للثقافة ببيروت ١٩٨١م ص ٣١.

(٢) مقالات الإسلاميين ١/ ٢٩٦.

ولم يكن منه تحدّ إلى أحد من الخلق لأن التحدي كان حينما سمع المعرضون القرآن وقالوا إن الرسول ﷺ قد افتراه، حينئذ قال لهم: فأتوا بعشر سور مثله مفتريات، وما تحداهم إلا بمثل ما سمعوا؛ ومن نظر إلى الناس فرأى فيهم ذا القدرة الفائقة على البيان وإجادة الكلام بنظم بليغ وقول مجيد ولم يجد منهم إقداما نحو الإتيان بمثله، بل من دفعه طيشه ونزقُه وأفنُ عقله إلى المعارضة، أتى بالسخيف مما لا يرقى إلى مستوى الإجادة المعتادة في كلام العرب، ومن رأى فيهم غلبة القرآن عليهم، قال بصرف الله لهم عن المماثلة والمحاكاة.

ومن رأى أن الأصل في الناس التفاوت قال إنهم ليسوا بعاجزين ولا قادرين، وهذا يصح فيما كان بينهم، ولكن فيما يكون من عند الله، فهم العاجزون والله تعالى على كل شيء قدير، ومن غالى استعظم أن يكون القرآن -وهو في زعمه عرض- دالاً على الله أو على نبوة النبي ﷺ، وهب أنه ينزه اللهَ أو يجعلُ رسولَه ﷺ بهذا النحو، إلا أنه يخالف واقع التحدي الدائم، والعجز المطَّرِد من كل من خاطبهم القرآن بالتحدي(١).

ويقول الرافعي(٢) "إن القرآن معجز بالمعنى الذي يفهم من لفظ

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة".

(٢) تاريخ آداب العرب ٢/ ١٥٦ الناشر دار الكتاب العربي بيروت - لبنان، الطبعة الرابعة ١٣٩٤هـ، ١٩٧٤م.

الإِعجاز على إِطلاقه حين يُنْفَى الإِمكان بالعجز عن غير الممكن " .

وحين انتفى إمكان العرب بعجزهم عن الإتيان بمثله بل عجز كل الإنس ومعهم الجن عن ذلك، حينئذ تفهم معنى إِعجاز القرآن الكريم على إطلاقه.

ولا يقال: عجز فلان إلا بعد سبق، فالعرب كان لهم السبق، لم تعجزهم أمة في الإعراب والبيان، ولما نزل القرآن سبقهم . وهذا شأن الخلق دائما فإنه ليس لأحد منهم أن ينفرد بوصف ذاتي أبداً، والعرب أسبق الأمم وأبينهم فيما يعربون فلابد أن لا يكون لهم هذا التفرد، لأنه لا يتوحد بوصف إلا الواحد تعالى، فكان القرآن المقدم وصار اللسان الأقوم والأبين من العرب في الدرجة الثانية، وبعد أن كانوا في الصدارة صاروا في عربيتهم وبيانهم في تاليها.

وحق للقرآن أن يكون عربيا ما دامت العربية في درجة اللغات هي الأولى، ومع هذا تبوأ القرآن المنزلة الأولى من هذه اللغة العظمى.

وفي "النكت في إعجاز القرآن" لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني (٢٩٦هـ-٣٨٦هـ) اعتراض افترضه الشيخ ورد عليه إذ يقول[1]: "فإن قال قائل: فلم اعتمدتم على الاحتجاج بعجز العرب دون المولدين

---

(١) ذخائر العرب ١٦ ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القادر الجرجاني حققها وعلق عليها محمد خلف الله أحمد ودكتور محمد زغلول سلام ط دار المعارف الطبعة الرابعة ص ١١٣ .

وهو عندكم معجز للجميع، مع أنه يوجد للمولدين من الكلام البليغ شيء كثير ؟ .

قيل: لأن العرب كانت تقيم الأوزان والإعراب بالطباع، وليس في المولدين من يقيم الإعراب بالطباع كما يقيم الأوزان، والعرب على البلاغة أقدر لما بَيَّنَّا[1] من فطنتهم لما لا يَفْطن له المولدون من إقامة الإعراب بالطباع، فإذا عجزوا عن ذلك فالمولدون عنه أعجز" .

والجرجاني في رسالته الشافية[2] يفضي بباب من التلبيس يدور في أنفس قوم من الأشقياء يستهوون به وعي الغِرِّ الغَبِي بذكره، وهو قولهم: قد جرت العادة بأن يبقى في الزمان من يفوت أهله حتى يسلموا له، وحتى لا يطمع أحد في مداناته، وحتى يقع الإجماع فيه أنه الفرد الذي لا ينازع، ثم يذكرون امرأ القيس وربما ذكروا الجاحظ.

وهم يريدون بذلك أن القرآن معجز لا لأنه كلام الله، بل لمزية كانت للنبي ﷺ في كلامه دون غيره من أرباب الفصاحة فاق بها الفصحاء والبلغاء .

ولكن الجرجاني ذكر شرطاً للمزية والتفرد وهو أن المزية الناقضة للعادة يبلغ الأمر فيها إلى حيث يبهر ويقهر، حتى تنقطع الأطماع عن المعارضة، وتخرس الألسن عن دعوى المداناة، وحتى لا تحدِّثَ نفسٌ

---

(١) المرجع السابق ص ١١١ حيث تكلم على نقض العادة وجهاً من وجوه الإعجاز .

(٢) الرسالة الشافية للجرجاني ثلاث رسائل في الإعجاز ص ١٢٨، ١٢٩ .

صاحبها بأن يَتَحَدَّى، ولا يَجُول في خلَدٍ أن الإتيان بمثلها يمكن، وحتى يكون يَأْسُهُم منه وإِحساسهم بالعجز عنه في بعضه مثل ذلك في كله.

ثم يقول الجرجاني نافياً أن يكون لأحد كائنا من كان كلُّ هذا: "وليت شعري من هذا الذي سَلَّم لهم أنه كان في وقت من الأوقات من بلغ أمرُه في المزية وفى العلو على أهل زمانه هذا المبلغَ وانتهى إلى هذا الحد".

ثم ساق القصة الشهيرة بين امرئ القيس وعلقمةَ الفحلِ والتي كان فيها الحكم بين الشاعرين أُمَّ جندب امْرأةَ امرئ القيس والتي فضلت علقمةَ في الشعر على زوجها.

وأردف الرجل برهاناً بعد آخر إبطالاً لهذا القول، ومن براهينه أن للشعراء طبقات، وبَيّنَ أنهم في كل طبقة منها أكفاء نظراء. ولم ينفرد واحد بمزية تخصه، فسقطت بذلك مقولة المزية.

هل العجز هو الإفحام؟

يقول الشيخ محمد عبده (١): "يقول واهم إن الإعجاز حجة على من عَجَزَ فإن العجز هو حجةُ الإفحام وإلزامُ الخصم، وقد يلتزم الخصم ببعض المسَلَّمَات عنده فَيُفْحَم ويعجز عن الجواب فتلزمه الحجة، ولكن ليس ذلك بملزم لغيره، فمن الممكن أن لا يُسَلِّم غيرُه بما سلمه، فلا

---

(١) رسالة التوحيد للإمام محمد عبده ص ١٢٧ - دار إحياء العلوم بيروت، ط ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.

يُفْحِمُه الدليلُ، بل يجد إلى إبطاله أقرب سبيل" .

ويرد الشيخ بقوله: "وهو وهم بما قدمنا من البيان إذ لا يوجد من المشابهة بين إعجاز القرآن وإفحام الدليل، إلا أنه يوجد عن كل منهما وجه عجز، وشتَّان بين العجْزَين، وبُعْد ما بين وِجْهتَي الاستدلال فيهما، فإن إعجاز القرآن برهن على أمر واقعي، وهو تقاصر البشرية دون مكانته من البلاغة" .

وأضيفُ: إنه إذا كان الإفحام يتصور إبطاله من أحد غير العاجز أو من نفسه هو في وقت لاحق، فهل أبطل الإعجاز على مَدِّ زمن التحدي من القرآن للثقلين أي أحد؟ .

وبعد إيراد كل هذا في مضمار بيان المعجزة والإعجاز نخلص إلى أن المعجز هو:

أمر خارق للعادة مقرونا بالتحدي يظهره الله على يد مدعي النبوة تصديقا لدعواه.

وإذا كان باب الدخول إلى صلب الموضوع قد أخذ من علمائنا هذه العناية بإحكام الشروع والبيان عند إرادة التفاصيل، فإن هذا ينم عن غاية تغياها هؤلاء، وهي سد أبواب التنطع في وجه كل لئيم دائر النظر، بحثا عن مطعن يقدح من خلاله في أجَلِّ كلام عرفَتْه البشرية وهو كلام الله تعالى.

لقد أدام علماؤنا افتراضاتِ الرافضين لكون القرآن كلامَ الله، فأداروا

في رؤوسهم كل رد لتخرس الألسنة عن تقليب ما جال في الخواطر الفاسدة الناشئة من رداءة أصل التوجه، وما أفاد العلماء من مثل هذا إلا شرفَ عنايتهم وغايتِهم من هذا، فالقرآن قد استبقى لنفسه دفُوعاً شتى، يواجِهُ بها في كل جيل ما جلَّ من خطبه وخطره في سبيل النيل من القرآن ودرجته العليا.

الفصل الأول
العناية بوجوه الإعجاز

يستلزم بيان وجوه الإعجاز جلاءَ الأساس الذي بني عليه وجودُ الكلام في الإعجاز، فإن القرآن في جملته معجزة على وجه الحقيقة، ولا يمكن لأحد أبدا مهما أوتي من علم أن يذكر السبب الذي أعجز أفذاذ العرب عن أن يأتوا بمثله، فإنه قد امتد إلى نفوسهم، فانطبع في نفس أحدهم منه حلاوة، وفى نفس الآخر خوف، مع عدم إيمانهم به، بل كانوا يسترقون سماعه خُفْيَةً، وما حمَلَهم عداؤهم على أن يجابهوا هذا الذي أخزاهم وأقعدهم دون منازلهم وسفه أحلامهم . لا يمكن لأحد أبداً أن يكون قد اطَّلَع على أحوال قلوبهم حين استمعوا القرآن، ثم تكشَّف له أن الوجه الذي أعجزهم كيت وكيت، أو أن الله صرفهم عن ذلك، بل تقوم الأدلة على أنهم ما تركوا المعارضة إلا عجزاً من عند أنفسهم، وذلك لأن القرآن قد نقض عادتهم في الكلام والإعراب والبيان ووجدوا فيه عُلُوَّ ما لَمْ يُعْهَد، ومن أنكر الإعجاز ما أضر بغير نفسه، وظل القرآن يرمي إلى كل جيل إعجازاً بعد إعجاز.

ولذلك ينقسم هذا الفصل إلى مبحثين :

الأول: الدوافع التي أدت إلى التصنيف في الإعجاز.

الثاني: يبين ما يتوقف عليه القول بوجه من الإعجاز.

المبحث الأول: دواعي بيان الإعجاز:

اتخذ مظهر الولاء لهذا الدين والدفاع عن كتابه صورتين: دَفْع بالسنان ودفاع باللسان . فمن ادعى النبوة كمسيلمة لاقى في حروب الردة ما لاقى، ومن اعتلاه شيطانه واعترته وساوسه وطعن في القرآن، أصابه ما أصاب سلفه، أو أرغمت الحجة أنفه.

وفى صدر الإسلام كان الطبع العربي لم يزل على سلامة سليقته في الإعراب، إذ لم يكن بحاجة إلى وسائل يُتَفَهَّمُ بها القرآن الكريم، وكان الصحابة رضوان الله عليهم يدركون معانيَ الألفاظ وما وراءها بفطرتهم العربية الأصيلة، فإذا أشكل عليهم شيء من وراء ذلك سألوا عنه رسول الله ﷺ.

ثم كانت رقعة حياتهم ضيقة لا تزخر أو تتزاحم فيها التقاليد والأفكار والمشكلات الطارئة فكانت معارفهم في أذهانهم، وكان مرجعهم فيها رسول الله ﷺ، ثم كبار الصحابة مِنْ بَعْدِه، فلم يكن عندهم شيء مما أطلق عليه فيما بعد اسمُ "علوم القرآن"[1].

ومع أن العرب بصحة عربيتهم قد أدركوا إعجاز القرآن في نفوسهم، سواء منهم من آمن ومن لم يؤمن، إلا أن مادة "ع، ج، ز" لم ترد بهذا المعنى، بل اشتهرت لدى المسلمين ألفاظ أخرى كالآية والبرهان والسلطان[2].

---

(١) من روائع القرآن ص ٦٦ .

(٢) فكرة إعجاز القرآن ص ٨.

مع هذا لم يَخْلُ القرن الأول من تعبيرات مفادها أن للقرآن من غلبة اللسان وسلطان البيان ما ليس لغيره من سائر الكلام .

وخرج المسلمون على غيرهم بنور الإيمان فاتحين، فانفتحوا هم في المقابل على ما كان لدى الأمم من علوم، فسيطرت الفلسفة على عقول بعض الناس، وربما اتجه المتفلسفون إلى الفكرة لا لأصالتها أو صِلتِها بالحق ولكن لغرابتها، لا رغبة في تحقيق الحق وإبطال الباطل، ولكن للترف العقلي، لا يفرقون بين أمر يتصل بالإيمان وأمر لا صلة له بالإيمان .

ومن جملة ما اطلع عليه بعض المتفلسفين من المسلمين أقوالُ البراهمة في كتابهم "الفَيْدَا"(١) وهو يشتمل على مجموعة أشعار ليس في كلام الناس ما يماثلها في زعمهم .

ويقول جمهور علمائهم : إن البشر يعجزون عن أن يأتوا بمثلها، لأن "براهما" صرفهم عن أن يأتوا بمثلها .

وحكى الإمام محمد أبو زهرة ما أورده أبو الريحان البيروني(٢) في كتابه "ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة" ما نصه :

"إن خاصتهم يقولون إن في مقدورهم أن يأتوا بأمثالها، ولكنهم ممنوعون من ذلك احتراما لها" وعقب الشيخ أبو زهرة بقوله : "ولم يبين

---

(١) المعجزة الكبرى القرآن للإمام محمد أبي زهرة ط دار الفكر العربي ص ٧٦ .

(٢) توفي سنة ٤٣٠هـ.

البيروني وجه المنع أهو منع تكليفي يسبقه الإيمان بهذه الكتب، وتكون دلائل وجوب الإيمان من نواح أخرى، أم هو منع تكويني" بمعنى أن براهما صرفهم بمقتضى التكوين من أن يأتوا بمثلها. أي أنه جعل خَلْقَهُمْ وتَكوينهم على نحوٍ لا يستطيعون معه الإتيان بمثلها.

ورجح الشيخ الوجه الأخير بناء على أنه المتفِق مع قَوْلِ جمهور علمائهم، وما اشتهر من أن القول بالصرفة نبع في واديهم.

ودخلت الأفكار الهندية في عهد المنصور أبي جعفر[1] فتلقفها المحبون لكل وافد من الفكر، ركوناً إلى الاستغراب في أقوالهم فدفعتهم الفلسفة إلى اعتناق ذلك القول، وطبقوه على القرآن وإن كان لا ينطبق. فقال قائلهم: إن العرب إذ عجزوا عن أن يأتوا بمثل القرآن ما كان عجزهم لأمر ذاتي من ألفاظه ومعانيه ونسجه ونظمه،بل كان لأن الله صرفهم عن أن يأتوا بمثله[2].

ولم يُسَمِّ الشيخُ أحداً ممن قال بهذه المقولَةِ قبلَ النظام ولكنه أبرز مَرْمَى رَوَاجِ هذه الفكرة وجعل مؤداها إلى أمرين[3]:

أولهما: أن القرآن ليس في درجة تمنع محاكاته، وليس الإعجاز من صفاته الذاتية.

---

(١) ثاني الخلفاء العباسيين توفي سنة ١٥٦هـ.

(٢) المعجزة الكبرى القرآن لأبي زهرة ص ٧٦.

(٣) المرجع السابق ص ٧٦، ٧٧.

ثانيهما: الحكم على القرآن بأنه ككلام الناس.

لكن الرافعيَّ في كتابه " تاريخ آداب العرب "[1] يقول: " كان أول ما ظهر من الكلام في القرآن، مقالة تُعْزَى إلى رجل يهودي يُسَمى لبيد بن الأعصم فكان يقول: إن التوراة مخلوقةٌ فالقرآن كذلك، ثم أخذها عنه طالوتُ ابن أخته وأشاعها، فقال بها بنان بن سمعان الذي تنسب إليه البنانية، وتلقاها عنه الجَعْدُ بن درهم "مؤدب مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية" وكان زنديقا فاحش الرأي واللسان. وهو أول من صرح بالإنكار على القرآن والرد عليه وجحد أشياءَ مما فيه، وأضاف إلى القول بخلقه أن فصاحتَه غيرُ معجزة، وأن الناس يقدرون على مثلها وعلى أحسن منها. ولم يقل بذلك أحد قبله، ولا فشت المقالة بخلق القرآن إلا مِنْ بعده.

وإذا كان الجعد بن درهم أولَ من صرح بالقول بخلق القرآن وبأنه غير معجز، فإن أول من جَهَرَ بالقول بالصرفة من المتكلمين المعتزلة، أبو إسحاق إبراهيم بن سيار بن هاني النظام (ت ٢٣١هـ). خلط كلام الفلاسفة بكلام المعتزلة وانفرد أصحابه بمسائل: منها قوله في إعجاز القرآن أنه من حيث الإخبار عن الأمور الماضية والآتية، ومن جهة صرف الدواعي عن المعارضة، ومَنْع العرب عن الاهتمام به جبراً وتعجيزاً، حتى لو خلاهم لكانوا قادرين على أن يأتوا بسورة من مثله بلاغة

(١) تاريخ آداب العرب للرافعي ٢/١٤٣.

وفصاحة ونظما[١].

وهذان هما الدافعان اللذان أثارا حفائظ المؤمنين غيرة على الحق، أما أبان بن سمعان والجعد بن درهم فقد قتلهما خالد بن عبد الله القسري المتوفى (سنة ١٢٦هـ) رحمه الله وجزاه خيراً .

وأما النظَّام فإن تلميذه الجاحظ لم ينتظم في سلك طائفته بل خرج عليه راميا نحوه بسهام ما أصاب من علم وآداب عربية، فمع اعتزاله لم يقف من الحق موقف المتخاذل فآثر حرمة الحق على حرمة الشيخ، فكان أول من دفع القول بالصرفة بالإعجاز الذاتي للقرآن الكريم .

لم يوافق التلميذُ أستاذَه، وإذا كان النظام قد اشتهر بالبيان وسرعة الجواب ولسن القول فقد اشتهر الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) بأنه ذواق الكلام وَصَيْرَفِيٌّ البيان. فإن خَالَفَ من يتسرع في الخبر ويبني عليه، فهي مخالفة الخبير العارف بتصريف القول وأفانين التعبير والتفكير .

ولم يكن رد الجاحظ على شيخه ردَّ المجادل، ولكنه كان بالعمل، فقد كان أول من كتب في إعجاز القرآن من الناحية البيانية ليكون الردُّ على الصرفة ببيان الإعجاز الذاتي[٢].

وفي كتاب "المعتزلة" يقول مؤلفه زهدي حسن جاد الله: "وقد رد

---

(١) موسوعة الملل والنحل للشهرستاني ص ٢٤، ٢٥ بالطبعة الأولى سنة ١٩٨١م الناشر مؤسسة ناصر للثقافة – تاريخ آداب العرب للرافعي ٢ / ١٤٤ .

(٢) المعجزة الكبرى لأبي زهرة ص ٧٨ .

الخياط على هذا القول الذي كان ابن الراوندي أول من نسبه إلى النظام وقال إن النظامَ كان يقر بإعجاز القرآن نظما وإخباراً" [1].

ومن كل ما سبق يمكن القول إن الصرفة لم تكن مذهبا يعتقده أحد من المسلمين مع شهرة وذيوع نسبتها إلى النظام الذي شهد له صاحب الانتصار بأنه كان يقر بإعجاز القرآن نظما وإخباراً، وما كان القول بالصرفة ونسبتها إلى أحد المسلمين ليكون لولا ضغائنُ الكائدين وأحقادهم للإسلام ولكتابه .

وهَبْنَا نجد في بطون الكتب ردوداً على مثل هذا القول، إلا أن هذه الردود وحدها لا تُثْبِت صحةَ نسبةِ الصرفة إلى قائلها، لأن دافعاً كالغيرة على القرآن لا يترك مستجمعاً لأدلة الاستيثاق من صحة صدور هذا القول عن صاحبه قبل المواجهة دون أن تبعثه على الرد بأقصى ما يمكن من السرعة على ما يمس الإسلام في أصل تشريعه وهو القرآن .

ولم يَخْلُ زمننا هذا -مَعَ تباعُدِ ما بينه وبين عصر بزوغ فكرة الصرفة- من أن ينبري مَنِ اطلع عليها بالرفض، والنقض لها، والرد عليها، ونقدها مما يسمح بالقول : إنه قد يكون اتهام النظام مبنياً في أصله على ما أشيع عنه بالقول بها، وقد يكون منها براء.

ولا خلاف في أن إثم القول بالصرفة -على اعتبارها طعناً في ذاتية

---

(١) المعتزلة لزهدي حسن جاد الله ص ٢٩ -نقلاً عن الانتصار ص ٢٧، ٢٨- منشورات النادي العربي في يافا، ط القاهرة ١٣٦٦هـ - ١٩٤٧م مطبعة مصر.

الإعجاز القرآني- يقع على أول قائل بها سواء كان هو النظام أو من نسبها إلى النظام، بل على البادئ وزر من قال بها بعده، إذا كان قوله مؤسَّساً على مشايَعَةِ أول قائل بها، والارتضاءِ بها وجهاً للإعجاز.

ولكن متى اتخذ الكلام في الإعجاز الصورة العلمية المنظمة؟

في أواخر القرن الثاني وأوائل الثالث بدأ الكلام في الإعجاز بصورة علمية منظمة، ففي هذا العصر ظهرت أكثرُ النظريات الرئيسة في الإعجاز، صادرة عن المتفلسفين والمعتزلة والمتكلمين، وكثر الكلام في الدين والنبوة وبُحِثَ الإعجاز على أنه فرع لهما .

وشاهَدَتْ هذه الحِقْبَةُ ظهورَ منكرِي الإعجاز كابن الراوندي أبي الحسين أحمد بن يحيى (ت ٢٩٨هـ) الذي بسط لسانه في مناقضة الشريعة وإنكاره إعجاز القرآن في كتابه " الفريد " وقيل : إنه عارض القرآن في كتاب سماه " التاج"[1] ومن كتبه "الزمردة " و " قضيب الذهب "، و" المرجان "، و "البصيرة " .

وانبرى كثيرون للرد عليه[2] في لاحق الزمن، ومع أن المعري أبا العلاء (ت ٤٤٩هـ) قد تولى الرد عليه، إلا أنه لم يسلم هو من الاتهام بمعارضة القرآن في كتابه المسمى "الفصول والغايات في مجاراة السور والآيات" على أن المعريَّ قد أثبت الإعجاز للقرآن فيما أنكر من رسالته على ابن الراوندي[3] بل الناظر في الفصول لا يجد فيه شيئاً من هذا.

(١) تاريخ آداب العرب ٢ / ١٨٢.

(٢) تاريخ آداب العرب ٢ / ١٨٣.

(٣) تاريخ آداب العرب ٢ / ١٣٦ .

وكما لم يسلم المعري لم يسلم من قَبْلِه الجاحظُ، فهو وإن كان رأيهُ في الإعجاز كرأي أهل العربية[١] ، فقد سرد في كتابه " الحيوان" طائفة من أنواع العجز إلا أنه لم يسلم من القول بالصرفة فرد أنواع العجز في العلة إلى أن الله صرف أوهام الناس عنها ورفع ذلك القصد من صدورهم، ثم عد منها : « ما رَفَعَ من أوهام العرب وصرف نفوسهم عن المعارضة لقرآنه بعد أن تحداهم الرسول ﷺ بنظمه »[٢].

وظهر أول كتاب في الكلام لمؤلفه علي بن ربن الطبري في خلافة المتوكل (٢٣٢ – ٢٤٧هـ) فظهرت مسألة الأسلوب مبكرة في إعجاز القرآن ظهوراً واضحاً في كتابه " الدين والدولة " الذي يرى فيه أن الوجه المعجز في القرآن هو هدفه الإصلاحي، وتحقيقه هذا الهدف، وأوامره ونواهيه، وإخباره عن الجنة والنار،وأسلوبه الطلي الرائع برغم أمية النبي محمد ﷺ[٣].

بيد أن أول كتاب وضع لشرح الإعجاز وبسط القول فيه على طريقتهم في التأليف إنما هو كتاب " إعجاز القرآن " لأبي عبد الله محمد بن يزيد الواسطي المتوفى (سنة ٣٠٦هـ) وهو كتاب شرحه عبد القادر الجرجاني شرحاً كبيراً سماه المعتضد، وشرحاً آخر أصغر منه[٤].

---

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢ / ١٠٠٤ .

(٢) تاريخ آداب العرب للرافعي ٢ /١٤٧ بتصرف .

(٣) فكرة إعجاز القرآن للأستاذ نعيم الحمصي ص٥٧ ط٢ مؤسسة الرسالة وذكر المؤلف في ص ٧ لهذا الطبري كتاب " الأسلوب والبلاغة " وأن هذا الكتاب لم ترد فيه مادة عجز.

(٤) تاريخ آداب العرب ٢ / ١٥٢ الرافعي .

ويرجح الرافعي كون الواسطي بنى على ما ابتدأه الجاحظ كما بنى عبد القادر في (دلائل الإعجاز) على الواسطي.

ثم وضع المعتزلي أبو الحسن علي بن عيسى الرماني[1]. المتوفى سنة ٣٨٦ هـ كتابه " النكت في إعجاز القرآن " فرفع بذلك درجة ثالثة.

وجاء القاضي أبو بكر الباقلاني المتوفى سنة ٤٠٣ هـ فوضع كتابه "إعجاز القرآن " الذي أجمع المتأخرون من بعده على أنه باب في الإعجاز على حدة[2] والغريب أنه لم يذكر فيه كتاب الواسطي ولا كتاب الرماني، ولا كتاب الخطابي الذي كان يعاصره، وأومأ إلى كتاب الجاحظ بكلمتين لا خير فيهما[3].

والخطابي الأديب اللغوي المحدث أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم البستي، ولد في رجب (سنة ٣١٩هـ) وتوفي في (سنة ٣٨٨هـ) ألف كتابه بيان "إعجاز القرآن" فأفاد فيه وأجاد. وكما لم يذكره الباقلاني لم يذكر هو كذلك من سبقه ولا من عاصره[4].

ومن هذا الذي سبق نجد أن العقول قد يخصبها التضاد، فلولا ما نجم من فكر أعور جرى على ألسنة أصحابه قول بعضهم بالصرفة، وقولُ البعض الآخر بنفي الإعجاز عن القرآن، لما هَمَتْ على أرض

---

(١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص ١٠ .

(٢) من يطالع الكتاب يجده خير شاهد على صحة هذا الإجماع على ما أجمع .

(٣) تاريخ آداب العرب ٢ / ١٥٢ .

(٤) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص ٨ ، ٩ .

القلوب المؤمنةِ بواعثُ التوجه نحو الإعجاز وبيانِهِ، وحجاج النافين له.

لذلك أسفرت هذه المعركة عن أمرين هما مظهران للعناية بوجوه إعجاز القرآن الكريم:

أولهما: أن هذه الكتب التي ألفت لم تدع الإعجاز الذاتي ولا قسيمه دون أن تأخذ من كلٍ بطرف . فحين يعرض بعضها للصرفة وجهاً يراه البعض، نرى وابلاً من الحُجَج الدامغة ينصب فوق الفكرة والقائلين بها ممن لم يعتبرها وجه إعجاز.

ثانيهما: أن هذه الكتب كانت فاتحةً لعلوم البلاغة، ليتسنى لمن لم يكن في عصر القرائح العربية الأصيلة أن ينظر من خلال معارفه البلاغية إلى وجه الإعجاز الذاتي للقرآن الكريم، وهو ما أظل الحِقَبَ المتعاقبةَ على الأمة.

المبحث الثاني: أسس استنباط وجوه الإعجاز وقواعده:

عرّف علماء الكلام المعجزةَ بأنها "أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم من المعارضة" وناقشوا مدلولها كثيراً، وعالجوا شروطها طويلاً، لكن نكتفي بما ذكره القرطبي المفسر في كتابه "الجامع لأحكام القرآن"[1] من شروطٍ لا يصح من دونها الحادث أن يسمى معجزةً وهي:

١- هذا الحادث ينبغي أن يكون مما لا يستطيعه إِلا الله.

٢- أن يخرج على قوانين الطبيعة.

٣- ينبغي أن ينبئ عنه الحكيم قبل أن يقع بأن كذا وكذا سيحصل.

٤- ويجب أن يكون الحادث الواقع موافقاً لما قال مِنْ قبل.

٥- وألا يكون في استطاعة أحد أن يجري مثل هذا الأمر.

هذه هي شروط المعجزة، ولننظر ماذا كان منها متحققاً عندما تلقى العرب القرآن عند أول نزوله. ذلك أنهم دهشوا بما غالبهم عليه القرآن من البيان، وعجزوا مع تحديه لهم مع آياته أو سوره الأولى أن يأتوا بمثله.

عجزوا، ولم يستطع أحد أبداً استبانة أسباب عجزهم مع براعتهم البيانية وقدرتهم الفائقة على الإعراب والبيان المتوارث في الطباع.

لم يقدر أحد على معارضة القرآن، وكانت المجالدة بآلات الحرب أهونَ عليهم من مجادلة القرآن. فلما عجزوا عن معارضته والإتيان

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١/ ٦٩-٧١.

بسورة تشبهه على كثرة الخطباء والبلغاء نادى عليهم بإظهار العجز وإعجاز القرآن لهم فقال: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ ... ﴾ وعاندوا واستهزؤوا فقالوا سحر، وقالوا: شعر، وقالوا: أساطير الأولين، وما كل هذا إلا من التحير، شأن كل عجيب خارق للعادة. حتى قال الوليد بن المغيرة: حين قال له أبو جهل: يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوكه، فإنك أتيت محمداً لتعرض لما قِبَلَه -لما عنده من مال- قال الوليد: قد علمت قريش أني أكثرهم مالا، قال: فقل قولاً يبلغ قومك أنك كاره له، قال وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني، ولا برجزه، ولا بقصيده، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، ووالله إن لقوله الذي يقول لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه، وإنه ليحطم ما تحته، قال: (أي أبو جهل) لن يرضى عنك قومك حتى تقول فيه، قال: دعني حتى أفكر. فلما فكر قال: هذا سحر يؤثر، يأثره عن غيره (أي ينقله عن غيره)[1].

وعجز العرب ولم يتبين أحد وجه عجزهم، ولكنهم عجزوا، وراح كل أحد يضرب في آفاق الفهوم عله يلتقط تعليلاً لهذا الإعجاز المحيط بالقرآن، ولو كان معجزة حسية لاستراحت النفوس بما تدركه بإحدى

---

(١) مستدرك الحاكم: التفسير - تفسير سورة المدثر ٢/٥٠٦.

الحواس، ولكنه معجزة لا تشاهد بغير البصيرة، فما كان للأبصار فصورته واحدة في وقت واحد، وما كان للبصائر فإن تصوراته تنتظم منه صورا عديدة تكثر بكثرة المهتمين بوجوه الإعجاز، فكل وجه عند صاحبه مقبولٌ، لأنه ما قال إلا ما رأى، ولكن هل يؤخذ بقوله أو لا ؟ هذا ما سيشار إليه قريباً إن شاء الله.

وكان لابد من أساس أَوْ جِهَةٍ ينظر من خلالها منفذاً تُرَى منه ملاحة وجوه الإعجاز، وخاض الناس في ذلك كثيراً. فبين مسيء ومحسن. على النحو التالي:

١- عجز البعض عن إدراك الإعجاز في القرآن الدال على الكلام القديم لله تعالى، فزعموا أن التحدي وقع بالكلام القديم الذي هو صفة الذات[١] والصواب ما قاله الجمهور: أنه وقع بالدال على القديم وهو الألفاظ.

٢- ثم زعم النظام -كما قيل عنه- أن إعجازه بالصرفة، أي أن الله صرف العرب عن معارضته، وسلب عقولهم، وكان مقدوراً لهم، لكن عاقهم أمر خارجي، فصار كسائر المعجزات[٢].

قلت: أي كسائر المعجزات الحسية، بأن العرب منعوا مما اعتادوا وسنضرب صفحاً عن مناقشة هذا القول إلى حينه. ولكن ما الأساس الذي بنى عليه هذا القول النظامي غير ما قيل من أنه اكتسبه من المقولة الهندية السابق ذكرها؟

---

(١) الفصل ٣/ ١٥، الإتقان ٢/ ١٠٠٥.

(٢) الإتقان ٢/ ١٠٠٥، بيان إعجاز القرآن ص ٢٢ ثلاث رسائل في إعجاز القرآن.

يقول أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني (ت ٤٧١هـ) في "رسالته الشافية في إعجاز القرآن" : "اعلم أن الذي يقع في الظن من حديث القول بالصرفة أن يكون الذي ابتدأ القول بها ابتدأه على توهم (أن التحدي كان إلى أن يُعَبِّرَ عن أنفس معاني القرآن بمثل لفظه ونظمه، دون أن يكون قد أُطْلِق لهم وخُيروا في المعاني كلِّها)، ذاك لأن في القول بها على غير هذا الوجه أموراً شنيعة، يبعد أن يرتكبها العاقل ويدخل فيها.

ذاك أنه يلزم عليه -أي على القول بالصرفة على غير الوجه الذي ذكره الجرجاني- أن يكون العرب قد تراجعت حالها في البلاغة والبيان، وأنهم قد اعتراهم العجز وخذلتهم القُوى، فإنهم إن قيل بتحول شأنهم من القدرة إلى الضعف لم نُقِمْ عليهم حجة، بل استحال عليهم أن يعلموا أن لنظم القرآن فَضْلاً على كلامهم الذي يسمع منهم، وعلى النظم الظاهر الباقي لهم _ ذاك أن عذر القائل بالصرفة أن كلامهم قبل أن تحدوا قد كان مثل نظم القرآن، وموازياً له وفي مبلغه من الفصاحة.

وإذا كان الأمر كذلك وقد صرفوا فإنه لا يتصور أن يحاولوا، وإذ لم يحاولوا لم يحسوا بالعجز.

بل يلزم أن ينسحب حكم القائلين بنقص العرب في بلاغتهم وبيانهم على بلاغة النبيﷺ وبيانه، وأن تكون النبوة قد أوجبت أن

يُمْنَع شطراً من بيانه، وإلا كان ﷺ قد تلا عليهم آية الإسراء[1] في حال هو يستطيع فيها أن يجيء بمثل القرآن الكريم. اللهم إلا أن يقولوا: إنه كان ﷺ في الأصل دونهم في الفصاحة وأن الفضل والمزية للعرب كانتا لبلغائهم دونه ولم يَشُك أحد بل تواترت الأخبار أنه ﷺ كان أفصح العرب"[2].

ثم قال الجرجاني: بأنه على القول بالصرفة يكون مرجع الإكبار والعجب إلى المنع الذي فيه الآية والبرهان لا إلى الممنوع منه وهو القرآن.

وحسب الجرجاني فضلاً أن لا يقبل الصرفة وجهاً للإعجاز، ولكن كونه بنى أساسَ وقوع القول بالصرفة على ظن أفضى به إلى فرض لم يكن، فإن العرب علموا أن لنظم القرآن فضلاً على كلامهم الذي يسمع منهم، ومعلوم أنه قد حاول بعضهم، ولكن باء بالخيبة والخذلان، وظلت المحاولات في القرون التالية كما قيل عن ابن الراوندي وعبد الله بن المقفع والمعري وغيرهم.

وما مَنْعُهُمْ عن مماثلة القرآن بمانع لهم من كلامهم الخاصِّ البليغ، ولا من عِلْمِ فضل القرآن على كلامهم، فليس على هذا الأساس -يقينا- بنى القول بالصرفة، فإن النفوس لا يعلم محتواها إلا الله.

---

(١) ﴿قل لئن اجتمعت...﴾ الآية، (الإسراء: ٨٨).

(٢) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن - الرسالة الشافية ص ١٢٦ إلى ص ١٤٨ بتصرف.

٣- والذاهبون إلى أن إعجازه من جهة البلاغة في القول الذي اختص به القرآن وهم الأكثر من علماء النظر، يعلل منهم الخطابي هذا الوجه بقوله: "وقد استقرينا أوصافه(١) الخارجة عنه، وأسبابه الثابتة منه، فلم نجد شيئاً منها يثبت على النظر، أو يستقيم في القياس ويطرد في المعايير، فوجب أن يكون ذلك المعنى مطلوباً من ذاته، ومستقصى من جهة نفسه، فدل النظرُ وشاهدُ العبرِ على أن السببَ له والعلةَ فيه أن أجناسَ الكلام مختلفة، ومراتبها في نسبة التبيان متفاوتة، ودرجاتها في البلاغة متباينة غير متساوية، فمنها:

١- البليغ الرصين الجزل.

٢- ومنها الفصيح الغريب السهل.

٣- ومنها الجائز الطلق الرسل.

وهذه أقسام الكلام الفاضل المحمود دون النوع الهجين المذموم، الذي لا يوجد في القرآن شيء منه ألبتة.

فالقسم الأول أعلى الكلام وأرفَعُه، والقسم الثاني: أوسطه وأقصده، والقسم الثالث أدناه وأقربه.

---

(١) (لعذوبة الكلام في حس السامع والهشاشة في نفسه، وما يتحلى به من الرونق والبهجة التي يباين بها سائر الكلام حتى يكون له هذا الصنيع في القلوب والتأثير في النفوس فتصطلح من أجله الألسن على أنه كلام لا يشبهه كلام وتحصر الأقوالُ عن معارضته وتنقطع به الأطماع عنها، أمر لا بد له من سبب، بوجوده يجب له هذا الحكم، وبحصوله يستحق هذا الوصف). ثلاث رسائل في الإعجاز بيان إعجاز القرآن للخطابي ص ٢٥، ٢٦.

فحازت بلاغات القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصة، وأخذت من كل نوع من أنواعه شعبة، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتي الفخامة والعذوبة، وهما على الانفراد في نعوتهما كالمتضادين. لأن العذوبة، نتاج السهولة، والجزالةَ والمتانة في الكلام تعالجان نوعا من الوعورة.

فكان اجتماع الأمرين في نظمه مع نبو كل واحد منهما على الآخر فضيلة خص بها القرآن"[1].

ثم يضيف الخطابي بعد ذلك بقليل مقوماتِ الكلام أو أركانَه بقوله: "وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة: لفظ حامل، ومعنى قائم به، ورباط لهما ناظم، فالقرآن ألفاظه أفصح وأجزل وأعذب الألفاظ، ومعانيه تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها، والترقي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها،ولا ترى نظماً أحسنَ تأليفاً وأشدَّ تلاؤماً وتشاكلاً من نظمه.

ولا تجتمع هذه الفضائلُ الثلاثةُ في كلام واحد، بل على التفرق في أنواع الكلام، وجَمَعَهَا كلام واحد هو كلام الله"[2].

والسيوطي في إتقانه[3] يروي قولاً للأصبهاني في تفسيره نصه:

---

(١) بيان إعجاز القرآن للخطابي ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص ٢٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٧ بتصرف .

(٣) الإتقان ٢ / ١٠١٠.

"وبيان كون النظم معجزاً يتوقف على بيان نظم الكلام، ثم بيان أن هذا النظم مخالف لنظم ما عداه فنقول: مراتب تأليف الكلام خمس:

الأولى: ضم الحروف المبسوطة بعضها إلى بعض لتحصل الكلمات الثلاث: الاسم، والفعل، والحرف.

والثانية: تأليف هذه الكلمات بعضها إلى بعض لتحصيل الجمل المفيدة. وهو النوع الذي يتداوله الناس جميعاً في مخاطباتهم وقضاء حوائجهم. ويقال له المنثور من الكلام.

الثالثة: ضم بعض ذلك إلى بعض ضماً له مَبَادٍ ومقاطعُ، ومداخلُ ومخارجُ ويقال له: المنظوم.

الرابعة: أن يعتبر في أواخر الكلام مع ذلك تسجيع ويقال له المسجع.

الخامسة: أن يجعل له مع ذلك وزن ويقال له الشعر، والمنظوم: إما محاورة ويقال له الخطابة وإما مكاتبة ويقال له الرسالة.

فأنواع الكلام لا تخرج عن هذه الأقسام، ولكلٍ مِنْ ذلك نظمٌ مخصوص، والقرآن جامع لمحاسن الجميع على نظم غير نظم شيء منها.

يدل على ذلك أنه لا يصح أن يقال له: رسالة، أو خطابة، أو شعر، أو سجع كما يصح أن يقال هو كلام".

ولعل الخطابي قصد وصف الألفاظ وتعاطيها المعاني، والأصبهاني قسم الكلام وأنواعه، والاثنان لا يغني أحدهما عن الآخر.

والسكاكي في "مفتاح العلوم" يرى أن إعجاز القرآن يدرك، ولا يمكن وصفه، ولا يدرك تحصيله لغير ذوي الفطرة السليمة إلا بإتقان علمي المعاني والبيان والتمرين فيهما(١).

وعجائب القرآن في نظمه هي التي بعثت على التصنيف في علوم البلاغة بعد أن ذاق أصحاب الفطر السليمة جملا من حلاوة هذا الكتاب، فَقَعَّدوا لعلوم نظم الكلام قواعِدَهُ، يضاف إليها كلَّ حين ما يُفَصِّلُ مجملها، حتى صارت البلاغة بعلومها الثلاثة علماً قائماً بذاته على نحو ليس هذا مجال ذكره (٢).

هذا من حيث ما يتعلق باللفظ ومعناه القريب الدائر مع كل قارئ متدبر للقرآن الكريم . وفيه جميع آياتِ القرآن على سواء.

أما من حيث المعنى المستحدَث فهو الخاص بآيات معينة تمس وصفاً لظاهرة علمية كدلائل على قدرة الله تعالى، أو تحتمل وصفاً لظاهرة كونية.

ومثال الأولى: ما جاء في القرآن من آيات التقاء البحرين دون أن يبغي أحدهما على الآخر، وخروج اللؤلؤ والمرجان منهما، فهذا المعنى يدور في فهم كل قارئ للقرآن منذ نزوله وحتى قيام الساعة، وحين

---

(١) الإتقان ٢ / ١٠١١، ومفتاح العلوم ص ٥١٢، ٥١٣ .

(٢) في قضية الإعجاز القرآني وأثرها في تدوين البلاغة العربية د. عبد العزيز عبد المعطي عرفة طبعة دار الكتب ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م ذكر المؤلف أن خفاء المشبه به في قوله تعالى: ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَـٰطِينِ ﴾ (الصافات: ٦٥)، كان سبباً في تأليف كتاب مجاز القرآن لأبي عبيدة .

يقول الله في شأن البحرين: ﴿ . . . وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا . . . ﴾ (فاطر: ١٢) فإنه يقع عليها فهمان، فهم قريب : وهو أن الله يُظْهر مِنَّته على عباده إذ جعل لهم لحماً طرياً من البحرين، والفهم الأعمق: هو أن اللحم من البحر الملح ليس فيه ملح بل اللحمان مع اختلاف بيئتهما بينهما وصف جامع هو عدم الملوحة فيهما.

ومثال الثانية: الآيات التي نقل معناها القريب بالتأويل إلى تفسيرات للظواهر الكونية مُوافِقة للنظريات العلمية التي درج الأخذ بها في تفسير هذه الظواهر.

والنوع الأخير يتوقف الأخذ به على تفهم النظريات خارج ألفاظ القرآن، ثم يعمد أصحاب هذا الشأن إلى البحث في آيات القرآن عما يتفق وهذه النظريات من القرآن .

ومن هذا النوع حَمْلُ بعضِ الآيات على نبوءات قرآنية دون أن تصرح هذه الآيات بإخبار بغيب ماض أو مستقبل، ومبنى هذين النوعين التأويل المحتمل لبعض الآيات.

أما الإخبار عن الغيبيات مما انطوت عليه دون غيره من الألفاظ فهذا يعد في حكم المعنى القريب للألفاظ.

وراح آخرون يبحثون علاقات الآيات والسور، حتى وجدوا تناسباً يجعل القرآن ذا وحدة موضوعية، والبعض قصد إلى اللفظ من حيث كونه لفظاً مكرراً كالذي بنيت عليه وجوه الإعجاز العددي للقرآن

الكريم. سواء كان اللفظ مقابِلاً لآخر أو كان عدد الألفاظ مضاعفات لرقم معين. أو كان العدد لألفاظ آية أو جزء آية مقابِلاً لألفاظ آية أخرى أو جزئها أو الجزء الثاني للآية ذاتها.

هذا مجمل عناية المسلمين بوجوه الإعجاز من حيث ابتناء عنايتهم على الأسس التي سبقت الإشارة إليها مدفوعين إلى رعاية حق القرآن عليهم بالذود عن حماه من طغاة الفكر وغلاة المتعالمين الحمقى.

وسيأتي بيان مظاهرَ من هذه العناية على نحو آخر في الصفحات التالية، والله تعالى هو الملهم للصواب، وهو ولي التوفيق.

الفصل الثاني
مظاهر العناية بوجوه الإعجاز

قد سبقت الإشارة إلى السبب الذي اقتضى توجه العلماء نحو البحث في وجوه إعجاز القرآن الكريم، وما كان اهتمامهم إلا بمنزلة الرد على هذه الآراء السخيفة التي تطعن في القرآن، فالقول بالصرفة لولاه لكان لنا اليوم كتب ممتعة في بلاغة القرآن وإعجازه اللغوي وما إلى ذلك[1] فوق ما هي عليه الآن، ولكنها إن كانت قد أوهنت في هذا عَزْماً فإنها أشعلت عزائم، سواء في الرد عليها، أو في بيان وجوه الإعجاز القرآني، وكان المخرج منها مدخلاً لعلوم كثيرة من القرآن الكريم أهمها البلاغة، وما اكتفى المسلمون بذلك بل كلما امتد الزمن برزت على سنيه ناطقاتٌ بوجوه إعجازٍ ما قِيلَتْ من قبل. فكانت وجوه ذاتية، وأخرى علمية، بل من مظاهر عناية المسلمين من تعد مؤلفاتهم تأريخاً لهذا الإعجاز.

لذا كانت مباحث هذا الفصل متناولة الرد على الوجوه المختلف فيها، ثم بيان وجوه الإعجاز الذاتي للقرآن وذلك على النحو التالي:

المبحث الأول: الصرفة والرد على القائلين بها:

وجوه الإعجاز تختلف في قبولها اختلافاً يقتضي تقسيمها إلى

---

(١) تاريخ آداب العرب ٢/ ١٤٦، إعجاز القرآن للرافعي.

وجوه مختلف فيها، ووجوه مجمع عليها، ووجوه مشروط قبولها. وبيان الثالث في الفصل الرابع إن شاء الله.

والصرفة منذ قال بها أو جاهر بإعلانها النظام المعتزلي كما نسبت إليه، يصوبه في القول بها قوم ويعارضه آخرون، ويرى البعض لها وجهاً غير ما قاله النظام من أنها صرف الله للعرب عن معارضة القرآن مع قدرتهم عليها.

وممن شايعه في القول بالصرفة -لكن على معنى آخر- الشريف المرتضى من الشيعة[١] (ت ٤٣٦هـ) الذي قال عنه الرافعي: إنه قال في معنى الصرفة: "إن الله سلبهم العلوم التي يُحتاج إليها في المعارضة ليجيئوا بمثل القرآن فكأنه يقول إنهم بلغاء يقدرون على مثل النظم والأساليب ولا يستطيعون ما وراء ذلك مما لبسته ألفاظ القرآن من معان، إذ لم يكونوا أهل علم ولا كان العلم في زمنهم" ورد الرافعي بقوله: "وهذا رأي بَيِّنُ الخلط".

نعم إنه خلط، إذ محاولة فهمه تصرفه عن معنى الصرفة التي سيق هو لبيانها.

وممن ذكر الصرفة الأصبهانيُّ في تفسيره[٢] لكن ذكره على سبيل الحكاية ولذلك اشترَط الاعتبار بقوله: إذا اعتبر.

---

(١) تاريخ آداب العرب ٢/ ١٤٤، إعجاز القرآن للرافعي، وفكرة الإعجاز ص ٦٩.

(٢) الإتقان ٢/ ١٠٠٩، ١٠١٠.

وابن حزم الأندلسي (ت ٤٥٦هـ) الظاهري أحد القائلين بالصرفة في كتابه الفصل[١] مفسراً إياها بقوله: "لم يقل أحد من أهل الإسلام إن كلام غير الله تعالى معجز، لكن لما قاله الله تعالى وجعله كلاماً له أصاره معجزاً، ومَنَع مِنْ مماثلته، وهذا برهان كافٍ لا يحتاج إلى غيره والحمد لله".

وعقب الرافعي[٢] بقوله: "بل هو فوق الكفاية وأكثر من أن يكون كافياً، لأنه لما قاله ابن حزم وجعله رَأياً لَهُ أصاره كافياً لا يحتاج إلى غيره..! وهل يراد من إثبات الإعجاز للقرآن إلا إثبات أنه كلام الله تعالى". والخطابي بعد أن عد الصرفة مذهبَ قومٍ قال[٣]: "وليس ينظر في المعجزة إلى عظم حجم ما يأتي به النبي ﷺ ولا إلى فخامة منظره، وإنما تعتبر صحتها بأن تكون أمراً خارجاً عن مجاري العادات ناقضاً لها، فمهما كانت بهذا الوصف كانت آية دالة على صدق من جاء بها. وهذا أيضاً وجه قريب. -أي القول بالصرفة- إلا أن دلالة الآية تشهد بخلافه، وهي قوله تعالى: "﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ... ﴾" (الإسراء: ٨٨) فأشار في ذلك إلى أمرٍ طريقُه التكلف والاجتهاد وسبيله التأهب والاحتشاد. والمعنى في الصرفة التي وصفوها لا يلائم هذه الصفة، فدل على أن المراد غيرها، والله أعلم".

---

(١) الفصل ٣/١٩.

(٢) تاريخ آداب العرب ٢/١٤٦.

(٣) ثلاث رسائل في الإعجاز ص ٢٢، ٢٣.

وترى الخطابي قد قرب وجه الصرفة بدءاً ثم أقصاه انتهاء، ثم انتهى إلى أن الوصف الذي حملوه على الصرفة لا يلائم الوصف الوارد في الآية من أنهم إن اجتمعوا واحتشدوا لا يأتون بمثله، لا إن افترقوا فدل على أن المراد من الآية غير ما ذهب إليه القائلون بالصرفة.

وعدّ العز بن عبد السلام الصرفة وجهين من وجوه الإعجاز[1] فأوردها على معنيين، **أولهما**: صرفهم عن القدرة على معارضته، **وثانيهما**: صرفهم عن معارضته مع قدرتهم عليها وحرصهم على إبطاله.

وأبو الحسن علي بن عيسى الرماني (٢٩٦- ٣٨٦هـ) قال في كتابه النكت: بعد سوق الصرفة كأحد وجوه الإعجاز: وهذا عندنا أحد وجوه الإعجاز التي يظهر منها للعقول "وهو أن الصرف عن المعارضة خارج عن العادة كخروج سائر المعجزات التي دلت على النبوة".

والقول بالصرفة يفسده ويدحضه قول الله تعالى " ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ... ﴾" (الإسراء : ٨٨). ولا يجْهزُ على وجهيه معا قوله تعالى حكاية عن أهل الفصاحة العربية أنهم قالوا: " ﴿... قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ... ﴾" (الأنفال : ٣١). فإنه دل على عجزهم مع بقاء قدرتهم، ولو سلبوا القدرة لم يبق لهم فائدة لاجتماعهم، لمنزلته

(١) الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز، الناشر المكتبة العلمية بالمدينة المنورة ص٢٧١.

منزلة اجتماع الموتى[1] والإجماع منعقد على إضافة الإعجاز إلى القرآن، فكيف يكون معجزاً بلا اتصاف بإعجاز؟.

وإذا كانوا قد صرفوا أول زمان التحدي فهل يدوم هذا مع القرآن لدوام التحدي أو كان عند نزوله ؟، إن كان الأول، فقد أقدم البعض على قبول التحدي ولم تقم لكلامه قائمة إلا من حيث يذكر في الخاسرين المغلوبين، وإن كان زمان النزول فهو الآن خلو من الإعجاز، ومن الذي أتى بشيء من مثله فيما بعد العصر الأول ؟ لا أحد، والإجماع على عجز المعارضة له يشهد بأنه معجزة باقية.

ويقول القاضي أبو بكر الباقلاني[2]: "لو كان الإعجاز بالصرفة لكان المعجز المنع لا القرآن فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره في نفسه".

والرافعي يقول[3]: "وعلى الجملة فإن القول بالصرفة لا يختلف عن قول العرب فيه: "﴿ ... إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ (المدثر: ٢٤) وهذا زَعْمٌ ردَّه الله على أهله وأكذبهم فيه وجعل القولَ به ضَرْباً من العمى ﴿ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ (الطور: ١٥) فاعتبر ذلك بعضه ببعضه فهو كالشيء الواحد".

ويقول الجرجاني[4]: "إن من حق المنع إذا جُعِلَ آية وبرهاناً ولا سيما

(١) الإتقان ص ١٠٠٦.

(٢) إعجاز القرآن للباقلاني ص ٤٧ والإتقان للسيوطي ص ١٠٠٦.

(٣) تاريخ آداب العرب ٢ / ١٤٦.

(٤) الرسالة الشافية ثلاث رسائل في الإعجاز ص ١٥٣، ١٥٤ .

للنبوة أن يكون في أظهر الأمور وأكثرها وجوداً وأسهلها على الناس وأخلقها بأن تُبين لكل رَاءٍ وسامع أن قد كان مُنِع، لا أن يكون المنع من خفي لا يُعْرَف إلا بالنظر وإلا ببعد الفكر ومن هذا شيء لم يوجد قط، ولم يعهد، وإنما نظن ظناً أنه يجوز أن يكون وأنَّ له مدخلاً في الإمكان إذا اجتهد المجتهد.

ولو كانوا قد تغيرت حالهم وتبدل عِيُّهُم بالبلاغة والبيان لعلموا ذلك من أنفسهم، ولقابلوا التحدي بقولهم للنبي ﷺ كيف نُمْنَع ثم يكون التحدي على حالنا".

ولم يملك أحد معرفة كيف عجزوا، لكنهم عجزوا، وما عجزهم إلا عن ضعفهم عن بلوغ رتبة القرآن، وأين في كلامهم ما يؤيد ويؤكد أنهم كانوا في بلاغتهم على درجة تمكنهم من معارضة القرآن والإتيان بمثله قبل أن يصرفوا؟.

المبحث الثاني: بيان جملة وجوه الإعجاز الذاتي للقرآن:

من الممكن وضع وجوه الإعجاز تحت تقسيم يرجع في أصله إلى معطيات المعاني من الألفاظ. فإن الألفاظ –من حيث كونها حاملة للمعاني على الوصف الذي سبق ذكره آنفاً– يطرد فيها الإعجازُ في جميع آيات القرآن الكريم بما تحمله من خصائصَ بيانيةٍ، وهذه النظرة اللغوية تنتظم القرآن في قطعة قطعة منه وفي سورة سورة، وفيما بين السور وبعض، وفى القرآن كله جملة[1].

والإعجاز اللغوي هو الذي وقع من جهته التحدي بالقرآن جملة وتفصيلاً أما من حيث الإعجاز العلمي –أي ما يعطيه من علوم– فهذا العطاء يتوقف على سلامة الفهوم، واستنارة الحلوم، وهذا ما يجعله مصلحاً لكل زمان ومكان.

ومن حيث إعجازه الإصلاحي التهذيبي الاجتماعي فهو ينسق بين طبائع البشر بما لا يجعل لقويها طغياناً على ضعيفها، إذ يخاطب في كل حال بمقتضاه خطاباً يستوثق به الوصول إلى المخاطبين في كل حين وحال.

والإعجاز الذاتي هو الذي يستبق الفهمُ الصريح إلى نظمه، أما ما عدا ذلك فلا يطرد في جميع القرآن.

فإخباره بالغيبيات ماضيها ومستقبلها، تنطق به آيات دون آيات، ووجوه الإعجاز العلمي سواء ما كان منها طِبِّياً أو كونيا كظواهِرَ لها

---

(١) النبأ العظيم ص ١٠٧.

من النظريات تفسير تَبْرُز به معان مستجدة للقرآن الكريم يكون في آيات منه دون آيات، أما من حيث الإِعجاز العددي فهو بلا شك يدخل في إِطار الإِعجاز الذاتي؛ لأن الألفاظ من أول نزول القرآن إِلى آخر يوم يُقرأ فيه هذا القرآن لم ولن يمسها نقص أو زيادة، مع أنه إِعجاز غير مطرد في كل الآيات ولذلك تنقسم أوجه الإِعجاز إِلى ثوابت ومتغيرات، وهذه الثوابت تنقسم إِلى: ثوابتَ مطردةٍ عامةٍ في كل الآيات والسور، وثوابتَ ينقدح وجودها في آيات دون آيات.

أما المتغيرات فهي كل ما يمس أصلاً من أصول النظريات العلمية التي تقحمت على الإِنسان مداخل فكره، فراح يصوب منها بعضَها بما يُلْهَم به من فكر فيستوضح بها معنى لآية أو آيات.

فالنص القرآني في نفسه من حيث هو كلام عربي، له وجه يتعلق به وهو اللغوي البياني، أو ما يسمى بالنظم، ووجه يتعلق بمفهوم النص القرآني ولو تأويلاً من كل ما يستنبط منه أصول أو مفاتيح للعلوم، ويقصد بالمؤول ما يؤول إِليه فهم النص بعد استدراكه من خارج القرآن الكريم وثبت أنه من الحقائق العلمية التي لا تنقض.

وهناك وجه يتعلق بالنص من حيث المبالغة في معناه لإِيجاد التوافُقِ أو التوفيق بينه وبين سائر النظريات التفسيرية لبعض الظواهر في هذا الكون الفسيح، واختط الثلاثة سبيلاً واحداً هو إِقامة البرهان على أن هذا الكلام لم يقله بشر وإِنما هو من عند الله.

والنوعان الأخيران برز أولهما أولَ ما بَرَزَ أولُ الثلاثة وامتد معه على سبيل واحدة، حتى رافقهما في الآونة الأخيرة النوع الثالث، ليعلن الثلاثة بقاء قيام التحدي مع البرهان لكل الخلق على صدق كلام الخالق حتى تقوم الساعة، وأنه ما ينبغي لبشر أن يقوله، ولعل هذا مفاد قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ...﴾ (فصلت: ٥٣) وتتلخص الخصائص التي تبرهن على أن القرآن من عند الله في أمور ثلاثة[١]:

أولاً: إعجاز القرآن.

ثانياً: نبوءات القرآن.

ثالثاً: القرآن والكشوف الحديثة.

وهذا التقسيم يوافق قول ابن القيم: "وقد عدد العلماء وجوهاً من الإعجاز غير ما ذكرناه الأَوْلَى أن تعد من خصائصه"[٢].

وعلى هذا يترجح أن تكون الثوابت التي هي من لوازم النص القرآني في كل آياته وفى كل عصر، هي المعتبرة في وجه الإعجاز، وما عدا ذلك يعد من خصائص القرآن الكريم.

فمن حيث نبوءات القرآن لا نجد غير القرآن الكريم ما تحققت نبوءاته حرفاً حرفاً، والنبوءات لا شك تبدأ من القرآن أولاً، لا من الواقع ثم

(١) الإسلام يتحدى لوحيد الدين خان ط دار البحوث العلمية ص ١٢٣، ١٢٧، ١٣٨.

(٢) الفوائد المشوق إلى علم القرآن وعلم البيان لابن القيم ص ٢٥٥.

يصدق الواقع النبوءات فيما بعد، فمثلا في قوله تعالى: ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ (القمر: ٤٥) هذه نبوءة قبل وجود الجمع حتى قال بعضهم متعجباً: أي جمع هذا، ثم تحقق الوعد للمسلمين والوعيد للكافرين واستبان للمتعجب أي جمع قصد إليه القرآن يوم وعدهم بالنصر، وكل الآيات التي أطلق عليها أنها آيات علمية والتي أبانت عن مضمونها اكتشافات علمية أو ظواهر كونية، إنما برز المعنى في خارج القرآن ثم استفيد من الخارج المعنى الذي أضفى منه على هذه الآيات، ولذلك يقول الله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ ولذا لا تدخل هذه الآيات في إطار الإعجاز وإن دخلت في جملة البراهين على أن القرآن من عند الله.

الفصل الثالث
العناية ببيان وتمييز وجوه الإعجاز

المبحث الأول: ما يعتبر من وجوه للإعجاز ويعول عليه:

يؤلف تناول وجوه الإعجاز عبر القرون الإسلامية تكاملاً مباشراً وغير مباشر في منظومة الدراسات القرآنية. ولذلك يكثر التشابه بين محتويات المؤلفات في هذا الخصوص، خلا بعض ما يفارق منها المعهود بامتداد جديد إلى آفاق أرحب. والمحصلة الأخيرة هي القصد المشترك بين الجميع إلى إخراج جملة من سرائر القرآن تقيم برهان صدق دعوى النبي الأميﷺ أنه أوحي إليه هذا القرآن.

والخطابي يؤكد تعذر معرفة وجه الإعجاز في القرآن، وأن ذلك الأمر -الإعجاز- أبين من احتياجه إلى دليل أكثر من الوجود القائم المستمر على وجه الدهر. من لدن نزوله على النبيﷺ وإلى ما شاء الله.

يقول سليمان الخطابي[1]: "قد أكثر الناس الكلام في هذا الباب قديماً وحديثاً، وذهبوا فيه كل مذاهب من القول، وما وجدناهم بَعْدُ صدرُوا عن رِي، وذلك لتعذر معرفة وجه الإعجاز في القرآن ومعرفة الأمر في الوقوف على كيفيته.

فأما أن يكون قد بقيت في النفوس بقية بكونه معجزاً للخلق ممتنعاً

---

(١) بيان إعجاز القرآن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص ٢١.

عليهم الإتيان بمثله على حال[1] فلا موضع لها.

"والذي عليه الجمهور والحذاق وهو الصحيح في نفسه أن التحدي إنما وقع بنظمه وصحة معانيه وتوالي فصاحة ألفاظه ﴿ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ... ﴾ (هود: ١٤) فوجه إعجازه أن الله أحاط بالكلام كله علماً، فأي لفظة تصلح أن تلي الأولى وتبين المعنى بعد المعنى كانت كما وردت في القرآن الكريم.

فلو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسنُ منها لم يوجد ونحن تَبَيَّنَ لنا البراعةُ في أكثره، ويخفى علينا وجهُها في مواضع لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ في سلامة الذوق وجودة القريحة وميز الكلام[2]".

ولقد كثر الأخذ والرد في الوقوف على وجه إعجازي محدد للقرآن في ذاته ككلام، وما استقر لأحد مَقَاماً حتى أقام فيه آخرُ اعتراضاً أحاله دون مُقَامِه، و ما استرد هذا لنفسه قولاً حتى محاه ذاك الآخر، فصار البحث عن وجه الإعجاز هو بذاته وَجْهَ الإعجاز، إذ الحيرة في الثبات على حقيقة أمر، برهان العجز عن الوصول إلى هذه الحقيقة، فانكشف لذي العلوم الكونية بيان القدرة في إحكام النواميس الكونية والقوانين التي تسير وفقها الأغراض الخَلْقِيَّة، فأخذ المسلمون -العلماءُ منهم

(١) أي على وجه إعجاز معين.

(٢) المحرر الوجيز لابن عطية ١/ ٥٢.

بهذه المجالات- وجهاً لشبه الرؤية بمعنى آيات قرآنية استراحت له نفوسهم، واستهدت له قلوبهم، وراق رواؤه لظمأ اشتباه المعاني عليهم، فعرضوا ما اقتبسوه من نظرة العلماء في الكون على محتملات الألفاظ في آيات قرآنية، فنازعهم منه توافق بين المعنى القرآني والعلمِ الحديث، سواء كان على نحوٍ مطيع ذلول، أو نحوه مُكْرَهٍ مسوق بالافتعال.

والناظر في كتب الإعجاز العلمي للقرآن لن يجد غير التكرار، اللهم إلا ما اشتمل عليه بعضها مما وقف عليه مؤلفوها من فائدة جديدة علموا بها فاستأثر ببدء إبدائها صاحبها فأفاد منها خَلَفه.

والآيات القرآنية التي تحوي جُمَلاً من الاحتمالات المعنوية لألفاظها هي التي تُوسِعُ المضمار للسائرين القادرين على اقتناص التوافق العلمي مع المعنى القرآني لبعض الآيات، أما ما كان محدَّد الفهم، محكم المعنى، فهي الآيات التي لا يخرج تفسيرها عن الحقائق العلمية، لذا كانت تلك الآيات منطلقاً لفهم الحقائق الكونية على نحو ما وصف الحكيم الخبير في كلامه، ومن جملة ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ... ﴾ (النور: ٤٥). وقوله تعالى: ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ (الشورى: ٤٩، ٥٠) فالله أنزل القرآن بعلمه الذي علم عن خلقه، قدير لا يأتي أحد بغير ما وصف،

ولن يزيد أحد على ما خلق الله قسماً خامساً فوق هذه القسمة لصور الهبة الإلهية، والآية الأولى كالثانية فيها تحد بالقدرة الإلهية، فالله خلق الدواب من ماء ولكن الإنسان يصنع الدواب -كوسائل المواصلات وغيرها الآن- من غير الماء، فهل من البشر من يقدر على الخلق من الماء؟ أو أن يخص كل دابة بماء؟.

المبحث الثاني: وجه أو وجوه الإعجاز؟

لكي نتمكن من تمام المطابقة بين مفهوم الإعجاز ووجوه تحسب من الإعجاز، لابد من استصحاب شرائط المعجزة مع تعريفها المُتَصَوَّر في الذهن، إذ قد مرت بنا كثرة من توزيعات الرؤية حول أمر قد يكون واحدا، والحال أن كل شيء في الدنيا تكثر صوره بكثرة الرائين، فلكل واحد زاوية خاصة ينظر من خلالها، حتى يبدو للجميع توحد وتوافق فيما لم يقم برهان واحد على التماثل التام بين وجهين من الوجوه.

واختلاف وجهات الرؤية أوحت باستقصاء الآراء في وجوه الإعجاز حتى قيل: إن بعضهم أنهى وجوه إعجاز القرآن الكريم إلى ثمانين وجهاً[1] ولا مناص من تبين حقيقتين للمتكلم في إعجاز القرآن، وأن يفصل بينهما فصلاً ظاهراً لا يلتبس، وأن يميز أوضح التمييز بين الوجوه المشتركة التي تكون بينهما، وهاتان الحقيقتان العظيمتان هما:

أولهما: أن"إعجاز القرآن" كما يدل عليه لفظه وتاريخه، وهو دليل النبي ﷺ على صدق نبوته، وعلى أنه رسول من الله يوحى إليه هذا القرآن، وأن النبي ﷺ كان يعرف "إعجاز القرآن "من الوجه الذي عرفه منه سائر من آمن به من قومه العرب، وأن التحدي الذي تضمنته آيات التحدي إنما هو تحد بلفظ القرآن ونظمه وبيانه لا بشيء خارج عن ذلك.

---

(١) معترك الأقران للسيوطي ١ /٥.

ثانيهما : أن إثبات دليل النبوة، وتصديق دليل الوحي، وأن القرآن تنزيل من عند الله كما نزلت التوراة والإنجيل والزبور وغيرها من كتب الله سبحانه لا يكون منها شيء يدل على أن القرآن معجز.

والخلط بين هاتين الحقيقتين، وإهمال الفصل بينهما في التطبيق والنظر، وفي دراسة " إعجاز القرآن " قد أفضى إلى تخليط شديد في الدراسة قديماً وحديثاً[1].

والقرآن كان ينزل على النبي ﷺ منجماً، وكان الذي نزل عليه أول أمر الوحي قليلاً، فكان هذا القليل من التنزيل هو برهانه على نبوته، وهذا القليل دليل على أن تاليه عليهم، وهو بشر مثلهم، نبي من عند الله مرسل.

فإذا صح هذا، وهو صحيح لا ريب فيه، ثبت أن الآيات القليلة من القرآن ثم الآيات الكثيرة، ثم القرآن كله، أي ذلك كان في تلاوته على سامعه من العرب، الدليل الذي يطالبه بأن يقطع بأن هذا الكلام مفارق لجنس كلام البشر وذلك من وجه واحد، هو وجه البيان والنظم[2] وإذا كان الأمر على هذا النحو فإن سائر ما يورده المتقدمون والمتأخرون من وجوه الإعجاز لا ينسحب عليه في الحقيقة عدُّه وجهاً من وجوه

---

(١) الظاهرة القرآنية مالك بن نبي فصل في إعجاز القرآن مقدمة الكتاب بقلم الأستاذ/ محمود محمد شاكر ص ١٧، ١٨ .

(٢) الظاهرة القرآنية ص ٢١ .

الإعجاز، إذ التمحيص والبحث والإنعام في التوافق بين الإعجاز في معناه المجرد وبين الوجه المسوق لهذا الإعجاز يستجلي انفصام العلاقة بينهما على نحو ما.

وبعض هذه الوجوه تكمن في حيازته وتضمنه الكثير من الآيات التي تحمل أسراراً يعجز عن سبر أغوارها عصر أو عصور متتالية، وفرق بين العجز عن إدراك محتواه وبين الإتيان بمثله ولو كان المأتي به مفترى.

والمعجزة خرق العادة، ولم يخرق القرآن عادة عربية في غير نظمه وبيانه، ولم يقل أحد إن كشفَ خفاءِ دقائقِ العادة خرقٌ لها، إذ بُدُو الموجود وبروزه إلى العيان لا يعني خرقاً لعادة.

والأنبياء لهم من خرق العادات ما يؤيد صدق دعواهم للنبوة والرسالة، وليس ما يبدو من آثار لقدرة الله في الكون معجزةً قرآنية، إذ لو كانت لامتد منها برهان عند اللحظات الأولى لنزول الوحي لتقوم في وجه الكافرين برهاناً على أن القرآن من عند الله . أما وأنه قد تأخرت رؤية التطابق بين آي الكون وآي القرآن فلا يمكن القول بأن مثل هذا كان وجهاً بادياً للعرب عند تحديهم.

والآيات البارزة في الكون دليل على أن للكون إلهاً، وذلك هو المقصود الأوحد والأول من الدعوة إلى النظر في السموات والأرض.

ويقول الزملكاني برجوع وجه الإعجاز إلى التأليف الخاص بالقرآن لا مطلق التأليف، بأن اعتدلت مفرداته تركيباً وزنة، وعلت مركباته

معنى، بأن يوقع كل فن في مرتبته العليا في اللفظ والمعنى[1].

ويؤكد الخطابي[2] تعذر معرفة وجه الإعجاز في القرآن، ولكنه يقول[3]: "قلت في إعجاز القرآن وجهاً آخر ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم، وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس".

وبهذا يتبين أنه قد يلوح للبعض ما أثر في نفسه واستقر من جملة عطاء القرآن ما يحسبه وجهاً للإعجاز، ولابد من التمييز بين الوجه والتوجيه في دراسة الإعجاز لدرك الصواب.

والدكتور البوطي يقول في كتابه من روائع القرآن[4]: "إذا رأيت من إذا تلا القرآن تأثر به قائلا : إن هذا الكلام لا يمكن أن يصدر عن بشر فاعلم أنه متفاعل مع هذا الوجه الأخير -يريد به مظهر جلال الربوبية- ولا يتجلى الإعجاز إلا لقلب لم تخنقه أغشية الكبر والعناد".

ولا يمكن حمل العادة التي يتخلف معهودها على كونها من الناظر، بل هي في المنظور، فمن استظهر أمراً لا يكون هو محل المعجزة، نعم قد يكون منه غير ما اعتيد، لكن الشيء الذي استبان فيه الوجه الجديد لم يتحول عما كان عليه قبل ظهور ما خفي منه من قبل، اللهم

---

(١) البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن ط ١٣٩٤هـ، ص ٥٤.

(٢) بيان إعجاز القرآن ص ٢١.

(٣) بيان إعجاز القرآن ص ٧٠.

(٤) من روائع القرآن الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ص ١٦٠.

إلا إذا انفرد هذا الناظر بهذا البيان وحده دون غيره، فإنه يكون قد أتى بما يعجز عنه غيره، وحينئذ تتعلق المعجزة بشخصه مباشرة.

والخصائص التي يهتدى من خلالها إلى أن القرآن كلام الله تعالى كما أوردها وحيد الدين خان في كتابه " الإسلام يتحدى " تمكننا من الزحزحة ولو قليلاً نحو اعتبارات تؤكد عدم قصر وجوه الإعجاز في النظم والبيان، شريطة أن يكون المنطلق في كل وجه يحتسب للإعجاز منطلقاً قرآنياً بحتاً، بحيث لا نضفي من خارج النص ما يسمح بالربط بين ما هو خارج النص من ظواهر كونية وكشوف علمية حديثة وبين إشارات وتلميحات قرآنية، فمثل هذا لا يعدو أن يكون توجيهاً لا وجهاً للإعجاز.

وهذه الخصائص -وقد سبق ذكرها- وهي: إعجاز القرآن، ونبوءاته، والقرآن والكشوف الحديثة -أي العلاقة بين القرآن والكشوف الحديثة- براهين ثابتة الدلالة على أن محمداً ﷺ رسول من عند الله، ولكن بعضها لا يمكن اعتباره وجهاً للإعجاز.

فالنبوءات لا يلزم صدورها عن نبي أو كتاب منزل عليه من ربه، والشواهد على ذلك كثيرة، والكشوف الحديثة أولَ ما تبرزُ معالِمُها لا تكون في القرآن بل يكون بدء العلم بها من خارج القرآن، ثم يعالَجُ التوافق بتغيير المفهوم القرآني ليتفق مع ما تجلى من كشفيات علمية حديثة.

والنبي محمد ﷺ خالف في قدره السامي عند ربه جماعة الأنبياء، فكانت له المعجزة الحسية بخرق العوائد ثم عودتها إلى ما عهد منها من قبل وكانت منه نبوءات تحقق منها ما وعد به أو توعد. وكل هذا كان بعيداً عن القرآن ليسجل على الناس جميعاً أن هذا النبي يحمل دلائل نبوته على نحو ما كان عليه الأنبياء من قبل وله فضل زيادة بقاء المعجزة الخالدة في القرآن الكريم.

وحين يوقفنا القرآن الكريم على مشاهد آثار القدرة الإلهية في الكون يؤكد ضرورة ابتعاث رسل خاصة من نفوسنا تشاهد إعجاز القدرة الإلهية في كون الله ليتجدد الإقرار بأن لا إله إلا الله ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْأٓيَٰتُ ...﴾ (يونس: ١٠١)، وهو تعجيز لقدرة البشر لا لكلامهم. ولا يتصور أن يخلو كتاب سماوي من إخبار بغيوب سواء منها ما كان ماضياً، أو مستقبلاً، أو حاضراً مكانياً، ومع هذا لم ينل حظَّ الإعجاز كتابٌ غير القرآن الكريم.

ولا بد من الإبقاء على الوجه الأول الذي وُوجِه بِه العربُ عند تحديهم، فما كان لهم في أول الأمر من علم بما صارت عليه بوارق المعاني المستوحاة من خارج النص القرآني كنص عربي.

لكل هذا كان الكلام بما يحمل من خصائص اللغة العربية هو مبعث رؤية الإعجاز عند العرب جميعاً.

ومن العجيب أن لكل عصر لغة تَسِمُهُ بخَواصِّ التعبير عن مكنونات النفوس، ولذلك يبدو جَلِياً كثير من وجوه افتراق الكلام على امتداد الزمن، وإن كان هذا الاختلاف في لغة واحدة.

وإذا نَظَرْتَ في كتب مختلفةٍ أزمانُ تصنيفها تَفَتَّقَ لك وضوحُ فوارِق عدة، تميز عصرا عن عصر، وكلاماً عن كلام، والقرآن وحده لم تغيره السنون، واختلاف الفنون، لكن الإدراك أو الذوق هو الذي يختلف في كل حين عن سابقه.

ولابد من معرفة أمور تُحَدَّدُ على أساسها صحة كون الوجه إعجازاً قرآنيا وهذه الأمور(١):

الأول: أن قليل القرآن وكثيره في شأن الإعجاز سواء.

الثاني: أن الإعجاز، كائن في وصف القرآن وبيانه ونظمه، ومباينة خصائصه للمعهود من خصائص كل نظم وبيان في لغة العرب. ثم في سائر لغات البشر، ثم في بيان الثَّقَلَيْنِ جميعاً، إنسهم وجنهم متظاهرين، والله عز وجل لم يقصر التعجيز عن الإتيان بمثل القرآن على الإنس والجن لأن الملائكة تقدر على الإتيان بمثله، ولكن لأن الرسالة كانت إلى الإنس والجن، فوقع التحدي للفريقين، حتى إذا عجزُوا كان عجزُهم دلالةً على أن النبيﷺ عاجز مثلهم فيظهر بذلك أنه لم يأت بالقرآن من عند نفسه، وإنما أتى به من عند الله.

"فأما الملائكة فلم يتحدوا عن ذلك، لأن الرسالة إذا لم تكن إليهم لم يكن القرآن حجة عليهم، فَنَبِّئوا أكانوا قادرين على مثله أو

---

(١) الظاهرة القرآنية ص ٢٤، ٢٥ .

عاجزين؟ وهم عندنا عاجزون[1] وليس الإتيان بمثل القرآن من قلب المدائن، والإتيان بالتابوت في شيء، لأن قلب المدينة وحمل التابوت العظيم كالذي يوصف من تابوت بني إسرائيل لقصور قواهم عنه -قوى بنى إسرائيل- فإذا زادت قوة الملك على قوة الآدمي أضعافاً مضاعفة زاد علمه أيضاً لذلك.

وأما نظم القرآن فإنه ليس من جنس نظم كلام الناس، ولكنه مباين لهذا فلا يُهْتَدى إليه فَيُحْتَذَى ويُمَثَّل، فهو كتركيبِ الجواهرِ غيرِ الأجسامِ لتصيرَ أجساماً، ولا على قلب الأعيان ولا يقدرون عليه من ذلك، والملائكة لا يقدرون عليه كذلك. وفي ذلك ما أبان أن نظم القرآن ليس من عند جبريل لكنه من عند اللطيف الخبير".

وأضيفُ أنه ما كان التحدي إلا مواجهة لإنكار كون القرآن من عند الله، ولا يتصور أن يكون من الملائكة مثل ذلك الإنكار، وبالتالي لا يتصور مجابهتهم بالتحدي ﴿ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (البقرة: ٣٢).

الثالث: أن الذين تحداهم بهذا القرآن قد أوتوا القدْرةَ على الفصل بين الذي هو مِنْ كلام البشر، والذي هو ليس من كلامهم.

الرابع: أن الذين تحداهم به كانوا يدركون أن ما طولبوا به من الإتيان بمثله، أو بعشر سور مثله مفتريات، هو هذا الضرب من البيان الذي يجدون في أنفسهم أنه خارج من جنس بيان البشر.

---

(١) كتاب المنهاج في شعب الإيمان للحليمي ١/ ٣١٩.

الخامس: أن هذا التحدي لم يُقْصَدْ به الإتيان بمثله مطابقاً لمعانيه، بل أن يأتوا بما يستطيعون افتراءه واختلاقه، من كل معنى أو غرضٍ مما يعتلج في نفوس البشر.

السادس: أن هذا التحدي للثقلين جميعاً إنسهم وجنهم متظاهرين تحد مستمر قائم إلى يوم الدين.

السابع: أن ما في القرآن من مكنون الغيب ومن دقائق التشريع ومن عجائب آيات الله في خلقه، كل ذلك بمعزل عن هذا التحدي المفضي إلى الإعجاز، وإن كان ما فيه من ذلك كله ما يعد دليلا على أنه من عند الله، ولكنه لا يدل على أن نظمه وبيانه مباين لنظم كلام البشر وبيانهم، وأنه بهذه المباينة كلامُ رب العالمين لا كلام بشر مثلهم.

أرأيت كلاما يحمل مكنون الغيب ودقائق التشريع وعجائب الآيات في الخلق يكون لأجل ما يحمل معجزاً؟

نعم.. إن القرآن حين يقرر الحقائق لا ينزع إلى تحويرها أحدٌ أبداً، وما كان ذلك ليكون لولا أن قائله هو العزيز الحكيم، فكل ما يصدر عن الله تعالى يلازمه دوام التصديق من الكون شاهداً على قدرة الخالق جل وعلا.

لذا كان لزاماً أن تطْرَحَ كل الوجوه ما عدا ما تعلق منها بذاتية القرآن كلاماً عربياً، والوجه الذاتي بلا شكٍ لا يفارق الذات أصلا، فالكلام من حيث هو كلام منبعٌ لإعجاز القرآن.

المبحث الثالث: مظهر العناية بجمع وجوه الإعجاز:

لما كان البحث متعلقاً بعناية المسلمين بوجوه الإعجاز كان إيراد ما عدَّ منها ضَرُورِيَّ الذكر وإن لم يلزم قبولها كلها، ومهما يكن من شيء فإن كثيراً من العلماء أثروا الدراسات القرآنية برؤاهم الفاحصة في وجوه الإعجاز، يتفرسون في كل وجه ما تستنطق منه أمارات الفوارق الواضحة بين كلام الله وكلام البشر، أو يوجهون نحو النصوص ما يلائم احتمالها وجهاً يقال إنه وجهُ إعجاز.

وجدير بالذكر أن ما يتعلق بالإعجاز من هذه الوجوه لا يبايِنُ بَيْنَ قدرةِ الله وقدرةِ الخَلْق وبين علمه تعالى وعلمهم، وبين إرادته وإرادتهم، ولكن تساق هذه الوجوه لتسجيل التباين التام بين كلام الله تعالى وكلام البشر، بغض النظر عما يحمله الكلام من موضوع. فالقرآن معجز من حيث إنه كلام.

ومع هذا... فهؤلاء بعض الذين أماطوا اللثام عن رؤية وجوه الإعجاز حسب ما عنَّ لهم منها، وإن كان البعض قد قَصَرَهَا على النظم اعتقاداً فقد زاد عليه سرداً وإيراداً.

ومن جملة من عُنُوا بجمع وجوه الإعجاز وبيانها الشيخ السيوطي في "معتركه" حيث حوى مؤلَّفهُ خمسةً وثلاثين وجهاً، هي بحق

أكثر ما أحصى كتاب مما شاء الله اطِّلاَعِي عليه من مؤلفات في هذا الشأن، ولهذا آثرت الابتداء به، لاستغراقه جُلَّ ما ورد في غيره من الوجوه.

ومعترك الأقران يَضُم هذه الوجوه متناولاً إياها بالتحليل والتمثيل والبيان، وما يتعلق بكل منها من سائر ما عرض له المتقدمون، وهذه الوجوه هي:

١- احتواء القرآن على علوم ومعارف لم يجمعها كتاب من الكتب، ولا أحاط بعلمها أحد في كلمات قليلة وأحرف معدودة ﴿ ... مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ... ﴾ (الانعام: ٣٨) ﴿ ... وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ... ﴾ (النحل: ٨٩).

٢- كونه محفوظاً عن الزيادة،والنقصان، ومحروساً عن التبديل والتغيير على تطاول الأزمان بخلاف سائر الكتب قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر: ٩) فلم يقدر أحد بحمد الله على التجاسر عليه.

٣- حسن تأليفه، والتئام كلمه وفصاحتها، ووجوه إيجازه وبلاغته الخارقة عادة العرب، وأسلوبه الغريب مخالفاً لأساليب العرب، ولم يوجد قبله ولا بعده نظيره.

٤- مناسبة آياته وسوره، وارتباط بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقَةَ المعاني منتظمة المباني.

وقد ألف العلامة أبو جعفر بن الزبير شيخُ أبي حيان في أسرار

التناسب كتاباً سماه "البرهان في مناسبة ترتيب سور القرآن" وألف برهان الدين البقاعي "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور".

وأول من سبق إلى هذا العلم الشيخ أبو بكر النيسابوري.

٥- افتتاح السور وخواتمها، وهو من أحسن الوجوه وأكملها كالتحميدات وحروف النداء والهجاء وغير ذلك. وخواتم السور مثل الفواتح في هذا الحسن، فلهذا جاءت متضمنة للمعاني البديعة مع إيذان السامع بانتهاء الكلام.

٦- مشتبهات آياته، بأن ترد القصة في سور شتى وفواصِلَ مختلفة.

٧- ورود مشكله حتى يوهم التعارض بين الآيات.

٨- وقوع ناسخه ومنسوخه.

٩- انقسامه إلى محكم ومتشابه.

١٠- اختلاف ألفاظه في الحروف وكيفيتها.

١١- تقديم بعض ألفاظه وتأخرها في الموضع.

١٢- إفادة حصره واختصاصه.

١٣- احتواؤه على جميع لغات العرب وبلغة غيرهم من الفرس.

١٤- ورود بعض آياته مجملة وبعضها مبينة.

١٥- عموم بعض آياته وخصوص بعضها.

١٦- الاستدلال بمنطوقه ومفهومه.

١٧- وجوه مخاطبته.

١٨– ما انطوى عليه من الإِخبار بالمغيبات.

١٩– إِخباره بأحوال القرون السالفة.

٢٠– روعته وهيبته.

٢١– أن سامعه لا يمجه.

٢٢– تيسير الله حفظَه وتقريبَه على متحفظيه.

٢٣– وقوع الحقائق والمجاز فيه.

٢٤– تشبيهه واستعاراته.

٢٥– وقوع الكناية و التعريض.

٢٦– إِيجازه وإِطنابه.

٢٧– وقوع البدائع البليغة فيه.

٢٨– احتواؤه على الخبر والإِنشاء.

٢٩– إِقسام الله تعالى في مواضع لإِقامة الحجة وتأكيدها.

٣٠– اشتماله على أنواع البراهين والأدلة.

٣١– ضرب الأمثال فيه.

٣٢– ما فيه من الآيات الجامعة للخوف والرجاء.

٣٣– ورود آيات مبهمة يحارُ العقل فيها.

٣٤– احتواؤه على أسماءِ الأشياء والملائكة والكُنَى والألقاب وأسماء القبائل والبلاد والجبال والكواكب.

٣٥ ـ ألفاظه المشتركة.

ومعلوم أن بعض هذه الوجوه قد يشترك فيها كل كلام، ولكن القرآن قد نال منها الدرجة العليا التي تعزب عن طاقة البشر، وما عد السيوطي الصرفة وجها في كتابه الموسوم بمعترك الأقران في إعجاز القرآن وإن كان قد ساق من الحديث طرفاً عنها في الإتقان.

وبناء على ما تقدم من بيان ما يعد وجه إعجاز وما لا يعد، فإن هذه الوجوه التي أوردها السيوطي لا تدخل جميعُها في مفهوم الإعجاز وإن عدت من خصائص القرآن.

ولتقف على ما قرره الإمام أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد علي السكاكي في "مفتاح العلوم" من أن الإجماع منعقد على أن القرآن الكريم معجز، ولكن اختلف قارعو باب الاستدلال في وجه الإعجاز على النحو التالي[1]:

١- منهم من يقول: إن الله صرف بمشيئته المتَحَدَّيْنَ مع قدرتهم فيما بينهم في نفس الأمر. ويرد السكاكي هذا القول بأن التعجب على هذا القول يلزم أن يكون من تعذر المعارضة لا من نظم القرآن.

٢- ومنهم من يقول: وجه الإعجاز ورود القرآن على أسلوب مبتدأ مباين لأساليب كلام العرب في خطبهم وأشعارهم، ولاسيما في مطالع السور ومقاطع الآي .

---

(١) مفتاح العلوم ص ٥١٢، ٥١٣ .

ويرد السكاكي بأنه لو كان ابتداء أسلوب يستلزم تعذر الإتيان بالمثل لاستلزم ابتداء الخطبة والشعر كونه معجزاً، إذ لا شبهة في أنها مُبْتَدَءَاتٌ تعذر الإتيان بمثلها، ولكن شيئاً من ذلك لم يكن معجزاً فاللازم مُنْتَفٍ.

٣- ومنهم من يقول: وجه إعجاز القرآن سلامته من التناقض.

ويرد بأن هذا يستلزم كون كل كلام إذا سلم من التناقض وبلغ مقدار سورة من السور أن يُعَدَّ معارضة . واللازم منتف بالإجماع.

٤- ومنهم من يقول: وجه الإعجاز الاشتمالُ على الغيوب.

ويرد بأن هذا القول يستلزم قصر التحدي على السور المشتملة على الغيوب دون ما سواها واللازم بالإجماع أيضا منتف .

فهذه أقوال أربعة: يخمسها ما يجده أصحاب الذوق من أن وجه الإعجاز هو أمر من جنس البلاغة والفصاحة.

ولا طريق لك إلى هذا الخامس إلا طول خدمة عِلْمَي المعاني والبيان بعد فضل إلهي من هبة يهبها بحكمته من يشاء، وهى النفس المستعدة لذلك، فكل مُيَسَّر لما خلق.

ثم يشير السكاكي إلى أنه لا استبعاد في إنكار هذا الوجه ممن ليس معه ما يطلع عليه. ثم يقر بما كان هو عليه مِنْ مِثْلِ ذلك الإنكارِ بقوله: "فَلَكَمْ سحبنا الذيل في إنكاره، ثم ضممنا الذيل ما إنْ

نـنـكِرُه، فله الشكـر الجـزيل على مـا أولى و له الحـمـد في الآخـرة والأولى"[1].

ومن قبل يوُصِي السكاكي مخاطَبه قائلا: "وأن لا تتجاذَبْك أيدي الاحتمالات فِي وجه الإعجاز"[2].

وممن أسهم في العناية ببيان وجه الإعجاز القاضي الباقلاني[3] (٣٣٨هـ - ٤٠٣هـ) وهو متكلم أشعري، أجمل وجوه الإعجاز في ثلاثة[4]:

١- أنه يتضمن الإخبار عن الغيوب وذلك يعجز عنه البشر.

٢- أنه كان معلوماً أن النبي ﷺ أمي لا يكتب ولا يُحْسِن أن يقرأ، ثم أتى بجملة ما وقع وحدث من عظيمات الأمور ومهمات السِّيَرِ مِنْ خَلْق آدم إلى حينِ بعثه.

٣- أنه بديع النظم عجيب التأليف متناه في البلاغة إلى الحد الذي يُعْلَمُ عَجْزُ الخلق عنه.

وبديع نظمه المعجزِ يتضمن وجوهاً:

أ- ما يرجع إلى الجملة، فنظمه على تصرف وجوهه واختلاف مذاهبه خارج عن المعهود وليس بالسجع ولا بالشعر.

---

(١) مفتاح العلوم ص ٥١٣ .

(٢) مفتاح العلوم ص ٥١١ .

(٣) هو القاضي أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم الباقلاني البصري.

(٤) إعجاز القرآن للباقلاني ص ٥٠ وما بعدها .

ب- أنه ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة والتصرف البديع والمعاني اللطيفة وغير ذلك على هذا الطُّولِ والقدر.

ثم ذكر الرجل طرفاً من وجوه اختلاف كلام البشر عن كلام الله تعالى مُتَنَاوِلاً الكلمةَ القرآنية وموقعَها في تضاعيف الكلام البشري كأنها درة في سلك من خرز أو ياقوتة في واسطة عقد، ثم تعرض للحديث عن أوائل السور من حروف الهجاء باسطاً فيها قوله بما يناسب مَقَامَ العرض لها.

ثم ذكر أن بعض أصحابه يرون أن علل الأحكام مُوَافِقَةً لمقتضى العقل يُعَدُّ وجه إعجاز، وقرر أن مثل ذلك الاستحسان الذي يولع به أهلُ خراسانَ لا يستقيم عند الأصل الذي يبنون عليه مثل هذا.

وأخيرا يقول: "ولا نقول إن وجه الإعجاز في نظم القرآن أنه حكاية عن الكلام القديم".

ويقول الرماني[1]: "وجوه الإعجاز تظهر من جهات ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة، والتحدي للكافة، والصرفة، والإخبار عن الأمور المستقبلة، ونقض العادة، وقياسه بكل معجزة".

وأراد بنقض العادة تفرد القرآن بطريقة خرجت عن عادة كلام العرب وتفوق كل طريقة.

وأراد بقياسه بكل معجزة أن سبيل فلق البحر وقلب العصا حية سبيل واحد في الإعجاز إذ خرج عن العادة فَصَدَّ الخلق عن المعارضة.

---

(١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن " ذخائر العرب ١٦ " النكت في إعجاز القرآن للرماني ص ٥٧.

والقاضي عياض[1] في كتابه الشفا حين تعرض لإعجاز القرآن في فصله يرى أن القرآن مُنْطَوٍ على وجوه من الإعجاز كثيرة، وتحصيلها من جهة ضبط أنواعها في أربعة وجوه:

الأول: حسن التأليف، والتئام كَلِمِهِ، وفصاحتُه، ووجوه إيجازه، وبلاغته الخارقة عادة العرب.

الثاني: صورة نظمه العجيب، والأسلوب الغريب المخالف لأساليب العرب.

الثالث: ما انطوى عليه من الإخبار بالمغيبات، وما لم يكن ولم يكن ولم يقع، فَوُجِدَ كما وَرَدَ على الوجه الذي أخبر.

الرابع: ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة والأمم البائدة، والشرائع الدائرة. ثم زاد عليها الروعة التي تلحق القلوب والهيبة التي تعتري سامعيه،وكونه آية باقية تَكَفَّلَ الله بحفظه.

ولابن سنان الخفاجي[2] نوع إسهام في بيانه سِرَّ الفصاحة حيث قصد إلى تأليف كتابه لسببين ذَكَرَهُمَا كثمرةٍ وفائدة تحصل لمن وَعَى هذا الكتاب، وواحد هذين السببين وإحدى الثمرتين من جهة العلوم الشرعية، حيث المعجز الدالُّ على نبوة نبينا محمدﷺهو القرآن.

والخلاف الظاهر فيما كان به معجزاً على قولين:

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض ط صبيح ١/٢١٧-٢٣٧ بتصرف.

(٢) سر الفصاحة لعبد الله محمد بن سعيد بن سنان - أبو أحمد الخفاجي الحلبي ص ١٣، ١٤.

أولهما: أنه خَرَقَ العادةَ بفصاحته، ومن ذهب إلى هذا لابد له من بيان ما الفصاحة التي وقع التزايد فيها موقعاً خرج عن مقدور البشر.

ثانيهما: أن وجه الإعجاز: صرف العرب عن معارضته مع أن فصاحة القرآن كانت في مقدورهم لولا الصرف والقائل بهذا يحتاج كذلك إلى معرفة الفصاحة ليقطع على أنها كانت في مقدورهم.

والشيخ رحمت الله الهندي في كتابه "إظهار الحق"[1] أسهم في سبيل الدفاع عن القرآن بحظ لا ينكر، وذكر أن الأمور التي تدل على أن القرآن كلامُ الله كثيرةٌ اكتفى منها باثني عشر أمراً، ثم بَيَّنَ الشيخ في الأمر الثالث كَوْنَ القرآن منطويا على الإخبار على الحوادث الآتية فوجدت على الأيام اللاحقة على الوجه الذي أخبر، فساق اثنين وعشرين شاهدا قرآنيا على ذلك. من ذلك آية سورة الروم التي هي مطلع السورة، فأورد ما قاله أحد القسيسين مَنْ سماه الشيخ بصاحب "ميزان الحق" في الفصل الرابع من الباب الأول من هذا الميزان من أنه "لو فرضنا صدق ادعاء المفسرين أن هذه الآية نزلت قبل غلبة الروم الفرس فنقول إن محمداً ﷺ قال بظنه أو بصائب فكره لتسكين قلوب أصحابه، وقد سُمِعَ مثلُ هذه الأقوال من أصحاب العقل والرأي في كل زمان" فردَّ الهندي قوله بوجهين:

الأول: أن تحديد الزمان ببضع سنين لا يتأتى من عاقل ادعاء قطعيا بوقوع أمر فيه.

---

(١) إظهار الحق لرحمت الله الهندي ٢ / ٦١ وما بعدها .

الثاني: أن العادة جرت أنه ليس كل ما يقوله العقلاء يقع جميعه، بل يتخلف بعض ما ادَّعَوْا وقوعَه فيما يستقبل من الزمان، فمن كَذَبَ على الله تعالى وافترى حقيق على الله تعالى أن يباعد بَيْنَ ما يقول وصحة هذا القول.

وفي "الإتقان" للسيوطي[1]: قال المراكشي في "شرح المصباح": الجهة المعجزة في القرآن تعرف بالتفكر في تأدية المعنى، وعن تعقيده، وتعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه لمقتضى الحال.

لأن جهة إعجازه ليست مفردات ألفاظه، وإلا لكانت قبل نزوله معجزة ولا مجرد تأليفها، ولا مجرد أسلوبه، وإلا لكان الابتداء بأسلوب الشعر معجزاً -والأسلوب الطريق-: ولكان هذيان مسيلمة معجزاً، ولأن الإعجاز يوجد دونه -أي الأسلوب- في نحو ﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا... ﴾ (يوسف: ٨٠). ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ... ﴾ (الحجر: ٩٤)، ولا بالصرف عن معارضتهم، لأن تعجبهم كان من فصاحته ولأن مسيلمة وابن المقفع والمعري وغيرهم قد تعاطوها[2] فلم يأتوا إلا بما تمجه الأسماع وتنفر منه الطباع ويضحك منه في أحوال تركيبه، وبها -أي بتلك الأحوال- أعجز البلغاء وأخرس الفصحاء.

فعلى إعجازه دليل إجمالي: وهو أن العرب عجزت عنه وهو بلسانها

---

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، ص ١٠٠٨، ١٠٠٩.

(٢) الناظر في كتب هؤلاء الذين اتهموا بالمعارضة لا يجد ما يثبت ذلك عنهم.

فغَيْرُهَا أحرى، ودليل تفصيلي : مقدمته التفكر في خواص تركيبه، ونتيجته العلم بأنه تنزيل المحيط بكل شيء علماً" .

والإمام عبد القاهر الجرجاني(١) يرى أن النظم ليس شيئاً غير توخي معاني النحو وأحكامه فيما بين الكلم، وإلا كان من أعجب العجب أن يزعم زاعم أنه يطلب المزية في النظم ثم لا يطلبها في معاني النحو وأحكامه التي النظم عبارة عن توخيها فيما بين الكلم، وذلك يقتضي دخولَ الاستِعارة والكنايةِ والتمثيل وسائرِ ضروب المجاز وغير ذلك من مقتضيات النظم وعنها يحدث وبها يكون، إذ لا يتصور أن يدخل شيء منها في الكلم وهي أفراد لم يُتَوَخَّ فيما بينها حكمٌ من أحكام النحو.

وطريق المزية المطلوبة في هذا الباب الفِكْرُ والنظر من غير شبهة، ومحال أن يكون لِلَّفْظِ صفة تستنبط بالفكر، ويستعان عليها بالروية، ولا يعد الإعراب من الوجوه التي تظهر بها المزية، لأن العلمَ به مشترك بين العرب كلهم، ولا يستنبط بالفكر ويعان عليه بالروية، فليس أحدهم بأعلم من الآخرين برفع الفاعل.

وإنما تقع الحاجة إلى العلم بما يوجب الفاعلية للشيء إذا كان إيجابها من طريق المجاز كقوله تعالى: ﴿ ... فَمَارَبِحَت تِّجَرَتُهُمْ ... ﴾ (البقرة: ١٦) وأشباه ذلك مما يجعل الشيء فيه فاعلاً على تأويل يدق، ومن طريق يلطف، وليس يكون هذا عِلْماً بالإعراب ولكن

---

(١) دلائل الإعجاز للجرجاني ص ٣٠٠.

بالوصف الموجب للإعراب، والغرض من القول بأن الفصاحة في المعنى دون اللفظ: أن المزية التي من أجلها استَحَق اللفظُ الوصفَ بأنه فصيح، عائدة في الحقيقة إلى معناه، وهي تظهر في الكلم من بعد أن تدخل الكلمة النظم، وإذا أفردت لم تَرُمْ فيها نظماً ولا مزية لها، فوجب العلم قطعاً وضرورة أن تلك المزية في المعنى دون اللفظ.

وفي "الإشارة إلى الإيجاز"[1] للعز بن عبد السلام وجوه ذكر منها: صرف العرب عن المعارضة مع قدرتهم عليها وحرصهم على إبطاله، أو صرفهم عن القدرة على معارضته.

وابن جزي الكلبي في كتاب "التسهيل لعلوم التنزيل"[2] ساق وجوها عشرة من وجوه الإعجاز من بينها ما فيه من التعريف بالباري جل جلاله، وذكْرِ صفاته وأسمائه وما يجوز عليه وما يستحيل والدعوة إلى عبادته وإقامة البراهين، والرد على الكافرين.

ومن كل ما سبق نتبين أنه لم يسلم من الرد غير النظم وجهاً لإعجاز القرآن الكريم ، ولا يتصور خلو الآيات الأولى من النظم حال نزولها على النبي ﷺ أول بدء الوحي.

وهذه الآيات قد بدأ بها الوحي التحدي واطرد ذلك التحدي إلى آخر ما نزل من القرآن الكريم، ولا يسلم لوجه واحد الدوران في جميع القرآن الكريم غير النظم.

---

(١) كتاب الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز للعز بن عبد السلام ص ٢٧١.

(٢) كتاب التسهيل لعلوم التنزيل ص ١٤.

ولو لم يكن التحدي بمحض النظم لم يكن للقرآن أن يتحدى بشيء مثلِه مفترًى، والافتراء الكذب، والكذب لا يطابق الواقع نفياً أو إيجاباً، فليس المراد من معارضتهم حين التحدي أن تكون صادقة بل أن تكون كنظم القرآن وإن كان المعنى الذي تحمله كلماتُه مفترًى . فما بالهم قالوا افتراه وأعجزهم عن الإتيان بمثله مفترى؟

والمجال أعمق وأفسح من أن يسرد من خلال هذه الصفحات، ولكنها مجرد أمثلة من إسهامات المسلمين توضح مدى اهتمامهم على مد الزمن الإسلامي وإلى يومنا هذا، وهذا التناوب في تناول مثل هذه الأمور بالدراسة يؤكد كرم عطاء القرآن لكل عصر حسب ما يتفق له من فهوم، سواء ما كان منها من خصائص القرآن أو من وجوه إعجازه حقاً .

المبحث الرابع: مؤلفات في الإعجاز الذاتي للنص القرآني

أوردت في هذا الفصل بعضاً من المؤلفات مما يتعرض لوجوه الإعجاز أو اعتنى بها على نحو من الأنحاء وهذه المؤلفات هي:

١- من روائع القرآن الكريم - الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي.

٢- تاريخ آداب العرب ج ٢، لمصطفى صادق الرافعي.

٣- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن - للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني.

٤- الشفا بتعريف حقوق المصطفى - للقاضي عياض.

٥- بصائر ذوي التمييز - للفيروزآبادي.

٦- الجامع لأحكام القرآن - للقرطبي.

٧- فكرة إعجاز القرآن منذ البعثة حتى عصرنا الحاضر - لنعيم الحمصي.

٨- قضية الإعجاز القرآني - للدكتور عبدالعزيز عبد المعطي عرفة.

٩- كتاب التسهيل لعلوم التنزيل - لمحمد بن أحمد بن جزي الكلبي.

١٠- الكشاف - للزمخشري.

١١- منهاج البلغاء وسراج الأدباء وملحق به - لأبي الحسن حازم القرطاجني.

١٢- كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق المجاز- ليحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي.

١٣- معترك الأقران في إعجاز القرآن - للسيوطي.

١٤- الإتقان في علوم القرآن - للسيوطي.

١٥- نِعْمَ الوجيز في إعجاز القرآن العزيز - للشيخ الشاب العلامة عبد العزيز أحمد البرهاروي، وهذا الكتاب نشر جُمْلَةً ضِمن مجلة المجمع العربي الباكستاني رئيس التحرير د. ظهور أحمد أظهر.

١٦- الإعجاز البياني للقرآن - للدكتورة عائشة عبد الرحمن "بنت الشاطئ".

١٧- النبأ العظيم - للدكتور محمد عبد الله دراز.

١٨- مفتاح العلوم - للإمام أبي يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد ابن علي السكاكي.

١٩- إعجاز القرآن - للقاضي أبى بكر محمد بن الطيب محمد جعفر ابن القاسم الباقلاني البصري.

٢٠- كتاب المنهاج في شعب الإيمان - لأبي عبد الله الحسين بن الحسن الحليمي.

٢١- المعجزة الكبرى - للإمام محمد أبي زهرة.

٢٢- معجزة القرآن الكريم - للشيخ محمد متولي الشعراوي.

٢٣- القرآن معجزة ومنهج - للشيخ محمد متولي الشعراوي.

٢٤- الملل والنحل - للشهرستاني.
٢٥- الفصل في الملل والنحل - لابن حزم الأندلسي.
٢٦- إظهار الحق - لرحمت الله الهندي .
٢٧- التفسير الكبير مفاتيح الغيب - لفخر الدين الرازي.
٢٨- البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن - لكمال الدين عبد الواحد بن عبدالكريم الزملكاني.
٢٩- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - للإمام برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي.
٣٠- البرهان في علوم القرآن - لبدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي.
٣١- الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم - للدكتور محمد محمود حجازي.
٣٢- سر الفصاحة - لعبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان -أبي أحمد- الخفاجي الحلبي .
٣٣- دلائل الإعجاز - للإمام مجد الإسلام أبي بكر عبد القاهر بن عبدالرحمن محمد الجرجاني.
٣٤- فتح البيان في مقاصد القرآن - لأبي الطيب صديق القنوجي.
٣٥- القصور العوالي "مجموعة رسائل" - لأبي حامد الغزالي.
٣٦- مقالات الإسلاميين - لأبي الحسن الأشعري.

٣٧- تفسير المراغي - لأحمد مصطفى المراغي.

٣٨- الفوز الكبير في أصول التفسير - للإمام ولي الله الدهلوي، نقله عن الفارسية سليمان الحسيني الندوي.

٣٩- رسائل تحت عنوان أحدث تفسير لآيات القرآن الكريم، لعبدالغني محمد.

٤٠- التفسير البياني للقرآن الكريم - للدكتورة عائشة عبد الرحمن "بنت الشاطئ".

هذه بعض دراسات الإعجاز القرآني على أنحاء متعددة، منها ما انفرد بالحديث عن الإعجاز واختص به، ومنها ما تناوله في أحد فصوله، ومنها ما كان تأريخاً له، ومنها ما تناول الوجوه بالبيان أو بالنقد، ومنها ما كان عاماً في دراسته الإعجاز، أو ما كان مختصاً بوجه منها.

الفصل الرابع
من مظاهر العناية بوجوه الإعجاز

المبحث الأول : الإعجاز العلمي للقرآن الكريم :

كثرت في الآونة الأخيرة وبالتحديد عبر القرنين الماضيين أو دونهما دراسات خرجت من ذاتية الإعجاز النفسي للقرآن إلى صور أخرى من الإعجاز لا تتأتى بغير التأويل البعيد لبعض آيات القرآن الكريم .

"ومعجزة القرآن تختلف عن معجزات الرسل السابقين في كثير من زوايا الإعجاز، وللقرآن إعجاز لا يتنبه إليه العقل إلا بعد أن ينشط ويكتشف المستور عنه من حقائق الكون وأسراره، حينئذ يتبين أن للقرآن وجوهَ إعجازٍ أخرى أو جديدة تزيد في معنى الإعجاز أو تعطي أبعاداً جديدة لما يقال"(١) .

هذا ما قرره الشيخ الشعراوي من أن ابتداء تنبه المسلم إلى وجه إعجازي قد لا يتأتى من القرآن مباشرة، بل ينبع رفده من الكون ويبزغ بريقه من أسرار هذا الكون سواء ما كان بالفكر العقلي المجرد أو بواسطة ما يتوصل به إلى غموض هذه الأسرار من وسائل .

ويقول الشيخ : " فإذا انتقلنا إلى الاختراعات الحديثة نجد أنها

(١) معجزة القرآن محمد متولي الشعراوي ١ / ٢٣ .

اكتشاف لقوانين الكون"[1] وفي صفحة أخرى يقول الشيخ[2] "إن القرآن لم يأت ليعلمنا أسرار الوجود ولكنه أشار إليها وسجلها ليظهر الإعجاز الإلهي للناس في كل عصر ومع تقدم العلم البشري... على أن ربط القرآن الكريم بالنظريات العلمية شيء لا يجب أن يحدث، فالقرآن لا تُربَطُ صحتُه باتفاقه مع نظرية علمية أيا كانت، ولكن العلم هو الذي يستمد صحته وبيانه إذا اتفق مع آيات القرآن الكريم، فكل علم مخالِف لحقائق القرآن هو علم زائف، لأن قائل القرآن هو الله سبحانه وتعالى وخالق الكون هو الله سبحانه وتعالى".

والأستاذ فوزي شعبان مترجم كتاب أصل الإنسان بين العلم والكتب السماوية لمؤلفه دكتور موريس بوكاي في مقدمة الترجمة يقول[3]: "وقد احتوى القرآن الكريم على آيات بينات في العلوم الطبيعية أخرجها الأستاذ يوسف مروة في كتاب "العلوم الطبيعية في القرآن الكريم" وبلغت (٧٧٤) آية بالتحديد ومفصلة كما يلي: الرياضيات ٦١، الفيزياء ٢٦٤، الذرة ٥، الكيمياء ٢٩، النسبية ٦٢، الفلك ١٠٠، المناخيات ٢٠، المائيات ١٤، علم الفضاء ١١، علم الحيوان ١٢، علم الزراعة ٢١، علم الأحياء ٣٦، الجغرافيا العامة ٧٣،

---

(١) معجزة القرآن محمد متولي الشعراوي ٢ / ٢٨٧.

(٢) معجزة القرآن محمد متولي الشعراوي ٣ / ٢٩٨-٢٩٩.

(٣) أصل الإنسان بين العلم والكتب السماوية ص ٥.

علم السلالات البشرية ١٠، علم طبقات الأرض ٢٠، علم الكون وتاريخ الأحداث الكونية ٣٦ " .

وقد سبق الأوائلُ إلى تعداد ما يحتويه القرآن من مثل ذلك، فقال ابن أبي الفضل المرسي في تفسيره: "جمع القرآن علومَ الأولين والآخرين بحيث لم يُحِطْ بها علماً حقيقة إلا المتكلم بها ثم رسولُ الله ﷺ خلاف ما استأثر به سبحانه وتعالى، ثم روت عنه -أراد عن النبي ﷺ- معظمَ ذلك سائرُ سادات الصحابة وأعلامهم... إلى أن قال: ونظر قوم إلى ما فيه من الآيات الدالات على الحكم الباهرة فذكر علم المواقيت والمعاني والبيان والبديع والطب والهيئة والهندسة والجدل والمقابلة والنجامة وأصول الصنائع وأسماء الآلات التي تدعو الضرورة إليها: كالخياطة والحدادة والبناء والنجارة والغزل والنسيج والفلاحة والصيد والغوص والصياغة و الزجاجة والفخارة والمِلاحة والكتابة والخبز والطبخ والغسل و القصارة والجزارة والبيع والشراء والصبغ والحجارة والكيالة والمنكوحات وجميع ما وقع ويقع في الكائنات ما يحقق معنى قوله تعالى: ﴿ ... مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ... ﴾ (سورة الأنعام: ٣٨) انتهى ملخصاً من الإتقان[١].

وقال ابن سراقة: "من بعض وجوه إعجاز القرآن ما ذكر الله فيه من أعداد الحساب والجمع والقسمة والضرب والموافقة والتأليف والمناسبة

---

(١) الإتقان ٢/١٠٧٢-١٠٣٣.

والتصنيف والمضاعفة ليَعْلَمَ بذلك أهلُ العلم والحساب أنه ﷺ صادق في قوله، وأن القرآن ليس من عنده إذ لم يكن ممن خالط الفلاسفة ولا تلقى الحُسَّابَ وأهل الهندسة"[1].

وتحت عنوان شهادات منصفة ساق الأستاذ محمد سامي محمد علي في كتابه "الإعجاز العلمي في القرآن الكريم"[2] شهادة أحد مشاهير العلماء، وهو عالم غربي من أكبر الجراحين والأطباء المشهورين وهو الدكتور موريس بوكاي الذي شرح الله صدره للإسلام فأسلم بعد علم ودراية.

وقد ألقى الدكتور محاضرة في أكاديمية العلوم الفرنسية بباريس سنة ١٩٦٧م حضرها حشد كبير من العلماء في شتى فروع العلوم الحديثة، وبعد أن عرض حقائق القرآن الكريم في شتى ميادين العلم سأل أخيراً هؤلاءِ العلماءَ قائلاً: "هل لكم أن تخبروني من أين جاء محمد بهذا العلم الحديث، وقد أكدتم أنفسُكُم يا علماء الغرب والشرق وبعد محاولات طويلة عبر الزمن أن ما جاء منسوباً للتوراة والإنجيل جاء مناقضاً للعلم الحديث ومفاهيمه كافة فطرحتموه جانباً، تاركين أمره لخيال المؤمنين وأهل الأديان... فمن أين لمحمد هذا العلم؟".

---

(١) الإتقان ٢/١٠٣٣.

(٢) الإعجاز العلمي في القرآن الكريم ص ١١٦، نقله عن كتاب القرآن والعلوم الحديثة لإبراهيم فواز عراجي ص ٦١.

فسكت الجميع .. ولا من مجيب .. فقال بوكاي:

"بالطبع لا جواب عندكم! و الجواب عندي: أنه من عند الله وأن محمداً رسول الله، وقد أحدثت هذه المحاضرة ضجة إعلامية في أنحاء أوربا.

ميزان تفسير الآية تفسيراً يتعلق بالعلوم الحديثة:

واستقبل الأستاذ محمد سامي الحديث عن علوم الإعجاز العلمي في القرآن الكريم بميزان لتفسير الآيات تفسيراً يتعلق بالعلوم الكونية قائلاً[1] ": النظرية –التي بين الأخذ والرد– لا يصلح لنا تطبيقها على الآية القرآنية، أما الحقيقة العلمية فمن المستحيل أن تتناقض أو تتصادم مع الآية القرآنية، ونتحدى الآن أو في المستقبل ظهور حقيقة علمية تخالف القرآن الكريم.

إذاً لا مانع إطلاقاً أن نطبق الحقيقة العلمية على الآية القرآنية التي تلفت الأنظار إلى إشارات علمية كونية.

لكن علينا ونحن نبحث في أسرار القرآن الكريم لاستخراج الدرر واللآلئ العلمية أن نُخضع تفسيرنا هذا لشروطٍ نَصَّ عليها علماء التفسير الذين عُنُوا بمناهج البحث، وهذا الميزان لا يتمثل في أكثر من الميزان الذي نعتمد عليه لتفسير أي كلام عربي، ويتكون هذا الميزان من المقومات والأركان التالية:

---

(١) الإعجاز العلمي في القرآن الكريم محمد سامي ص ٢٦.

١- خضوع التفسير لدلالات اللغة العربية وقواعدها التي لا خلاف عليها.

٢- خضوعه لقواعد تفسير النصوص المتفق عليها كأحكام العموم والخصوص والإطلاق والتقييد والمنطوق و المفهوم وما إلى ذلك من قواعد.

٣- ألا يتعارض التفسير معارضة حادة مع مضمون أي آية أخرى في القرآن بحيث لا يمكن الجمع بينهما بحال تحت ظل أي قاعدة من قواعد تفسير النصوص.

٤- ألا يتعارض التفسير معارضة حادة مع الدلالة الثابتة لنص حديث نبوي صحيح بحيث لا تترك هذه المعارضة سبيلاً سائغاً للتوفيق بينهما ".

ومن خلال التطبيق لضوابط هذا الميزان تلزم ضرورةُ الانطلاق من القرآن الكريم، وفي قوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ . . . ﴾ (فصلت: ٥٣) تحديد لكيفية الرؤية العلمية، بازغة أولاً من القرآن الكريم وهى في أوج ظهورها في الكون شاهدة بصدق القرآن، ولكن حين نأخذ من المشاهد النظرية تفسيراً للقرآن نكون قد أوقفنا أنفسنا في منزلق خَطِر، إذا ما جنحت النظرية إلى تعارض مع نظرية أخرى، وبالتالي يتوجب علينا التحسب إلى مثل هذه الأمور، فإنه حين يخفق المرء في استخراج المعاني المزيحة لحجب الجهل البشري بنور العلم القرآني ينصرف العلماءُ -بحسن نية هي السذاجة في أصلها- وأشباهُ العلماء إلى درك مطالب الإلحاح الساذج أن العلمَ يوافقُه القرآنُ.

وتفاسير القرآن على ضوء العلوم الحديثة - كتفسير المراغي والجوهري لم يثبت مضمون ما احتوته من مثل هذا بعد. ونخشى أن يستدعي هذا ضعضعةَ الإيمان في بعض النفوس التي لا تفرق بين خطأ المفسر أو الباحث وصحةِ النص القرآني[1].

وهناك من يرى صحة الانطلاق من خارج القرآن فيقول[2]: "ففي أيامنا هذه استطاع العلم أن يرى ما سبق إليه القرآن بالبيان والتعريف" مع أنه يبين معنى قولٍ منسوب إلى المسيح هو "ويخبركم بأمور آتية" ومعلوم أن الخبر لا يتوقف فهمه على أمر لاحق.

وكل هذا الكلام يصح في أبعاض كل هذه الفروع العلمية، فحين تجد فرعاً منها لا يلزم أن تستغرق الآيات تفاصيلَ هذا الفرع، ولكن تمتد من القرآن آيات توضح وتفسر بعض الحقائق الكونية في ظواهرها الطبيعية.

فكل ما يقع تحت رؤية البشر مع استدامة توحُّدِ هذه الرؤية مَدَّ الزمن هو الذي يُفترض فيه أن يكون حقيقة تواكب إشارات القرآن على نحو لا يُحْدِثُ اختلافاً في المفهوم في زمن ما.

---

(١) فكرة الإعجاز ص ٣٩٠.

(٢) قالوا عن الإسلام: الندوة العالمية للشباب الإسلامي ص ٤٩ نقلاً عن كتاب محمد في التوراة والإنجيل والقرآن ص ٤٧، ٤٨ لمؤلفه إبراهيم خليل أحمد وهو قس من مواليد الإسكندرية أسلم رسمياً عام ١٩٥٩م وانظر الكتاب نفسه: محمد في التوراة والإنجيل والقرآن دار المنار للنشر والتوزيع ط ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م ص ٥٥ فهو موضع الاستشهاد.

وما يأخذ في حين تفسيراً يختل في حين آخر لا شك شيء لم يُعَايَنْ بغير افتراضاتٍ ونظريات بُحِثَ لها عن تفسير فيه مجمل تفصيل الرؤية لظاهرة غامضة التفسير، غائرة المدى.

وأقرب مثال طروء تناقضات عدة في تفسير اختلاف حركة الشمس أو الأرض أو هما معا، والصورة التي تتخذها الأرض في الذهن لإقامة تفسيرٍ لا برهان على النظام الشمسي الدقيق، حتى بدت في أفق علم الفلك نظريات ثلاث تشرح كل منها تعليل الليل والنهار و الفصول الأربعة وغير ذلك مما يتعلق بهذا.

وإحدى هذه النظريات -نظرية كوبرنيقوس- يمكن القول أنها استحكمت في التصور الفكري البشري واستولت عليه، بغض النظر عن دلالات نصوصٍ دينية.

ولم يكن للقرآن أن يقبض إسهاماته في سبر البشر أغوار ظواهر الكون فأمد بما يقيم به نظرية وينفي به أخرى، ولا كمال للقبولِ لنظرية واحدة من الثلاث، بل تحتمل الآياتُ والأحاديثُ مباركةَ كلٍّ نظريةٍ في طرف منها أو في بعضها الأكبر..

فحين تفترض بعض النظريات أن الأرض في شكلها كرة مفلطحة (غير كاملة الاستدارة) وتدور حول نفسها وحول الشمس ليحدث بالدورتين الليل والنهار و الفصول الأربعة، ترى نظرية أخرى أن الأرض لا تدور بل ليست لها جاذبية، وتنفي بعضا مما ألفه الناس وآنسوه من نظرية كوبر نيقوس التفسيرية لحركة المجموعة الشمسية، ونجد النظرية

المعـارضـة للمـألوفـة من النظريات ترى أن الأرض لا تدور وإنما تدور حولها الشمس[1] وأن سجودها تحت العرش يكون فوق المحيط في الجهة المقـابلة لمركـز اليـابسـة (مكة المكرمـة) وأن هذا الموضع لا يخـتلف باختلاف الأيام على مدار العام.

وتبـرز نظرية ثالثة تعضـد النظرية الوردانيـة السـابقـة في بعـضـهـا وتختلف عنها في أن الكون أرضي بمعنى أن الأرض ليست كروية، بل مجوفة مسقوفة بالسماء ونحن في الداخل والشمس تدور في فلكها داخل الأرض التي يحيا فيها جميع الأحياء[2].

ولسنا بحاجة إلى ضرورة مد الأيدي لنؤيد نظرية ونلغي أخرى إلا على أساس من انبثاق وجه مرجح لإحدى النظريات الثلاث.

وما سقتُ هذا إلا استدلالاً على أهمية التريث في سحب المعاني من النظريات الفرضية التفسيرية للظواهر الكونية إلى معاني القرآن الكريم.

بل يجب أن لا نكترث لعدم التوافق بين النظريات العلمية و المعاني القرآنية، وحَرِيٌّ بنا أن نقف على مثال يؤيد أهمية الأخذ من القرآن أَوَّلًا وابتداءً، لأنه لا يعطي في بسط المعنى إلا حقائق العلم حين يتكافأ الفهم عن القرآن مع صحة النظر في الكون.

---

(١) قصة الخلق من العرش إلى الفرش عيد ورداني. الشركة العصرية للنشر – المركز الدولي للنشر، الصفحات ٢٩٤، ٣٥٢، ٣٨٧، ٤٧٧، ٥٣٣.

(٢) تناقض علم الفلك مع القرآن الكريم وتوافق نظرية الكون الأرضي معه، مصطفى أحمد عبد القادر.

ولقد استجاب الدكتور سعد محمد محمد الشيخ المرصفي لتقرير القرآن لحقيقة كونية في كتابه "الكعبة مركز العالم"[1] متخذاً من قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ... ﴾ (البقرة: ١٤٣) منطلقاً لبحث الوسطية المذكورة في القرآن، فخرج بنتيجة علمية مركوزة على دراسات بالحاسب الآلي، مفاد هذه النتيجة أن الوسطية لا تعني الوسطية المعنوية فحَسْب،بل يُرَادُ بها كذلك الوسطية الحسية، حيث برهن على أن واقع الأرض -بمقاييس العلم الحديث- لا يتوسط يابسها وقراها إلا أم القرى، ومركزها هو الكعبة المشرفة، فتحقق بيان معنى: ﴿ ...وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا... ﴾ (الأنعام: ٩٢).

ومن هذا يتضح أن ما كان البدء به من القرآن هو المعول عليه في احتسابه وجه إعجاز، أما ما استجلب من تفسير النظريات - دون الحقائق - العلمية، فقد يروق في أول الأمر ثم يفارق التوافق الفهم عند بروز نظرية أخرى تناهض الأولى أو تنقضها.

---

(١) الكعبة مركز العالم -مكتبة المنار الإسلامية- الكويت، مؤسسة الريان للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت، ومثل ذلك في كتاب الكعبة المشرفة سرة الأرض ووسط الدنيا. للدكتور أحمد السيد دراج. دار العلم والثقافة القاهرة.

المبحث الثاني : مؤلفات في الإعجاز العلمي للقرآن الكريم :

ألمح الحديث فيما سبق إلى بعض ما عرض له الباحثون في الوجوه العلمية لإعجاز القرآن وهاهي مؤلفات أولت هذه الوجوه عنايةً كبيرةً منها ما تناول وجهاً ومنها ما بحث وجوهاً :

١- معجزة القرآن الكريم - للشيخ محمد متولي الشعراوي .

٢- أصل الإنسان بين العلم والكتب السماوية - للدكتور / موريس بوكاي .

٣- خلق الإنسان بين الطب والقرآن - للدكتور / محمد علي البار .

٤- الصيام معجزة علمية - للدكتور / عبد الجواد الصاوي .

٥- الظاهرة القرآنية - لمالك بن نبي .

٦- المعجزة "النظرية الأولى" ، القدر "النظرية الثانية" - جزءان ، للمهندس عدنان الرفاعي .

٧- الإعجاز العلمي في القرآن الكريم مع آيات الله في السماء والأرض - جزءان ، للدكتور / حسن أبي العينين .

٨- معجزة القرآن - لنعمت صدقي .

٩- الإعجاز العلمي في القرآن الكريم - لمحمد سامي محمد علي .

١٠- الإعجاز العلمي في القرآن الكريم - للدكتور السيد الجميلي .

١١- الإعجاز الطبي في القرآن الكريم - للدكتور / السيد الجميلي .

١٢- إعجاز القرآن في خلق الإنسان - للدكتور/ محمد كمال عبد العزيز.

١٣- قصة الخلق من العرش إلى الفرش - لعيد ورداني.

١٤- الكعبة مركز العالم - للدكتور/ سعد محمد محمد الشيخ المرصفي.

١٥- هندسة النظام البيئي في القرآن الكريم - للدكتور/ عبد العليم عبد الرحمن خضر.

١٦- معالم القرآن في عوالم الأكوان - للشيخ أحمد محيي الدين العجوز.

١٧- تناقض علم الفلك مع القرآن الكريم وتوافق نظرية الكون الأرضي معه - لمصطفى أحمد عبد القادر.

١٨- الإعجاز العددي للقرآن الكريم - للدكتور/ عبد الرزاق نوفل.

١٩- تفسير الجواهر - للشيخ الطنطاوي الجوهري.

٢٠- تفسير المراغي - للشيخ أحمد مصطفى المراغي.

٢١- موسوعة الأعداد في القرآن الكريم - لمهدي سعيد رزق كريزم.

٢٢- ظواهر كونية في القرآن الكريم - لمحمد فيض الله الحامدي.

٢٣- رسائل في أحدث تفسير لآيات القرآن الكريم - لعبد الغني محمد.

٢٤- الكعبة المشرفة سرة الأرض ووسط الدنيا - للدكتور / أحمد السيد دراج.

٢٥- إعجاز القرآن في علم طبقات الأرض - لمحمد محمود إبراهيم.

هذا ما يسر الله تعالى لي الاطلاع عليه من مؤلفات تناول أصحابها من العلوم الحديثة ما قبل التوافق مع إشارات القرآن الكريم ولو بالتأويل البعيد.

وقد سبق القول بأن هناك اختلافاً بين خصائص القرآن الكريم وإعجازه وإن كان الأمران برهانين على أن القرآن كلامُ الله تعالى أنزله على نبيه محمد ﷺ.

ومن عجيب أمر هذا الكتاب نزوله مُنَجَّماً حسب أحداث سني نزوله، ويأتي ترتيبه على غير ترتيب النزول، ومع هذا لم يكن أولُه نزولاً بأقل في البلاغة والبيان من آخره، لذا تجد نظمه من فاتحته إلى خاتمته غاية في الجمال، وهذا لا يتأتى مثله لأحد، ولا يبلغ مداه مهما فصح لسانه وبلغ بيانه متكلمٌ.

وهو كتاب هداية، يعالج في عَرْضِه كل ما يعرض للنفس وما يعتريها، ومع هذا فغايته واحدة، نلقي عليها بعضاً من الضوء في المبحث التالي.

المبحث الثالث: موضوع المنهج القرآني ووحدته:

لا تعني الوحدة الموضوعية احتواء القرآن الكريم على موضوع واحد، وإنما إذا كان القرآنُ الكتابَ المقروء، والكون هو الكتابَ المنظور، فإن محتواهما واحد، بمعنى أن الكون تمتد منه شواهدُ كثيرةٌ لكن دلالاتها واحدة، هي أن للكون إلهاً، والقرآن هو القصة الصادقة الوحيدة للإنسان وما يحيط به، بكل ما ترامت أطراف اتصافه، وبكل أبعاد آثار وجوده وفكره وحركته في الحياة، فالقرآن قضيته واحدة هي التوحيد، يُصَرِّفُ الدافعَ إليه نحو كل نمط من أنماط السلوك البشري لئلا يكون للناس على الله تعالى حجة.

والقرآن يُصَرِّفُ الآيات الكونية في اعتبار القارئ ليستجمع دلائل التوحد بين كلام الله المقروء وكلامه المنظور، ثم لا يجد المرء نفسه إلا بين خيارين: إقرارِهِ بالعبودية لله لأنه لا يمكن أن يخرج من إطار ما سيق من صفات بشرية في القرآن بحجة أنه لم يكن فيه ما لا يريده القرآن ولا تحدث عنه، وكذلك لا يخرج بحال عن قوة حاجته إلى ما يحيط به من مكونات مخلوقة لله تقوم بها حياةُ ذلك الإنسان، فأنَّى يُصْرف؟.

والأمر الثاني أو الخيار الآخر جحوده لكل ما حوله من أعلام القول الأفقي في الكون بأن للكون خالقاً هو الإله الحق الله، وأعني بالقول الأفقي أن الإنسان يدرك في عمره بسطة أفقية مكانية على قدر سيره

في الأرض يتبين من خلالها جلائل الآيات في الأرض على عظمة الخالق الناطق بها عظمةُ المخلوق.

ويأتيه القرآن بأعلام الكون المستطيل مضروباً على الزمن بكل ما يحتويه من آيات الأحداث تاريخاً للآثار البشرية على طول الزمن في عَرْضِ الكون.

فالقرآن بأسلوبه الفريد يستحيي في قارئه الشعورَ بجلال المتكلم في جمال الكلام فيدرك في الأشياء أسرارها على نحو ما أقامها الله في آفاق الخلائق إقراراً منها بلسان تعيه القلوب فتجيبها بأنه لا إله إلا الله، وجمال الكلام وبروز العجائب فيه تستنطق من العجز قدرة الشهادة بأن محمداً رسول الله.

صرفت آيات القرآن، فالقصص آيات، والأحكام آيات، والأمر آيات، والنهي آيات، والوعد آيات، والوعيد آيات، ويمكنك أن تقول: القرآن آيات، ولا يمكنك قول القرآن قصص أو أحكام أو أوامر أو نواه أو وعد أو وعيد. لأنك حين تقول هذا تكون مخطئاً من وجهين: **أحدهما** أنك صنفت المخاطَبَ على نحو واحد، والناس على أَنحاء عدة، **ثانيهما**: أن القرآن استجمع صفاتِ المكلفين مخاطِباً كلا بما يليق به، فمن يرى في حياته عبرة تُنَبِّهُ فيه اليقينَ بأن الإنسان خُلِقَ ضعيفاً أو خَلْقٌ ضعيف أَوْكَلَتْ آياتُ القصص شعورَه إلى الاعتبار إلى الماضي، ليعيد نفسه على أساس أنه بذاته سيكون ماضياً كمن سبقه.

وليس للمطيع خطاب الوعيد كالعاصي، والناس صور تناولها القرآن ممزوجة كي ينقب كل إنسان فيه عن دخائلِ نفسِه، فإنه حين يتوزع القرآن على مجموع الصفات البشرية، كل بحسب ما يوافقه، فإن الشخصيات النفسية يضفي الحديث عنها توافقاً أو إحساساً بالتوافق بين الكلام ونفس القارئ، وليس فيه من ذلك شيء، وحين يُبْسَط الحديثُ بسطًا مصروفاً من كذا إلى كذا وتصادف النفسُ حقائقَ تحرِّك في القارئ شعوراً بحقيقة العلاقة بين الخالق والمخلوق، لا يكون من الإنسان إلا صدق الالتجاء إلى حمى ربه وخالقه سبحانه.

فالوحدة الموضوعية للقرآن يراد بها أن إلى ربك المنتهى، إذ تنتهي الآيات كلها إلى الرجوع من الإنسان عن الخلق إلى الخالق سبحانه وتعالى.

المبحث الرابع: عناية دولية بالإعجاز:

تجدر الإشارة إلى أن إعجاز القرآن لم تتوقف العناية به على الجهود الفردية المكتوبة كما انطوت عليه الصفحات السابقة، ولكن بعض الجهات تُولِي هذه الموضوعاتِ جهوداً تبذل على المستوى الجماعي الدولي.

ولن نخرق علماً لأحد بتجهيله أمر وسائل الإعلام على اختلاف أنماط إعلامها بما تقوم به من نشر ما عَنَّ للقائمين على البرامج العلمية الدينية من إعجاز القرآن أو السنة أو هما معاً.

وهناك جهة ذات قدر عظيم وخطر جليل وهى رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة شرفها الله تعالى. هذه الجهة تضم ضمن هيئاتها هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة.

وإسهامات هذه الهيئة كما جاء في غلاف كتاب "الصيام معجزة علمية" للدكتور/ عبد الجواد الصاوي ترمي إلى:

١- وضع القواعد والمناهج وطرق البحث العلمي التي تضبط الاجتهادات في بيان الإعجاز العلمي في القرآن والسنة .

٢- إعداد جيل من العلماء والباحثين لدراسة المسائل العلمية والحقائق الكونية في ضوء ما جاء في القرآن والسنة .

٣- صبغ العلوم الكونية بالصِّبَغِ الإيمانية وإدخال مضامين الأبحاثِ المعتمدة في مناهج تعليمية في شتى مؤسساته ومراحله .

٤- الكشف عن دقائق معاني الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة المتعلقة بالعلوم الكونية في ضوء الكشوف العلمية الحديثة ووجوه الدلالة اللغوية ومقاصد الشريعة الإسلامية دون تكلف.

٥- إمداد الدعاة والإعلاميين في العالم أفراداً ومؤسسات بالأبحاث المعتمدة للانتفاع بها، كُلٌّ في مجاله.

٦- نشر هذه الأبحاث بين الناس بصورة متناسبة مع مستوياتهم العلمية والثقافية، وترجمة ذلك إلى لغات المسلمين المشهورة واللغات الحية في العالم.

ومع هذا فإن هذه الهيئة لم يرد ضمن أهدافها أنها ذات سلطة رقابية على ما يؤلف بعيداً عنها مما يورد من وجوه الإعجاز مما لم يقبله عقل أو يقل به أحد.

والأمل أن تُمْلي هذه الهيئة شروطها على دور النشر حتى لا يكون الإعجاز منطلقاً لهدم الكيان التقديسي للقرآن الكريم والسنة في نفوس المسلمين، كما يحدث بإثارة الشبهات في مثل هذه المؤلفات دون الرد عليها. وإذ يكون خضوع ما يؤلف في الإعجاز العلمي لمثل هذه الهيئة، سبيلاً إلى خدمة الجوانب العلمية في الكتاب والسنة على نحو صحيح، فإنه يلزم فرض رقابة يمكن أن تتمثل في عرض الكتاب على هيئة الإعجاز أولاً قبل الموافقة منها على طباعته في أي مكان من العالم.

أما ما طرح من مؤلفات في أسواق الكتب فيمكن عقد دوريات تقوم بدور المجيز أو المانع لنشر الكتاب في هدوء واستقرار لا يطمح من ورائه مؤلفٌ إلى شهرة ذائعة لكتابه، حتى لا يكون السبيل مخالفاً للغرض.

كلمة أخيرة

هكذا تمالأت الدراسات عاكفة على مدى بلوغ سرائر الكتاب المجيد، فسلكت أثمن نظام من أطهر وأقدس كتاب، وما أخذت غير قطر من بحر، وما طاولت غير أفكارها في فهومه، وظل يطوي عنها ما به يستحث البحث جيلاً بعد جيل، حتى آنست أنها لم تكن غير دقائق من فيضٍ جليل، فأثمرت في ربوع العلم تفرد الكتاب عن جملة ما في تاريخ الأرض من كتب، فإنه لم تنل علومٌ شرف امتياز الكثرة والتكثر في نظر كتاب غيره، وما تداول الباحثون موضوعاً حتى استَجَدَّ لهم الكثيرُ من أمره . فأعجز الناس طرا حَصْرُ متناوله، وكأنهم يرون في كل لمحة بصيرةٍ جدَّة تنزُّله، ولم يوص سالف خليفته في أخذ وجهة تحدد من مساره، بل تبرق لإبداعات الرؤى فيه أنماط تفك المقلد من إساره، فإذا لكل باحث بهجة يظن بها بلوغ النهاية، وما هو إلا في عداد وجوه الإعجاز برهانُ عَجْزٍ وآية، وأنَّى يبلغ مبتدئ بخُطْوَةِ دَرْسِهِ آفاقَ غاية ؟ وهذا تمام ما يسر الله من الحديث عن عناية المسلمين بوجوه إعجاز القرآن في هذا البحث. على أن الكلام لا يؤذن بالانتهاء منه وما هي إلا خشية الإطالة والخروج بها عن القدر المطلوب، وقد خرج والله المستعان.

والله أسأل التوفيق والقبول .إنه سميع قريب.

أهم مراجع البحث

١- الإتقان في علوم القرآن لأبي الفضل جلال الدين السيوطي . تقديم وتحقيق د/ مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير - دمشق، بيروت، الطبعة الأولى .

٢- الإسلام يتحدى، لوحيد الدين خان، تعريب ظفر الإسلام خان، مراجعة وتحقيق عبد الصبور شاهين . ط٢ دار البحوث العلمية ١٣٩٣هـ، ١٩٧٣م .

٣- الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز . للعز بن عبد السلام . الناشر المكتبة العلمية لصاحبها محمد سلطان النمنكاني بالمدينة المنورة .

٤- أصل الإنسان بين العلم والكتب السماوية للدكتور موريس بوكاي ترجمة فوزي شعبان . دار الكتب العلمية ط١ .

٥- إظهار الحق لرحمت الله الهندي ط دار التراث العربي ١٤٠٦هـ /١٩٨٦م .

٦- الإعجاز البياني للقرآن للدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) الطبعة الثانية دار المعارف بمصر، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .

٧- الإعجاز العددي للقرآن الكريم للدكتور عبد الرازق نوفل . دار الكتاب العربي - بيروت - الطبعة الخامسة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م .

٨- الإعجاز العلمي في القرآن الكريم لمحمد سامي محمد علي دار المحبة دمشق .

٩- إعجاز القرآن للقاضي أبي بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم الباقلاني، عالم الكتب ـ بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.

١٠- البرهان في علوم القرآن للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ـ مكتبة دار التراث ـ القاهرة.

١١- البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن لكمال الدين عبد الواحد عبد الكريم الزملكاني ط مطبعة العاني ببغداد الطبعة الأولى ١٣٩٤هـ، تحقيق د : خديجة الحديثي، دكتور أحمد مطلوب.

١٢- تاريخ آداب العرب ج ٢، لمصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان. الطبعة الرابعة، ١٣٩٤هـ- ١٩٧٤م.

١٣- تناقض علم الفلك مع القرآن الكريم ـ وتوافق نظرية الكون الأرضي معه ـ لمصطفى أحمد عبد القادر، دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع -١ شارع منشأة محرم بك - الإسكندرية.

١٤- ثلاث رسائل في الإعجاز للرماني والخطابي والجرجاني، حققها وعلق عليها محمد خلف الله أحمد، ودكتور محمد زغلول سلام ـ دار المعارف الطبعة الرابعة .

١٥- الجامع لأحكام القرآن الكريم ـ لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ـ دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

١٦- دلائل الإعجاز في علم المعاني للإمام عبد القاهر الجرجاني، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م .

١٧- رسالة التوحيد للإمام محمد عبده، دار إحياء العلوم ـ بيروت ط ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م.

١٨- سر الفصاحة لعبد الله محمد بن سعيد بن سلمان -أبي أحمد- الخفاجي الحلبي، دار الكتب العلمية الطبعة الأولى : ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

١٩- الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض طبعة محمد علي صبيح بمصر.

٢٠- الصيام معجزة علمية، للدكتور عبد الجواد الصاوي، الناشر دار القبلة للثقافة الإسلامية المملكة العربية السعودية ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

٢١- الظاهرة القرآنية، لمالك بن نبي . طبعة دار النفائس.

٢٢- الفصل في الملل والنحل لابن حزم ط دار الفكر.

٢٣- فكرة إعجاز القرآن، لنعيم الحمصي. مؤسسة الرسالة الطبعة الثانية.

٢٤- الفوز الكبير في أصول التفسير لولي الله الدهلوي. نقله عن الفارسية سليمان الحسيني الندوي ـ دار الصحوة ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م.

٢٥- القاموس المحيط للفيروزآبادي طبعة مصطفى البابي الحلبي .

٢٦- قصة الخلق من العرش إلى الفرش لعيد ورداني، الناشر الشركة العصرية للنشر ــ المركز الدولي للنشر . الطبعة الثانية ١ / ٢ / ٢٠٠٠م.

٢٧- قضية الإعجاز القرآني وأثرها في تدوين البلاغة العربية . للدكتور عبدالعزيز عبدالمعطي عرفة . طبعة دار الكتب ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

٢٨- كتاب التسهيل في علوم التنزيل لمحمد بن أحمد بن جزي الكلبي، دار الكتاب العربي الطبعة الرابعة ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

٢٩- كتاب المحصل، وهو محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من الحكماء والمتكلمين لأبي عبد الله محمد بن عمر بن حسين فخر الدين الرازي، تقديم وتحقيق د/حسين أتاي، مكتبة التراث ٢٢ شارع الجمهورية -القاهرة- الطبعة الأولى.

٣٠- كتاب المنهاج في شعب الإيمان للشيخ الإمام الحافظ أبي عبدالله الحسين بن الحسن الحليمي، تحقيق حلمي محمد فوده . دار الفكر الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م.

٣١- الكعبة مركز العالم للدكتور/ سعد محمد محمد الشيخ المرصفي. مكتبة المنار الإسلامية. الكويت، مؤسسة الريان للطباعة والنشر والتوزيع ــ بيروت .

٣٢- الكعبة المشرفة سرة الأرض ووسط الدنيا للدكتور/ أحمد السيد دراج، دار العلم والثقافة - القاهرة .

٣٣- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للقاضي أبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي . تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد _ دار الكتب العلمية الطبعة الأولى ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م. توزيع دار الباز بمكة المكرمة .

٣٤- معترك الأقران في إعجاز القرآن لأبي الفضل جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر السيوطي . ضبطه وصححه وكتب فهارسه : أحمد شمس الدين دار الكتب العلمية _ بيروت _ الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م.

٣٥- المعتزلة _ لزهدي حسن جاد الله - منشورات النادي العربي في يافا، طبعة ١٣٦٦هـ- ١٩٤٧م .مطبعة مصر- شركة مساهمة مصرية .

٣٦- المعجزة الكبرى _ القرآن _ للإمام محمد أبي زهرة ط دار الفكر العربي ١٩٧٧م القاهرة .

٣٧- معرفة شأن القرآن . إعداد محمد أبي البشر رفيع الدين الطبعة الأولى ١٤١٨هـ مطبعة التوحيد .

٣٨- معجزة القرآن للشيخ محمد متولي الشعراوي كتاب اليوم ١٩٧٧م _ أخبار اليوم المصرية.

٣٩- المعجزة (النظرية الأولى) القدر (النظرية الثانية) جزآن للمهندس عدنان الرفاعي _ عنوان المؤلف: سوريا _ درعة _ تلشهاب. وهو الناشر .

٤٠- مفتاح العلوم للإمام أبي يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد ابن علي السكاكي. ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه نعيم زرزور- دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية.

٤١- مقالات الإسلاميين لأبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري - تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد - المكتبة العصرية . صيدا، بيروت.

٤٢- من روائع القرآن تأملات علمية وأدبية في كتاب الله عز وجل للدكتور/ محمد سعيد رمضان البوطي ـ مكتبة الفارابي دمشق، سوريا.

٤٣- منهاج البلغاء وسراج الأدباء ـ لأبي الحسن حازم القرطاجني. دار الغرب الإسلامي ط٣، بيروت ١٩٨٦م .

٤٤- موسوعة الملل والنحل للشهرستاني الطبعة الأولى ١٩٨١م مؤسسة ناصر للثقافة .

٤٥- النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن. دكتور/ محمد عبد الله دراز دار القلم ـ الكويت، الطبعة السادسة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٤م.

الفهرس

الموضوع السادس :

عناية المسلمين بالوقف خدمة للقرآن الكريم

عناية المسلمين بالوقف
خدمة للقرآن الكريم

إعداد

أ.د. عبد الوهاب بن إبراهيم أبو سليمان

عضو هيئة كبار العلماء
بالمملكة العربية السعودية

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين... أما بعد:

فإن الاهتمام بتعليم القرآن الكريم ونشره هو مفتاح التعرف على مبادئ الإسلام وشرائعه من مصدره الأول، كتاب الوحي المنزل على خاتم الأنبياء والمرسلين، المنقول إلى الأجيال اللاحقة بطريق التواتر، فمن ثمّ كان هاجس القادة الفاتحين والخلفاء، والملوك، والسلاطين، والأمراء المسلمين، تعليم القرآن الكريم، ونشره بين أبناء البلاد الذين كتب الله لهم الهداية، فكان الشأن المهم الذي يبادرون إليه قبل كل شيء؛ ذلك أن رسالتهم هي هداية الأمة وإنقاذ شعوبها من الضلال، وما ترسف فيه من أغلال الظلم، وتحريرها من الاستعباد، اقتداء بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في تفقيه حديثي الإسلام وتعليمهم القرآن. روى الرقيق[1] -مؤرخ القيروان- أن موسى بن نصير أمر العرب أن يعلموا البربر القرآن، وأن يفقهوهم في الدين. ونقل غيره: أن موسى بن نصير ترك سبعين رجلاً من العرب يعلمون البربر القرآن، وشرائع الإسلام،

(١) اسمه إبراهيم بن القاسم، المعروف بالرقيق القيرواني، كاتب، شاعر، مؤرخ، عاش في القرنين الرابع والخامس الهجري، انظر ترجمته في: تراجم المؤلفين التونسيين لمحمد محفوظ، الطبعة الأولى، (بيروت: دار الغرب الإسلامي سنة ١٩٨٢م)، ج ٢ ص: ٣٧٩ .

وكان عقبة بن نافع ترك فيهم قبله بعض أصحابه يعلمونهم القرآن منهم تابعه (شاكر)، وغيرهم.

وهنا تجدر الإشارة إلى البعثة الدينية المؤلفة من عشرة من وجوه التابعين التي أرسلها الخليفة عمر بن عبدالعزيز إلى القيروان بقصد تفقيه البربر، وإرشادهم إلى شرائع الإسلام، وتعاليمه العالية، فما كان من هؤلاء المرشدين إلا أن اختطّ كل واحد منهم داراً لسكناه، وبنى بحذائها مسجداً لعبادته ومجالسه، واتخذ بقربه كُتّاباً لتحفيظ القرآن، وتلقين مبادئ العربية لصغار أطفال البلد(١).

وقد ظهرت في وقت مبكر من التاريخ الإسلامي الحاجة إلى موارد تكفل للقائمين على تعليم القرآن ونشره، موارد رزقهم، وتكفيهم حاجاتهم، لينصرفوا بكليتهم لتعليم القرآن الكريم، فأصبح رصد الأوقاف، وتحبيس العقارات على المساجد وحلقات القرآن سنة لدى المسلمين على اختلاف حالاتهم الاجتماعية والمادية.

يسجل التاريخ «أن الوليد بن عبدالملك في سنة ٨٨هـ وقف بعض القرى والمزارع لمسجد أمية بالشام، ويقال: إن هذا كان أول وقف من نوعه، لأن غلة هذه القرى، والمزارع كانت تصرف للمسجد، ثمّ توسعت مجالات الأوقاف، وشملت مرافق الحياة كلها.

وفي أيام الدولة العثمانية اتسعت مساحة الأوقاف كثيراً، وكانت

---

(١) عبدالوهاب، حسن حسني، كتاب العمر في المصنفات والمؤلفين التونسيين، الطبعة الأولى، مراجعة محمد العروسي المطوي ، وبشير البكوش، (تونس: بيت الحكمة، سنة ١٩٩٠م) ج١، ص ٤٦ .

المدارس، والزوايا، والمساجد، وخدمات البلدية، والمستشفيات، وما إلى ذلك،كل هذه كانت تدار بالأوقاف، ويصرف عليها منها. . . »[1].

تركز الدراسة هنا على جانب خاص هو خدمة الأوقاف للقرآن الكريم، وهو موضوع جدير بالدراسة، فقد كان تجربة ناجحة ورفيعة في تاريخ الأمة الإسلامية، ومن الصعب، بل من المستحيل الإحاطة الشاملة بهذا الموضوع عبر القرون في البلاد الإسلامية المترامية الأطراف؛ ذلك أن الاهتمام بالقرآن الكريم هو ما دأبت عليه الأمة الإسلامية حتى في أقصى الظروف وأحلكها، فمن ثمّ يكتفي البحث بتقديم نماذج منها، بقدر ما يوضح الصورة. وقد أدى الوقف خلال القرون الطويلة إلى نتائج فاعلة في الحفاظ على القرآن، وتخريج أجيال من القراء والحفاظ، والمفسرين في شرق بلاد الإسلام وغربها، في جميع القرون منذ بدء عصر النبوة المبارك.

وإذا كان للماضي تجاربه الناجحة في هذا المجال فمن الواجب إنصاف الحاضر الذي لم يفتقد مَنْ يعمل على هدى وبصيرة من العلماء والمخلصين من أبناء الأمة الإسلامية في النهوض بتعليم القرآن وحفظه في شتى بقاع العالم الإسلامي على مستوى العصر إدارةً، وتنظيماً، وتخطيطاً، فمن ثمّ تخيَّر البحث من بين النماذج للعصر الحاضر «الجمعية الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم» بمكة المكرمة.

---

(١) أوزاك، علي، بحث (إدارة الأوقاف الإسلامية في المجتمع المعاصر في تركيا)، (أهمية الأوقاف الإسلامية في عالم اليوم)، (الأردن: مآب مؤسسة آل البيت، سنة ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م)، ص:٣٣٩.

خطة البحث

جاءت موضوعات البحث بعد هذه المقدمة على النسق التالي:

الفصل الأول: تطور العناية بالقرآن الكريم ومؤسساته.

الفصل الثاني: مشروعية الوقف على القرآن الكريم.

مقاصد الواقفين على القرآن الكريم:

أولاً: الوقف على المدارس القرآنية.

ثانياً: الوقف على القراء.

ثالثاً: الوقف على تدريس القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، أو المذاهب الفقهية.

رابعاً: الوقف على خدمة القرآن تلاوةً، وتأسيس مرافق اجتماعية.

خامساً: الوقف على قراءة القرآن لهبة ثوابها للآخرين.

أ- الوقف على قراءة الربعات بالمسجد الحرام على نظام (الخصفة).

ب- الوقف على قراءة القرآن على الترب (المقابر).

سادساً: الوقف على الجمعية الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم في مكة المكرمة في الوقت الحاضر.

تمام البحث: خاتمة تلخص أهم النقاط.

كما تضمن بعض التوصيات، يليها ملحق بقائمة دور القرآن في دمشق والقاهرة، ثم قائمة المصادر، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وصلى الله على من نزل عليه الوحي سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين.

الفصل الأول
تطور العناية بالقرآن الكريم ومؤسساته

حظي القرآن الكريم وعلومه باهتمام المسلمين وعنايتهم بما لم يحظ به كتاب سماوي، حفظاً، ودرساً، وشرحاً، وتدويناً، ورواية بالتواتر، وقد تجلت هذه المظاهر من العناية الفائقة والإجلال والتعظيم له في مظاهر عديدة، من أهمها:

أولاً: جمعه منذ نزوله:

تخصص لهذا نفر كريم أمين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لرصد كل ما ينزل به من الوحي. ثبت في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه قال: " جمع القرآن على عهد النبي ﷺ أربعة كلهم من الأنصار: أبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد، فقيل له: «مَنْ أبو زيد؟» قال: «أحد عمومتي».

وفي لفظ للبخاري عن أنس قال: «مات النبي صلى الله عليه وسلم ولم يجمع القرآن غير أربعة: أبو الدرداء، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد، ونحن ورثناه»[1].

---

(١) ابن كثير، إسماعيل بن عمر، كتاب فضائل القرآن، الطبعة الأولى، تحقيق محمد إبراهيم البنا، جدة: دار القبلة للثقافة الإسلامية، بيروت: مؤسسة علوم القرآن، سنة ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ص ٢٢.

وحكى القرطبي في أوائل تفسيره عن القاضي أبي بكر الباقلاني أنه قال -بعد ذكر حديث أنس بن مالك هذا-: «فقد ثبت بالطريق المتواترة أنه جمع القرآن: عثمان، وعلي، وتميم الداري، وعبادة بن الصامت، وعبدالله بن عمرو بن العاص.

فقول أنس: لم يجمعه غير أربعة يحتمل أنه لم يأخذه تلقياً مِنْ في رسول الله ﷺ غير هؤلاء الأربعة، وأن بعضهم تلقى بعضه عن بعض.

وقال: «وقد تظاهرت الروايات بأن الأئمة الأربعة جمعوا القرآن على عهد النبي ﷺ لأجل سبقهم إلى الإسلام، وإعظام الرسول لهم».

قال القرطبي: «لم يذكر القاضي ابن مسعود، وسالماً مولى أبي حذيفة، وهما ممن جمع القرآن ...»[1].

وقد عدّ العلماء أنَّ من أحسن، وأجلّ، وأعظم ما فعله أبو بكر الصديق جمع القرآن العظيم من أماكنه المتفرقة حتى تمكن القارئ من حفظه كله[2].

يقول العلامة ابن كثير تعليقاً على ما تقدم:

«فجمع الصديق الخير، وكشف الشر رضي الله عنه، ولهذا روى غير واحد من الأئمة... عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: أعظم الناس أجراً في المصاحف أبوبكر، إن أبابكر كان أول من جمع القرآن بين اللوحين...»[3].

---

(١) ابن كثير، كتاب فضائل القرآن، ص٢٥.

(٢) ابن كثير، كتاب فضائل القرآن، ص٢٥ .

(٣) ابن كثير، كتاب فضائل القرآن، ص٢٥.

ثانياً: حفظ القرآن الكريم واستنباط علومه:

منذ تلك الآونة عكف المسلمون على القرآن تعبداً وتعلماً، ودراسة، فاستنبط منه العلماء علوماً عديدة، واشتقوا منه فنوناً رفيعة على مدى القرون، فألفت فيه المؤلفات الواسعة، ولا يزال العلماء في المجال العلمي الشرعي يستخرجون أسراره، ويكتشفون دقائقه، دون توقف لتياره المعرفي ، ومعجزاته التي لا تنتهي.

ثالثاً: دور المساجد في العناية بالقرآن الكريم:

المساجد هي ساحات الدرس والتعليم، والمكان المناسب لتعليم القرآن ودراسة علومه، ومدارسته. وقد شهدت الأمصار الإسلامية عبر العصور الإسلامية المختلفة نهضة علمية بالعلوم الإسلامية، وبخاصة القرآن وعلومه، وكان من وراء هذا -بعد توفيق الله- علماء صدقوا ما عاهدوا الله عليه من الصحابة والتابعين، وتابعي التابعين، ومن بعدهم من علماء الأمة في كل عصر وجيل حتى وقتنا الحاضر.

إن الرمز الأول الذي حقق المعنى وجَسَّده دروس حبر الأمة عبدالله بن العباس رضي الله عنهما في ساحات المسجد الحرام، فقد تخصص في العناية بالقرآن الكريم تفسيراً، وتأويلاً، وكان المرجع لعلماء الأمة، تحقيقاً للدعوة النبوية المباركة: «اللهم فقهه في الدين وعلِّمه التأويل»[1] ، فقد كان رضي الله عنهما يعقد حلقة درسه في التفسير والحديث، والأدب

---

(١) هو التفسير، وهو اصطلاح ابن جرير في تفسيره، حيث يقول: «القول في تأويل قوله تعالى» ثمّ يذكر تفسير الآية.

والمغازي والسير، وأيام العرب وأشعارهم بالمسجد الحرام.

وكان لحلقته بالمسجد الحرام الفضل في تأسيس مدرسة في علم التفسير لها خصائصها وأعلامها من كبار التابعين مثل عطاء بن أبي رباح الذي خلفه في حلقة العلم تفسيراً، وفقهاً وفتيا، ثمّ صارت هذه الحلقة لابن جريج، وقد تخرج فيها كثيرون، وبرغم وفاة ابن عباس سنة ٧٨هـ ظلت مدرسة مكة قائمة يتلقى أبناؤها العلم طبقة بعد طبقة[١].

ولئن صح هذا عن المسجد الحرام وأثر حلقات العلماء فيه على تطور النهضة العلمية بالقرآن الكريم وعلومه، وهو المحور الأساس في التعليم الإسلامي، إنه لصحيح أيضاً وصادق في حق كافة الأمصار والمدن الإسلامية التي انتشر فيها الصحابة رضوان الله عليهم، فورّثوا القرآن وعلومه إلى أجيال التابعين وتابعي التابعين وإلى مَنْ بعدهم، حتى وصل إلينا القرآن الكريم محفوظاً من التغيير والتبديل، تقرؤه أجيالنا كيوم نزوله على نبينا محمد ﷺ.

وتبرز الدراسات العلمية الموثقة فيما يخص أثر المساجد في المحافظة على القرآن الكريم والعناية بعلومه، أنه لم يتوقف بنشوء المدارس وتأسيسها فيما بعد، والمسجد الحرام بحلقاته العلمية أنموذج صادق على أهمية هذه الحلقات العلمية في القرنين السابع والثامن للهجرة،

---

(١) انظر: العبيكان، طرفة عبدالعزيز، الحياة العلمية الاجتماعية في مكة في القرنين السابع والثامن للهجرة، (الرياض: مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، سنة ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م)، ص٥٤، ٥٥.

بل ظل على مدى القرون الإسلامية، يزدحم برجال الحديث والقراء وأصحاب الفتيا، وظلت حلقاتهم تتدبر تفسير آيات الذكر الحكيم، وأخذ اتساع الحلقات يتضاعف في مواسم الحج، ولا يخفى أن المقصود بالحلقات هنا، ذلك هو النظام التعليمي القائم على إحاطة الطلاب بشيخهم، وهو نظام يعود إلى العصر النبوي ... وقد استمر هذا الشكل بعد إنشاء المدارس الإسلامية... »[١].

وكان إلى جانب هذا النوع من التعليم الحُرِّ في مناهجه، وأوقاته، المدارس والمؤسسات العلمية المنتشرة بمكة المكرمة، والتي كان من أعظم اهتماماتها تعليم القرآن حفظاً وتجويداً وتفسيراً، إذ هو القاعدة العلمية المتينة التي تكوِّن العَالِم الشرعي على أسس ثابتة.

رابعاً: الزوايا:

جمع زاوية، وزاوية البيت ركنه، وتزوى صار فيها[٢]. وأصبحت تطلق عرفاً على المسجد الصغير الذي يخلو فيه الناس للعبادة كما كان الحال في الماضي في مكة المكرمة، وكان لكل زاوية شيخ يقوم بشؤونها، وتعليم القرآن فيها[٣].

---

(١) العبيكان، طرفة عبدالعزيز، الحياة العلمية الاجتماعية في مكة في القرنين السابع والثامن للهجرة، ص٥٣، خصصت الباحثة دراستها بالقرنين السابع والثامن كما هو ظاهر من العنوان.

(٢) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد، لسان العرب، الطبعة الثالثة، (بيروت: دار صادر، عام ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م)، ج١٤، ص٣٦٥ (مادة زوى).

(٣) انظر لهذا: العجيمي، محمد حسن الصوفي، خبايا الزوايا. مصور، خاص .

أما في الغرب الإسلامي بلاد المغرب والأندلس فإنه: «تطلق على مجموعة البنايات المستخدمة لأغراض دينية، وتعليمية، واجتماعية، وذلك منذ القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد...»[1].

وقد أدّت الزوايا في البلاد الإسلامية وظائف تعليمية، ودينية جليلة، وأسهمت إسهاماً كبيراً في نشر القرآن تعليماً، وحفظاً ومدارسة، وقامت بآثار جليلة في تربية الناشئة.

إن تخطيط هذه الزوايا ومكوناتها يعطي تصوراً كاملاً عن الوظائف التي تؤديها، وهي وإن اختلفت من بلد إلى بلد، ومن قطر إلى قطر فإنها تجتمع كلها في الأهداف التي بنيت من أجلها.

يتحدث الأستاذ الدكتور ناصر الدين سعيدوني عن طبيعة تنظيم الزوايا ببلاد القبائل بالجزائر فيقول:

«وتشتمل الزوايا بالبلاد الجزائرية، وخاصة بمنطقة القبائل على مجموعة بناءات تتوزع على المرافق الضرورية للزاوية، فهناك مكان مخصص لحفظ القرآن وتلاوته (قراءة الحزب)، وأداء فريضة الصلاة، وهو بمثابة مسجد الزاوية،ومكان آخر للدراسة يعرف عادة بالعمرة، وقد تقتصر الزاوية عليه فتعرف بالعمرة، بالإضافة إلى دار للضيافة، وغرف لإيواء الطلبة، وبناء لاستقبال الزوار والضيوف، وملحق لإقامة

---

(١) سعيدوني، ناصر الدين، مؤسسة الزوايا في الجزائر العثمانية، بحث في المؤتمر الدولي حول العلم والمعرفة في العالم العثماني بمناسبة الذكرى السبعمائة على قيام الدولة العثمانية عام ١٩٩٩م (إستانبول: مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، ٢٠٠٠م)، ص ٤٨ .

أهل الزاوية، أو لسكن القائمين عليها، وغير بعيد عنهم المصالح الضرورية من مطبخ وإسطبل، ومخازن لحفظ المؤونة، ورحى لطحن الحب، ومعصرة لعصر الزيت وغيرها...

إن الزاوية بهذه المواصفات أصبحت بمثابة مجمع متعدد الخدمات، فهي المسجد، والمدرسة، والملجأ، والمأوى، والمزار، الأمر الذي جعلها محور الحياة الروحية، والثقافية وحتى الاجتماعية في الوسط الريفي ببلاد القبائل...»[1].

القرآن الكريم هو الأساس الذي يقوم عليه التعليم بالزوايا في كل حواضر الإسلام وقراه، والكثير من العلوم والمعارف الدينية[2].

هذه هي الصورة العامة للزوايا في معظم البلاد الإسلامية، وبخاصة في عهد الخلافة العثمانية، وهو ما لاحظه الباحثون من خلال استقراء النشاط العلمي للزوايا في عهد العثمانيين، فقد «كثر عدد الزوايا في القيروان خلال العصر العثماني، ولقي بناؤها تشجيعاً من الحكام، بل إن بعضهم ساهم في إنشاء العديد منها، ووقفوا عليها العقارات الكثيرة، وأعفوا بعضها من أداء العشر، وخصصوا لها جرايات دورية...»[3].

كان للحرمين الشريفين منها نصيب كبير، ومما يؤكد هذا أن العلامة

---

(١) مؤسسة الزوايا بالجزائر العثمانية، ص ٤٨، ٤٩.

(٢) انظر: سعيدوني، ناصر الدين محمد، (مؤسسة الزوايا في الجزائر العثمانية، بحوث المؤتمر الدولي حول العلم والمعرفة في العالم العثماني)، ص٦٩.

(٣) عثمان، نجوى، (الزوايا والمدارس العثمانية بالقيروان)، بحوث المؤتمر الدولي حول العلم والمعرفة في العالم العثماني، (إستانبول: مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، سنة ٢٠٠٠م)، ص ١٣٧.

المحدث الشيخ محمد حسين العجيمي المكي المتوفى عام ١١١٣هـ خصَّها بمؤلف مستقل بعنوان (خبايا الزوايا)،وكان لها وظائفها التعليمية والدينية، والأوقاف الجليلة التي تسد احتياجاتها، وتغني القائمين عليها ليتفرغوا للوظائف التعليمية والدينية المنوطة بهم.

خامساً: الكتاتيب:

عادة ما تكون في زوايا وأماكن خاصة، وتلحق أحياناً ببعض المساجد، ولهذا النوع من المؤسسات التعليمية أثر كبير في تعليم القرآن ونشره في القرى والمدن، وبين طبقات المجتمع المختلفة، يعود لها الفضل الكبير في تعليم الصبيان، وتحفيظهم للقرآن الكريم في البلاد والقرون الإسلامية كافة. ولها أثر مشهود، ودور كبير مهم لا ينكر في تعليم الصبيان، وتلقينهم القرآن، فهي أول ما يستقبل الصبي المسلم، وهي أول ما تنقش على صفحات صدره البيضاء النقية آيات الذكر الحكيم التي تظل راسخة في ذاكرته مدى الحياة.

سادساً: تأسيس المدارس القرآنية في الأمصار الإسلامية:

تطورت مظاهر الاهتمام بالقرآن الكريم مع تطور الحياة في المجتمع الإسلامي، فبدأت المدارس القرآنية تستقل بدورها، وأصبح للوقف الإسلامي أثر كبير في نشاطها، والقيام بما ينبغي لاستمرار أداء رسالتها، وإغناء القائمين عليها بما يكفل لهم حياة معيشية رخية، وتطوير مرافقها، وتشجيع الطلاب المنتسبين إليها.

وقد أسهم في تأسيس هذه المدارس، ورصد الأوقاف عليها طبقات المجتمع كافة من الملوك، والسلاطين، والأمراء، والأثرياء، ومتوسطي الحال على مدى التاريخ الإسلامي حتى وقتنا الحاضر، فكان من ثمار هذا الاهتمام والإسهام إنشاء مدارس لتدريس العلوم الإسلامية، وفي مقدمتها القرآن وعلومه، وأنشئت دور ومدارس للقرآن بخصوصه. يؤرخ لهذا الظاهرة العلمية الحضارية العلامة تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي بن عبدالقادر العبيدي المقريزي قائلاً: «والمدارس مما حدث في الإسلام، ولم تكن تعرف في زمن الصحابة ولا التابعين، وإنما حدث عملها بعد الأربعمائة من سني الهجرة، وأول من حفظ عنه أنه بنى مدرسة في الإسلام أهل نيسابور، فبُنيت بها مدرسة البيهقية...

وأشهر ما بني في القديم المدرسة النظامية ببغداد، لأنها أول مدرسة قرر بها للفقهاء معاليم، وهي منسوبة إلى الوزير نظام الملك أبي علي الحسن ابن علي بن إسحاق بن العباس الطوسي وزير ملك شاه بن ألب أرسلان في مدينة بغداد، وشرع في بنائها في سنة سبع وخمسين وأربعمائة، وفرغت في ذي القعدة سنة تسع وخمسين وأربعمائة...»[1].

فمن ثم انتشرت المدارس في جميع أصقاع العالم الإسلامي متطورة في تخطيطها، وتنظيمها، ومناهجها حتى عصرنا الحاضر.

---

(١) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، الطبعة الأولى، وضع حواشيه خليل المنصور، (بيروت: دار الكتب العلمية، سنة ١٤١٨هـ /١٩٩٨م)، ج٤، ص ١٩٩.

سابعاً: تأسيس جمعيات تحفيظ القرآن الكريم في العصر الحديث:

تطور الاهتمام بالقرآن الكريم والعناية به في العصر الحديث من النشاط المحدود الذي يقتصر على تأسيس مدرسة محدودة المكان، محدودة الإمكانات والموارد، محدودة الطلاب والأساتذة، إلى نشاط أوسع من حيث أماكن التدريس، وبإمكانات مادية، ووقفية من مصادر متعددة، وأعداد متزايدة للطلاب، والمدرسين، والمشرفين، وبأجهزة إدارية كاملة تعليمية، ومحاسبية، وإشراف، لها أنظمتها وقوانينها، وبأهداف وطموحات غير مسبوقة في مناهج المدارس القرآنية القديمة.

هذا التطور في الكم والكيف هو الصورة السائدة التي يحظى بها القرآن الكريم في المملكة العربية السعودية التي انبثقت فكرتها من مكة المكرمة عام ١٣٨٢هـ، وإخاله كذلك في جميع البلاد الإسلامية في الوقت الحاضر. «إن فكرة إنشاء الجمعية الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم بمكة المكرمة كانت في شهر شعبان سنة ١٣٨٢هـ عندما وصل من الباكستان فضيلة الشيخ محمد يوسف سيتي الباكستاني رحمه الله، حيث طرح هذه الفكرة على أعيان مكة المكرمة وعلمائها فلقيت منهم ارتياحاً واستحساناً ثم رفعوا هذه الفكرة إلى المسؤولين في هذه البلاد المباركة، فشجعوا العمل النبيل، والمشروع الحسن، وكان على رأسهم معالي الشيخ حسن بن عبدالله آل الشيخ وزير المعارف آنذاك رحمه الله، ومعالي الشيخ محمد سرور الصبان، الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي آنذاك رحمه الله، ومعالي الشيخ محمد سيتي الذي كان يتحمل ثلث رواتب المدرسين بالجمعية.

وكان من أعضائها و ممن تولى رئاستها بعد وفاة الشيخ محمد يوسف سيتي الباكستاني –رحمه الله– عدد من علماء مكة المكرمة الذين بذلوا جهوداً طيبة في العناية بالقرآن الكريم»[1]، وللجمعية عدة فروع: فرع محافظة جدة، فرع محافظة الطائف، فرع وادي ليه، فرع محافظة رنية، فرع محافظة تربة. تتابعت بعد هذا جمعيات تحفيظ القرآن الكريم بالمملكة العربية السعودية متبعة في هذا: المنهج السوي الذي خطته لنفسها الجمعية الأولى الرائدة جمعية تحفيظ القرآن الكريم في مكة المكرمة، وهي في المناطق التي سميت بها كالتالي:

أولاً: الجمعية الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم بمنطقة المدينة المنورة، وتأسست عام ١٣٨٣هـ ويتبع الجمعية فرعان أحدهما في العلا، والآخر في محافظة ينبع.

ثانياً: الجمعية الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم بمنطقة الرياض، أسست عام ١٣٨٦هـ، ولهذه الجمعية فرعان:

١– فرع محافظة المجمعة.

٢– فرع تمير وتوابعها.

ثالثاً: الجمعية الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم بمنطقة القصيم.

رابعاً: الجمعية الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم بمنطقة عسير.

---

(١) التقرير السنوي التاسع والعشرون من العام ١٤١٩هـ للجمعية الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم بمكة المكرمة، ص ٨–٩ .

خامساً: الجمعية الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم بالمنطقة الشرقية.

سادساً: الجمعية الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم بمنطقة تبوك.

سابعاً: الجمعية الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم بمنطقة حائل.

ثامناً: الجمعية الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم بمنطقة الحدود الشمالية.

شملت نشاطات هذه الجمعيات الاهتمام بالبنين والبنات، سواء في بنايات مدرسية خاصة بالجمعيات، أو في المساجد بعد صلاة العصر بعد خلو المسجد من المصلين[1]، معتمدة في تمويل نفقاتها ونشاطاتها على الأوقاف والتبرعات من ولاة الأمر والمواطنين.

---

(١) انظر: الكتاب الوثائقي (جهود المملكة العربية السعودية في الاعتناء بالقرآن الكريم) الطبعة الأولى إعداد لجنة برنامج تحفيظ القرآن الكريم بهيئة الإغاثة الإسلامية العالمية، إشراف عبدالله بن علي بصفر (جدة: الشركة الخليجية للطباعة والتغليف، عام ١٤١٩هـ-١٩٩٩م) ص٩٩-١٠٥.

الفصل الثاني
مشروعية الوقف خدمة للقرآن الكريم
ومقاصد الواقفين(١)

يعد الوقف الخيري والأهلي من الصدقة الجارية التي يستمر أجر صاحبها حياً وميتاً، بل في أوليات ما حثّ عليه النبي ﷺ في الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له». رواه مسلم، وأصحاب السنن.

يعظم الأجر والثواب بعظم المقصود وإذاعته ونشره، ويتضاعف الأجر على قدر من ينتفع به، إن تعليم أبناء المسلمين لأمور الدين، -وفي مقدمة ذلك القرآن الكريم- من أعظم المقاصد الشرعية، بل هو أعظمها، وتعليمه للصغار يطفئ غضب الرب عز وجل وعلا.

يقول العلامة الفقيه أبو محمد عبدالله بن أبي زيد القيرواني -رحمه الله- في شأن تعليم الأطفال، وترسيخ المعاني الفاضلة وأثرها في نفوسهم بدءاً بالقرآن الكريم العظيم: «اعلم أن خير القلوب أوعاها

(١) انظر أدلة مشروعية الوقف في البحوث المقدمة لندوة المكتبات الوقفية (الوقف مفهومه ومقاصده) لعبدالوهاب أبو سليمان، المنشور ضمن بحوث الندوة بعناية وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف بالمملكة العربية السعودية، عام ١٤٢٠هـ.

للخير، وأرجى القلوب للخير ما لم يسبق الشر إليه، وأولى ما عُني به الناصحون، ورغب في أجره الراغبون إيصال الخير إلى قلوب أولاد المؤمنين، ليرسخ فيها، وتنبيههم على معالم الديانة، وحدود الشريعة ليراضوا عليها، وما عليه أن تعتقده من الدين قلوبهم، وتعمل به جوارحهم، فإنه روي أن تعليم الصغار لكتاب الله يطفئ غضب الرب، وأن تعليم الشيء في الصغر كالنقش في الحجر ...»[1].

لتعليم الصغار العلمَ ثواب، ولتعليمهم القرآن مضاعفة الثواب بقدر الحروف المقروءة منه، فقد روي عنه ﷺ قوله: «اتلوا هذا القرآن فإن الله يأجركم بالحرف منه عشر حسنات، أما إني لا أقول (الٓمٓ) حرف، ولكن الألف حرف، واللام حرف، والميم حرف»[2]. وغير هذا من الأحاديث الصحيحة الكثيرة التي فيها فضل العناية بالقرآن الكريم، وقد ظلّ هذا الحافز الأكبر للمسلمين في غابر الزمان وحاضره ومستقبله، ليصبح الإنفاق على خدمة القرآن أعظم الأعمال أجراً وتقرباً إلى المولى جل وعلا.

إن التاريخ الإسلامي يحتفظ بصفحات مشرقة من سخاء الخلفاء، والملوك، والسلاطين، وأثرياء المسلمين بما رصدوه من الأموال والعقارات

---

(١) الرسالة مع حاشية العلامة العدوي على شرح أبي الحسن، (مصر: مطبعة الاستقامة، عام ١٣٦٩هـ)، ج١، ص ٢٩.

(٢) ابن عطية، أبو محمد عبدالحق، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، الطبعة الأولى، تحقيق المجلس العلمي، بفاس (المغرب: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية سنة ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م)، ج١، ص٧.

على التعليم بعامة، وعلى تعليم القرآن ونشره بخاصة فـ «منه يتشعب علم الأولين والآخرين كما يتشعب عن سواحل البحر الأحمر أنهارها، وجبولها ...»[1].

فهو الأحق بالعناية والاهتمام، وأجدر أن يسخو الموسرون بأموالهم لتعليمه، ونشره بين المسلمين، خدمة له، وإذاعة لهديه وفضائله، ليستقيم أمر الأمة، ويعلو شأنها بين الأمم، هديه سبيل إسعادهم في الدنيا والآخرة، هم بهذا يحققون قول الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩).

مقاصد الواقفين على القرآن الكريم:

أدرك المسلمون في وقت مبكر من تاريخهم أهمية الأوقاف لاستمرار أعمال البر وديمومتها، خصوصاً في المرافق التعليمية والدينية كالمدارس والمساجد، والاجتماعية كالملاجئ والمستشفيات.

هذه الأوقاف على تلك المرافق تكفل لها الاستمرار تبعاً لرغبات الواقفين ومقاصدهم المشروعة، يقول الأستاذ محمد بن عبدالعزيز بن عبدالله في دراسته القيمة عن (الوقف في الفكر الإسلامي) بأنه: «أهم مورد مالي رصد لحياة المسجد ليستمر بكل ما يتعلق بالشؤون الإسلامية، ودور تحفيظ القرآن الكريم...فهذه كمؤسسة (الوقف) كانت وما تزال أهم مورد لشؤون الدين، وللتعليم الإسلامي على

(١) الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد، جواهر القرآن ودرره، الطبعة الأولى، (بيروت: دار الكتب العلمية ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م)، ص١٠.

الإطلاق، وأكثرها دخلاً وإدراراً، وإليها يرجع الفضل في بقائه واستمراره أحقاباً وقروناً، وفي انتظام الحياة العلمية والدراسية في جامعات الإسلام وكلياته»[1] ومؤسساته.

يثبت الاستقراء التاريخي أن مقاصد الواقفين على خدمة القرآن الكريم متنوعة ومتعددة، لا تخلو أن تكون واحداً من المقاصد التالية:

أولاً: الوقف على المدارس القرآنية.

ثانياً: الوقف على القراء.

ثالثاً: الوقف على مدارس تضم إلى تعليم القرآن تدريس الحديث النبوي الشريف أو المذاهب الفقهية، أو بعض العلوم الأخرى.

رابعاً: خدمة القرآن تلاوة، وتأسيس مرافق اجتماعية.

خامساً: الوقف على قراءة القرآن لهبة الثواب للآخرين أحياء، أو أمواتاً. (قراءة الربعات بالمسجد الحرام)، الوقف على قراءة القرآن على المقابر والحكم الشرعي في هذا.

هذا معظم ما كان شائعاً من الأوقاف في خدمة القرآن الكريم في جميع أقطار البلاد الإسلامية.

أما وقد تغيرت الأمور في العصر الحديث فأصبحت للعصر تنظيماته وخططه التي تتباين عما كانت عليه في الماضي، فإن الاهتمام بالأوقاف في خدمة القرآن الكريم أخذ اتجاهاً آخر في معظم

---

(١) الوقف في الفكر الإسلامي، الطبعة الأولى، (المغرب: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، سنة ١٤١٦هـ/١٩٩٦م)، ج٢، ص٥٧.

البلاد الإسلامية، وهو طريق التنظيم، والتخطيط، والعمل الجماعي، وقد توجه الغُيُر من الأمة الإسلامية نحو هذا فنتج عنه:

سادساً: إنشاء الجمعيات الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم.

وفيما يلي نماذج تفصيلية عن كل مقصد من هذه المقاصد:

أولاً: الوقف على المدارس القرآنية:

الهدف الأساس من إنشاء المدارس القرآنية هو تعليم أبناء المسلمين القرآن الكريم حفظاً، وتلاوة وتجويداً، وفهماً لمعانيه. يكاد يكون هذا المقصد الوحيد والأمل المنشود من قبل المؤسسين لهذه المدارس طمعاً في الأجر والثواب من الله عز وجل.

انتشر هذا النوع من المدارس المتخصصة بالقرآن الكريم، وأسهم في تأسيسها القادرون من أبناء المجتمع الإسلامي، كل على قدر استطاعته وإمكاناته، وكان للعواصم العلمية الإسلامية: مكة، والمدينة، ودمشق، وبغداد، وقرطبة، والقاهرة، وفاس، وتونس وغيرها الحظ الأوفر من هذه المدارس، وقد خصصت لها أوقاف من العقارات والضياع والقرى بما يغني القائمين عليها والدارسين فيها عن الحاجة، والانشغال بأمور المعاش.

في صدر الحديث عن هذا الجانب بالنسبة للحرمين الشريفين مكة والمدينة يتملك المرء الإعجاب والتقدير لعظم الأموال الثابتة والمنقولة والموقوفة المخصصة لهذه المدارس في بلاد الحرمين الشريفين، وخارجها في البلاد الإسلامية الأخرى.

يقول العلامة المؤرخ الأستاذ محمد عمر رفيع المكي –وشهادته في هذا الصدد عن رؤية ومشاهدة–: « . . . ولنعد الآن نذكر ما وفق الله إليه المسلمين وملوكهم، وأولي الثراء منهم من بناء المدارس، والمساكن لطلبة العلم، والمجاورين بمكة، بل ولمن يَفِدُ من ممالكهم ليسكنوها زمن أدائهم للفريضة مجاناً، ولو أردنا استيعاب ذلك كله لطال بنا القول، ولكن سأذكر بعض ما شهدته قائماً من دور شيدت لطلبة العلم، ونزلٍ للحجاج، والمجاورين، وغير ذلك من أعمال البر والرعاية، وإني لأعتقد جازماً أن جميع ما كان ملتفاً حول المسجد من مبانٍ ودور كانت كلها أو جلها من الأوقاف التي خصصت للعناية بالعلم وطلبته . . . »[1].

وهذه الصورة من صور الاهتمام بالمدارس القرآنية في مكة المكرمة تماثلها تماماً بقية البلاد الإسلامية، ويمكن الاستشهاد على صحة هذا بما كتبه العلامة المحقق الأستاذ محمد صلاح الدين المنجد تنويهاً بسخاء الواقفين على المدارس القرآنية بدمشق، وإشادة بمكرماتهم، وتجسيداً لعطائهم: « وقد وقف أولئك جميعاً على هذه المدارس المتعددة المختلفة أوقافاً وافرة من الأموال، والقرى، والضياع، والبساتين، والحوانيت، والخانات، والقاعات حتى أصبحت دمشق وأرباضها أوقافاً لهذه المدارس المبثوثة في كل حي من أحيائها، بل في كل درب من دروبها، فكانت هذه الأوقاف تدرُّ المال عليها، وترغب الطلاب في

---

(١) مكة المكرمة في القرن الرابع عشر الهجري، الطبعة الأولى، (مكة المكرمة : نادي مكة الثقافي، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م)، ص ٩٩.

التعلم بها، والشيوخ في التعليم بها، لا يشغل بالهم أمر الدنيا،وطلب المعاش»[1].

ثانياً: الوقف على القراء:

مكة المكرمة مهبط الوحي، جديرة بأن تهتم معاهدها ومؤسساتها بالقرآن ودارسيه، لم يفت الخلفاء، والملوك، والسلاطين هذا المعنى، فكانوا يتسابقون إلى بناء المدارس القرآنية وغيرها، وتشجيع القائمين عليها من القراء، والمعلمين، والفقهاء، وفي العهد القريب لمس المسلمون «مزيد اهتمام الخلفاء العثمانيين، وكثرة القيام بخدمة الحرمين الشريفين، والبلدين المنيفين، والاعتناء بمصالحهما، وما يتعلق بهما، ويتعبدون بذكرهما، ويبجلون أهلهما...»[2] وقد سجل التاريخ لهم من هذا مكرمات رفيعة. كان هذا شأن من قبلهم ومن بعدهم ممن كانت لهم ولاية على الحرمين الشريفين. يقدم البحث فيما يلي بعضاً من عناية السلاطين المسلمين بالقرآن الكريم نسخاً بأيديهم، وتحبيس الضياع والعقارات على القراء، وتلاوة القرآن الكريم في مكة المكرمة:

سجل التاريخ نماذج عديدة للملوك وسلاطين المسلمين وأمرائهم وصفحات مشرقة، صريحة في اعتنائهم بالقرآن الكريم، واهتمامهم به.

---

(١) دور القرآن في دمشق، الطبعة الثالثة، (بيروت دار الكتاب الجديد، سنة ١٩٨٢م)، ص٦.

(٢) الحموي، أحمد بن محمد، فضائل سلاطين بني عثمان، الطبعة الأولى، تحقيق محسن محمد حسن سليم، (مصر: دار الكتاب الجامعي عام ١٤١٣هـ/١٩٩٣م) ص١٢٦.

من مظاهر هذا الاهتمام: نسخه بأيديهم، ومن ثم إهداؤه إلى البلاد المقدسة مكة المكرمة، والمدينة المنورة وبيت المقدس، ليس هذا فحسب بل إنهم يوقفون العقارات، ويقدمون المكافآت السخية للقراء والمدرسين، والمهتمين بتعليم القرآن وتعلمه.

«في سنة ٧٣٨هـ بعث السلطان أبو الحسن علي بن عثمان بن يعقوب صاحب فاس إلى مكة مصحفاً كتبه بخطه، وأخرج من خزائنه أموالاً عينها على شراء الضياع بالمشرق لتكون وقفاً على القراء فيها.

قال الشيخ أحمد بن خالد الناصري السلاوي في كتاب «الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى»:

«انتسخ السلطان أبو الحسن المصحف الكريم بيده ليوقفه بالحرم الشريف، حرم مكة؛ قربة إلى الله تعالى وابتغاء للمثوبة، وجمع الوراقين لتنميقها، وتذهيبها، والقراء لضبطها، وتهذيبها، وصنع لها وعاءً مؤلفاً من الآبنوس، والعاج، والصندل، فائق الصنعة، وغشي بصفائح الذهب، ورصع بالجوهر، والياقوت، واتخذ له أَصْوِنة[1] الجلد، ومن فوقها غلائف الحرير، والديباج، وأغشية الكتان، وأخرج من خزائنه أموالاً عينها لشراء الضياع بالمشرق لتكون وقفاً على القراء فيها...»[2].

«ثم انتسخ السلطان أبو الحسن نسخة أخرى من المصحف الكريم على القانون الأول، ووقفها على القراء بالمدينة، وبعث بها من تخيره لذلك العهد

(١) أصْونة: جمع صِوان، وأصْونة الجِلْد: أوعيتها التي تصان فيها..

(٢) غازي، عبدالله، إفادة الأنام، ج٣، ص ٦٣.

من أهل دولته سنة أربعين وسبعمائة، وفعل مثل ذلك بحرم بيت المقدس».

قال العلامة أبو العباس المقري في «نفح الطيب»:

«كان السلطان أبو الحسن المديني قد كتب ثلاثة مصاحف شريفة بخطه، وأرسلها إلى المساجد الثلاثة التي تشد إليها الرحال، ووقف عليها أوقافاً جليلة...»[1].

ومن هذه النماذج الرفيعة في العناية بالأوقاف في خدمة القرآن الكريم أوقاف السلطان مظفر شاه الكجراتي على القراء بمكة المكرمة في المدرسة شاهية المظفر إذ يكتب المصحف الشريف بخط يده ويودعه في المدرسة المظفرية:

في عام ٩٢٥هـ اشترى وكيل السلطان مظفر شاه الكجراتي بمكة المكرمة بيوتاً عديدة بلغت قيمة جميعها ستة آلاف ومائتين وخمسين ديناراً، وأوقفها على القراء في المدرسة شاهية المظفر.

بعث السلطان مظفر شاه الكجراتي بنسخة المصحف الشريف التي نسخها بيده مع وفد رفيع المستوى من رجال دولته، وما إن وصل خبر وصول مراكب الهند إلى جدة وفيهم وفد السلطان حتى فرح الناس فرحاً شديداً، واحتفل بمقدمهم في ثاني يوم دخولهم، ونزل ناخوذة الشاهي[2] حاملاً على رأسه بالمصحف الشريف الذي وصل به معه

---

(١) غازي، عبدالله، إفادة الأنام، ج٣، ص ٦٩.

(٢) الناخوذة أصله الناخُذاة، وهو المتصرف في السفينة المتولي لأمرها، سواء كان يملكها أو كان أجيراً على النظر فيها وتسييرها اهـ. (تاج العروس: نخذ).

بخط السلطان مظفر شاه صاحب الصدقة العظيمة... وأمر بوضع المصحف في المسجد الحرام.

يقول العلامة جار الله بن العز بن فهد:

«وأما الصدقة الواصلة صحبتهم فهي عظيمة لم يسبق صاحبها، وهي كل لك[١] بخمسة آلاف أشرفي، فمجموعها نحو ستين ألف دينار، ومنها ستة لكوك ونصف لأهل مكة، وأربعة لكوك ونصف لأهل المدينة المشرفة، غير قماش، وبضائع وهدايا للشريف.

وقرر في خدمة المصحف بمكة كاتب هذه الرسالة، وجعلوا له في كل عام معلوم ستين ديناراً، ويوضع في المدرسة التي أمر السلطان بعمارتها بمكة، وأرسل السلطان لكَّين تنكة غير الأحد عشر لكّاً يشترى بها بيوت، وتعمر، وتوقف على المدرسة، ويقرر فيها عشرة أنفس شيخهم إمام الحنفية السيد عبدالله البخاري، وعشرة أنفس من الحنفية يدرسون بها، وشيخهم القاضي الحنفي... وعشرة أنفس يقرأون القرآن، وشيخهم إمام الحنفية، ورتب لكل واحد منهم اثني عشر أشرفياً، ولشيخهم عشرين أشرفياً، وللداعي عشرة أشرفية»[٢].

---

(١) اللك معناه مائة ألف، وجمعه لكوك. وهو تعريب (لاكه) بالهندية. والأشرفيّ: اسم عملة ذهبية.

(٢) ابن فهد، جارالله بن السفر، نيل المنى بذيل بلوغ القرى لتكملة إتحاف الورى، الطبعة الأولى، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، (لندن: مؤسسة الفرقان، عام ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م) القسم الأول، ص ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠.

ثالثاً: الوقف على تدريس القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف أو المذاهب الفقهية:

من أشهر المؤسسات العلمية الرفيعة في العصر الحديث دار الحديث الحسنية بالمغرب، ففي عام ١٣٨٨هـ وقف الحاج إدريس بن الحاج محمد البحراوي قصره الرائع الأنيق على القرآن والحديث[1]، وقد جاء نص خطابه لدى إعلان الوقفية:

«إنني أحبس هاته الدار على القرآن والحديث، ولا أريد أن تكون في المستقبل إلا لهاته الغاية، ولا تحول إلى أية غاية أخرى، بحيث تركت الحق للورثة بالرجوع في هذا التحبيس فيما إذا أريد تحويلها عن غايتها».

قوبلت هذه الوقفية بالاستحسان، تجاوب فيها الملك الحسن ملك المغرب رحمه الله، «وقد أجابه على لسانه الوزير المفضال الفقيه السيد الحاج أحمد بركاش بتأثر بالغ، وانفعال مثير، وهو يتسلم مفاتيح دار الحديث الحسنية بيد الشكر والتقدير، وقال:

«إنني جئت مرسلاً من قبل صاحب الجلالة الملك المعظم جلالة الحسن الثاني -حفظه الله- لأتسلم الدار، وإنه يعدكم بأن الدار ستبقى موقوفة على القرآن، والسنة، والحديث، ولا تتحول إلى أي هدف آخر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين»[2].

---

(١) بن عبد الله، محمد بن عبدالعزيز، الوقف في الفكر الإسلامي، ج١، ص٣٥٨.

(٢) بن عبد الله، محمد بن عبدالعزيز، الوقف في الفكر الإسلامي، ج١، ص٣٥٨.

الوقف على القرآن الكريم مع تدريس المذاهب الفقهية:

من أمثلة عناية السلاطين بتحبيس الأوقاف بمكة المكرمة خدمة للقرآن بخاصة، وللفقه بعامة، ما ذكره العلامة المؤرخ محمد بن علي بن فضل الطبري المكي أن السلطان قايتباي في سنة ٨٨٢هـ «أمر وكيله وتاجره الخواجا شمس الدين محمد بن عمر الشهير بالزمن وشاد عمائره الأمير سُنْقُر الجمالي -إلى أن يحصل له موضعا مشرفاً على الحرم ليبني له مدرسة، ويعمر له ربوعاً، ومسقفات يحصل منها ريع كثير يقسم منه على المدرسين، وعلى الفقراء، وأن تقرأ له ربعة في كل يوم، يحضرها القضاة الأربعة، والمتصوفون، ويقرر لهم وظائف، ويعمل مكتباً للأيتام، وغير ذلك من جهات الخير، فاستبدل له رباط السدرة ورباط المراغي، وكان إلى جانب المراغي دار للشريفة شمسية من شرائف بني حسن، اشتراها منها، وهدم ذلك جميعه، وجعل فيه اثنتين وسبعين خلوة، ومجمعاً كبيراً مشرفاً على المسجد الحرام، وعلى المسعى الشريف، ومكتباً ومئذنة، وصير المجمع المذكور مدرسة بناها بالرخام الملون، والسقف المذهب، وقرر فيه أربعة مدرسين على المذاهب الأربعة، وأربعين طالباً، وأرسل خزانة كتب وقفها على طلبة العلم، وجعل مقرها المدرسة المذكورة، وجعل لها خازناً عيَّن له مبلغاً...

وجعل الوقف في ذلك المجمع للقضاة الأربعة حضروا بعد العصر مع جماعة من الفقهاء يقرؤون له ثلاثين جزءاً من القرآن العظيم...»(١).

لا يخفى أن الأوقاف من هذا النمط كثيرة جداً، وقد ذكر العلامة

---

(١) تاريخ مكة إتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بني الحسن، الطبعة الأولى، تحقيق محسن محمد حسن سليم، (مصر: دار الكتاب الجامعي، عام ١٤١٣هـ/١٩٩٣م) ج١، ص ٢٧٥.

تقي الدين الفاسي في كتابه «شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام» إحدى عشرة مدرسة بمكة المكرمة ذاكراً مواقعها من المسجد الحرام، والمؤسسين لها، وشروطهم، والعقارات الموقوفة عليها[1] .

ثم تتبع العلامة الأديب محمد عمر رفيع ما كان منها قائماً في القرن الرابع عشر الهجري، وما آل إليه أمر بعضها مِنْ تملك الأفراد لها، وسكنى من لم ينطبق عليه شرط الواقف الأساس[2]. وما استحدث بعد ذلك «ممَّا يدل دلالة واضحة أن عناية الملوك المسلمين، وأمرائهم، وأولي الثراء منهم بالناحية العلمية ونشر الثقافة في مكة لا تقل عن عنايتهم بالجهات الأخرى من بر بالفقراء، وطلبة العلم، وحجاج بيت الله العظيم»[3] وما من شك أن تعليم القرآن فيها أساس بين بقية العلوم، بل هو عمدة التعليم، منه البداية وإليه منتهى العلم والطلب.

رابعاً: الوقف على خدمة القرآن تلاوة وتأسيس مرافق اجتماعية بالمدينة المنورة:

من الصور الإسلامية المشرقة عبر العصور وجود مؤسسات علمية ومرافق اجتماعية أسست مرافقها وشيدت معالمها بسبب الوقف أصالة على العناية بالقرآن وخدمته.

---

(١) الطبعة الأولى، تحقيق لجنة من كبار العلماء والأدباء، (مكة المكرمة: مكتبة النهضة الحديثة، عام ١٩٥٦م) ج١، ص ٣٢٨.

(٢) انظر: مكة في القرن الرابع عشر، ص ١٩٦-٢٠١.

(٣) رفيع، محمد عمر، مكة في القرن الرابع عشر، ص ٢٠٢.

من الأمثلة لهذا النوع مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت بالمدينة المنورة، فإن إنشاء هذه المكتبة جاء تبعاً لخدمة القرآن والعناية به، يتضح هذا المقصود من نصوص صك الوقفية. وفيما يلي تعريف بأهمية هذه المكتبة، واقتباس بعض نصوصها التي توضح كمال العناية بالقرآن الكريم، وتبرز بحق سخاء واقفها على خدمة القرآن الكريم، أولاً ثم على المكتبة تالياً :

مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت بالمدينة المنورة :

أسس هذه المكتبة بناءً هندسياً متميزاً، وزودها بالكتب النفيسة العلامة شيخ الإسلام أحمد عارف حكمت بن إبراهيم بن عصمت الحسيني عام ١٢٧٠هـ / ١٨٥٣م في الجهة القبلية للمسجد النبوي الشريف، يفصلها عن المسجد النبوي شارع بمقدار ثلاثين متراً.

يقول الدكتور عبدالرحمن المزيني مدير مكتبة الملك عبدالعزيز التي نقلت إليها المكتبات العامة بالمدينة المنورة، واصفاً لمجموعاتها بعد مضي مائة وخمسين عاماً تقريباً على تأسيسها :

« وتعد هذه المكتبة من أجلِّ مآثر الشيخ عارف حكمت، ومن مفاخر المدينة المنورة في العصر الحديث فهي من أغنى المكتبات بالمخطوطات القيمة، لكونها تضم بين جنباتها عدداً من المخطوطات النادرة في شتى العلوم والفنون، وتزخر بالجمِّ من التراث الإسلامي المكتوب باللغات العربية، والفارسية والتركية، هذا بالإضافة إلى أن كثيراً من المخطوطات زينت خير تزيين من حيث الخط والتذهيب . . . »[1].

---

(١) مكتبة الملك عبدالعزيز بين الماضي والحاضر، الطبعة الأولى، (الرياض: مكتبة العبيكان، عام١٤٢٠هـ/١٩٩٩م)، ص ٧٣.

حبس الشيخ عارف حكمت -رحمه الله- على هذه المكتبة أموالاً عظيمة من ثابت ومنقول من عقارات ومزارع، وغيرها؛ للقرآن في وصيته الوقفية الذكر الأول، والأهمية الكبرى، تجلى هذا فيما ورد ذكره نصاً عن المصاحف الشريفة، وتلاوة القرآن في العبارات التالية:

«إني وقفت وقفاً صحيحاً شرعياً مؤبداً، وحبساً صريحاً مرعياً مخلداً المصاحف الشريفة التي عددها ستة عشر مصحفاً، وكتبي النفيسة التي عددها (٥٠٠٠) خمسة آلاف كتاب...»[١].

ثم تجلت عنايته بالقرآن الكريم على مدى بقاء المكتبة وإدرار الأوقاف على خدماتها ومرافقها في الشروط التي تضمنتها الوثيقة في الفقرات التالية:

«ومن الشروط: أن لا يخرج عن المكتبة المذكورة أي شيء من المصاحف الشريفة والكتب الشريفة...».

«ومن الشروط: أن يعين أربعة أشخاص حفاظاً للكتب باعتبار الأول، والثاني، والثالث، والرابع من العلماء الصالحين الذين صاروا فارغي البال، وممدوحي الخصال...

وأن يجتمع حفاظ الكتب الأربعة المذكورة كل يوم في المكتبة حين

(١) القحطاني، راشد بن سعد بن راشد، وقفية مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت، (وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، ندوة المكتبات الوقفية بالمدينة المنورة، عام١٤٢٠هـ)، ص١٧.

تفتح المكتبة، ويأخذ كل واحد منهم بيد الاحترام قطعة مصحف شريف من المصاحف المحفوظة في خزانتها تعظيماً لها، وأن يتلو كل واحد منهم جزأين على وجه المصحف الشريف، ويختم القرآن في مدة خمسة عشر يوماً، فتتم أربع ختمات في كل خمسة عشر يوماً، وأن يهدي ثوابها أولاً بالذات إلى روضة معطرة شفيع العصاة، فخر العالم صلى الله عليه وسلم، وبعده يتم الدعاء على الأصول الجارية لختم القرآن.

وفي اليوم الثاني بعد الختم الشريف حين مباشرتهم للختم الجديد يأخذون أربعة مصاحف أخرى من خزانة المصاحف، ويضعون الأربعة الأولى في محلها، ويتلون القرآن على وجه المصحف الشريف الذي أخذوها[1] في المرة الثانية، ويكملون الختم الشريف، وعليهم أن يجروا هذه القاعدة بالدور والتسلسل اعتناء بوقاية المصاحف الشريفة المذكورة من التعطيل، وأن يذكروا في الدعاء اسم الشخص المكتوب على ظهر المصحف الشريف من أقاربنا وتعلقاتنا إحياء لأرواحهم الشريفة وانسرارها . . . »[2] .

« ومن الشروط: أن يقرأ الخليفة السيد حافظ علي قطب الدين القدسي من أهالي القدس الشريف في كل سنة على الدوام القرآن الكريم، ويختمه ويقوم بدعاء الإتمام . . . »[3] .

(١) كذا في الأصل، ولعل الصواب: أخذوه.

(٢) القحطاني، راشد بن سعد، وقفية مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت، ص٢٣، ٣٤ .

(٣) القحطاني، راشد بن سعد، وقفية مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت، ص ٢٢ .

خامساً: الوقف على قراءة القرآن هبة للثواب لآخرين[1]، منها نوعان:

أ- الوقف على قراءة الربعات في المسجد الحرام على نظام (الخصفة):

الربعات: جمع ربعة وهي عبارة عن صندوق يحتوي على القرآن الكريم في أجزاء مفرقة على قدر أجزاء القرآن الثلاثين، يختص بها عدد من القراء، يسمى رئيسهم شيخ (الخصفة) يكمل كل واحد منهم جزءاً، أو عدداً من أجزاء القرآن الكريم، حسب المحدد له منها[2].

يسمى المكان المخصص لهم بالمسجد الحرام مكان (الخصفة)، تسمى باسم شيخها أو الواقف عليها (مكان خصفة الشيخ فلان)، أو (السلطان فلان). الخصفة في الأصل بساط، أو فرش يصنع من سعف النخل كان يتخذ في المساجد فرشاً لها على نمط الحنابل، والبساطات المعدة للصلاة، تفرش أثناء الصلاة بالساحات الداخلية بالمسجد الحرام أو المسجد النبوي (الحصوات)، ثم تطوى بعد الصلوات.

كانت قراءة القرآن على هذا النمط منها ما هو رسمي من قبل الملوك والحكام والولاة للبلاد المقدسة، ومنها ما هو مخصص من قبل غيرهم من الملوك والولاة والأثرياء من خارجها.

---

(١) ذهب أبو حنيفة وأحمد وجمهور السلف إلى وصول ثوابها إن كانت القراءة بدون أجر. والمشهور من مذهب الشافعي ومالك عدم وصولها وأما القراءة بأجر فلا تجوز بلا خلاف بين العلماء شرح الطحاوية ٢ / ٦٦٤ الطبعة العاشرة ١٤١٧هـ/١٩٩٧م تحقيق د. التركي والأرناؤوط.

(٢) انظر: ابن فهد، جار الله بن العز، نيل المنى بذيل بلوغ القرى لتكملة إتحاف الورى.

من هذه الأنظمة التي كانت تحكم الأوقاف المخصصة للعناية بالقرآن الكريم بهذا النمط –وهو استدامة قراءة القرآن في وقت معين من عدد معين– النظام الصادر في ١٧ ربيع الثاني ١٣٣٩هـ إذ:

«قرر مجلس الوكلاء[1] الفخام أن يجعل للوظائف المشروحة أدناه قانوناً مخصصاً يكون عليه مدار العمل حسب المواد الآتية، نظراً لتعلقها بأمراء وسلاطين المسلمين القاطنين بالبلاد الخارجية.

المادة (١):

الوظائف المشروط أداؤها بالحرمين الشريفين كتلاوة القرآن، ودلائل الخيرات، ونحوها من الأذكار غبَّ انحلال الوظيفة يعتبر فيها ما سيذكر في المادة الثانية.

المادة (٢):

عند انحلال الوظيفة توجه لابن المتوفى عنها متى كان حائزاً للأهلية والاقتدار الكافلين لأدائها.

المادة (٣):

إذا لم يكن للمتوفى ابن، ولا أخ حائزان للأهلية كما توضح بالمادة الثانية فيكون توجه الوظيفة لمن ينتخب من ملازمي العلماء، أو القراء بحضور وكلاء أولئك الأمراء الموجودين بمكة المشرفة، أو المدينة المنورة.

---

(١) مجلس الوكلاء بمنزلة مجلس الوزراء في هذا العهد.

المادة (٤) :

يشترط في أداء الوظيفة الدوام والاعتناء بواجباتها، وإذا حصل تكاسل من الموظف فليرجع أمره إلى رئيس الخصفة إلى محل اللزوم للنظر فيه .

المادة (٥) :

إن كافة المخصصات المتعلقة منافعها لمعاشات ومصارفات القائمين بالوظائف تقيد بدفتر نظارة الحرم الشريف، ودائرة هيئة الأوقاف الجليلة للحفظ على كيانها، ومراجعتها حين الحاجة، مع المراقبة التامة من قبلها في حسن أداء إيفاء الوظائف طبق شروط واقفيها، وعمل نظارها يكون مرعياً أيضاً .

المادة (٦) :

إذا كانت المخصصات المشروطة للوظائف المذكورة لم تف بالمعاشات والمصارف فيكون دوام الموظفين بدون انقطاع إلى حين مراجعة وكلاء الأمراء، وورود مبالغ تفي باستحقاقهم، ولا يسوغ لهم تعطيل العمل بصورة قطعية .

المادة (٧) :

إن شيخ الخصفة له حق المراقبة، وبيان المتخلفين عن الحضور لأداء وظائفهم في أوقاتها المعينة بدون عذر شرعي، ويكون جزاؤهم على حسب ما يأتي في المادة الثامنة، ويكون مربوطاً بهيئة الأوقاف التي لها حق المراقبة العمومية كما سبق في مادة خمسة .

المادة (٨) :

إذا تخلف أحد الموظفين عن وظيفته بدون عذر شرعي ينبه عليه في أول مرة، وإذا تكرر منه ذلك يقطع له نصف معاشه، وإن لم يرتدع ففي المرة الثالثة يقطع معاشه شهراً واحداً، وفي الرابعة يعين بدله من أرباب الأهلية. كما حرر بالمادة الثالثة.

المادة (٩) :

يجب على رئيس الخصفة كذلك بيان كل ما يلزم من تجديد خصف وحنابل، أو شراء مصاحف ورسائل دلائل الخيرات اعتناء بهذه المهمة الخيرية العائد أمرها لأمراء المسلمين المشار إليهم.

المادة (١٠) :

يجب على وكلاء الأمراء المشار إليهم رفع ما يرونه من المصالح العائدة لأوقافهم إلى نظارة الحرم الشريف، والأوقاف الجليلة للمساعدة لهم لكل اهتمام، وتأميناً على المحافظة على واجبات الوقف اهـ»[١] .

هذا النمط من العناية بالقرآن الكريم، وسخاء الخلفاء والسلاطين والأثرياء بالإنفاق عليه، وتخصيص أوقاف على القيام به هو محل عنايتهم ورعايتهم، السابق واللاحق منهم.

هذا مظهر من مظاهر العناية بالقرآن الكريم أولاً، يرجون من ورائه الأجر الدائم والثواب المستمر من الله عز وجل، وإيجاد أعمال خيرية جليلة تبرز البرَّ والوفاء بأهل القرآن في الحرمين الشريفين .

---

(١) غازي، عبدالله، إفادة الأنام بذكر أخبار البلد الحرام، مصور خاص، ج٤ ص٢٢٤ .

كانت قراءة الربعة مشهورة ومنتشرة في الحرمين الشريفين، حيث يجتمع لها مجموعة من القراء يتلو كل واحد منهم جزءاً من القرآن حتى يتموا كامل أجزائه، كل مجموعة مخصوصة وتابعة لخصفة معينة مسماة باسم الواقف على قراءة القرآن، أو شيخ الخصفة في الوقت المعين لها، والمكان المخصص. ومن الأمثلة على هذا النوع من الأوقاف الأميرية أنه:

«في أوائل عام ٩٢٤هـ: تقدم الأمير مصلح الدين الرومي وقيد عشرة أنفس من الشيبيين في قراءة ربعة بعد صلاة الصبح أمام باب الكعبة المشرفة، وجعل ناظرهم، وشيخ حضورهم فاتح الكعبة، وأوقف عليه حمّام سوق الليل، المعروف بحمّام النبي صلى الله عليه وسلم مع بيوت أخر اشتراها بألف دينار، وشرع في عمل حنفية خلف درجة الريس، وقبة السقاية القديمة المعروفة بالسلطان المؤيد شيخ، الملاصقة لفرشة زمزم بجانب الحنفية العتيقة التي غيرها الأمير جانبك، وهي حوض كبير من حجر، الماء له بزابيز من نحاس، وحجارة يجلس عليها للوضوء...»[١].

ومن هذا النوع من الأوقاف خدمة للقرآن:

المدرسة الزمامية بمكة المكرمة:

نسبة إلى الطَّواشِي خُشْقَدَم الزمام الذي أنشأها «من المسجد الحرام، قرر بها شيخاً وغيره من الصوفية يجتمعون ويقرأون بعد صلاة العصر، ويهدون ثواب ذلك في صحيفته، وجعل بها صهريجاً يجتمع فيه الماء من سطح المسجد

(١) جار الله، بن العز بن النجم بن فهد المكي، كتاب نيل المنى بذيل بلوغ القرى لتكملة إتحاف الورى القسم الأول، ص ٤٠.

الحرام، وجعل بها خلاوي يسكنونها الفقراء، وأوقف عليها وقفاً جليلاً، وهو الربع الذي بالمسعى، ويعرف بربع (التوريزي) شاه بندر جدة لتوليه عمارته، وجعل الناظر عليها الشيخ شمس الدين عمر الشامي . . . »[1].

ب- الأوقاف على قراءة القرآن على الترب (المقابر):

من جملة الأوقاف ذات العلاقة بالعناية بالقرآن الكريم أوقاف حبسها أصحابها على قراءة القرآن على المقابر والأضرحة، وقد انتشرت هذه البدعة بين الملوك والأمراء وأصحاب الثراء في القرون الإسلامية المتأخرة التي لم يكن لها وجود في زمن سلف الأمة رضوان الله عليهم. اعتاد أولئك في بعض البلاد الإسلامية تحبيس أموال طائلة على القراء الذين يتناوبون قراءة القرآن عند قبورهم، وأمثلة هذا كثيرة منها:

ما ذكره العلامة قطب الدين بن علاء الدين النهروالي المكي: «أن السلطان قايتباي من ملوك الجراكسة «انتقل إلى رحمة الله في أواخر يوم الأحد لثلاث بقين من ذي القعدة الحرام سنة إحدى وتسعمائة، ودفن بتربته بالصحراء التي بناها في حياته في غاية الحسن والزينة. وبها مساكن للقراء، وأوقاف دارة عليهم إلى الآن ليس بمصر أحسن تربة منها . . . »[2].

(١) ابن فهد، النجم عمر بن فهد محمد بن محمد بن محمد بن محمد، إتحاف الورى بأخبار أم القرى، الطبعة الأولى، تحقيق عبدالكريم علي باز، (مكة المكرمة: جامعة أم القرى، عام ١٤٠٨هـ) ج ٤، ص ٦٤.

(٢) الإعلام بأعلام بيت الله الحرام في تاريخ مكة المشرفة، شرح الكتاب وعلق عليه محمد طاهر بن عبدالقادر الكردي الخطاط، (مكة المكرمة: المكتبة العلمية لصاحبها عبدالفتاح فدا)، ص ٢٠٦.

هذا النوع من الوقف على قراءة القرآن فيه جانبان ـ كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية:

الأول: مصلحة بقاء حفظ القرآن وتلاوته، وكون هذه الأموال معونة على ذلك وحاضَّة عليه.

الثاني: مفاسد من حصول القراءة لغير الله، والتأكل بالقرآن، وقراءته على غير الوجه المشروع.

جاء تحليل هذه القضية تحليلاً علمياً شرعياً مفيداً عند شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– بما يدل على تفهم كامل وصحيح للموضوع من جميع جوانبه الشرعية، والتعليمية، والاجتماعية، وبيان المصالح والمفاسد الناجمة عنه في العبارة التالية:

« ... وأما هذه الأوقاف على الترب (المقابر) ففيها من المصلحة بقاء حفظ القرآن وتلاوته، وكون هذه الأموال معونة على ذلك، وحاضَّة عليه؛ إذ قد يدرس حفظ القرآن في بعض البلاد بسبب عدم الأسباب الحاملة عليه.

وفيها مفاسد أخر من حصول القراءة لغير الله، ومن التأكل بالقرآن، وقراءته على غير الوجه المشروع، واشتغال النفوس بذلك عن القراءة المشروعة، فمتى أمكن تحصيل هذه المصلحة بدون ذلك الفساد جاز، فالواجب النهي عن ذلك، والمنع منه وإبطاله، وإن ظن حصول مفسدة أكثر من ذلك لم يدفع أدنى الفسادين باحتمال أعلاهما»[1].

---

(١) البعلي، علاء الدين أبو الحسن علي بن محمد، الاختيارات الفقهية من فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، الطبعة الأولى، تحقيق محمد حامد الفقي، (بيروت: دار الكتب العلمية)، ص ٩١.

وقد فصَّل رحمه الله تعالى وغيره القول في هذا الموضوع، فمن جملة ما قاله في ذلك:

« وأما القراءة الدائمة على القبور فلم تكن معروفة عند السلف، وقد تنازع الناس في القراءة على القبر، فكرهها أبو حنيفة، ومالك، وأحمد في أكثر الروايات عنه، ورخص فيها في الرواية المتأخرة لما بلغه أن عبدالله بن عمر أوصى أن يقرأ عند دفنه بفواتح البقرة، وخواتمها.

وقد نقل عن بعض الأنصار أنه أوصى عند قبره بالبقرة.

وهذا إنما كان عند الدفن، فأما بعد ذلك فلم ينقل عنهم شيء من ذلك، ولهذا فرق في القول الثالث بين القراءة حين الدفن، والقراءة الراتبة بعد الدفن فإن هذا بدعة لا يعرف لها أصل ... »[1] .

وممن أسهب البحث في هذا الموضوع، وبيَّن اتجاه علماء السلف في هذا العلامة أبو علي الحسين بن علي بن طلحة الرجراجي الشوشاوي في كتابه (الفوائد الجميلة على الآيات الجليلة) وصرح بكراهة ذلك الإمام مالك، وهو « ما أشار إليه الشيخ أبو محمد في الرسالة بقوله: ولم يكن ذلك عند مالك أمراً معمولاً به »[2] .

---

(١) انتفاع الموتى بأعمال الأحياء، ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله، الطبعة الأولى، جمع وتقديم مروان كجك، (الرياض: مطبعة النرجس، عام ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م)، ص٢٠.

(٢) الطبعة الأولى، دراسة وتحقيق إدريس العزوزي، (المغرب: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، عام ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م)، ص ٢٣٨.

سادساً: الوقف على الجمعية الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم في مكة المكرمة في الوقت الحاضر:

بدأت الجمعية الخيرية للقرآن الكريم بمكة المكرمة بداية موفقة تضمن استمرارها فقد هيأ الله لها من العلماء وأصحاب الرأي، أصحاب البصيرة الثاقبة النيرة، فاهتموا بإيجاد دخل ثابت لها يكفل لها الوفاء باحتياجاتها من مرتبات للمدرسين والإداريين والمشرفين، لم يكن أمامهم إلا أن يسعوا إلى إنشاء أوقاف من العقار تدر على الجمعية ونشاطاتها حاجتها من المال، فاستحثت همم المواطنين، والمسؤولين، وأصحاب المال من أبناء مكة وخارجها فوجدت تجاوباً كبيراً منهم، جعلها تتطور وتتوسع في نشاطاتها وبرامجها، واستعانت بالموارد النقدية التي تصلها من المحسنين في إقامة منشآت وقفية تنضم إلى التبرعات الوقفية العقارية.

لم يكن الواقفون من الرجال فقط فقد شاركهم في هذا العمل الخيري النبيل شقائقهم من النساء الفضليات.

بهذه الصورة الجماعية المشرقة خطت وتخطو هذه الجمعية إلى نشر القرآن في مهبط الوحي مكة المكرمة وما حولها من القرى والهجر بين المواطنين والمقيمين، أصبح هذا النشاط ملحوظاً في المساجد، وليس قاصراً على البنين بل شامل للبنات أيضاً، فأضحى -ولله الحمد- بيننا حافظون وحافظات، مجودون ومجودات لتلاوة القرآن، تحقيقاً وتأكيداً لصدق الوعد الإلهي الكريم ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ .

الأوقاف المخصصة للجمعية الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم بمكة المكرمة :

أدرك المسؤولون في هذه الجمعية أهمية الوقف الخيري لاستمرار هذا العمل فوجهوا كل اهتمامهم لإقامة قاعدة وقفية من شأنها أن تكفل استمرار هذا النشاط خدمة للقرآن الكريم، وقد جاء في التقرير السنوي للجمعية:

« رأت الجمعية أنه من الضروري إيجاد موارد ثابتة لصندوقها إضافة إلى التبرعات التي ترد إليها لما في ذلك من فوائد كبيرة ضماناً لاستمرار هذا المشروع الجليل بإذن الله تعالى، وهذه الموارد العينية تمثل ما أمكن بناؤه، وما أوقفه، وتبرع به أهل الخير »[1] .

أوردت الجمعية قائمة بتملكاتها الوقفية حتى عام ١٤١٦هـ ، سواء ما أقامته إدارتها بالتبرعات النقدية من مبان، أو ما قدم لها من عقارات، أو أراض تقيم عليها مشروعاتها الوقفية، فجاءت كالتالي :

١- أولى الخطوات التي قامت بها الجمعية هي التي أثمرت العمارة المؤلفة من ستة أدوار بالمعابدة بالأبطح أمام قصر البطحاء، حيث أقيمت على أرض ذرعها زهاء ألف متر، ويرد أجرها السنوي إلى صندوق الجمعية، وقد تقدمت الجمعية بطلب للملك الراحل خالد بن عبدالعزيز طيَّب الله ثراه، وطلبت منه أن يتفضل بمنحها قطعة أرض لإقامة عمارة سكنية تكون وقفاً على هذا المشروع يدر عليها مورداً

---

(١) التقرير السنوي للجمعية الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم بمكة المكرمة عام ١٤١٦هـ، ص ١٧ .

ثابتاً، وقد تفضل -رحمه الله- بصرف مليونين وخمسمائة ألف ريال لشراء الأرض المذكورة التي تم بناء العمارة عليها بفضل الله تعالى.

٢- قطعتا الأرض التي تبرع بهما المحسن الكبير معالي السيد حسن عباس شربتلي -رحمه الله تعالى- لهذا المشروع الجليل: الأولى في شارع المنصور، ومساحتها عشرة آلاف متر مربع، وتطل على أربعة شوارع: أحدها الشارع الرئيس العام، والثانية في طريق جدة، وهي الشهيرة بالبزّم، ومساحتها (٣٩٠٠٠٠) تسعون وثلاثمائة ألف متر مربع. أحسن الله إليه وتقبل منه ومنا صالح الأعمال. أتمت الجمعية بفضل الله تعالى بناء عمارتين كل منهما مكونة من أربعة أدوار على أرض شارع المنصور، وبنيت على باقي الأرض أربع عمائر أخرى تمثل المجمع السكني الخيري لمدرسي الجمعية، وقد تبرع ببناء ذلك بعض المحسنين من المواطنين، أثابهم الله على فعلهم وأحسن إليهم.

٣- العمارة الكائنة بمحلة الشامية التي أوقفها معالي الشيخ محمد صالح قزاز رحمه الله تعالى رحمة واسعة، والتي تتكون من ستة أدوار، وقد تم توريد أجرتها لعام ١٤١٦هـ لصندوق الجمعية.

٤- الفلتان الكائنتان بجدة الموقوفتان من قبل المصونة رحمة بنت الشيخ عبدالوهاب قزاز رحمها الله زوجة الشيخ محمد صالح قزاز، وهي تؤول للجمعية بعد وفاتها، وأجرتها السنوية حالياً ستة وستون ألف ريال، وصكها لدى الجمعية.

٥- الدار الكائنة بحي العزيزية، والتي تبرع بها الشيخ عبدالعزيز العلي الخريجي، والمكونة من ثلاثة أدوار، وكل دور مكون من شقتين، وهي مسلمة للجمعية.

٦- العمارة الكائنة بمخطط الأمير أحمد بالرصيفة بمكة المكرمة التي تبرع بأرضها للجمعية الشيخ سعيد محمد المداح، ومساحتها (٧٦٢) سبعمائة واثنان وستون متراً مربعاً. والعمارة المذكورة تتألف من ثلاثة طوابق في كل طابق أربع شقق.

٧- الدار التي تبرع بها للجمعية الشيخ ابن بشيبش الحربي في حي الهنداوية بجوار مسجد الأمير منصور، وقد تم إعادة بناء هذه العمارة من ثلاثة طوابق، وقد خصص الدور الأول مدرسة للبنات لتحفيظ القرآن الكريم، وهي مكونة من سبعة فصول وتوابعها، والطابق الثاني والثالث يشتمل كل طابق على شقتين بمنافعهما.

٨- العمارة التي أتمت الجمعية بناءها من أربعة عشر دورا في أجياد السد أمام بوابة القصر الملكي.

٩- الفلتان الموقوفتان على الجمعية من المصونتين خيرية وفوزية بنتي محمد سعيد مداح، والكائنتان بالزاهر بموجب الصك الصادر من كتاب عدل الأولى بمكة المكرمة برقم ٨/٢٣٤، وتاريخ ١٦/٤/١٤١٠هـ، ورقم التسليم ٨٥ في ١٣/٦/١٤١٠هـ.

١٠- الدار الكائنة بالمسفلة، تبرع بها سعادة الشيخ عبدالرحمن قماش[١].

وفي التقرير الأخير للجمعية عام ١٤١٩هـ ورد لها أوقاف عقارية.

١١- عمارة بشارع المنصور خلف الهلال الأحمر تبرع بها معالي الشيخ محمد صالح قزاز رحمه الله.

١٢- منزل شعبي بجبل الشراشف، تبرع به سعادة الشيخ محمد صالح عبداللطيف إبراهيم فضل.

١٣- الدار الكائنة بالهنداوية تبرع بها سعادة الشيخ بشيبش الحربي.

١٤- عمارة بملقية بحي الزاهر تبرعت بها المكرمة نور بنت أحمد أمين بشناق.

وهناك عقارات وقفها أصحابها وجعلوا لها نظاراً، وخصصوا جزءاً من ريعها للجمعية.

وقف الأسهم على الجمعية:

ومما استحدث من أنواع المعاملات التجارية التجارة في الأسهم التابعة للشركات، فأصبحت قيمة الأسهم وأرباحها ترتفع حسب نشاط الشركة في سوق المضاربات المالية، يشترى السهم بقيمة محددة في السوق يوم شرائه، وفي نهاية العام المالي للشركة وتصفية الحساب توزع الأرباح فيدفع لأصحاب الأسهم من الأرباح قدر عدد مشاركتهم

---

(١) التقرير السنوي التاسع والعشرون لعام ١٤١٦هـ للجمعية الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم بمكة المكرمة، ص ١٧-١٩، ٢٠.

من الأسهم. أصبح السهم، أو الأسهم بمنزلة رأس المال الثابت كالعقار، يدر أرباحاً سنوية مع الاحتفاظ بقيمته إذا قدر الربح.

هذا النوع من المعاملات التجارية فتح آفاقاً جديدة للوقف الإسلامي، بحيث أصبح يمثل بعض الموارد الثابتة للإنفاق على المؤسسات الوقفية الخيرية.

تنبه بعض المحسنين إلى هذه الجوانب الإيجابية في التجارة بالأسهم، وما تمثله من مورد ثابت لمدارس جمعيات تحفيظ القرآن، وقد ظهرت أسماء عدد من المحسنين في التقرير السنوي لعام ١٤١٦هـ ممن تبرعوا ببعض الأسهم في بعض الشركات الوطنية، كما يتبين من القائمة التالية:

١٠- (١٤٠) مائة وأربعون سهماً في شركة النقل الجماعي بمكة المكرمة، تبرع بها الشيخ محمد صالح بن أحمد جمعة.

١١- (١٠) عشرة أسهم في شركة الأسمدة سافكو، تبرع بها ورثة الشيخ عبدالرحمن بن عبدالعزيز.

١٢- (١٢٠) مائة وعشرون سهماً في شركة النقل الجماعي، تبرع بها سعادة الشيخ محمد سعيد الوادي.

١٣- (١١٤٦) ألف ومائة وستة وأربعون سهماً في شركة كهرباء مكة المكرمة، تبرع بها سعادة الشيخ صدقة عبدالرحمن.

١٤- (١٨٣) مائة وثلاثة وثمانون سهماً في شركة كهرباء مكة تبرع بها سعادة الشيخ أكرم مندورة.

١٥- (٢٣٠) مائتان وثلاثون سهماً في شركة كهرباء مكة المكرمة، تبرع بها سعادة الشيخ حسين صالح سابق.

١٦- (٤٢) اثنان وأربعون سهماً في الشركة الوطنية للتنمية الزراعية (نادك)، تبرع بها سعادة الشيخ محمد فضل الحق، وزوجته عزيزة عبدالرحمن طاشكندي.

١٧- (٣٣) ثلاثة وثلاثون سهماً تبرع بها سعادة الشيخ محمد فضل الحق في شركة الفنادق.

١٩- (٣٠) ثلاثون سهماً في شركة الجنوب، تبرع بها فاعل خير.

تضم إلى هذه المجموعة من الأسهم - كما ورد في التقرير السنوي للجمعية عام ١٤١٩هـ[١].

٢٠- (٩١) واحد وتسعون سهماً في الشركة السعودية الموحدة للكهرباء بالمنطقة الغربية، تبرعت بها السيدة نادية أحمد علي رزق[٢].

---

(١) التقرير السنوي للجمعية الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم بمكة لعام ١٤١٩هـ، ص ١٩-٢٠.

(٢) التقرير السنوي للجمعية الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم بمكة لعام ١٤١٩هـ، ص٢٥.

خاتمة البحث

أثبت التاريخ والتدوين العلمي أن القرآن الكريم محل عناية المسلمين حكاماً وأفراداً على جميع المستويات والطبقات كافة. وتتجلى مظاهر هذا الاهتمام في المؤسسات المختلفة التي تضع تعليم القرآن الكريم نصب عينيها، وجل اهتمامها. وتكفل باستمرار هذه المؤسسات العلمية والدور القرآنية الأوقاف السخية من قبل أبناء الأمة الإسلامية بما يكفيها ويغنيها، ويضمن للقائمين عليها التفرغ لأداء رسالتها نحو القرآن الكريم، وأبناء الناشئة من المسلمين.

استمرت هذه الدور والمؤسسات في الازدهار والانتشار والتعدد، وكثرة الرواد، والإقبال عندما تولى شؤون إدارتها، واستثمار أوقافها، نظار أمناء، يقدرون مسؤولياتهم الدينية والاجتماعية، وتراجعت، وتدهورت عندما تولاها الطامعون الانتهازيون، ومن ليس لها بكفء فتراجعت نشاطاتها، وقلَّ روادها، حتى أدى الأمر في بعضها إلى محو معالمها والتسلط على انتزاعها، وتحويلها من أوقاف إلى تملكات شخصية.

كانت الأوقاف الخيرية عصب الحياة العلمية، وبخاصة الدراسات القرآنية في المقام الأول، تليها الدراسات الفقهية والشرعية بصفة عامة، فكان لها الأثر الكبير في الحفاظ على القرآن الكريم مكتوباً في

الصحف، ومحفوظاً في صدور القراء، سليماً من التغيير والتبديل، تقرؤه الأجيال الحاضرة والمستقبلة غضاً كما أنزل على خاتم الأنبياءوالمرسلين ﷺ منذ أربعة عشر قرناً، لا يستطيع أحد أن يبدل فيه حرفاً واحداً فضلاً عن جملة، أو آية.

كان لماضي الأوقاف والعناية بها في خدمة القرآن الكريم تنظيم يتلاءم وتلك العصور التي حبست فيها هو الأنسب لها، وتشاء إرادة المولى أن يستيقظ المسلمون في الوقت الحاضر فيدركوا أهمية الأوقاف للمؤسسات العلمية، والاجتماعية، والآثار الإيجابية التي اضطلعت بها في الماضي، وهي جديرة أن تقوم بها في الحاضر، ولكن بأسلوب يتناسب مع الفكر التنظيمي في الوقت الحاضر، مع الاحتفاظ بالأهداف والمقاصد الشرعية، دون مساس بأحكامه وتشريعاته، تمثل هذا التنظيم في العمل الجماعي في الجمعيات الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم، وكان لمكة المكرمة مهبط الوحي شرف الريادة في هذا، وقد آتت جهود المخلصين على هذه الجمعية ثمارها، وكان من نتاج هذه الجمعية وثمارها المباركة ما جاء في تقرير مجلس الإدارة عام ١٤١٩هـ في عهد رئيسها سعادة الأستاذ السيد أمين بن عقيل عبدالرحمن عطاس حفظه الله إحصائية كاملة على النحو التالي:

١- بلغ عدد حلقات القرآن الكريم (١٤٢٦) حلقة.

٢- بلغ عدد الطلبة (٢٦٨٥٥) طالباً.

٣- بلغ عدد الطالبات (١٤٣٣٥) طالبة.

٤- بلغ عدد المدرسين (٩١٦) مدرساً.

٥- بلغ عدد المدرسات (٥٩٠) مدرسة.

٦- بلغ عدد الموجهين (٢٩) موجهاً.

٧- بلغ عدد الموجهات (٤١) موجهة.

٨- عدد المساجد التي تقام فيها حلقات القرآن (٤٩٨) مسجداً.

٩- عدد الحلقات التي تقام في المسجد الحرام (٧٤) حلقة.

١٠- عدد مدارس الطالبات (١٥٦) مدرسة.

أصبحت هذه الجمعية ورصيفاتها من جمعيات تحفيظ القرآن الكريم المنتشرة في مناطق المملكة العربية السعودية، وما تؤديه من نشاط في خدمة القرآن الكريم علامة بارزة، وظاهرة مشرقة في تاريخ التعليم في العصر الحديث، تجد العون السخي من قبل ولاة الأمر، والأثرياء وطبقات المجتمع كافة لما لمسوه من جهود مخلصة في المحافظة على كتاب الله عز وجل، وتخريج أجيال من شباب الأمة تحمله في صدورها نقياً صافياً من التحريف والتبديل، وأصبح من المتيقن أن الأوقاف التي ترصد لها فتنفق في خدمة القرآن الكريم هي الأكثر أجراً ومثوبة عند الله، وأنها الضمان الوحيد بعد عون الله وتوفيقه لبقائها، واستمرارها في أداء رسالتها مهما اختلفت الظروف الاجتماعية.

إن ضمان بقاء هذه الجمعيات، في أداء رسالتها ضمان لصلاح المجتمع، ومرفق أساس لصلاح شباب الأمة وتجنيب أبنائها مزالق الرذيلة والانحراف، فهي مرفق ديني، تعليمي، اجتماعي مهم.

يغني عن الإشادة والتمجيد لهذه الجمعيات في خدمة القرآن الكريم التعبير بلغة الأرقام عن إنجازاتها السنوية، ولتكن إحصائيات الجمعية الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم بمكة المكرمة لعام ١٤١٩هـ وهي الرائدة في هذا المجال، الأنموذج لإنجازات الجمعيات الأخرى في المملكة العربية السعودية، فقد جاءت حصيلة الجمعية من الحفاظ في تقريرها السنوي لعام ١٤١٩هـ كالآتي :

١- عدد الحفاظ لكامل القرآن الكريم (٢٤١) مائتان وواحد وأربعون حافظاً.

٢- عدد الحافظات لكامل القرآن الكريم في الفترة نفسها (١٥٧) مائة وسبع وخمسون حافظة.

٣- عدد من حفظ خمسة عشر جزءاً من الطلبة اثنان وعشرون وتسعمائة طالب.

٤- عدد من حفظ خمسة عشر جزءاً من الطالبات ستون وثلاثمائة طالبة.

أما الذين حفظوا كامل القرآن منذ تأسيس هذه الجمعية فقد بلغ حوالي واحدٍ وأربعين وثلاثمائة وستة آلاف (٦٣٤١) طالبٍ وطالبة

حتى الآن[1].

هذا عدا النشاطات الأخرى التي تقدمها الجمعية للقطاعات الحكومية، والمشاركة في المسابقات المحلية والدولية مما جاء ذكره مفصلاً في تقريرها السنوي لعام ١٤١٩هـ[2]، بما يثلج الصدر، ويوحي بالاطمئنان الكامل على مستقبل مشرق في خدمة القرآن الكريم في مهبط الوحي بخاصة، وفي العالم الإسلامي بعامة بمستوى التنظيم الإداري والعلمي في العصر الحديث، وقد أثبت التاريخ فعالية نظام الوقف الإسلامي في بقاء هذه الأعمال الجليلة لأداء رسالتها نحو خدمة القرآن الكريم وغيره من المرافق التعليمية والاجتماعية على الوجه المطلوب، وبما يحقق المقاصد الشرعية، والأهداف النبيلة، وفي هذا ما يحث الهمم، ويدفع بالأمة إلى البذل السخي في سبيل خدمة القرآن الكريم، وصلى الله وسلم على من نزل عليه القرآن هداية ورحمة للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(١) التقرير السنوي الثاني والثلاثون للفترة من ١/٩/١٤١٨هـ حتى ١٢/٩/١٤١٩هـ، ص ٧.

(١) انظر: ١٠-١٥.

ملحق
المدارس القرآنية في دمشق والقاهرة
والأوقاف المحبسة عليها

يستحسن بعد تمام البحث أن تعرض نماذج من إسهام الأوقاف في بعض عواصم العلم في البلاد الإسلامية كدمشق والقاهرة في العناية بالقرآن الكريم والإنفاق السخي على الدارسين والمعلمين مما حفظه لنا التاريخ.

دور القرآن في دمشق:

دمشق عاصمة الأمويين إحدى العواصم العلمية في التاريخ الإسلامي، وقد اشتهرت بكثرة مدارسها، وربما كانت الأكثر عدداً من غيرها من العواصم الإسلامية في المشرق والمغرب. يقول الأستاذ المحقق صلاح الدين المنجد في هذا الصدد:

«ازدهرت دمشق طوال خمسة قرون، بدأت بالقرن الخامس الهجري بمئات من المدارس الكبيرة المختلفة التي أسست لتلقي الثقافة الإسلامية الدينية، وما يتصل بها من علوم العربية، فكان فيها مدارس للقرآن، وللحديث، وللمذاهب الفقهية الأربعة وللطب...»[1].

---

(١) دور القرآن في دمشق، تقديم صلاح الدين المنجد، الطبعة الثالثة، بيروت: دار الكتاب الجديد، عام ١٩٨٢م، ص ٦.

يقدم العلامة عبدالقادر بن محمد النعيمي قائمة بأسماء الدور القرآنية في فصل مستقل صدر بها كتابه الفريد (الدارس في تاريخ المدارس)، عدد فيها دور القرآن وأماكن وجودها في دمشق، وأسماء المؤسسين لها، والأوقاف التي حبست عليها، وفيما يلي التعريف بها بإيجاز:

دار القرآن الكريم الرشائية:

أنشأها رشأ بن نظيف بن ما شاء الله أبو الحسن الدمشقي في حدود سنة أربعمائة ... له دار موقوفة على القراء. توفي سنة أربع وأربعين وأربعمائة[1].

دار القرآن الكريم الوجيهية:

«قبلي المدرسة العصرونية، والمسرورية، وغربي الصحصامية التي شمال الخاتونية، وإلى زقاقها يفتح بابها ...»[2].

وقفها الشيخ وجيه الدين محمد بن عثمان المنجا التنوخي رئيس الدماشقة سنة إحدى وسبعمائة[3].

«كان صدراً محترماً، ديناً، محباً للأخيار، صاحب أملاك ومتاجر، وبر وأوقاف، أنشأ داراً للقرآن الكريم بدمشق، ورباطاً بالقدس الشريف... توفي بدار القرآن في التاريخ المتقدم»[4].

---

(١) انظر: النعيمي، عبدالقادر، الدارس في تاريخ المدارس، الطبعة الأولى، أعد فهارسه شمس الدين، (بيروت: دار الكتب العلمية، عام ١٤١٠هـ/١٩٩٠م) ج١، ص٩.

(٢)، (٣)، (٤) النعيمي، عبدالقادر، الدارس في تاريخ المدارس، ج١ ص١٣، ١٤.

دار القرآن السنجارية:

«تجاه باب الجامع الشمالي، المسمى (الناطفانيين) قال ابن كثير في سنة خمس وثلاثين وسبعمائة: «علاء الدين علي بن إسماعيل بن محمود السنجاري واقف دار القرآن عند باب الناطفانيين، شمالي الأموي بدمشق، كان أحد التجار الصدق الأخيار، ذوي اليسار المسارعين إلى الخيرات... رتب فيها جماعة يقرؤون القرآن، ويتلقونه وله مواعيد حديث...»[1].

دار القرآن الكريم الصابونية:

«خارج دمشق، قبلي باب الجابية، غربي الطريق العظمى، ومزار أوس بن أوس الصحابي رضي الله عنه وبها جامع حسن بمنارة، تقام فيه الجمعة ... أنشأها الخواجكي أحمد الشهابي القضائي بن علم الدين بن سليمان بن محمد البكري الدمشقي، المعروف بالصابوني، ابتدأ في عمارة ذلك في شهر ربيع الأول سنة ثلاث وستين وثمانمائة، وفرغ منه في سنة ثمان وستين وثمانمائة...».

وشرط الواقف شروطاً عديدة فيما يختص بالوظائف الدينية.

«وشرط في الإمام أن يكون من الطائفة المباركة الجبرتية، وأن يكون حنفياً، وأن يكون معه عشرة فقراء من جنسه يقريهم القرآن ...

وبنى أيضاً تجاه المكان المذكور بشرق مكتباً للأيتام عشرة بشيخ يقريهم القرآن العظيم...»[2].

---

(١) النعيمي، عبدالقادر، الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ص١١.

(٢) النعيمي، عبدالقادر، الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ص١١-١٣.

وقف على هذا عدة قرى غربي مدينة بيروت ... تعرف هذه القرى بالصابونية، ومنها جميع قرية مَديَرَى بالغوطة من المرج الشمالي، ومنها قرية ترحيم بالبقاع عدة فدان ونصف فدان، ومنها بقرية الصويرة أربعة فدادين، ومنها القرعون في البقاع ربعها،...».

وقد أوقف قرى ومرافق عديدة في أماكن مختلفة ذكرها جميعاً النعيمي رحمه الله.

ثم أضاف النعيمي رحمه الله في نهاية القائمة الطويلة من أوقافه على دار القرآن الكريم الصابونية قوله:

«وأما ما وقفه يوسف الرومي مملوك الواقف غربي مصلى العيد من جوار بستان الصاحب فبستان واحد، وبقرية كرفوسوسية معصرة الزيتون، وقاعة لصيق الجامع، والتربتين المذكورتين وعلوها طبقة أخرى قبلي ذلك، وعلوها عدة طبقتين»[1].

دار القرآن الكريم الجزرية:

«قيل: إنها بدرب الحجر، أنشأها محمد بن محمد بن يوسف الحافظ الإمام المقري شمس الدين بن الجزري... برز في علم القراءات، وعمَّر مدرسة سماها دار القرآن، وأقرأ الناس...»[2].

دار القرآن الدلامية:

«بالقرب من الماردانية بالجسر الأبيض بالجانب الشرقي من الشارع

---

(١) النعيمي، عبدالقادر، الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ص١١-١٣.

(٢) النعيمي، عبدالقادر، الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ص٨.

الآخذ إليه الصالحية ... أنشأها الجناب الخواجكي الرئيس الشهابي أبو العباس أحمد ابن المجلس الخواجكي زين الدين دلامة بن عز الدين نصر الله النصري، أجل أعيان الخواجكية بالشام...

وقفها سنة سبع وأربعين وثمانمائة .. ومن شرط الإمام الراتب أن يتصدَّى شيخاً لإقراء القرآن لستة أنفار من الفقراء الغرباء المهاجرين...»[1].

رتب للإمام وللطلاب، ولكافة القائمين على وظائف تعليم القرآن، ووظائف المسجد رواتب سخية.

دار القرآن الخيضرية:

شمالي دار الحديث السكرية بالقصاعين:

«أنشأها في سنة ثمان وسبعين وثمانمائة قاضي القضاة قطب الدين أبو الخير محمد بن محمد بن عبدالله بن خيضر الخيضري الدمشقي، الشافعي، الحافظ (٨٢١-٨٩٤هـ).

ورتب فيها الفقراء، والجوامك، والخبز، ووقف على تربته لصيق المنجكية بمحلة مسجد الذبان، وعلى مطبخ باب الفراديس، ومطبخ بني عديسة بالمدينة المنورة على الحال بها أفضل الصلاة، وأتم السلام - أوقافاً دارَّة...»[2].

دور القرآن الكريم في القاهرة:

أنشئت في مصر أيضاً أوقاف خصص دخلها على تدريس المذاهب

---

(١) النعيمي، عبدالقادر، الدارس في تاريخ المدارس، ج ١، ص ٨.

(٢) النعيمي، عبدالقادر، الدارس في تاريخ المدارس، الطبعة الأولى، (بيروت: دار الكتب العلمية، عام ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م)، ج ١، ص ٨.

الفقهية، ودروس القرآن الكريم، قراءة وتفسيراً إلى جانب العلوم الشرعية الأخرى، من هذه المدارس التي رصدها مؤرخ مصر الكبير تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي بن عبدالقادر العبيدي المقريزي (ت ٨٤٥هـ):

المدرسة الظاهرية بالقاهرة:

أسسها الملك الظاهر بيبرس البندقداري.

«ابتدئ بعمارتها في ثاني ربيع الآخر سنة اثنتين وستين وستمائة، ولم يقع الشروع في بنائها حتى رتب السلطان وقفها ... أوقف عليها ربع السلطان خارج باب زويلة فيما بين باب زويلة وباب الفرج، وكان ربعاً كبيراً .. وتحت هذا الربع عدة حوانيت هي .. من أجل الأسواق، وللناس في سكناها رغبة عظيمة...، وهذه المدرسة من أجلِّ مدارس القاهرة، ولما فرغ من بنائها اجتمع أهل العلم بها وقد فرغ منها، وحضر القراء، وجلس أهل الدروس كل طائفة في إيوان... منهم طائفة القراء بالقراءات السبع بالإيوان الغربي، وشيخهم الفقيه كمال الدين المحلي، وقرروا كلهم الدروس، وتناظروا في علومهم...»[1].

المدرسة المنصورية:

«هذه المدرسة من داخل باب المارستان الكبير المنصوري بخط بين

---

(١) انظر: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط المقريزية، ج ٤، ص ٢٢٥، ٢٢٦.

القصرين بالقاهرة، أنشأها هي والقبة التي تجاهها والمارستان الملك المنصور قلاوون الألفي الصالحي، على يد الأمير علم الدين سنجر الشجاعي، ورتب بها دروساً أربعة لطوائف الفقهاء الأربعة، ودرساً للطب، ورتب بالقبة درساً للحديث النبوي، ودرساً لتفسير القرآن الكريم، وميعاداً، وكانت هذه التداريس لا يليها إلا أجل الفقهاء المعتبرين..

القبة المنصورية :

هذه القبة تجاه المدرسة المنصورية... وهي من أعظم المباني الملوكية، وأجلها قدراً ... وفي هذه القبة أيضاً قراء يتناوبون القراءة بالشبابيك المطلة على الشارع طول الليل والنهار، وهم من جهة ثلاثة أوقاف، فطائفة من جهة وقف الملك الصالح إسماعيل، وطائفة من جهة الوقف السيفي، وهو منسوب إلى الملك المنصور سيف الدين أبي بكر بن الملك الناصر محمد بن قلاوون»[1].

المدرسة الحجازية :

أنشأتها الست الجليلة الكبرى خوند تتر الحجازية ابنة السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون زوجة الأمير بكتمر الحجازي، سنة إحدى وستين وسبعمائة.

---

(١) المقريزي، تقي الدين أبو العباس، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج ٤، ص ٢٢٦، ٢٢٧.

جعلت بهذه المدرسة درساً للفقهاء الشافعية، ودرساً للفقهاء المالكية، ورتبت بشباك هذه القبة عدة قراء يتناوبون قراءة القرآن الكريم ليلاً ونهاراً، ... وجعلت بجوار المدرسة مكتباً للسبيل فيه عدة من أيتام المسلمين، ولهم مؤدب يعلمهم القرآن الكريم، ويجري عليهم في كل يوم لكل منهم من الخبز النقي خمسة أرغفة، ومبلغاً من الفلوس، ويقام لكل منهم بكسوتي الشتاء والصيف، وجعلت على هذه الجهات عدة أوقاف جليلة يصرف منها لأرباب الوظائف المعاليم السنية(١).

المدرسة الأقبغاوية:

أنشأها الأمير علاء الدين أقبغا عبدالواحد أستادار الملك الناصر محمد بن قلاوون.

قرر فيها درساً للشافعية، ودرساً للحنفية، وجعل فيها عدة من الصوفية، ولهم شيخ، وقرر بها طائفة من القراء يقرؤون القرآن بشباكها، ووقف على هذه الجهات حوانيت خارج باب زويلة بخط تحت الربع، وقرية بالوجه القبلي(٢).

دار القراسنقرية:

«أنشأها الأمير شمس الدين قراسُنْقُر المنصوري نائب السلطنة سنة سبعمائة، وبنى بجوار بابها مسجداً معلقاً، ومكتباً لإقراء أيتام المسلمين كتاب الله العزيز، وجعل بهذه المدرسة درساً للفقهاء، ووقف على ذلك داره التي بحارة بهاء الدين وغيرها»(٣).

---

(١) انظر: المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج ٤، ص٢٣٠، ٢٣١.

(٢) انظر: المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج ٤، ص٢٣٢، ٢٣٣.

(٣) المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج ٤، ص ٢٤٠.

المدرسة القطبية:

«هذه المدرسة بأول حارة زويلة... عرفت بالسيدة الجليلة عصمة الدين خاتون مؤنسة القطبية... ابنة السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب بن شادي، وكان وقفها في سنة خمس وستمائة.

وبها درس للفقهاء الشافعية، وتصدير قراء وفقهاء يقرؤون»(١).

المدرسة الساقية:

«هذه المدرسة داخل قصر الخلفاء الفاطميين من جملة القصر الكبير الشرقي الذي كان داخل دار الخلافة... بنى هذه المدرسة الطواشي الأمير سابق الدين مثقال الأنوكي، مقدم المماليك السلطانية الأشرفية، وجعل بها درساً للفقهاء الشافعية...، وجعل فيها تصدير قراءات، وخزانة كتب، وكتاباً يقرأ فيه أيتام المسلمين...»(٢).

مدرسة تربة أم الصالح:

«هذه المدرسة بجوار المدرسة الأشرفية بالقرب من المشهد النفيسي... أنشأها الملك المنصور قلاوون على يد الأمير علم الدين سنجر الشجاعي في سنة اثنتين وثمانين وستمائة برسم أم الملك الصالح علاء الدين علي بن الملك المنصور قلاوون... ورتب لها وقفاً حسناً على قراء وفقهاء، وغير ذلك...»(٣).

---

(١) المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج ٤، ص ٢٤٥.

(٢) المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج ٤، ص ٢٤٨.

(٣) المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج ٤، ص ٢٤٩.

مصادر البحث

١- أوزاك، علي - بحث (إدارة الأوقاف الإسلامية في المجتمع المعاصر في تركيا) - أهمية الأوقاف، الإسلام في عالم اليوم - الأردن: مآب مؤسسة آل البيت، عام ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

٢- البعلي، علاء الدين أبو الحسن علي بن محمد - الاختيارات الفقهية من فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية - الطبعة الأولى - تحقيق محمد حامد الفقي - بيروت: دار الكتب العلمية.

٣- بِن عبد الله، محمد عبدالعزيز - الوقف الإسلامي - الطبعة الأولى - المغرب: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - سنة ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

٤- الجمعية الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم بمكة المكرمة - التقرير السنوي التاسع والعشرون لعام ١٤١٦هـ - التقرير السنوي الثاني والثلاثون لعام ١٤١٨هـ/ ١٤١٩هـ - معلومات النشر: بدون.

٥- الحموي، أحمد بن محمد - فضائل سلاطين بني عثمان- الطبعة الأولى - تحقيق محسن محمد حسن سليم - مصر: دار الكتاب الجامعي - عام ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

٦- رفيع، محمد عمر المكي - مكة في القرن الرابع عشر الهجري- الطبعة الأولى - مكة المكرمة: نادي مكة الثقافي، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

٧– ابن أبي زيد، أبو محمد عبدالله القيرواني – الرسالة مع حاشية العدوي – مصر: مطبعة الاستقامة – عام ١٣٩٦هـ.

٨– سعيدوني، ناصر الدين – (مؤسسة الزوايا في الجزائر العثمانية) بحث في المؤتمر الدولي حول العلم والمعرفة في العالم العثماني بمناسبة ذكرى سبعمائة عام على قيام الدولة العثمانية عام ١٩٩٩م – إستانبول: مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية – عام ٢٠٠٠م.

٩– أبو سليمان، عبدالوهاب إبراهيم –(الوقف مفهومه ومقاصده) ضمن بحوث (ندوة المكتبات الوقفية) – الرياض: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف – عام ١٤٢٠هـ.

١٠– الشوشاوي، أبو علي الحسين بن علي ـ الفوائد الجميلة على الآيات الجليلة ـ الطبعة الأولى ـ دراسة وتحقيق إدريس عزوزي ـ المغرب: وزارة الشؤون الإسلامية ـ عام ١٤٠٩هـ/ ١٩٩٠م.

١١– الطبري، محمد بن علي بن فضل المكي ـ تاريخ مكة إتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بني الحسن ـ الطبعة الأولى ـ تحقيق محسن محمد حسن سليم ـ مصر: دار الكتاب الجامعي – عام ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

١٢– عبدالوهاب، حسن حسني – كتاب العمر في المصنفات والمؤلفين التونسيين ـ الطبعة الأولى – مراجعة محمد العروسي المطوي، وبشير البكوش – تونس: بيت الحكمة – سنة ١٩٩٠م .

١٣- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد - جواهر القرآن ودرره - الطبعة الأولى - بيروت: دار الكتب العلمية، سنة ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م.

١٤- الفاسي، تقي الدين - شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام - الطبعة الأولى - تحقيق لجنة من كبار العلماء والأدباء - مكة المكرمة: مكتبة النهضة الحديثة، عام ١٩٥٦م.

١٥- ابن فهد، النجم عمر بن فهد محمد - إتحاف الورى بأخبار أم القرى - الطبعة الأولى - تحقيق عبدالكريم علي باز - مكة المكرمة: جامعة أم القرى - عام ١٤٠٨هـ/ ١٩٩٨م.

١٦- ابن فهد، جار الله بن العز - نيل المنى بذيل بلوغ القرى لتكملة إتحاف الورى - الطبعة الأولى - تحقيق محمد الحبيب الهيلة - لندن: مؤسسة الفرقان - عام ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

١٧- القحطاني، راشد بن سعد بن راشد - وقفية مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت - الرياض: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف (ندوة المكتبات الوقفية بالمدينة المنورة) - عام ١٤٢٠هـ.

١٨- ابن كثير، إسماعيل بن عمر - فضائل القرآن - الطبعة الأولى- تحقيق محمد إبراهيم البنا - جدة: مؤسسة علوم القرآن للثقافة الإسلامية، عام ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

١٩- كجك، مروان - انتفاع الموتى بأعمال الأحياء، ابن تيمية وابن القيم - الطبعة الأولى - الرياض: دار النرجس،عام١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

٢٠- محفوظ، محمد - تراجم المؤلفين التونسيين - الطبعة الأولى- بيروت: دار الغرب الإسلامي - عام ١٩٨٢م .

٢١- المزيني، عبدالرحمن - مكتبة الملك عبدالعزيز بين الماضي والحاضر - الطبعة الأولى - الرياض: مكتبة العبيكان، عام ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

٢٢- المقريزي، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي - المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار - الطبعة الأولى - وضع حواشيه خليل منصور - بيروت: دار الكتب العلمية، عام ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

٢٣- المنجد، محمد صلاح الدين - دور القرآن في دمشق - الطبعة الثالثة - بيروت: دار الكتاب الجديد، سنة ١٩٨٢م.

٢٤- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد - لسان العرب - الطبعة الثالثة - بيروت: دار صادر - ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

٢٥- النعيمي، عبدالقادر - الدارس في تاريخ المدارس - الطبعة الأولى- أعد فهارسه إبراهيم شمس الدين - بيروت: دار الكتب العلمية.

٢٦- النهروالي، قطب الدين بن علاء الدين - الإعلام بأعلام بيت الله الحرام في تاريخ مكة المشرفة - علق عليه محمد طاهر عبدالقادر الكردي الخطاط - مكة المكرمة: المكتبة العلمية لصاحبها عبدالقادر فدا.

٢٧- هيئة الإغاثة الإسلامية العالمية - جهود المملكة العربية السعودية في الاعتناء بالقرآن الكريم - إشراف عبدالله بن علي بصفر - جدة: الشركة الخليجية للطباعة والتغليف، سنة ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

الفهرس

الموضوع السابع :

التمسك بالقرآن الكريم وأثره في حياة المسلمين

التمسك بالقرآن الكريم وأثره في حياة المسلمين

إعداد

أ. د. عبد الله بن عمر محمد الأمين

عضو هيئة التدريس بكلية القرآن الكريم

الجامعة الإسلامية - بالمدينة المنورة

المقدمة

الحمد لله رب العالمين وكفى، أنزل كتابه رحمة وفرقاناً للعالمين وهُدى، وكان حبله المتين والعرْوة الوثقى، من تمسك به سعد واهتدى، وفاز واعتز في الآخرة والأولى، ومن أعرض عنه خسر وغوى، ولم يزل مرتداً عن الحق وسائراً القهقرى، حتى يُزَجَّ به في النار على القفا، عياذاً بالله تعالى من الشر واتباع الهوى.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، اللهم صل على محمد النبي وأزواجه أمهات المؤمنين وذريته وأهل بيته، كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد . صل اللهم وسلم على رسولك المجتبى ونبيك المرتضى خير من صام وحج وصلى وزكَّى، أحسنُ الهدى ما وفقه الله تعالى له وهدى.

كان خلقه صلى الله عليه وسلم القرآن[1]، فإذا أمره امتثل الفعل، وإذا نهاه اجتنب المحظور، فلذلك كان صلى الله عليه وسلم أكمل الناس خلقاً، وألينهم عريكةً، وأهداهم سبيلاً، وقد سار على نهجه القويم صحابته الكرام رضي الله عنهم، -وأسأل ربي رضاه- ومن تبعهم في ذلك وتابعوهم بإحسان، فكانوا هم ومن سلك طريقهم خير أُمَّةٍ أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله تعالى.

(١) كما ورد في الحديث عن عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها أنها قالت في وصف خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كان خلقه القرآن». رواه مسلم، المسافرين ١٣٩ .

أدان الله تعالى لهم البلاد، وفتح عليهم -حباً- قلوب العباد، وقمع بهم الشر والفساد، فرفرفت عليهم بعد الحروب المدمرة رايات السلام، وأتم عليهم الله بعد الفاقة غاية الإنعام، وأكرمهم بعد الإهانة أيما إكرام.

ولقد جعل الله تعالى تلك سنةً ماضية وسبيلاً جارية، أنه يكرم من اتبع هداه، وابتغى بطاعته رضاه، وأن يجعل الذل والهوان على من جانب صراطه المستقيم وأتبع في الغيّ هواه.

قال ربنا تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (الأعراف: ٩٦).

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ (المائدة: ٦٦)[١].

هذا ولقد بعدت بين العمل بكتاب الله تعالى وبين المسلمين الشُّقة، واتسعت دائرة الهوة إلا من رحمهم الله تعالى. الأمر الذي يندى له جبين كل مسلم، غيور على دين الإسلام، فيحزن لغربته بين الأنام، وإذا كان الله تعالى يقيّض لهذا الدين على رأس كل مائة سنة من أمة محمد صلى الله عليه وسلم من يجدده[٢].

---

(١) أقاموا التوراة والإنجيل: أي عملوا بما فيهما ومنه الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم واتباعه. لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم: بأن يُفيض عليهم الرزق ويوسع عليهم من كل جانب (انظر تفسير الجلالين بتصرف).

(٢) ورد بذلك حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، رواه أبو داود/ ٤ الحديث رقم ٤٢٩١.

فإنه مشاهد أنه لا تزال طائفة من أمة محمد صلى الله عليه وسلم على الحق ظاهرة لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله عز وجل(١).

ولا بد في ظل ذلك من أن يوجد من المسلمين من يرثي لحال أكثر المسلمين، الذي لا يحسدون عليه في بعدهم عن القرآن الكريم، ويأسى لواقعهم المؤلم الذي قد صاروا إليه لتجنبهم صراطه المستقيم، فيُعنى بالقرآن الكريم، وينادي المسلمين للعودة إلى نهجه القويم، وهذا الشعور النبيل، وإن وجد في جميع أنحاء العالم في أفراد وجماعات فإنه يوجد في الدولة السعودية -أفراداً وجماعات ودولة- بأوضح صورة وأجلى حالةٍ منظورة، لازالت ربوعها بالإسلام معمورة.

وإن من مظاهر ذلك الكثيرة -ولا أزكي على الله أحداً- إنشاءَ مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، الذي أمر بإنشائه خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز حفظه الله تعالى، وجعله هديةً للمسلمين في جميع أنحاء الأرض، وما تبع ذلك من خدمة للقرآن الكريم من تفسيره بمختلف اللغات، وتوزيعه في العالم في جميع الجهات، وإنشاء مركز خدمة السنة التي تُعَدُّ المبين الأول للكتاب العزيز، بعد بيانه ببعضه.

---

(١) ورد بذلك حديث أخرجه البخاري انظر ٩ / ٤١٤ .

وإن إدارة المجمع بفضل من الله تعالى ثم بتوجيه من قادة هذه البلاد، ماضية في سبيلها الطيب لتحقيق هدفها النبيل وهو تزويد المسلمين بالقرآن الكريم بأحسن طباعة، وتعليمهم معانيه بأوضح عبارة، ودعوتهم إلى الرجوع إليه والعمل به بأحسن دعاية، وإن من دعايتها الإسلامية التي تدعو بها المسلمين للعودة إلى كتاب الله تعالى المبين، عقدها ندوة عن عناية المملكة العربية السعودية بالقرآن الكريم وعلومه، لإبراز ما قامت به المملكة من دور ريادي في هذا العصر لتشجيع وتوسيع نطاق البحث الجادّ في القرآن الكريم وعلومه، فإذا فقه المسلمون القرآن الكريم استبان لهم سبيل الحق، وأضاء لهم القرآن الكريم منار الهدى، فرجعوا إليه سراعاً، لما يرون فيه من توجيهات سامية، ودلالة على صنوف الخيرات، وبعد عن المنكرات فيسعدون بما سعد به سلفهم ويقتدي بهم في المعروف خلفهم، ويستعيدون من أمجادهم ما فقدوه بسبب ما حصل بينهم وبين القرآن الكريم من جفاء، وإنهم إذا رجعوا إليه وأنابوا أفلحوا قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (الزمر: ١٧–١٨)[(١)].

وقد كان لي بحمد الله تعالى شرف المشاركة في هذه الندوة في هذا الجانب الذي يغري المسلمين بالعودة إلى القرآن الكريم وتحكيمه في شؤونهم، لما في ذلك من نفع لهم في حاضرهم ومستقبلهم في

(١) أنابوا إليه: أي أقبلوا إليه. انظر تفسير الجلالين.

حالهم ومآلهم، ألا وهو: (**التمسك بالقرآن الكريم وأثره في حياة المسلمين**). هذا وقد قسمت البحث في هذا الجانب إلى مقدمة، ومباحث ثلاثة، وخاتمة.

المبحث الأول: في تعريف القرآن الكريم وذكر طرفٍ مما يدل على فضله.

وتحته مطلبان:

المطلب الأول: في تعريف القرآن الكريم.

المطلب الثاني: في ذكر طرف مما يدل على فضله.

المبحث الثاني: في التمسك بالقرآن الكريم ومظاهره.

المبحث الثالث: في أثر التمسك بالقرآن الكريم في حياة المسلمين وما شوهد منه.

وتحته مطالب ثلاثة:

المطلب الأول: في أثر التمسك بالقرآن الكريم.

المطلب الثاني: فيما شوهد من ذلك في ماضي الأمة الإسلامية.

المطلب الثالث: فيما هو مشاهد من ذلك في واقع الأمة اليوم.

الخاتمة.

أسأل الله تعالى حسن الختام في عافية

وصل اللهم على محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً

المبحث الأول
في تعريف القرآن الكريم وذكر طرف مما يدل على فضله

المطلب الأول: في تعريف القرآن الكريم:

وأما تعريفه: فهو كلام الله، منه بدا، بلا كيفية قولاً، وأنزله على رسوله وحياً، وصدَّقه المؤمنون على ذلك حقاً، وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة، ليس بمخلوق ككلام البرية، فمن سمعه فزعم أنه كلام البشر فقد كفر. وقد أنزله الله تعالى على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم بواسطة جبريل عليه الصلاة والسلام.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ (الشعراء: ١٩٢-١٩٥).

وقد أعجز الله تعالى الإنس والجن عن أن يأتوا بسورة مثله، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ (يونس: ٣٨).

وهو مُتَعبد بتلاوته، مأجور من قرأه ابتغاء وجه الله تعالى الكريم، مأجور على حروفه الحرف بعشر حسنات كما قال صلى الله عليه وسلم: «من قرأ القرآن فله بكل حرف عشر حسنات، أما إني لا أقول الٓمٓ حرف، ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف» الحديث[1].

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي وقال عنه: صحيح غريب. ٤/ رقم الحديث ٣٠٥٧ .

وتدبُّر معانيه والعمل به يؤجر المسلم عليه قال صلى الله عليه وسلم: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة» الحديث[1].

ومعلوم أن أشرف العلوم وأجلها علم يفهم من كتاب الله تعالى.

وإن بداية القرآن الكريم هي سورة الفاتحة، وأفضل سورة فيه ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾. وخاتمته نهاية سورة الناس، في قوله تعالى: ﴿ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾ (الناس: ٦) من سورة الناس التي ما تعوذ متعوذ بأفضل منها مع سورة الفلق[2]. وقد رقى بهما جبريلُ عليه الصلاة والسلام رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، لما سُحر[3]. أعوذ بالله من كل سوء فهو تعالى حسبنا ونعم الوكيل.

المطلب الثاني: في ذكر طرف مما يدل على فضل القرآن الكريم:

غني عن البيان أن القرآن يكفي في ذكر ما يدل على فضله أنه كلام الله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ حمٓ ① تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ② كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ③ ﴾ (فصلت: ١-٣).

(١) الحديث رواه مسلم رقم/٨، رقم الحديث ١٨٨٨ .

(٢) الحديث رواه مسلم، بلفظ: «لم يُرَ مثلهن قط»، /٢ رقم الحديث ٢١٠١ .

(٣) الحديث أخرجه أبو نعيم في الدلائل من طريق أبي جعفر الرازي، وفي الصحيح لفظ: (ومن شر حاسد إذا حسد) فقط أخرجه مسلم رقم الحديث ١٤٤٣ .

قال عز وجل: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (الشعراء: ١٩٢)، ﴿وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ (البقرة: ١٤٩).

وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه ذكر في فضائل القرآن الكريم أحاديث كثيرة منها ما هو فيه بعامة، ومنها ما يخص بعض سوره الكريمة -وكل سوره كريمة- ومنها ما يخص بعض آياته، وكل آياته كريمة.

فما يعمه بالفضل قوله صلى الله عليه وسلم: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»[1].

ومنها ما رواه الترمذي بسنده إلى علي رضي الله عنه قال: أما إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ألا إنها ستكون فتنة، قلت: ما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسن، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق من كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: إنّا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به. من قال به صدق، ومن عمل به أُجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه، هُدي

---

(١) الحديث رواه البخاري رقم الحديث ٥٠٢٧.

إلى صراط مستقيم[1]».

وقد ورد في فضل بعض سوره أحاديث: كفضل الفاتحة وأنها أعظم سورة[2]، وسورة الإخلاص وأنها تعدل ثلث القرآن الكريم[3]، وأن حبها سبب في دخول الجنة[4] أسأل الله تعالى أن يجعلني ممن كان حبه لها سبباً في دخوله الجنة بفضل الله تعالى؛ فإني أشهد ربي الله تعالى على حب سورة ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾، كما وردت أحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تدل على فضل بعض الآيات الكريمة كفضل آية الكرسي[5]، ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ (البقرة: ٢٥٥)، وفضل خواتيم سورة البقرة[6] ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ ﴾ (البقرة: ٢٨٥-٢٨٦) وغير ذلك.

وقد أفرد للقرآن الكريم كثير من علماء الحديث -رحمني الله وإياهم- أبواباً وكتباً ذكروا فيها بعض ما ورد في فضله من أحاديث وآثار عن

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي ٤ / ٣٠٧٠ ووصفه بجهالة السند، وبأن في راويه عن علي رضي الله عنه مقالاً، أقول: ولكن معناه صحيح.

(٢) الحديث أخرجه البخاري برقم ٥٠٠٦.

(٣) الحديث أخرجه البخاري ٦ / ١٠٥ ومسلم انظر الحديث رقم ٢٠٩٩.

(٤) الحديث أخرجه الترمذي، وأخرج مسلم حديثاً يدل على حب الله تعالى لمن أحبها انظر الترمذي حديث رقم / ٣٠٦٥ ومسلم رقم / ٢١٠٠.

(٥) ورد أنه صلى الله عليه وسلم قال: «من قرأ آية الكرسي دبر كل صلاة مكتوبة لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت». قال السيوطي: أخرجه ابن حبان. الإتقان ٢ / ٣٣٦.

(٦) ورد أنه صلى الله عليه وسلم قال: «إن من قرأهما في ليلة كفتاه» رواه مسلم ٢ / ٢٠٩٧ وقيل كفتاه عن قيام الليل وقيل غير ذلك.

الصحابة رضوان الله عليهم فمن بعدهم ممن تبعهم بإحسان[1].

ويكفي القرآن فضلاً مع ما تقدم من آيات كريمة وأحاديث منيفة، قوله تعالى: ﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (المائدة: ١٥-١٦).

والله المستعان وعليه التكلان وهو حسبنا ونعم الوكيل.

---

(١) أفرد له البرهان بوري ت ٩٧٥هـ، رحمني الله وإياه كتاباً في فضائل القرآن الكريم وآداب حملته وحقوقه من ص ٢٤٨- ٣٥٢ انظر: «كنز العمال» ٢ / ٢٨٤- ٣٥٢.

المبحث الثاني
في التمسك بالقرآن الكريم ومظاهره

التمسك بالشيء: التزامه والعمل بمقتضاه، اقتناعاً به وتصديقاً بمدلوله، فالتمسك بالقرآن الكريم: الإيمان به وتصديق وعده ووعيده والقيام على تعلمه وتعليمه والاعتناء برسمه وضبطه، حتى يسهل حفظ نصه الكريم غضاً كما أنزل، وكذا العناية بتفسيره لفهم معانيه، ومعرفة مراميه حتى يتسنى للناس تدبره والعمل به، إذ كيف يمكن تدبره إلابعد معرفة معانيه قال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (ص: ٢٩).

التمسك بالقرآن الكريم: يكون بالإيمان بكل ما ورد فيه من أنه لا إله إلا الله، وحده لا شريك له في ربوبيته ولا في ألوهيته ولا في أسمائه وصفاته، فلا ينسبون فعله تعالى -فيما لا يقدر عليه إلا هو تعالى- إلى غيره، ولا يصرفون شيئاً من عبادتهم إلى سواه عز وجل، ولا يلحدون في أسمائه فلا يصفونه إلا بما وصف به نفسه تعالى أو وصفه به رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويعتقدون أنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، ويعتقدون أنه تعالى هو الإله الأحد، الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

ويكون التمسك بالقرآن الكريم بالإيمان بمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، نبياً لا يُعْبد ورسولاً لا يكذب بل يطاع ويتبع.

وكذا الإيمان بكل ما أخبر به من أنه رسول رب العالمين، جاءنا بالبينات والهدى، فأجبنا وآمنا واتبعنا، والإيمان بملائكة الله تعالى عليهم الصلاة والسلام، وكتبه ورسله عليهم الصلاة والسلام، واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره.

ويكون التمسك بالقرآن الكريم بالاستسلام لله تعالى بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة والخلوص له من الشرك.

فلا يُعبد إلا الله تعالى وحده لا شريك له، ولا يرجى سواه ولا يخاف إلا منه، فلا نافع إلا هو عز وجل، ولا ضارَّ إلا هو وحده، فلا يُتَعَلَّق بولي كائناً من كان، ليجلب نفعاً أو يدفع ضراً فيما لا يقدر عليه إلا الله تعالى وحده.

التمسك بالقرآن الكريم، بالإحسان بمراقبة الله تعالى وحده، فمرتبة المراقبة تحدو صاحبها إلى عمل كل خير والابتعاد عن كل شر، أملاً في وعد الله تعالى، وخوفاً منه ومن وعيده عز وجل سبحانه وبحمده.

المجتمع المتمسك بالقرآن الكريم مساجدهم عامرة بالمصلين المخبتين إلى الله تعالى رب العالمين، وفقراؤهم أغنياء بما أفاء الله تعالى عليهم من فضل أموال المزكين، ورمضانهم نهاره صيام عن كل ما حرم الله تعالى، وكذا ليله مع ما ازدان به من قيام، ومن تيسر حاله منهم حج لله تعالى واعتمر البيت الحرام.

المجتمع المتمسك بالقرآن الكريم يحكم بما أنزل الله تعالى، ويحكمه في عبادته ومعاملاته وأخلاقه وسلوكياته، وقضائه. قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴾ (البينة: ٥).

وقال تعالى رب العالمين: ﴿ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ (المائدة: ٤٤).

وقال تعالى: ﴿ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (المائدة: ٤٥).

وقال تعالى: ﴿ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ (المائدة: ٤٧).

وقال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴾ (النساء: ٦٥)[١].

من التمسك بالقرآن الكريم - التمسكُ بسنة نبيه صلى الله عليه وسلم[٢]. والأخذ بكل ما جاءت به من أحكام وأخلاق وآداب، سواء أكانت مبينة للقرآن الكريم، أم مؤسسة لذلك، وذلك هو العلم

---

(١) معنى (شجر): اختلط (حرجاً) ضيقاً (ويسلموا): ينقادوا تسليماً من غير معارضة. انظر تفسير الجلالين/ ١١٤ - دار المعرفة، بيروت وتفسير الطبري بحاشية القرآن الكريم لمحسن المعلم ٩٧.

(٢) السنة لغة: الطريقة، وشرعاً واصطلاحاً: ما نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قولاً أو فعلاً أو تقريراً، انظر المختصر في أصول الفقه لابن اللحام/ ٧٣، ٧٤.

الحقيقي: أن يتعلم المسلمون الكتاب العزيز وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى عن رسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ (النجم: ٣-٤).

وقال عز وجل: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ (الحشر: ٧).

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه»[1].

فلا يتأتى التمسك بالقرآن الكريم إلا بالتمسك بسنة النبي صلى الله عليه وسلم، سواء أكانت قولاً، أم فعلاً، أم تقريراً، أم صفة لها علاقة بالتبليغ عن الله تعالى ربنا.

وهذا التنويه عن التمسك بالسنة وبكونه واجباً كان يمكن الاستغناء عنه؛ لأنه أمر مركوز في طبيعة المسلم السليمة، لولا أنه نبتت في جسم الأمة الإسلامية نابتة سوء يدعون أنفسهم القرآنيين يرون أنهم ليسوا ملزمين إلا بما في القرآن الكريم، أما ما في السنة فليسوا مطالبين به، وقد كذبوا في زعمهم الأول، والثاني.

أما الأول : وهو نسبتهم أنفسهم إلى القرآن الكريم: فكيف تصح

---

(١) الحديث أخرجه أحمد ١/٣٥٦ وأبو داود ٢/٥٠٥ وإسناده صحيح.

نسبتهم إليه وهم لا يعملون به في مدلول قوله تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ (الحشر: ٧). وفي قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ (النجم: ٣-٤).

أما الثاني: فقد كذبوا في زعمهم أنهم ليسوا مطالبين بمدلول السنة، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ (الحشر: ٧).

ثم كيف قد عرف هؤلاء أوقات الصلاة، وعدد ركعات الفرائض، وكيفية الحج، ومقادير الزكاة إن كانوا يصلون أو يزكون أو يحجون فأين توضيح ذلك وكثير غيره، إلا بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

ولا يبعد أن يكون هؤلاء ممن عَنَى رسول الله صلى الله عليه وسلم في خوفه من أن يردَّ بعض الناس بعض الأحكام الثابتة في الشرع بالسنة المطهرة بتلك الحجة الواهية حيث قال صلى الله عليه وسلم: «ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل ينثني شبعان على أريكته، يقول: عليكم بالقرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، ألا لا يحل لكم لحم الحمار الأهلي، ولا كلُّ ذي ناب من السباع، ألا ولا لقطة من مال معاهد إلا أن يستغني عنها صاحبها، ومن نزل بقوم، فعليهم أن يقروه، فإن لم يقروه فله أن

يعقبهم بمثل قراه»[1].

المجتمع المتمسك بكتاب الله تعالى: يقوم بواجب الدعوة إلى الله تعالى، ليعبده عباده وحده لا شريك له متبعين في ذلك هدي رسوله صلى الله عليه وسلم وحده، فذلك معنى أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة: ٧١).

وقال تعالى: ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ[2] ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (التوبة: ١١٢). وقال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِۗ ﴾ (آل عمران: ١١٠). هذا والله تعالى المستعان وهو حسبنا ونعم الوكيل.

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود في لزوم السنة ٢ / ٥٠٥ انظر كتاب مسند الشاميين من مسند الإمام أحمد للدكتور على جماز ١ / ٣٦٢ .

(٢) السائحون: أي الصائمون. (انظر تفسير الجلالين ١٦١).

المبحث الثالث
في أثر التمسك بالقرآن الكريم في حياة المسلمين وما شوهد منه

وتحته مطالب ثلاثة:

المطلب الأول: في أثر التمسك بالقرآن الكريم:

عرفنا مما تقدم، طرفاً من كيفية التمسك بالقرآن الكريم وأنه باختصار هو: الإيمان به والتصديق بوعده ووعيده، والعمل به والدعوة إليه، والصبر على الأذى في ذلك. ولا شك أن أثر ذلك هو سعادة الدنيا والآخرة، لأن المتمسك بالقرآن الكريم هو من اتقى الله تعالى، ولا يسعد في الدنيا والآخرة إلا من اتقى الله تعالى.

قال الله عز وجل: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ (الطلاق: ٢-٣).

وقال رب العالمين: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾ (الطلاق: ٤). وقال إله العالمين: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴾ (الطلاق: ٥).

فماذا بقي من خيري الدنيا والآخرة يريده المتقي بعد هذه الوعود من رب العالمين الذي لا يخلف الميعاد؟

ولست أرى السعادة جمع مال   ولكن التقي هو السعيد

من تمسك بالقرآن الكريم فقد نُفخت فيه روح الهداية والتوفيق لكل خير، وقد استنار بالنور الذي يبدد ظلام الجهل ويهدي صاحبه إلى سواء الصراط.

قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا[1] مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ ﴾ (الشورى: ٥٢ -٥٣).

من تمسك بالقرآن الكريم في جميع شؤونه، فقد اهتدى كل الهدى، ومن اهتدى بهدى الله فقد فاز في دنياه وأخراه.

قال تعالى: ﴿ الم ﴿١﴾ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (البقرة: ١-٥).

وقال تعالى عن المتمسك بهداه: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (البقرة: ٣٨).

وقال تعالى: ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ (طه: ١٢٣).

فقد تكفل الله تعالى لمن تمسك بالقرآن الكريم بألا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة[2].

---

(١) روحاً: أي القرآن لأنه تحيا به القلوب، (انظر الجلالين ٦٤٦).

(٢) انظر: (التفسير الميسر) لنخبة من العلماء/ ٣٢٠.

من تمسك بالقرآن الكريم مكن له الله تعالى في الأرض، ويسَّر له أسباب الاستقرار وعدم الاضطراب، قال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ﴾ (النور: ٥٥).

واعتبر ذلك بحال رعيل هذه الأمة الأول الذين كانوا أكثر الناس تمسكاً بالقرآن الكريم وأعظمهم اتباعاً له، كيف فتح الله تعالى عليهم البلاد وقهر لهم العباد، وأعانهم حتى تهاوت لهم عروش الجبابرة من أهل الكفر والعناد، فأصبحوا بالتمسك بالقرآن الكريم سادة بعد أن كانوا مسودين، وأصبحوا قادة بعد أن كانوا مستعبدين.

وصدق الله العظيم الذي قال وقوله الحق: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (آل عمران: ٢٦).

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يقول ولا يقول إلا حقاً: «إن الله تعالى ليرفع بهذا القرآن أقواماً ويضع به آخرين»(١). أسأل الله تعالى أن يرفعنا به أحياء وأمواتاً ومبعوثين آمنين آمين.

من تمسك بالقرآن الكريم -وأسأل الله تعالى أن نكون منهم- أمنه الله تعالى من الخوف في نفسه وأهله، وفي عاجله وآجله.

(١) الحديث، أخرجه مسلم ٢/ ٥٠٢.

قال تعالى: ﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (البقرة: ٣٨). والخوف هنا نكرة في سياق النفي تعمّ[1].

وقال تعالى عن المتمسكين بالقرآن الكريم وهم المؤمنون العاملون الصالحات: ﴿ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ (النور: ٥٥). وقال عز من قائل عليماً: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ (الأنعام: ٨٢).

وقال تعالى عمن استقام على القرآن الكريم متمسكاً به -أسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم-: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (الأحقاف: ١٣).

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ (فصلت: ٣٠-٣٢).

ومن أثر التمسك بالقرآن الكريم: القدرة بعون الله تعالى على إقامة صرح الدولة الشامخ المبني على تقوى من الله تعالى ورضوان فلا يتزعزع بناؤها، ولا يتهلهل أساسها ما دام أهلها متمسكين بالقرآن الكريم؛ وذلك لأن القرآن الكريم وضع للمسلمين أسس إقامة الدولة من

---

(١) النكرة في سياق النفي من صيغ العموم، وقد تكون نصاً فيه وقد تكون ظاهرة. انظر: «مذكرة الأصول» للشنقيطي / ٣٦٢ - ٣٦٤.

حيث المحافظة على دينها الذي هو عصمة أمرها، ودنياها التي فيها معاشها، وآخرتها التي إليها معادها.

وقد تقدم طرف مما تقيم به الدولة دعامة دينها، وبه يستقيم أمرها وتسعد في معادها، أما ما يختص بشؤون دنياها فقد رسم القرآن الكريم طرق السياسة الصحيحة التي يُساس بها الناس فيستقيم أمرهم.

كما أوضح أسس المعايير الاجتماعية التي تقيم العلاقات بين الأفراد والجماعات.

كما بين حقائق بناء اقتصاد الدولة على أسس سليمة لا ينهار معها ولا يضطرب.

كما يبين القرآن الكريم أسباب القوة ليؤخذ بها حتى يبقى صرح الدولة فارعاً شامخاً، وبين أسباب الضعف لتجتنب، حتى لا يعصف بالدولة عواصف الهدم ولا يعمل فيها معاول التخريب.

وإليك بعض ما ذكر القرآن الكريم فيما تقدم:

أما السياسة: فهي تدبير الأمور، وإدارة الشؤون[1]، وينتظمها قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ (يوسف: ٤٠). وقوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ (النساء: ٦٥).

---

(١) انظر: «الإسلام دين كامل» محمد الأمين الشنقيطي رحمني الله تعالى وإياه ص ٢٦.

فالحاكم الذي يسوس أهل دولته ويدبر شؤونهم بأمر الله تعالى ونهيه، إنما يضمن لهم سعادة الدنيا والآخرة.

وتنقسم السياسة إلى قسمين: داخلية وخارجية، والخارجية يدور رحاها على قطبين أساسيين.

الأول: إعداد القوة الكافية لحماية الدولة من عادية المعتدين، وأخذ الحذر من أعداء المسلمين، وقد أوضح الله تعالى ذلك بقوله عز وجل: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ (الأنفال: ٦٠). وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴾ (النساء: ٧١).

الثاني: الاتحاد الشامل حول تلك القوة وعدم التفرق؛ لأن الاتحاد قوة والتفرق ضعف. قال تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ (آل عمران: ١٠٣). وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ (الأنفال: ٤٦).

وقد حذرت السنة المطهرة المسلمين من مغبة الفرقة والتشرذم، حيث أمر صلى الله عليه وسلم الأمة بأنه إذا أتاهم رجل يريد الإمارة، وكان أمرهم قبل ذلك مجتمعاً على أحدهم، أن يقتلوا الثاني كائناً من كان، أو كما قال صلى الله عليه وسلم[1].

---

(١) أخرج مسلم حديثاً بهذا المعنى انظر الحديث رقم ١٢٣٤ ولفظه: قال صلى الله عليه وسلم: «إنه ستكون هنات وهنات، فمن أراد أن يفرق هذه الأمة وهي جميع فاضربوه بالسيف كائناً من كان».

كما لم يغفل القرآن الكريم التخطيط لما قد يطرأ على المسلمين من ضعف يحتاجون معه إلى إبرام العهود وطرح خيار الهدنة، وما يتبع ذلك من حل رباط المعاهدات عند الحاجة إليه. قال تعالى في البراءة من المشركين: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَـٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (التوبة: ٤). وقال تعالى عن المشركين: ﴿ فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ ﴾ (التوبة: ٧).

وقال تعالى في حال حل العهود لسبب طارئ: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ (الأنفال: ٥٨).

إلى غير ذلك مما ورد في القرآن الكريم والسنة المطهرة مما ينظم هذا النوع من السياسة، وما دام القرآن الكريم قد نظم من ذلك ما يخص المسلمين مع الكفار، فلأن يكون قد نظم ذلك فيما بين المسلمين من باب أولى، فقد أعطى في ذلك وغيره كل ذي حق حقه.

أما السياسة الداخلية: فترجع في حقيقتها إلى ما يكفل نشر الأمن والطمأنينة داخل المجتمع، وكف المظالم ورد الحقوق إلى أهلها(١).

قال العلامة محمد الأمين الشنقيطي: والجواهر العظام التي عليها مدار السياسة الداخلية ست:

---

(١) انظر المصدر السابق «الإسلام دين كامل» للشنقيطي.

الأول: الدين: وقد جاء الشرع بالمحافظة عليه، لذا قال صلى الله عليه وسلم: «من بدل دينه فاقتلوه»[1] وفي ذلك ردع بالغ عند تبديل الدين وإضاعته.

الثاني: الأنفس: وقد شرع الله تعالى في القرآن الكريم القصاص محافظة عليها، قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ (البقرة: ١٧٩).

وقال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى﴾ (البقرة: ١٧٩).

الثالث: العقول: وقد جاء القرآن الكريم بالمحافظة عليها قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (المائدة: ٩٠).

وفي الحديث الشريف: «وما أسكر كثيره فقليله حرام»[2].

ولأجل المحافظة على العقول أوجب الشرع الحد على شارب الخمر.

الرابع: الأنساب: وللمحافظة عليها شرع الله تعالى حد الزنى قال تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾ (النور: ٢).

وقد رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم الزاني المحصن[3].

---

(١) الحديث رواه البخاري ٨/ ٥٠.

(٢) الحديث أخرجه أبو داود رقم/ ٣٦٨١.

(٣) كما جاء في رجم ماعز والغامدية رضي الله عنهما، وقد أخرجه مسلم/ ٥ حديث رقم ١٠٣٩. معنى المفردات: (الميسر) القمار، (الأنصاب) الأصنام، (الأزلام) أقداح أيْ سهام الاستقسام فما ظهر لأحدهم فيها من فعل أو ترك عمل به، (رجس) خبيث مستقذرة انظر: (الجلالين/ ١٥٤).

الخامس: الأعراض: ولأجل المحافظة عليها شرع القرآن الكريم جلد القاذف ثمانين جلدة قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ ﴾ (النور: ٤- ٥).

فهذا في غاية الزجر عن الوقوع في أعراض الناس بالقذف، والجلد، والوصم بالفسق، ورد الشهادة أبداً حتى يتوب.

السادس: الأموال: ولأجل المحافظة عليها شرع الله تعالى قطع يد السارق، قال الله تعالى: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (المائدة: ٣٨) الآية[١]. هذا وإن مما يعكر صفاء السياسة على الساسة المسلمين ما قد يتعرض له المجتمع الإسلامي من ضعف في الصف، واختلاف في الكلمة، وتسلط عدوهم عليهم.

وهذا من سنن الله تعالى الكونية أن يبتلي عباده بما شاء من هذه الأمور وغيرها، أسأل الله تعالى أن يجعل ابتلاءنا وخيرنا في غمرنا بنعمه وتوفيقنا لشكر ربنا الله تعالى مسديها إنه تعالى ربي جواد كريم آمين.

---

(١) انظر: «الإسلام دين كامل» للعلامة الشنقيطي محمد الأمين بتصرف من ص ٢٨ - ٣٠.

معنى المفردات: (نكالاً) عقوبة لهما، (انظر تفسير الجلالين/١٤٣).

وقد بيَّن القرآن الكريم سبب اختلاف الكلمة وحذَّر منه تعالى، فسببه اختلاف القلوب؛ لأن القلب إذا صلح صلح الجسد كله، وإذا فسد فسد الجسد كله، كما جاء في الحديث الشريف[1].

أما بيانه تعالى سببه، ففي قوله تعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ (الحشر: ١٤). أما التحذير منه، ففي ذكره عز وجل ذلك عن اليهود في معرض الذم، ثم ببيان سببه في قوله عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ (الحشر: ١٤). فهذا منتهى التحذير عن أن يقع المسلمون فيه؛ لأنه أولاً من صفات اليهود الذميمة، ولأن سببه انعدام العقل.

وقد بين سبحانه وتعالى علاج هذا الداء العضال الذي لم يفتك بالأمة في ماضيها ولا حاضرها مثلُه، وذلك في بيان القرآن الكريم لعلاج ضعف العقل الذي هو سبب اختلاف الكلمة قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ (الأنعام: ١٢٢).

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ (البقرة: ٢٥٧).

وقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الملك: ٢٢).

---

(١) كما قال صلى الله عليه وسلم: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب». رواه البخاري ١/٣٩.

فبين تعالى أنه هو الذي يحيي القلوب الميتة بنور وحيه، وتوفيقه للعمل به، كما بيّن تعالى أن من يمشي على صراط مستقيم هو المرضي، ولا يهدي هذا الصراطَ إلا الله تعالى وحده كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (النور: ٤٦).

إذاً، فباتباع القرآن الكريم، تحصل العقلانية المرضية التي تمتلئ معها القلوب إيماناً وحكمة فلا يختلف أصحابها، بل يجتمعون على الحق والهدى، فيبقون أقوياء، محترمي الجانب، لا يستطيع عدوهم النيل منهم.

وقد بين القرآن الكريم سبب الضعف وتسلط العدو على المسلمين، وأنه هو اختلاف الكلمة والتنازع، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ (الأنفال: ٤٦). وقال تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ (آل عمران: ١٦٥).

قال الشيخ الأمين(١): إن السبب الذي من عند أنفسهم، هو ما أوضحه الله تعالى من قوله الكريم في الآية الأخرى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم

(١) الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي علامة زمانه ولد بموريتانيا ١٣٢٥هـ وطلب العلم فيها ونبغ في علوم شتى أهمها التفسير، له مؤلفات عدة أهمها كتابه في التفسير أضواء البيان توفي بمكة المكرمة عام ١٣٩٣هـ رحمني الله تعالى وإياه.

﴿ مَّن يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران: ١٥٢).

فأنت ترى أن سبب الضعف هو الفشل واختلاف الكلمة والرغبة في الدنيا وإيثارها على الآخرة[١]، ومتى حصل الضعف أصبح المسلمون لقمة سائغة لعدوهم.

وقد بين القرآن الكريم علاج ذلك وما به ينْسدُّ عن المسلمين ثلْمته ويكتفون شر عدوهم المتربصين بهم الدوائر.

وذلك العلاج هو الإخلاص لله تعالى وحده والتوجه إليه دون من سواه.

قال تعالى عن المؤمنين المتوكلين عليه تعالى في كل حال ومنه حال الشعور بالضعف أمام الكفار: ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ (الفتح: ١٨)، وكان من نتائج ذلك الإخلاص أن جعلهم قادرين على ما كانوا عنه عاجزين قال تعالى: ﴿ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ (الفتح: ٢١).

وكذلك كان الإخلاص لله تعالى والتوكل عليه سبباً لنصر الله تعالى للمؤمنين في غزوة الأحزاب، حيث قال تعالى عنهم أنهم قالوا: ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٢٢).

---

(١) انظر: «الإسلام دين كامل» ٣٢.

فلما كان هذا حالهم جاء نصر الله تعالى الذي لا غالب إلا هو، جاء بأن أرسل الله تعالى على أعدائه جنوداً من عنده لم يرها المؤمنون، كما أرسل عليهم ريحاً باردة في ليلة مظلمة بعثرت آنيتهم، وأطفأت نيرانهم، فلم يلو أحد منهم على صاحبه.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ (الأحزاب: ٩).

وقال تعالى: ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا ٢٥ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمۡ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ فَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ وَتَأۡسِرُونَ فَرِيقٗا ٢٦ وَأَوۡرَثَكُمۡ أَرۡضَهُمۡ وَدِيَٰرَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُمۡ وَأَرۡضٗا لَّمۡ تَطَـُٔوهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا ﴾ (الأحزاب: ٢٥-٢٧).

وإذا كان بالتوكل على الله تعالى وصدق التوجه إليه يكسر الحصار العسكري، فبه كذلك يكسر الحصار الاقتصادي.

ألا ترى ما قاله الله تعالى عن المنافقين: ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ ﴾ (المنافقون: ٧).

فقال لهم تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ ﴾ (المنافقون: ٧).

وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ (التوبة: ٢٨).

أما الاقتصاد: فقد بين القرآن الكريم أصوله ومسائله التي يرجع إليها وهي في جملتها ترجع إلى أصلين.

الأصل الأول: حسن النظر في اكتساب المال: فقد أوضح الشارع كيفية اكتساب المال من طرقه المباحة وبأساليبه المناسبة، بحيث لا تقدح في الدين ولا في المروءة قال الله تعالى: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ (الجمعة: ١٠).

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾ (النساء: ٢٩).

وقال تعالى: ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ (البقرة: ٢٧٥).

وقال تعالى: ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ (الأنفال: ٦٩).

وقال صلى الله عليه وسلم: «إن الروح الأمين نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها، فاتقوا الله تعالى وأجملوا في الطلب»[(١)] الحديث.

الأصل الثاني: حسن النظر في صرف المال في مصارفه:

فقد أمر القرآن الكريم بالكرم والاقتصاد في الصرف، بحيث لا يكون بخل ولا إسراف قال تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا

(١) الحديث أخرجه أبو نعيم في الحلية بسند صحيح. (الروع) العقل والقلب والبال والخلد. انظر: (مختار الصحاح ٢٦٣).

كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ (الإسراء: ٢٩)[1].

وقال تعالى في معرض مدح عباد الرحمن الطيبين: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ (الفرقان: ٦٧).

وقال تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ﴾ (البقرة: ٢١٩).

وقال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ (البقرة: ٢١٥).

وقد حذر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم من مغبة جمع المال إلا من طريق مباح، ومن صرفه إلا في سبيل صلاح في قوله صلى الله عليه وسلم: «لن تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيمَ أفناه، وعن شبابه فيمَ أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيمَ أنفقه وعن علمه ماذا عمل به» الحديث[2].

أما المعايير الاجتماعية التي تنظم أوجه العلاقات بين الأفراد والجماعات: فقد أعطاها القرآن الكريم عناية فائقة:

قال العلامة محمد الأمين الشنقيطي في هذا المقام:

---

(١) معنى المفردات:

(ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك) أي لا تمسكها عن الإنفاق كل المسك، ولاتبسطها في الإنفاق، كل البسط فتقعد ملوماً، عائد إلى الأول، محسوراً: راجع إلى الثاني. انظر المصدر السابق "تفسير الجلالين" (ولم يقتروا) لم يضيقوا (وكان بين ذلك قواماً) أي بين الإسراف والإقتار (قواما)، وسطا. المصدر نفسه.

(٢) الحديث أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، رقم الحديث ٢٥٣٢.

فانظر إلى ما يأمر به الرئيسَ الكبيرَ أن يفعله مع مجتمعه: ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الشعراء: ٢١٥).

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

وانظر إلى ما يأمر به المجتمعَ العام أن يفعله مع رؤسائه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ ﴾ (النساء: ٥٩).

وانظر إلى ما يأمر الإنسان أن يفعله مع مجتمعه الخاص كأولاده وزوجته: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ (التحريم: ٦).

أعوذ بالله تعالى ربي من النار. وانظر كيف ينبهه على الحذر والحزم في مجتمعه الخاص، ويأمره إن عثر على ما لا ينبغي منهم، أن يعفو ويصفح، فيأمره أولاً بالحذر والحزم، وثانياً بالعفو والصفح.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التغابن: ١٤).

وانظر إلى ما يأمر به أفراد المجتمع العام أن يتعاملوا به فيما بينهم: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (النحل: ٩٠).

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ﴾ (الحجرات: ١٢)[1].

وقال تعالى: ﴿ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (الحجرات: ١١).

وقال تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ (المائدة: ٢).

وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (الحجرات: ١٠).

وقال تعالى: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ (الشورى: ٣٨).

ولما كان المجتمع لا يسلم فرد من أفراده كائناً من كان من مناوئ يناوئه ومعادٍ يعاديه من مجتمعه الإنسي والجني.

ليس يخلو المرء من ضد ولو حاول العزلة في رأس الجبل

وكان كل فرد محتاجاً إلى علاج هذا الداء، أوضح تعالى علاجه في ثلاثة مواضع من كتابه العزيز بين فيها أن علاج المناوئ من الإنس يكون بالإعراض عنه، ومقابلة إساءته بالإحسان. وأن شيطان الجن لا علاج لدائه إلا بالاستعاذة بالله تعالى من شره:

---

(١) معنى المفردات: (ولا تجسسوا) لا تتبعوا عورات المسلمين بالبحث عنها، (ولا يغتب بعضكم بعضاً) لا يذكره بسوء و إن كان فيه.

(ولا تلمزو أنفسكم) أي لا تعيبوا فتعابوا، نفس المصدر "الجلالين".

الموضع الأول: في قوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ (الأعراف: ١٩٩). وهذا في شأن الإنسي.

وفي شأن شيطان الجن قال تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (الأعراف: ٢٠٠)[١].

الموضع الثاني: في سورة المؤمنون قال تعالى: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ (المؤمنون: ٩٦) في شأن الإنسي، وقال في نظيره الجني: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ (المؤمنون: ٩٧-٩٨).

الموضع الثالث: في سورة فصلت، وقد زاد فيه تعالى التصريح بأن ذلك العلاج يقطع ذلك الداء الشيطاني، وزاد فيه أيضاً أنه إنما يعطاه من كان ذا نصيب أوفر وحظ أكبر.

قال تعالى: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ (فصلت: ٣٤، ٣٥).

هذا في شأن الشيطان الإنسي، وقال تعالى في نظيره

---

(١) معنى الآية: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ ﴾ أي إن يصرفك عن الخير صارف، فاستعذ بالله.

وفيه إدغام إن الشرطية في ما الزائدة. انظر المصدر السابق.

الجني: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (فصلت: ٣٦).

وقد بين تعالى: أن ذلك التعامل بالرفق لخصوص المسلمين دون الكافرين قال تعالى: ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (المائدة: ٥٤)[١].

وقال تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ (الفتح: ٢٩).

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ (التحريم: ٩).

فالشدة في محل اللين حمق وخرق، واللين في محل الشدة ضعف وخور:

إذا قيل حلم قل فللحلم موضع　　　وحلم الفتى في غير موضعه جهل[٢]

تلك بعض خيرات التمسك بالقرآن الكريم في حياة الفرد والجماعة والدولة بل والأمة، من أرادها فليرجع إلى كتاب ربه الكريم ففي ذلك الخير العميم والهدي إلى الصراط المستقيم والله المستعان وهو حسبنا ونعم الوكيل.

---

(١) الآية ٥٤ من سورة المائدة. معنى المفردات:

(أذلة على المؤمنين) عاطفين عليهم (أعزة على الكافرين): أشداء عليهم وهذه من صفات قوم أبي موسى الأشعري رضي الله عنه كما أخبر بذلك رسول الله صلى عليه الله وسلم. انظر: نفس المصدر "الجلالين".

(٢) انظر: «الإسلام دين كامل» للشيخ الأمين ص ١٩-٢٤، بتصرف.

المطلب الثاني: فيما شوهد من خير تطبيق القرآن الكريم في ماضي الأمة:

لقد بنى القرآن الكريم صرح دولته الشامخ على تقوى من الله تعالى ورضوان، يرفرف عليها ظل الإسلام والإيمان والإحسان، يعبد أهلها الله تعالى وحده لا يشركون به شيئاً، فقوي أساسها وعلا بنيانها وعز بفضل الله تعالى جانبها ، فعاش الناس فيها بخير، قضى العمل بالقرآن الكريم على الرذيلة، ونمت به كل فضيلة فتراحم المسلمون فيما بينهم، وكانوا يداً واحدة على عدو الله تعالى وعدوهم واستراح القضاء، فلم تكد توجد قضية يترافع الناس فيها إليه إلا على وجه الندور لمعرفة كل فرد بما له وما عليه، ولعمل كل بما أوحى الله تعالى في القرآن الكريم إليه.

نعم كان إشعاع نور القرآن الكريم الأول قد انبثق، من جنبات مكة المكرمة وانتشر نوره متسارعاً إلى المدينة فاستنارت به ربوعها وسعدت بخيره أفرادها وجموعها. وواصل سيره الميمون حثيثاً، فجبلت قلوب عباد الله تعالى عليه، ومن لم يصله بعد سماعه به جاء هو راغباً إليه، فانشرحت به وله صدور العباد، فعم خيره ما إليه وصل نوره من البلاد، فلم ينتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى حتى أصبحت للدين في الجزيرة العربية الكلمة بدون منازع يذكر، ولا مناوئ في مدر ولا وبر. حتى نهى رسول الله

صلى الله عليه وسلم: «عن أن يجتمع في الجزيرة العربية دينان» الحديث[1].

لقد كان للإسلام الجولة في جزيرة غاب عنها نور الوحي أزماناً متطاولة، كما قال الله تعالى في الدلالة على صدق رسالة سيد الخلق ورسول الحق محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (القصص: ٤٤-٤٦)[2].

ولم يمض سوى وقت قليل بالنسبة لما أنجز فيه أهل القرآن الكريم من

---

(١) ورد بذلك المعنى حديث صحيح أخرجه الإمام البخاري رحمني الله تعالى وإياه، في إخراج اليهود والمشركين من جزيرة العرب ٤ / ٦٥ -٦٦.

(٢) معاني بعض الألفاظ:

(وما كنت) يا محمد صلى الله عليه وسلم (بجانب الغربي) الواد أو المكان القريب من موسى عليه الصلاة والسلام (إذ قضينا) أي أوحينا (إلى موسى الأمر) بالرسالة إلى فرعون (وما كنت من الشاهدين) لذلك فتعلمه. (فتطاول عليهم العمر) طالت أعمارهم فنسوا العلم وانقطع الوحي ونسوا العهد فجئنا بك يا محمد صلى الله عليه وسلم رسولاً، وأوحينا إليك خبر موسى عليه السلام (ثاوياً) مقيماً، (كنا مرسلين) لك وإليك بأخبار المتقدمين (وما كنت بجانب الطور) الطور: الجبل (إذ نادينا) حين نادينا موسى عليه السلام، أن خذ الكتاب بقوة، ولكن أرسلناك "رحمة من ربك" لأهل مكة "لعلهم يتذكرون" انظر المصدر السابق "الجلالين" بتصرف.

أعمال الخير حتى أنفقت كنوز قيصر وكسرى[1] كنوز أعظم إمبراطوريتين في ذلك العصر في سبيل الله تعالى كما أخبر بذلك الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم[2]، وذلك بعد فتح بلادهم وحلول الإسلام فيها محل الضلال، ولم يمض سوى زمن يسير – بالنسبة لما حقق فيه أهل القرآن الكريم من فتوحات باهرة، توالت فيها عليهم من الله تعالى انتصارات باطنة وظاهرة– لم يمض سوى وقت قليل، حتى رفرفت راية التوحيد «لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم» على أجزاء من هذا العالم واسعة، من الصين شرقاً إلى المحيط الأطلسي ووسط أوربا غرباً.

ومن وسط آسيا الصغرى شمالاً إلى السودان والصحراء الكبرى بأفريقيا جنوباً[3].

ورغم سعة هذه الدولة وترامي أطرافها، واختلاف أجناس وعادات وأعراف سكانها، فقد عمَّ فيها خير العمل بالقرآن الكريم فعاش الناس في أمن واطمئنان وعز ورخاء، فازدهرت الحركة العلمية فاستنارت عقول الناس وانتعش الاقتصاد فارتاحت من ضنك العيش، حتى قال

---

(١) قيصر وكسرى، قيصر هو من ملك الروم وكسرى هو من ملك فارساً، وهذه اصطلاحات قديمة، ومثلها فرعون لمن ملك مصر، والنجاشي لمن ملك الحبشة والله تعالى رب العالمين أعلم سبحانه وتعالى وبحمده.

(٢) ورد بذلك المعنى حديث صحيح أخرجه الإمام مسلم. برقم ١٩٩٨.

(٣) انظر جوانب من تاريخ المسلمين. د. عبد الله محمد صالح العثيمين/ ٦.

قائلهم وقد أظلته سحابة: اذهبي فحيثما أمطرت فخراجك لنا[1].

فذابت فوارق العادات وانصهر اختلاف الرغبات في بوتقة العمل بالقرآن الكريم، حتى أصبح سلوك العربي والعجمي واحداً، يعبدون رباً واحداً، ويستسلمون لأمره ويبتعدون عن نهيه، فعاش الناس في ظل العمل بالقرآن الكريم في أرغد عيش في معاشهم، مع ما ينتظرون من سعادة عند الله تعالى في ميعادهم.

ولم يكن الله تعالى ليغير ما بقوم حتى يكونوا هم الذين يغيرون ما بأنفسهم، سنة الله تعالى التي لا تتبدل ونظامه الذي لا يتحول كما قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (الأنفال: ٥٣).

وقال تعالى: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ (الفتح: ٢٣).

وقد بدأ الإسلام –دينُ القرآن الكريم– رحلة اغتراب عن المسلمين، منذ أن بدؤوا هم في الاغتراب عنه، واستمر البون بينهما يتسع والشق بين الإسلام والمسلمين يزيد فلا يرتقع، بقدر بعدهم عن القرآن الكريم، شيئاً فشيئاً حتى آل أمرهم إلى ما ترى، بان فيه صبح الحقيقة لذي عينين، فأصبحت دولة الإسلام دويلات، حين حلت الأنانية حباً للمناصب محل إنكار الذات، في سبيل لَمِّ شعث المسلمين وجمع كلمتهم حول آيات القرآن الكريم البينات.

---

(١) تروى عن الخليفة هارون الرشيد وهي مشتهرة على ألسنة المؤرخين.

فنزل الحق عن نصابه، ورفل الباطل المزيف في ثيابه، وضاعت الأمانة وانتشرت الخيانة، وتفرقت كلمة المسلمين بعد اجتماعها، فتاه أكثرهم في بيداء الضلال، وانتشر فيهم الجهل، حتى لم يفرقوا بين حرام وحلال، فانفلت من أيديهم زمام القيادة، وأصبحوا -إلا من رحم ربي منهم- تابعين فيما لا خير لهم فيه بعد أن كانوا متبوعين فيما فيه سعادة الدنيا والآخرة.

ومع ذلك، فلا تزال طائفة من أمة القرآن الكريم متمسكين به مهتدين بهديه، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، قائمين لله تعالى بأمره منتهين عن نهيه يهتدون بالقرآن الكريم وبه يعدلون(١).

فعسى أن يتأسى بهم من خالفهم من المسلمين ويرجعوا إلى رشدهم بالعودة إلى القرآن الكريم والاهتداء بهديه القويم، فعندها سيرد الله تعالى لأمة الإسلام مكانتها العليا، ويُعيدها إلى الخير سيرتها الأولى.

والله تعالى المستعان وعليه التكلان وهو حسبنا ونعم الوكيل.

---

(١) كما ورد بذلك المعنى حديث قال فيه صلى الله عليه وسلم: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين» الحديث أخرجه البخاري ٩ / ٤١٤ ومسلم.

المطلب الثالث: فيما هو مشاهد من أثر التمسك بالقرآن في حياة المسلمين اليوم:

سبق أن تكلمت على أثر التمسك بالقرآن الكريم في حياة المسلمين وما عاد عليهم ذلك التمسك به من نفع في حياتهم، وما مكن الله تعالى لهم بسببه في الأرض، حتى أقاموا دولة انتشرت بالخير العميم، في القارات الثلاث المعروفة في ذلك الزمان، في وقت قصير جداً في أعمار الناس فضلاً عن أعمار الدول بالمقارنة بما أنجز فيه من أعمال خيّرة وإنجازات عظيمة.

فأكل الناس في تلك الدولة في ظل القرآن الكريم والتمسك به، أكلوا من فوقهم، ومن تحت أرجلهم، واستقام على الحق أمرهم، وثابوا بعد الضلال إلى رشدهم فسعدوا في معاشهم، وأملوا من ربنا تعالى باتباع القرآن الكريم، الخير في معادهم.

أما اليوم: وقد كادت غربة الإسلام تبلغ غايتها، والعزلة عن منهج القرآن الكريم تصل نهايتها، فلا تكاد ترى للعمل به في حياة كثير من المسلمين أثراً، ويعز على المتأمل في حال أكثر المنتسبين إلى القرآن الكريم أن يرى له في سلوكهم نهياً ولا أمراً. أما الحكم به بين عباد الله في معاملاتهم وأقضياتهم، فيقل جداً أن تعرف بينهم وبينه -في ذلك المجال- نسباً أو صهراً .

وإن كان العمل بالقرآن الكريم يترك أثره الحسن في حياة الفرد والمجتمع ويورث سعادة الدنيا والآخرة، فإن هجره قد أورث صاحبه سلوكاً منحرفاً وشقاء عياذاً بالله تعالى فأفراد تلك المجتمعات قد مُسخت شخصيتها وضلت في بيداء الضياع هويتها، وتخبطت حكوماتها سياسياً واقتصادياً واجتماعياً في مسيرتها.

قال الله تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ (طه: ١٢٣-١٢٤).

وقال تعالى: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ (الحج: ٤٠-٤١).

لقد تنكَّب كثير من الناس في هذا العصر، صراط القرآن المستقيم أفراداً وجماعات وحكومات، فاحترقوا في سعير المعاصي، فتراهم صرعى في أودية الهلاك وغرقى في بحار الردى، لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً ولا يأمن إنسان على نفس ولا عرض ولا مال، إلا على وجه الندور، تراهم غرقى حيث اضطربت سفُن السياسة في بحار الردى بعواصف الخلافات المدمرة والأهواء المبعثرة التي لا يحدو أصحابها إلا حبُّ المناصب والرغبة في الظهور، فيضطرب أمن البلاد والعباد وتلتهم نيرانُ الجشع الأخضرَ واليابسَ مما فيها من خيرات

واقتصاد، ويعم جنباتها الشرُّ والفساد.

قال الله تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (الروم: ٤١).

إن كان الأمر كذلك، فإننا -بحمد الله تعالى- نعيش في هذه البلاد، بلاد المملكة العربية السعودية التي آثرت في نشأتها الخيرة الأولى أن تكون دولة تتفيأ ظلال القرآن الكريم رغبة منها – ولا أزكي على الله تعالى أحداً – في أن تنعم بما وعد الله تعالى به من تمسك بالقرآن الكريم، من سعادة في الدنيا والآخرة.

فأعلنت القرآن الكريم دستورها يتعلمه صغيرها وكبيرها، فلا تخلو منه مرحلة دراسية مطلقاً. بدءاً من رياض الأطفال، حتى الدكتوراه، وفتحت له المدارس الخاصة ودعمت الجمعيات الخيرية القائمة على تعليمه، في دورها الخاصة، والمساجد في مختلف الأحياء، وقد أعطت طلاب مدارس تحفيظ القرآن الكريم عناية خاصة فأَجْرت لهم مكافآت شهرية، و أجرت بينهم المسابقات التي تنتهي بإعطاء مكافآت وشهادات للمتفوقين كل ذلك يصب في قالب حفز الطلاب على حفظ القرآن الكريم، وفي نفس الإطار قامت الدولة بتنظيم مسابقات القرآن الكريم الدولية كل عام، كما نظمت مسابقات في حفظ القرآن الكريم، أعطت الطلابَ في ذلك المجال جوائزَ مالية ومعنوية كبيرة، أعطاها بعض أمراء البلاد وفقني الله تعالى وإياهم للخير، مثل جائزة

الأمير سلمان في هذا المجال. وقد لا تسعف الذاكرة في هذه العجالة لاستقصاء جميع الجهود الخيرة التي تبذلها المملكة العربية السعودية في خدمة كتاب الله تعالى، دراسة لنصه الكريم، وتفسيراً لمعناه العظيم لكن لا أنسى أنه لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم لا أنسى ذينك المشروعين العملاقين اللذين توجت المملكة العربية السعودية بهما عملها، في مجال خدمة القرآن الكريم. ألا وهما:

أولاً: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف:

وفقني الله وإياه للخير لطباعة المصحف الشريف الذي قام بطباعة المصحف الشريف طباعة حسنة، وبالروايات المقروء بها في أغلب أنحاء العالم الإسلامي اليوم: حفص، وورش، وقالون[1].

وقامت بتوزيعه في مختلف أنحاء العالم سفارات المملكة وممثلاتها الدبلوماسية، وغيرها من الوسائل لإيصال المصحف الشريف إلى يد كل مسلم حسب الاستطاعة.

---

(١) الإمام حفص بن سليمان الكوفي صاحب عاصم ت١٨٠هـ رحمني الله وإياه. انظر معرفة القراء الكبار، للذهبي ١/ ١٤٠ وغاية النهاية لابن الجزري ١/ ٢٥٤.

ورش: عثمان بن سعيد يلقب بورش، قرأ على نافع ت سنة ١٩٧هـ رحمني الله وإياه. انظر: "معرفة القراء ١/ ١٥٢، وغاية النهاية ١/ ٥٠٢".

قالون: اسمه عيسى وكان ربيبا لنافع، ولقبه بقالون لجودة قراءته ت سنة ٢٢٠هـ، انظر معرفة القراء نفسه ١/ ١٥٥، وغاية النهاية نفسه ١/ ٦١٥.

كما قام المجمع -وفقني الله تعالى والقائمين عليه للخير- بعمل تفاسير كتاب الله تعالى بمختلف اللغات، وعمل على توزيع ذلك على المسلمين داخل السعودية وخارجها.

هذا وقد انبثق عن مجمع الملك فهد -في إطار خدمة كتاب الله تعالى- "مركز خدمة السنة" الذي تتضافر على القيام عليه جهود من مجمع الملك فهد وأخرى من الجامعة الإسلامية، وقد قام بإنجازات ممتازة في مجال مهمته خدمت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثانيهما: إذاعة القرآن الكريم:

تلك الإذاعة التي لا يُسمع فيها إلا كتاب الله تعالى، أو ما يؤخذ منه كسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما ينير عقول المسلمين من تعليم أحكام فقهية أو آداب شرعية، أو فتوى في برنامج نور على الدرب، توضح للمسلم ما يشكل عليه من أمور دينه، أو سؤال على هاتف كذلك، أو لغة عربية يفهم بها القرآن الكريم أو نحو ذلك، وإنها لتتعاون معها إذاعة نداء الإسلام من مكة المكرمة، تلك الإذاعة التي تنادي إلى الإسلام الناس كافة، وتدعوهم بدعايته، ليتعلموا منه ما جهلوا وتذكرهم من تعاليمه ما نسُّوا، لتقيم عليهم الحجة البالغة، وتوضح لهم به المحجة الواضحة، التي لا يزيغ عنها إلا هالك، أعوذ بالله تعالى من ذلك، فإذا كان هذا بعض ما قامت به السعودية مما فعلت من رعاية لكتاب الله تعالى -ومهما فعلت هي أو غيرها للقرآن من رعاية

فلن توفيه حقه - إذا كان ذلك كذلك فما أثر ذلك القيام للقرآن الكريم -علماً وعملاً، وتعليماً- ما أثر ذلك في حياة المجتمع السعودي، وماذا جنت السعودية من ثمار بسبب تطبيقها لتعاليمه؟

أثر تطبيق المملكة العربية السعودية للقرآن الكريم في حياة مجتمعها :

لقد عزمت المملكة العربية السعودية، منذ أن تم الاتفاق بين الشيخ محمد بن عبد الوهاب والإمام محمد بن سعود -رحمني الله تعالى وإياهما- على إعلاء كلمة الله تعالى في هذه الجزيرة، وأعلنت بهذا العمل أن سياستها مستمدة من القرآن الكريم وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، لأن إعلاء كلمة الله تعالى بالجهاد في سبيله لا يتأتى إلا بتحكيم القرآن الكريم وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، في جميع الأمور، واستمر الأمر كذلك، حتى عهد الملك عبد العزيز -رحمني الله تعالى وإياه- الذي حرص على الشريعة الغراء وبلغ في ذلك مرتبة عالية، فهاهي السعودية تعلن تحكيمها للقرآن الكريم في نفوس الناس وأموالهم وأعراضهم، وهاهي تستمد سياستها التعليمية من تلك التعاليم السامية، فلا يتم الطالبُ التعليمَ الابتدائي، حتى يتعلم أغلب مراتب الدين، من إسلام وإيمان وإحسان، وبعبارة أخرى حتى يتعلم معظم فروض الأعيان. ولا شك أن التعليم هو الذي ينير العقول، ويصقل الأذهان، فإذا كان أساس ذلك القرآن الكريم، استنار القلب بنور الوحي، فهداه الله تعالى به صراطاً سوياً.

بعض مظاهر النعمة التي تعيشها السعودية في ظل العمل بالقرآن الكريم وتطبيق الشريعة الإسلامية

تلك هي سياسة الدولة السعودية التعليمية، التي تتبعت بها فلول الجهل، وشلت بها ظلام الأمية. وتلك هي سياستها المزدانة باتباع الشريعة الإسلامية، التي لم تتبعها أمة إلا تسنمت ذرا العز والفلاح، وتبوأت من الخير كل مكانة علية.

فما مظاهر النعمة التي تنعم بها هذه البلاد - حرسني الله وإياها - في ظل استمداد سياستها من الشريعة الإسلامية، وتطبيقها أحكامها العظيمة السامية ؟

إن مظاهر تلك النعمة لمتعددة ومتكاثرة، ولا يمكن استقصاؤها في هذه السطور المتناثرة، ولكن أذكر منها جملاً على سبيل التمثيل لا الحصر:

فهل سألت نفسك أخي المسلم: ما أعظم نعمة أنعم الله تعالى بها على أحدٍ بعد نعمة الإيمان؟

- إن أعظم نعمة ينعم بها الله تعالى المنعِمُ على عبدٍ بعد نعمة الإيمان، هي التوفيق للعمل بشرعه الحنيف.

فما أحسن دولة في هذا الميدان قد عرفها التاريخ المعاصر؟

- إنها السعودية، التي لو طوفت ما طوفت في هذه الأرض، لما وجدت -فيما أعلم- أحسن منها التزاماً بالسلوك الإسلامي القويم،

والتمسك بأحكام الشرع الحكيم.

فانظر إلى المساجد في أوقات الصلاة، تجدها مكتظة بالمصلين، وتجد الأسواق حولها، تكاد تقفر من المارين، لتوجه المصلين إلى بيوت رب العالمين.

أما أن يبقى متجر مفتوح أثناء الصلاة، أو مكان واضح يقصده رجل في اتجاه، فذلك لا يكون بأرض السعودية - حرسني الله وإياها من كل رزية - لوقوف داعي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالمرصاد لمن يخالف أمر الدين، فلا يشهد الصلاة مع المصلين، فإما أن يشهد الرجل مع المسلمين الخير، أو يتوارى عن الأنظار في سراديب الاختفاء وهو ذليل حقير.

هل نظرت في عصرنا الحاضر -الذي ماجت فيه الفتن في البوادي والحواضر- إلى شارعٍ لا يُرى فيه النساء سافرات، ولا يرفع منه لأصوات الكنائس والصوامع والبيع مكبرات، ولا يبنى فيه لأماكن الدعارة والخمور حانات؟

إن ذلك لعزيز في هذا العصر -إن لم يكن غير موجود- إلا في بلاد السعودية، فلا يُرَى شيء من ذلك -بحمد الله تعالى- بل نساء هذه البلاد محجَّبات مستورات، وإنْ رُئيت امرأةٌ هنا سافرة، فليست من أهل تقاليد هذا البلد، بل شيطانة مارَّة مسافرة، لا يعبأ بها، ولا يحكم على خلق هذا البلد الطيِّب بسوء تصرفها، ولا بإهمال ولي أمرها إياها.

أمَّا أن يُرْفَع لغير صوت الحق في السعودية -من كنيسة أو غيرها- منار، أو يقر لغير داعي الهدى قرار، فهيهات هيهات -بحمد الله تعالى- بل مآذن الحق تُرْفَع هنا وهناك، فتشَنَّف بأذانها الآذان في كل وقت ومكان، والحمد لله رب العالمين الحنَّان المنَّان.

فما يُؤَسس أساس لمرفقٍ حيويٍّ أو غير حيوي إلا كان المسجد فيه أوَّل مبنى، ويستوي في ذلك المكانُ العام، والحيّ، والإدارات الحكومية المدني منها والعسكريّ، وحدائق النزهة، واستراحات المسافر من حضريّ وبدويٍّ.

وهكذا هيأت الدولة السعودية للصلاة ما يقيم عمودها ويشد على أساس من التقوى عودَها، بما لم يُر له -حسب علمي- في عالم اليوم مثيل، فأعاننا الله تعالى وإياها على إقامة ما سواها من شعائر الدين.

وقل مثل ذلك التوفيق في الزكاة، والصوم، والحج، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغير ذلك.

ولا غرابة إذا أنعم الله تعالى على هذه الدولة بالتوفيق لطاعته في جميع شعائر الدين لما رست قواعد المحافظة على الصلاة بمثل ما تقدم. لا غرابة في ذلك، فإنَّ الصلاة عمود الدين، فمن أقامها أقام الدين كله، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع.

إنه مثال لا يقتضي حصراً، لما أنعم الله تعالى به على هذه البلاد بفضله تعالى، بتطبيقها شرع الله تعالى الحكيم أنْ وَفَّقَها لكُلِّ عملٍ صالحٍ، بما لم يعرف له اليوم نظير، غير مُزَكٍ على الله تعالى أحداً.

ومن مظاهر النعمة التي تنعم بها هذه البلاد في ظل العمل بالقرآن الكريم وتطبيق الشريعة الإسلامية.

الاستقرار السياسي:

– فمن عرف ما في الشريعة من النهي عن الفتن الهوجاء، وكون الناس فوضى ، لا سراة لهم ولا قائد يجمع تحت راية الحق شملهم، وما فيه من النهي الشديد عن الخروج على الإمام، ما لم يُرَ كفر بواح واضح ... مَن عرف ذلك كله أدرك سبب ما تعيشه هذه البلاد – بحمد الله تعالى – من استقرار سياسي، وهدوء إداري، وبخاصة إذا انضم إلى ذلك التحذير الشرعي الشديد من الفتن والخروج على الإمام، الترابطُ الشديد بين الحاكم والمحكوم، وبين القمة والقاعدة في ظل العدالة الإسلامية التي تعطي كل ذي حق حقه . فإذا حصل ذلك، وجد الحق إلى نصابه طريقه، وأدرك كُلٌّ من الفرد والجماعة مراده ومطلبه...

وما من إشكال يقع فيه مجتمع، ولا رزية تبتلى بها أمَّة، أعظم من الاضطراب السياسي، وعدم الاستقرار الإداري، فالاستقرار السياسي هو القاعدة العريضة التي يبنى عليها صرح الحضارة بمختلف مقوماتها العلمية، والاقتصادية، والبشرية .

وقد رسّخ تطبيق الشرع الحنيف في المملكة العربية السعودية، قاعدة عريضة من الاستقرار السياسي، فتفرغت الدولة -بحمد الله تعالى- للبناء الحضاري المثمر حتى بلغ الناس في ظل الإسلام الغاية، وعم نفع ذلك القاصي والداني، من هذا الوطن.

الأمن:

هل أنعم الله تعالى على أمة من الأمم -بعد الإيمان- والتوفيق للعمل الصالح بأعظم من نعمة الأمن، وتيسير سبل العيش؟

لم ينعم الله تعالى على عبده المؤمن الميسر له سبل الإطعام من الجوع، بأعظم من نعمة الأمن.

فمن أمِنَ، عَبَدَ الله تعالى كما أمره... ومن أمِنَ، استجمع قوى فكره وطاقات عقله، ووجهها للبناء المثمر، والعمل الهادف.

أمَّا الخائف -عياذاً بالله تعالى- فيطيش عقله، وينخلع لبه، ويكون كُلُّ همه أن يأمن الضرر على نفسه وأهله وماله. أما أن يهتدي -مع الخوف- إلى عمل يتقنه، أو بناء حضارة ينجزه، فهيهات هيهات. فالعنصر الأصيل في عمارة الأرض بالخيرات هو الطعام والأمن، فكما لا يستغني الجسم عن الطعام، لا تستغني النفس عن الأمن. ولذا امتنَّ الله تعالى على عباده بهاتين النعمتين في معرض إقامة الحجة عليهم، مع أنه ما بهم من نعمةٍ إلا وهو تعالى مسديها إليهم. قال تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ۝٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا

ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾﴾ (سورة قريش) .

نعم، ما أعظمهما من نعمتين مقيمتين الحجة بأعظم برهان، على وجوب عبادة من أنعم بهما، سبحان الله تعالى ربي وبحمده.

إذا عرف ذلك، فاعلم أنه لم ينعم على أمة من الأمم بأمن في التاريخ الحديث بمثل ما نعمت به الدولة السعودية في ظل العمل بالقرآن الكريم وتطبيق الشريعة الإسلامية، وذلك عن طريق الوقاية والعلاج:

- الوقاية بالتوعية الإسلامية الحثيثة، ممثلة في نشر علم دين الله تعالى الحنيف عن طريق الدراسة النظامية في المناهج الدراسية المعدة بخطط مهيأة.

وكذا بالخطب في المساجد، واللقاءات العامة في المدارس ومختلف المؤسسات الدعوية، وعن طريق المحاضرات والندوات في مختلف الأماكن العامة والخاصة. فإذا وعى المسلم دينه، قوي إيمانه، فرغب فيما رغَّب فيه الشرع الحنيف ورهب مما رهّب منه، فأصبح مصدر أمن وأمان، وأمنه الناس على كل شيء.

- أما العلاج، فبإقامة حدود الله تعالى على كل من بسط لسانه أو يده بالسوء ليؤذي عباد الله تعالى، في أنفسهم أو أموالهم أو أعراضهم، فيجد الجزاء الشرعي الرَّادع الذي يوقفه عند حده، ويقي المسلمين من شره وما يكيده لهم في شدِّه وعده.

وهكذا وفرت المملكة العربية السعودية -بفضل الله تعالى- الأمن

لمواطنيها، وللمقيمين بها ومرتاديها، فعم الخير والعطاء والنفع جميع أراضيها .هذه دعوى، والدعاوى إن لم تكن بينات فأبناؤها أدعياء، فأين الأمن في هذه البلاد؟

أخي : ألا ترى الأمن الفكري ؟ ألا ترى الأمن النفسي على الأرواح والأموال والأعراض ؟ بل وانظر أي شيء يخاف عليه الإنسان، تجده مؤمناً عليه في هذه البلاد، بفضل الله تعالى رب العباد.

أما الأمن الفكري... فهو ما يشيع في ربوع هذه البلاد من نور العلم الإسلامي المشتمل على العقيدة الصافية، والأوامر والنواهي الإلهية التي حمى الله تعالى بها العقول والأفكار من المبادئ الهدامة، من مختلف مصادر الضلال، فقد اجتثت ما نبت من جذور الشرك، وعرف الناس بنور العلم، الحرامَ والحلال فحوربت البدعة والخرافة والشعوذة بشتى صورها، وطوردت حيثما في هذه الديار حلت.

وبذلك أمن الناس على أفكارهم فما تنطلي عليهم الأمور، ولا يغرهم في متاهات الانحراف الفكري والارتكاس العقلي الغرور.

وأما الأمن النفسي... فَحَدِّث -بحمد الله تعالى- ولا حرج، فقد أمن الناس في الديار السعودية أمنوا على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم وغير ذلك بما لم يأمن به أحد في هذا التاريخ حسب علمي.

ففي الوقت الذي لا تكاد تستخبر وسيلة إعلام عن جهة من جهات العالم إلا وقعت عينك على جريمة تقشعر لها الأبدان، أو قرع سمعك

منكر تهتز له الأركان، أو امتلأ قلبك حزناً لما يرى ويسمع، مما يقاسيه من الويلات بنو الإنسان. ففي الوقت نفسه يعيش الناس هنا -في السعودية- في أمن وأمان، ويتفيأون ظلال الخير والإحسان.

متى كان الراكب أو الماشي في هذا العصر، يغدو ويروح في حواضر وبوادي هذه الديار، لا يخشى إلا الله تعالى، أو الذئب على غنمه إن كانت ؟ لم يعرف ذلك إلا في العهد السعودي الميمون.

سل أحد المسافرين الذين يجوبون الديار السعودية يحملون معهم المال والعيال وكل ما يحتاج إليه **فهل يعكر صفو سفرهم خوف من لص غادر أو مستبد كاسر ؟**

لا -ولله الحمد- بل قضى رحلته الميمونة في ظلال من الأمن والنعم الوارفة حتى عاد بنفس مطمئنة غير خائفة.

سل أصحاب المتاجر العامرة، أو محلات المجوهرات المتكاثرة : هل يحتاج أحدهم في إغلاق محله بأكثر من قطعة قماش يضفيها على واجهة محله تُشعر الغادي أو الرائح بأن صاحبه غير موجود ؟

لن يحتاج في ديار السعودية لأكثر من ذلك، ولن تمتد لشيء من ذلك إلا يد هالك. فقد حرس الديار والدكان الحكم السعودي بما أقام للإسلام من حدود. سل أولئك الحجاج وهؤلاء المعتمرين : من ذا أمَّن لهم به الله تعالى بعد الخوف، السبيل، وأقام بعد الجهل على معالم الهدى والخير كل دليل، ووفر لهم بعد الجوع والعطش مختلف ما

يحتاج إليه من أنواع الطعام وصنوف الفواكه، وأجرى لهم بما لا تكدره الدلاء الماء العذب السلسبيل، وسهل لهم إلى بلوغ كل ما يريدونه من عبادة في يسر وراحة وهدوء، كل صعب وذليل؟

إنها الدولة السعودية.

سل المواطن السعودي: هل سمعت في البلاد بأمن فكري ونفسي، واستقرار في رغد من العيش بأحسن مما تعيشه في بلادك؟

ولا شك أن إجابته ستكون: لا.

وسل المقيم في هذه الديار: متى تضع عن عاتقك من الخوف عصا التسيار، ويستقر بك على نفسك وأهلك ومالك القرار؟

ولا شك أن إجابته ستكون بأنه لا يجد تلك النعمة، إلا في الديار السعودية. هذه تفاريق ومشاهد، مما حصدته وتحصده السعودية من ثمار جنتها من غراس تطبيقها للشريعة الإسلامية، وما ذكرته قليل من كثير، وسح من غدق، وليس هو بغريب، ولا بدعاً من السنن الكونية والنسق، أن يحسن الله تعالى لمن أحسن بطاعته في أرضه الخلافة على كل حال ولشرعه طبّق.

هذا بعض ما تفيأته المملكة العربية السعودية من خير، في ظلال تطبيقها الشريعة الإسلامية، فرفرف عليها باليمن والبركة والسعادة، علم لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبارك الله تعالى في نواحيها، وفضلها على دول زمانها وكرم، ولا أزكي على الله

تعالى أحداً ، فهو ربنا وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وإن مما جنته السعودية من ثمار تطبيق القرآن الكريم أن أكسبها حب المسلمين واحترامهم، وذلك لما وجدوا فيها من التزام بشرع ربها وربهم ومحبةٍ لهم وسعي في مصالحهم، وعونٍ على إنجاح قضاياهم الدولية والمحلية وسرعة لنجدة منكوبيهم، وخدمة للحرمين الشريفين، مهوى أفئدتهم، وإيصال الخير والنفع المادي والمعنوي إلى بلادهم، والاهتمام بأمورهم، العامة والخاصة، حتى غدت السعودية بحق مستحقة لأن تكنى في التاريخ المعاصر، بأم المسلمين الرؤوم، ولو أَجَلْت خاطرك في حال السعودية مع المسلمين لبدا لك صبح الحقيقة وعرفت أن ذلك لا ينكره إلا مكابرٌ أعمى عينيه عن الحقائق حسد أجّج في صدره نارَه، أو مغفلٌ أرخى الجهل بالحقائق على عقله أستاره، هكذا أحسب السعودية والله تعالى حسيبها، ولا أزكى على الله تعالى أحداً، فهو تعالى حسبنا ونعم الوكيل[1].

وآخر دعواي أن الحمد لله رب العالمين

سبحانك اللهم وبحمدك

أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك

---

(١) انظر بحث: «أسئلة عن الخير في سطور جوابها السعودية عبر العصور» للمؤلف عفا الله عنه بمنه ص ٨٣ فما بعدها.

الخاتمـــة

اللهم اختم بالسعادة آجالنا، واقرن بالعافية غدونا وآصالنا، واجعل إِلى جنتك مصيرنا ومآلنا يا كريم آمين .

لقد عشت بحمد الله تعالى في بعض جنبات هذا الموضوع الحيوي الذي يتجاذب الإِنسان في دراسته شعوران متباينان، شعور بالأسى والحزن، يرثى فيه المسلم لحال أغلب المسلمين وما آل إِليه أمرهم في الماضي والحاضر، بسبب بعدهم عن تحكيم كتاب الله تعالى .

وشعور بالفرح والسرور، عندما يتذكر الإِنسان وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه لا تزال طائفة من أمته صلى الله عليه وسلم، على الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم، حتى يأتي أمر الله تعالى .

ولكن لن يكونوا كذلك، إِلا إِذا حكموا القرآن فتعلموه وعملوا به .

فيبعث ذلك الحديث في النفس بارقة أمل بِعَوْدِ المسلمين إِلى القرآن الكريم، عوداً حميداً خاصة أنهم يشاهدون ما ينعم به بعضهم بحمد الله تعالى، من نعم في ظل تحكيم القرآن الكريم من رغدٍ في العيش وأمن من خوف، وراحة في البال، كما هو حاصل في الديار السعودية حرسني الله تعالى وإِياها بالإِسلام وزادني وإِياها من فضله في ظل تحكيمه، فعسى - بنظرة إِلى حالها الطيب، أن يغبطها، من تنكب

صراط القرآن الكريم السوي، فعاش لتنكبه ذلك معيشة ضنكا، فأنَّ تحت كلكل الخوف، وضاجع بألم شبح الجوع المزعج واضطربت أوضاعه السياسية والاجتماعية.

ألا فقد طال اغتراب أكثر المسلمين عن العمل بالقرآن الكريم حتى حنَّت رواحل القلوب إليه، وتأججت في النفوس نيران الشوق إليه، فهل يا ترى يهتدي إلى القرآن الكريم الغاوون من ضلالتهم، ويثوب السفهاء المعرضون عنه إلى رشدهم ؟

عسى أن يكون قريباً !

هذا وقد انتهيت من هذا البحث -جعله الله تعالى خيراً- إلى نتائج أهمها:

١- أن القرآن الكريم: كلام الله تعالى الذي أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم المعجز بأقصر سورةٍ منه ، المبدوء بالحمد لله رب العالمين المختوم بآية -من الجنة والناس- المحفوظ في الصدور، المكتوب بالمصاحف، المحفوظ بحفظ الله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر: ٩).

٢- يكفي في ذكر ما يدل على فضل القرآن الكريم أنه كلام الله تعالى وأنه منزل على أفضل الرسل عليهم جميعاً الصلاة والسلام، لهداية خير الأمم. ومع ذلك فقد وردت في فضله جملة وتفصيلاً أحاديث وآثار كثيرة جداً.

٣– أن التمسك بالقرآن الكريم: هو الإيمان به وتعلمه والعمل به والدعوة إلى ذلك والصبر على ذلك.

٤– من التمسك بالقرآن الكريم: التمسك بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، لدلالة القرآن على ذلك.

٥– من ادعى أنه من أهل القرآن الكريم مع رده سنة الرسول صلى الله عليه وسلم، فدعواه باطلة.

٦– من أهم ما يدل على التمسك بالقرآن الكريم: الدعوة إلى الله تعالى على بصيرة، حتى تُعمر أرض الله تعالى بطاعته فيها.

٧– من تمسك بالقرآن الكريم سعد في الدنيا والآخرة.

٨– من تمسك بالقرآن الكريم مكن الله تعالى له في الأرض؛ لأن ﴿ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (الأعراف: ١٢٨).

٩– من تمسك بالقرآن الكريم وما فيه من البيان استطاع –بعون الله تعالى– إقامة دولة ثابتة الأركان شامخة البنيان؛ لأن القرآن الكريم تبيان لكل شيء وهدى ورحمة لقوم يوقنون، ولأن كل شيء فصله الله تعالى فيه تفصيلاً، ولأنه تعالى ما فرط في الكتاب من شيء.

ومن ذلك بيان مقومات قيام الدولة الإسلامية الشامخة.

١٠– إن سبب ضعف المسلمين هو تفرق كلمتهم، فيتسلط عليهم عدوهم.

١١- إن علاج ذلك، هو الإقبال على الله تعالى والإخلاص له والتوكل عليه.

١٢- لم يحل بالمسلمين ما حل بهم إلا بسبب بعدهم عن القرآن الكريم.

١٣- بشائر الخير بعودة المسلمين إلى القرآن الكريم لا تزال تلوح في الأفق بوارقها، وتهتف بالقلوب الحية هواتفها، مما يبعث في الأمة أملاً جديداً بعودتها إلى ماضي عزها، وتبوئها من القيادة للعالم إلى الخيرات مقعدها.

هذا وبالله تعالى التوفيق، وهو الهادي إلى سواء السبيل، وهو تعالى حسبنا ونعم الوكيل، سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

المصادر

أ- القرآن الكريم.

ب- مصادر علوم القرآن:

١- الإتقان في علوم القرآن، لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١هـ)، ط. دار الكتب العلمية. بيروت.

٢- تفسير الجلالين، لجلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي بهامش القرآن الكريم. ط دار الكتب العلمية - بيروت.

٣- التفسير الميسر لنخبة من العلماء. بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.

٤- تفسير الطبري بحاشية المصحف الشريف باختصار (محمد المعلم).

٥- الجامع لأحكام القرآن.

لمحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري القرطبي (ت ٦٧١هـ). ط دار الكتب العلمية.

ج- مصادر الحديث الشريف:

١- سنن أبي داود، لسليمان بن الأشعث السجستاني (ت ٢٧٥هـ) ط. مكتبة الرياض الحديثة.

٢- سنن الترمذي، لأبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي (ت ٢٧٩هـ) ط. مطبعة الفجالة الجديدة.

٣- صحيح البخاري، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري (ت ٢٥٦هـ) ط. المكتبة الإسلامية بإستنبول.

٤- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، للإمام أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) المطبعة السلفية.

٥- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، لعلاء الدين علي الهندي (ت ٩٧٥هـ) ط. مؤسسة الرسالة.

٦- مسند الشاميين من مسند الإمام أحمد بن حنبل، ضبط أحاديثه وخرجها وبين درجتها وعلق عليها عند الحاجة الدكتور / علي محمد حجار.

٧- مختصر صحيح مسلم، لزكي الدين عبد العظيم المنذري ط. المكتب الإسلامي.

د- مصادر أصول الفقه:

١- المختصر في أصول الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، لعلي بن محمد المعروف بابن اللحام. تحقيق د. محمد مظهر. ط مطابع جامعة الملك عبد العزيز. مكة المكرمة.

٢-مذكرة أصول الفقه على روضة الناظر للإمام ابن قدامة.

تأليف العلامة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي. رحمني الله تعالى

وإِياهما. تحقيق أبي حفص سامي العربي. دار اليقين.

هـ ــ مصادر اللغة والتراجم والثقافة:

١– غاية النهاية، لمحمد بن محمد بن الجزري (ت ٨٣٣هـ). ط دار الكتب العلمية.

٢– معرفة القراء الكبار، لمحمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨هـ) ط مؤسسة الرسالة.

٣– مختار الصحاح، لمحمد بن أبي بكر الرازي (ت ٦٦٦هـ) دار ابن كثير. دمشق – بيروت .

٤– أسئلة عن الخير في سطور جوابها السعودية عبر العصور. تأليف الأستاذ: عبد الله بن عمر محمد الأمين الشنقيطي.

الفهرس

التَّمَسُّكُ بالقُرآن الكَرِيم وَأثَرُه في حَياةِ المسُلِمِينَ

إعداد
د. عبد الرحيم بن محمّد المغذّوي
الأستاذ المشارك بكلّية الدّعوة
الجامعة الإسلاميّة - بالمدينة المنوّرة

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونستهديه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ (آل عمران : ١٠٢)، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ (النساء : ١).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾ (الأحزاب : ٧٠-٧١).

أما بعد :

فإن أي دعوة تشرف بما تدعو إليه ، وتزكو بما تحث الناس عليه، ولا ريب أن الدعوة إلى التمسك بالقرآن الكريم ، هي أسمى المقاصد، وأنبل الفوائد، لأنها تتعلق بكتاب الله تعالى ، وكفى بذلك شرفاً ومقصداً.

أ - أهمية الموضوع، وأسباب الدراسة :

المسلم مطالب دائماً وأبداً بالتمسك بكتاب الله تعالى حق التمسك وتطبيق ذلك في حياته الخاصة والعامة ، وظهور آثار ذلك التمسك في سلوكه وتصرفاته.

ولكن الملاحظ -وبخاصة في عصرنا الحاضر- انصراف كثير من فئام المسلمين عن التمسك بكتاب ربهم تبارك وتعالى ، وإن أظهروا حبهم وتقديسهم له ، إلا أن الواقع المعايش يغاير ذلك، ومن هنا كان الاختلال الواضح ، في حياة المسلمين أفراداً ومجتمعات ، الأمر الذي أوقع الوهن في حياة الأمة على مختلف الأصعدة الدينية والدنيوية .

ولا ريب أن المتأمل في كتاب الله تعالى يجد الدعوة الصريحة الواضحة للتمسك بالقرآن الكريم ، والآثار العظيمة التي سوف يجنيها الفرد والمجتمع من ذلك .

ومن هنا كان الدافع للكتابة في هذا الموضوع الدعوي القرآني الهام ، وكذا لعدم وجود مؤلف خاص في هذا الموضوع - على حد علمي - وإنما هنالك إشارات وذكر متناثر في بطون الكتب ، فأحببت أن أجمع شتات الموضوع ، وأبرز معالمه ، وأوضح مقاصده ليكون دعوة خيّرة للناس لعلهم يتقون .

كما أرجو من الله تعالى أن أكون قد وفقت وأنا أقدم هذا البحث المتواضع للندوة المباركة بإذن الله تعالى (**ندوة عناية المملكة العربية السعودية بالقرآن الكريم وعلومه**) والتي يعقدها مشكوراً مأجوراً مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة في الفترة ٤ / ٦ / ١٤٢١هـ إلى ٧ / ٦ / ١٤٢١هـ.

ب - تساؤلات البحث :

يهدف البحث إلى الإجابة عن التساؤلات الكبرى التالية :

أولاً : ماالمقصود بالقرآن الكريم ، وماأهمية التمسك به؟

ثانياً : ما مظاهر التمسك بالقرآن الكريم؟

ثالثاً : ما فضائل التمسك بالقرآن الكريم؟

رابعاً : ما آثار التمسك بالقرآن الكريم في حياة المسلمين الخاصة والعامة؟

ج - منهج البحث والخطوات البحثية :

استخدم الباحث منهج البحث الوصفي ، وكذا منهج البحث التحليلي التأملي ، للخروج بفوائد علمية هامة دقيقة .

كما اتبع الباحث الخطوات البحثية المختصرة التالية :

١- عزو الآيات القرآنية إلى مواضعها من المصحف .

٢- تخريج الأحاديث من مظانها ، وإيراد حكم العلماء عليها .

٣- توثيق الآثار والأقوال بإرجاعها إلى مصادرها .

٤- التأصيل العلمي للموضوعات البحثية، والخلوص إلى نتائج محددة .

د - خطة البحث بالتفصيل :

- **المقدمة** : وتضمنت الحديث عن أهمية الموضوع ، وبواعث دراسته ، وتساؤلات البحث الكبرى ، ومنهج البحث والخطوات البحثية ، والخطة بالتفصيل .

- **الفصل الأول**: الدَّعوة إلى التمسّك بالقرآن الكريم.

ويتضمن أربعة مباحث:

المبحث الأول: التعريف بالقرآن الكريم، وأسمائه، وخصائصه.

المبحث الثاني: أهمية الدعوة إلى التمسك بالقرآن الكريم.

المبحث الثالث: مظاهر التمسك بالقرآن الكريم.

المبحث الرابع: فضائل التمسك بالقرآن الكريم.

- **الفصل الثاني**: آثار التمسّك بالقرآن الكريم في حياة المسلمين.

ويتضمن ستة مباحث:

المبحث الأول: الأثر الإيماني والتعبدي.

المبحث الثاني: الأثر الدعوي والإصلاحي.

المبحث الثالث: الأثر الخلقي والمسلكي.

المبحث الرابع: الأثر العلمي والفكري.

المبحث الخامس: الأثر الإنساني والحضاري.

المبحث السادس: الأثر الأمني الشامل.

- **الخاتمة**: وفيها خلاصة البحث، ونتائجه، والتوصيات.

- **الفهارس**.

هـ - ثناء الباحث على الله تعالى بما هو أهل له.

اللهم لك الحمد كله ، والشكر كله فأنت أهل الثناء والحمد ، والعزة والمجد ، والميسر لكل قصد .

اللهم لك الحمد أن جعلتنا من أهل القرآن الذين هم أهلك وخاصتك ، اللهم فأدم علينا نعمتك ، وارزقنا شكرها على الوجه الذي ترضاه عنا يارب العالمين .

اللهم نوِّر بالقرآن العظيم قلوبنا ، وافتح به أبصارنا ، واشرح به صدورنا، واكلأ به حياتنا ، وأنر به دروبنا ، واحفظنا به من أمامنا ومن خلفنا ، وعن أيماننا وعن شمائلنا ، ومن فوقنا ومن تحتنا ، إنك على كل شيء قدير.

﴿ ... رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (البقرة : ٢٨٦) .

الفصل الأول
الدَّعـوة إلى التـمسّك بالقرآن الكريم

ويتضمّن أربعة مباحث :

المبحث الأول : التعريف بالقرآن الكريم ، وأسمائه ، وخصائصه .

المبحث الثاني : أهمية الدعوة إلى التمسك بالقرآن الكريم .

المبحث الثالث : مظاهر التمسك بالقرآن الكريم .

المبحث الرابع : فضائل التمسك بالقرآن الكريم .

المبحث الأول
التعريف بالقرآن الكريم وأسمائه وخصائصه

وفيه أربعة مطالب :

المطلب الأول : التعريف بالقرآن الكريم لغةً .

اختلفت آراء أهل اللغة حول أصل كلمة (القرآن) وتعددت ، ويمكن لنا حصرها في اتجاهين رئيسين :

- **الاتجاه الأول** : وهو الذي يذهب إلى أن القرآن اسم لكتاب الله تعالى، وأنه غير مشتق من أي مادة سواء من (قرأ) أو من غيرها . وذلك لأنه علم على كتاب الله تعالى مثل التوراة والإنجيل . وعلى هذا فالقرآن غير مهموز .

- **الاتجاه الثاني** : وهو الذي يذهب إلى أن لفظ (القرآن) مشتق ، واختلف أصحاب هذا الاتجاه على أربعة أقوال :

١- أن القرآن مصدر لقرأت كالرجحان والغفران ، سمي به الكتاب المقروء من باب تسمية المفعول بالمصدر . وبه قال اللحياني وآخرون .

٢- وقال قوم منهم الأشعري : هو مشتق من قرنت الشيء بالشيء : إذا ضممت أحدهما إلى الآخر .

٣- وقال الفراء : هو مشتق من القرائن ، لأن الآيات منه يصدق بعضها بعضاً ، ويشابه بعضها بعضاً وهي قرائن . وعلى القولين بلا همز أيضاً ونونه أصلية .

٤- وقال آخرون منهم الزجاج: هو وصف على فُعْلان مشتق من القرء بمعنى الجمع ، ومنه قرأت الماء في الحوض أي جمعته.

قال أبو عبيدة : وسمي بذلك لأنه جمع السور بعضها إلى بعض.

وقال الراغب : لا يقال لكل جمع قرآن ولا لجمع كل كلام قرآن ، وإنما سمي قرآناً لكونه جمع ثمرات الكتب السالفة المنزلة. وقيل: لأنه جمع أنواع العلوم كلها.

ثم قال الحافظ السيوطي بعد أن ساق تلك الأقوال: «والمختار عندي في هذه المسألة ما نص عليه الشافعي»[١] .

ويذهب الشيخ الزرقاني إلى خلاف ذلك ويؤكد أن القرآن مشتق فيقول: «أما لفظ القرآن فهو: في اللغة مصدر مرادف للقراءة ، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ (القيامة: ١٧-١٨). ثم نُقل من هذا المعنى المصدري وجعل اسماً للكلام المعجز المنزل على النبي ﷺ ، من باب إطلاق المصدر على مفعوله، ذلك ما نختاره استناداً إلى موارد اللغة، وقوانين الاشتقاق، وإليه ذهب اللحياني وجماعة. أما القول: بأنه وصف من القَرء بمعنى : الجمع، أو أنه مشتق من القرائن، أو أنه مشتق من قرنت الشيء بالشيء، أو أنه مرتجل أي موضوع من أول الأمر عَلَماً على الكلام المعجز المنزل غير مهموز ولا

---

(١) انظر تلك الأقوال في كتاب: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ١/٦٧-٦٨، وانظر: مدخل إلى علوم القرآن والتفسير، د. فاروق حمادة ص ١٥-١٦ ، والكلمات الإسلامية في الحقل القرآني ، د. عبد العال سالم مكرم ص ١٢٦-١٢٧ .

مجرد من أل، فكل أولئك لا يظهر له وجه وجيه، ولا يخلو توجيه بعضه من كلفة، ولا من بُعد عن قواعد الاشتقاق وموارد اللغة. وعلى الرأي المختار: فلفظ قرآن مهموز، وإذا حذف همزه، فإنما ذلك للتخفيف، وإذا دخلته «أل» بعد التسمية فإنما هي للمح الأصل لا للتعريف»[1].

والرأي الذي أميل إليه في أصل كلمة قرآن لغةً: أن القرآن اسم لكتاب الله تعالى، وأنه غير مشتق، وهو ما ذهب إليه الإمام الشافعي وابن كثير وغيرهما.

المطلب الثاني: التعريف بالقرآن الكريم اصطلاحاً:

القرآن الكريم كلام الله تعالى، أنزله على رسوله ﷺ ليكون للعالمين نذيراً، وحوى من العقائد والشرائع والمعارف والعلوم والآداب والأخلاق ما يجلّ الوصف عن ذكره، وتضمّن بين طيّاته الإخبار عن الأوّلين والآخرين، وما كان وما سيكون. ورسم للإنسان منهجاً واضحاً، وطريقاً سليماً، وصراطاً مستقيماً يسير عليه، ويهتدي به، ويدعو إليه.

كما اشتمل القرآن العظيم على الأمن والإيمان، والطمأنينة والتوحيد، وانشراح الصدور، وهدوء الضمائر، وراحة البال.

كما تميز كتاب الله تعالى بالإعجاز، وتحدى الخلق أجمعين أن يأتوا بمثله أو بأقل سورة فيه، كما أنه متعبد بتلاوته، ومحفوظ إلى يوم القيامة.

---

(١) انظر: مناهل العرفان في علوم القرآن، للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني ١ / ١٤.

وهنا نتساءل: من الذي يستطيع أن يعطي تعريفاً لهذا الكتاب الكريم الذي حوى كل تلك الأمور -وغيرها كثير؟ -. ومن الذي يقدر على تحديده في تعريف من تعاريف البشر التي اصطلحوا على وجود حدود ومعالم لها؟ أو أنها جامعة ومانعة ؟ الحقيقة أنه من خلال تعاريف العلماء قديماً وحديثاً للقرآن الكريم، ومن خلال محاولات الكُتّاب والمؤلفين في هذا الصدد نجد أنها كلها لا تعدو توصيفاً للقرآن الكريم، دون إعطاء تعريف دقيق محدَّد له، فنجد بعض التعاريف يركز على شيء واحد ويهتم به، مثل كونه كلام الله تعالى ، أو أنه معجز ، أو اشتماله على الأمور والمسائل العظيمة التي تهم المسلم في حياته ومآله وغير ذلك.

والحقيقة أن ذلك راجع إلى عدم إحاطة أولئك العلماء والمؤلفين لمضامين القرآن العظيم ، وعلومه وأحكامه ، وفضائله وفوائده ، وأنّى لهم ذلك .

يقول الشيخ مناع القطان رحمه الله: «والقرآن الكريم يتعذر تحديده بالتعاريف المنطقية ذات الأجناس والفصول والخواص. بحيث يكون تعريفه حداً حقيقياً، والحد الحقيقي له هو استحضاره معهوداً في الذهن أو مشاهداً في الحس كأن تشير إليه مكتوباً في المصحف أو مقروءاً باللسان، فتقول هو ما بين هاتين الدفتين، أو تقول: هو بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين... إلى قوله: من الجنة والناس»[1].

---

(١) مباحث في علوم القرآن، للشيخ مناع القطان ص ٢٠-٢١، وأصل التعريف الذي أورده للدكتور محمد عبد الله دراز يرحمه الله في كتابه النبأ العظيم ص ١٤ .

ويقول الدكتور محمد عبد الله دراز يرحمه الله: «أما ما ذكره العلماء من تعريفه بالأجناس والفصول كما تُعرف الحقائق الكلية فإنما أرادوا به تقريب معناه وتمييزه عن بعض ما عداه مما قد يشاركه في الاسم ولو توهماً، ذلك أن سائر كتب الله تعالى والأحاديث القدسية وبعض الأحاديث النبوية تشارك القرآن في كونها وحياً إلهياً، فربما ظن ظان أنها تشاركه في اسم القرآن أيضاً، فأرادوا بيان اختصاص الاسم به ببيان صفاته التي امتاز بها عن تلك الأنواع»[1].

ومن التعاريف التي ذكرها العلماء والكتاب للقرآن الكريم ما يلي:

أ - قيل هو: اسم للمتلوّ المحفوظ المرسوم في المصاحف[2].

ب - وقيل هو: اسم لما بين الدفتين من كلام الله[3].

ج - وقيل هو: الكلام المنزّل على الرسول، المكتوب في المصاحف، المنقول إلينا نقلاً متواتراً[4].

د - وقيل في تعريفه هو: اللفظ المنزّل على النبي ﷺ من أول الفاتحة إلى آخر سورة الناس[5].

هـ - وقيل في تعريفه هو: كلام الله المنزّل على خاتم الأنبياء

---

(١) النبأ العظيم، للدكتور محمد عبد الله دراز ص ١٤ .

(٢) إعجاز القرآن للباقلاني ١ / ٢٠ على حاشية الإتقان للسيوطي.

(٣) التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) للفخر الرازي ٥ / ٩٢ .

(٤) إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، لمحمد علي الشوكاني ١ / ٨٥ .

(٥) مناهل العرفان في علوم القرآن، للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني ١ / ١٩ .

والمرسلين ، بوساطة الأمين جبريل عليه السلام ، المكتوب في المصاحف، المحفوظ في الصدور ، المنقول إلينا بالتواتر ، المتعبد بتلاوته، المبدوء بسورة الفاتحة ، المختتم بسورة الناس[1].

و - وقيل أيضاً في تعريفه هو : كلام الله المعجز والموحى به إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ، والذي أُحكمت آياته ثم فُصلت من لدن حكيم خبير للتعبد بتلاوتها والعمل بمقتضاها في جميع جوانب الحياة، في كل زمان ومكان[2].

ز - وقيل أيضاً في تعريفه : القرآن هو كلام الله المعجز ، ووحيه المنزّل على نبيه محمد بن عبد الله ﷺ ، المكتوب في المصاحف، المنقول عنه بالتواتر ، المتعبد بتلاوته[3].

ح - وقيل في تعريف القرآن هو : المنزّل على الرسول ، المكتوب في المصاحف ، المنقول عنه نقلاً متواتراً بلا شبهة[4].

ط - وقيل أيضاً في تعريف القرآن الكريم هو: كلام الله المعجز المنزّل على رسوله محمد ﷺ بالوحي المنقول إلينا بالتواتر[5].

والمتأمل في التعاريف السابقة يجد أنها إما مسهبة أو مقصرة أو

---

(١) التعبير الفني في القرآن ، د. بكري شيخ أمين ص ١١ .

(٢) نور من القرآن ، د. محمد الحسين أبو سم ص ١١ .

(٣) لمحات في علوم القرآن ، لمحمد الصباغ ص ٦ .

(٤) التعريفات للجرجاني ص ١٧٤ .

(٥) معجم لغة الفقهاء ، د. محمد قلعجي وزميله ص ٣٥٩ .

متوسطة في توصيف القرآن وتعريفه ، ومهما قال القائلون إلا أنهم لن يبلغوا المراد الكامل للقرآن الكريم ، والمعنى الشامل لكتاب الله تعالى .

قال تعالى مخبراً عن كتابه العظيم : ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ (الشعراء : ١٩٢-١٩٥) .

وقال تعالى أيضاً في كتابه الكريم : ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ (إبراهيم : ١) .

وقال تعالى أيضاً في كتابه العزيز : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس : ٥٧) .

ومن خلال ما سبق يمكن أن أذكر تعريفاً أو قُل توصيفاً للقرآن الكريم فأقول هو : « كلام الله تعالى المعجز ، الموحى به إلى محمد ﷺ ، لينذر به الخلق أجمعين ، ويدعوهم إلى توحيد رب العالمين ، والمكتوب بين دفتي المصحف ، والمنقول إلينا بالتواتر ، والمتعبد بتلاوته ، والمحفوظ إلى آخر الدهر، والمشتمل على خيري الدنيا والآخرة »[1] .

المطلب الثالث : أسماء القرآن الكريم وأوصافه :

إن تعدد الأسماء دليل على عظم المُسَمَّى ، وإيماء إلى شرفه وعلوّه ورفعته .

---

(١) (القرآن كلام الله، منه بدا بلا كيفية قولاً، وأنزله على رسوله وحياً، وصدقه المؤمنون على ذلك حقاً، وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة ليس بمخلوق ككلام البرية) شرح الطحاوية ١ / ١٧٢ (اللجنة العلمية) .

ولا ريب أن القرآن الكريم هو أعظم وأشرف كتاب ، ولذا تعددت أسماؤه وأوصافه ، وكلها مستفادة من القرآن ذاته .

ومن تلك الأسماء والأوصاف العديدة ما يلي[1]:

أ - القرآن. قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ . . . ﴾ (الإسراء: ٩).

ب - الفرقان. قال تعالى : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (الفرقان : ١) .

ج - الذكر. قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر :٩).

د - الكتاب. قال تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة : ١-٢).

هـ- التنزيل. قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الشعراء:١٩٢).

و - النور. قال تعالى: ﴿ . . . قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾ (المائدة :١٥) .

ز - الروح. قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا . . . ﴾ (الشورى: ٥٢).

وغير ذلك من الأسماء والأوصاف التي ذكرها الله سبحانه وتعالى للقرآن الكريم ، تعظيماً لكتابه ، وتقديساً له ، وتخليداً لذكره، ولفتاً لانتباه الناس إلى أهميته وفضله وهيمنته على الكتب كلها .

(١) انظر: كتاب الإتقان في علوم القرآن ، للحافظ السيوطي ١ /٦٧.

ولكن الملاحظ أنه غلب من أسمائه: القرآن والكتاب.

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز يرحمه الله[1]: «روعي في تسميته قرآناً كونه متلواً بالألسن، كما روعي في تسميته كتاباً كونه مدوناً بالأقلام، فكلتا التسميتين من تسمية الشيء بالمعنى الواقع عليه. وفي تسميته بهذين الاسمين إشارة إلى أن من حقه العناية بحفظه في موضعين لا في موضع واحد ،أعني أنه يجب حفظه في الصدور والسطور جميعاً، أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى، فلا ثقة لنا بحفظ حافظ حتى يوافق الرسم المجمع عليه من الأصحاب، المنقول إلينا جيلاً بعد جيل على هيئته التي وضع عليها أول مرة، ولا ثقة لنا بكتابة كاتب حتى يوافق ما هو عند الحفاظ بالإسناد الصحيح المتواتر. وبهذه العناية المزدوجة التي بعثها الله في نفوس الأمة المحمدية اقتداءً بنبيها ﷺ بقي القرآن محفوظاً في حرز حريز، إنجازاً لوعد الله الذي تكفل بحفظه، حيث يقول: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر: ٩)».

المطلب الرابع: خصائص القرآن الكريم:

يتفرد القرآن العظيم بجملة من الخصائص، والفرائد التي تميزه عن غيره من الكتب السماوية السابقة، كما ترفعه عن غيره من كتب أهل الأرض، وهذه الخصائص والفرائد والمزايا عديدة ومتنوعة، ولا يمكن حصرها في صفحات محدودة، ولكن يمكن لنا الإشارة إلى أهم تلك الخصائص، والمتمثلة فيما يلي:

---

(١) النبأ العظيم ، د. محمد عبد الله دراز ص ١٢-١٣.

١- أنه من عند الله :

كما قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (البقرة : ٨٩) .

وقال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ (النساء : ٨٢) .

٢- أنه كلام الله تعالى :

وهذه من أخص خصائص كتاب الله تعالى كما قال سبحانه : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ (التوبة : ٦) .

٣- نزوله منجماً :

والمقصود بذلك نزول القرآن الكريم مفرقاً في مدة ثلاث وعشرين سنة(١) .

أما الكتب السماوية السابقة فكانت تنزل دفعة واحدة(٢) . ومن هنا كان تعجب المشركين من عدم نزول القرآن الكريم مرة واحدة ، وهو ما حكاه الله تعالى بقوله : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ (الفرقان : ٣٢) .

---

(١) انظر : لمحات في علوم القرآن ، لمحمد الصباغ ص ٣٢ .

(٢) انظر : كتاب المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز ، لأبي شامة المقدسي ص١٣ .

٤- حفظ الله تعالى له:

وهذه الخصيصة تعني تكفل الله تعالى بحفظ كتابه من انتحال المبطلين، وادعاء المدعين، وتخرّص المكذبين، وعدم ضياعه على توالي الدهور والليالي والأيام. قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر: ٩). يقول الحافظ ابن كثير في تفسير الآية: «قرّر تعالى أنه هو الذي أنزل القرآن الكريم، وهو الحافظ له من التغيير والتبديل»[١].

٥- هيمنته على الكتب السابقة:

والمقصود بذلك: إتيان القرآن على ما في الكتب السماوية السابقة، وشهادته عليها، واحتواؤه لفضائلها ومزاياها، وزيادته على ذلك.

قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ... ﴾ (المائدة: ٤٨).

يقول الحافظ ابن الجوزي في معنى الآية: «وأصل كلمة مهيمن مؤيمن، وترد على أربعة أنحاء:

أ - مؤتمناً على ما قبله من الكتب.

ب - وشاهداً عليها.

ج - والمصدق على ما أخبر عنها.

د - والرقيب والحافظ عليها»[٢].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير ٢/ ٥٤٧.

(٢) زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي ٢/ ٣٧١.

٦- ختمه للكتب السابقة:

والمقصود بذلك أن القرآن الكريم هو آخر الكتب السماوية نزولاً، فلا كتاب بعده إلى قيام الساعة، وفي هذا دليل على خصوصيته، وأهمية العناية والاهتمام به. قال تعالى: ﴿ ... ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ... ﴾ (المائدة: ٣).

٧- إعجازه:

يمتاز القرآن العظيم بأنه كتاب معجز في كل شيء، وقد تحدى الله تعالى به العرب، وهم أهل اللغة، وأرباب البيان فعجزوا عن الإتيان بمثله أو بأقل سورة منه، مع قدرتهم على نظم الكلام وتذوقهم له، وانفرادهم من بين الأمم بخصيصة القول، وعذوبته، وجماله، وتقديرهم له، وهذا واضح في شعرهم، ونثرهم. قال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (الإسراء: ٨٨).

٨- يسره للناس:

من الخصائص العظيمة للقرآن الكريم أنه ميسر لكل من يطلع عليه، يطلب وجه الحق والخير والصواب، وهذا التيسير القرآني يشمل عدة جوانب منه: كقراءته، وحفظه، واستذكاره، وتدبره، وتأمله، ومعرفة علومه، ومعانيه، وفقهه. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ (القمر: ١٧).

٩- شموله للخلق أجمعين:

إن من فرائد القرآن العظيم أنه كتاب لجميع الخلق ، وذلك بعكس الكتب السماوية الأخرى التي كانت خاصة بأناس معينين. أما القرآن الحكيم فهو دعوة الله للناس أجمعين ، وحجته على الخلق ، ورسالته لجميع البشر .

قال تعالى : ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا . . . ﴾ (الأعراف : ١٥٨). وقال تعالى : ﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (القلم: ٥٢).

١٠- تضمّنه لخيري الدنيا والآخرة:

إن المتأمل في كتاب الله تعالى يجد أنَّه قد اشتمل على ما ينفع الإنسان في دنياه ، وآخرته ، فما من خيرٍ إلا ودلّه عليه ، وما من شرٍّ إلا وحذَّره منه.

قال تعالى : ﴿ . . . مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ . . . ﴾ (الأنعام: ٣٨).

المبحث الثاني
أهمية الدعوة إلى التمسّك بالقرآن الكريم

أرسل الله تعالى نبيه المصطفى، ورسوله المجتبى محمدا ﷺ، بخاتمة الرسائل، وآخر الدعوات، وأنزل معه الكتاب الكريم ليكون للعالمين نذيراً، وهادياً ودليلاً، وسراجاً منيراً. وأمر الله تبارك وتعالى الناس بالتمسك بكتابه الكريم وحفظه، والعناية به، وعدم التفريط، أو التهاون فيه. قال تعالى: ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (الزخرف: ٤٣).

يقول ابن جرير الطبري في تفسيره للآية الكريمة: «يقول تعالى ذكره لنبيّه محمد ﷺ: فتمسّك يا محمد بما يأمرك به هذا القرآن الذي أوحاه إليك ربك، ﴿ ... إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ ومنهاج سديد، وذلك هو دين الله الذي أمر به، وهو الإسلام(١)».

وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره لهذه الآية الكريمة: «أي: خذ بالقرآن المنزل على قلبك فإنه هو الحق وما يهدي إليه هو الحق المفضي إلى صراط الله المستقيم، الموصل إلى جنات النعيم، والخير الدائم المقيم»(٢).

ويقول الفخر الرازي في تفسيره لهذه الآية الكريمة: «﴿ ... فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ﴾: بأن تعتقد أنه حق، وبأن تعمل بموجبه،

(١) تفسير الطبري ١١ / ١٩١.

(٢) تفسير ابن كثير ٤ / ١٢٨.

فإنه الصراط المستقيم الذي لا يميل عنه إلا ضال في الدين»[1].

وقال القاسمي في تفسيره للآية الكريمة:

« ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ يعني: دين الله الذي أمر به وهو الإسلام، فإنه كامل الاستقامة من كل وجه. قال الشهاب: هذا تسلية له ﷺ وأمر لأمته أو له، بالدوام على التمسك»[2].

ومن مجموع أقوال المفسرين للآية الكريمة، يمكننا الخلوص بالهدايات التالية:

١- أهمية الاعتقاد الصحيح في دين الإسلام، وذلك يقتضي أن تكون العقيدة الحقة بعيدة كل البعد عن الباطل والشرك والبدع.

٢- أهمية التمسك بالقرآن الكريم، الذي هو وحي الله تعالى، ورسالته العظيمة، ودعوته الباقية للناس أجمعين.

٣- أن التمسك بالقرآن العظيم يوصل -بإذن الله تعالى- إلى جنات النعيم، والخير الدائم المقيم.

٤- أهمية العمل بالقرآن الكريم، وتطبيقه في واقع الحياة المعاش؛ فإن ذلك من أعظم الأدلة، وأوثق البراهين على صدق دعوى التمسك به.

٥- أن القرآن الكريم كامل الاستقامة من كل وجه، خال من العيوب، صافٍ من الكدورات، فاستحق بذلك التمسك والعمل والإيمان به.

٦- وضوح المنهج الذي دعا به النبي ﷺ، لأنه منهج يسير على ضوء القرآن الكريم وتعاليمه.

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ٩ / ٦٣٤.

(٢) تفسير القاسمي ٨ / ٣٩٢.

٧- وفي الآية كذلك خطورة عدم التمسك بالقرآن الكريم ، أو الميل عنه ، وعدم الوثوق بعراه ، وأن ذلك دلالة على الشقاء والعياذ بالله .

ويقول تعالى آمراً نبيّه ﷺ بالدعوة إلى ما أمره به وأنزله عليه وهو القرآن الكريم ، وعدم اتباع الأهواء المضلة : ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ (الشورى : ١٥) . في هذه الآية الكريمة أمرٌ من الله تعالى لنبيه ﷺ بالدعوة كما أمره وبينها له في كتابه الكريم ، والاستقامة على ذلك ، وعدم اتباع الأهواء المنحرفة والضالة .

ومن جملة ما أمره الله تعالى به : الإيمان بالكتب المنزلة على الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام السابقين له، وكذلك أمره تعالى بالعدل بين الناس .

كما أمر الله تعالى نبيَّه ﷺ أن ينبّه الناس على مسألة هامة ضل فيها كثير من البشر، ألا وهي مسألة توحيد الله تعالى فهو سبحانه الإله والرب الذي لا شريك له، ولا ند له ، ولا كفو له. ثم أمر الله تعالى نبيَّه ﷺ أن يقول للناس بأن لكل قوم عملهم، وأنه تعالى سوف يجمع الناس ويجازيهم على أعمالهم إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

يقول الحافظ ابن كثير موضحاً تلك المعاني ومركزاً إياها في نقاط محددة : « اشتملت هذه الآية الكريمة على عشر كلمات مستقلات كل منها منفصلة عن التي قبلها، حكم برأسها، قالوا : ولا نظير لها سوى آية الكرسي، فإنها أيضاً عشر فصول كهذه. وقوله : ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ ﴾ : أي فللذي أوحينا إليك من الدين الذي وَصَّينا به جميع المرسلين قبلك

أصحاب الشرائع الكبار المتبعة كأولي العزم وغيرهم فادع الناس إليه. وقوله عز وجل ﴿ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ ، أي : واستقم أنت ومن اتبعك على عبادة الله تعالى كما أمركم الله عز وجل. وقوله تعالى ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ يعني : المشركين فيما اختلقوه وكذبوه وافتروه من عبادة الأوثان. وقوله جل وعلا : ﴿ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ﴾ أي : صدقت بجميع الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء لا نفرق بين أحد منهم. وقوله : ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾ أي : في الحكم كما أمرني الله. وقوله : ﴿ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾ أي : هو المعبود لا إله غيره فنحن نقرّ بذلك اختياراً وأنتم وإن لم تفعلوه اختياراً فله يسجد من في العالمين طوعاً وإجباراً. وقوله ﴿ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ﴾ أي: نحن برآء منكم .. وقوله : ﴿ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ﴾ قال مجاهد: أي لا خصومة، قال السُّدِّي: وذلك قبل نزول آية السيف، وهذا متجه لأن هذه الآية مكية وآية السيف بعد الهجرة. وقوله عز وجل: ﴿ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ﴾ أي: يوم القيامة.. وقوله: ﴿ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ أي : المرجع والمآب يوم الحساب » . اهـ(١).

ويتضح لنا من خلال تفسير الآية الكريمة:

الأمر بالتمسّك بالقرآن العظيم، والاستقامة عليه، والدعوة إليه، والحذر مما يضاد ذلك كله، وهذا في الحقيقة راجع إلى أن: « القرآن الكريم هو كتاب الدعوة الإسلامية الشاملة للعقيدة والشريعة ، والذي

---

(١) تفسير ابن كثير ٤ / ١٠٩.

اشتمل على بيان العقيدة في صفائها، وعلى وضع أسس التشريع في مختلف الجوانب التي تمس حياة العباد»[1].

وكذلك اشتمل القرآن العظيم على الحقائق الكاملة التي حارت الإنسانية واختلفت فيها، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (النمل: ٧٦).

وكذلك اشتمل كتاب الله تعالى على إيضاح المنهج القويم الذي ينبغي أن يسير عليه المؤمن في حياته دون عوج أو اضطراب، كما قال تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ (المائدة: ٤٨).

كذلك تضمن كتاب الله تعالى الإخبار عن أحوال الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام وما جاءوا به، وأمروا ونهوا عنه، كما قال تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ... ﴾ (النساء: ١٦٥).

وتضمن كتاب الله تعالى -أيضاً- الوعد والوعيد ، والجزاء الحاصل على الأعمال في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد. كما قال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ (النور: ٥٥).

---

(١) انظر : هذا القرآن ، لعبد الحي العمراني ص ٣٢ .

المبحث الثالث
مظاهر التمسّك بالقرآن الكريم

إن دعوى التمسك بالقرآن العظيم تحتاج إلى براهين تدلّ عليها، وإلى مظاهر تؤكدّها وترشد إليها.

فمن مظاهر التمسك بالقرآن الكريم ما يلي:

أولاً: الإيمان به:

ومقتضى هذا الاعتقاد الجازم الذي لا يخالطه شك ولا يمازجه ريب أن القرآن الكريم كلام الله تعالى، ووحيه إلى نبيّه محمد ﷺ، لدعوة الخلق أجمعين. كما قال تعالى: ﴿ ... وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ ... ﴾ (الأنعام: ١٩).

كما أن من لوازم الإيمان بالقرآن الكريم الإيمان الجازم بكل ما جاء فيه، واعتقاد أنه الحق والصواب، كما قال تعالى: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (الحج: ٥٤).

يقول البيضاوي في تفسير هذه الآية:

«﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أن القرآن هو الحق النازل من عند الله...، ﴿فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ﴾ بالقرآن أو بالله، ﴿فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْۗ﴾ بالانقياد والخشية، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ فيما أشكل ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هو نظر صحيح يوصلهم إلى ما هو الحق فيه»[1].

---

(١) تفسير البيضاوي ٢/ ٩٣.

كما أن من مقتضيات الإيمان بالقرآن الكريم : الإيمان بمتشابهه. قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (آل عمران : ٧).

يقول الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية :

« يخبر تعالى أن في القرآن آيات محكمات هن أمّ الكتاب، أي : بينات واضحات الدلالة لا التباس فيها على أحد، ومنه آيات أُخرى فيها اشتباه في الدلالة على كثير من الناس أو بعضهم، فمن رَدَّ ما اشتبه إلى الواضح منه وحكم محكمه على متشابهه عنده فقد اهتدى، ومن عكس انعكس »(١).

ثانياً : العمل به :

ومقتضى العمل بالقرآن، تنفيذ كل ما جاء في القرآن الكريم وذلك بتحليل حلاله، وتحريم حرامه، والالتزام الكامل بما دل عليه، وأرشد إليه، وعدم تجاوز ذلك أو مخالفته أو الزيادة عليه ،لأن هذا من الكذب على الله تعالى. قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (النحل : ١١٦-١١٧).

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٣٤٤.

ثالثاً : قراءته وتدبره :

ومعنى ذلك المداومة على قراءة القرآن الكريم ، وعدم هجره ، مع تدبر معانيه، وتأمل مراميه، والعلم بعقائده، ومعرفة أحكامه، وشرائعه. قال تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ﴾ (الفرقان : ٣٠) .

يقول الحافظ ابن كثير في تفسير هذه الآية الكريمة :

« كان المشركون إذا تلي عليهم القرآن أكثروا اللغط والكلام في غيره حتى لا يسمعونه، فهذا من هجرانه، وترك الإيمان به وترك تصديقه من هجرانه، وترك تدبره وتفهمه من هجرانه، وترك العمل به وامتثال أوامره واجتناب زواجره من هجرانه، والعدول عنه إلى غيره من شعر أو قول أو غناء أو لهو أو كلام أو طريقة مأخوذة من غيره من هجرانه »[١] .

وقال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴾ (النساء : ٨٢) .

وقال سبحانه : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴾ (محمد : ٢٤) .

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي في إيضاح المقصود بهذه الآية الكريمة : « أي : فهلا يتدبر هؤلاء المعرضون كتاب الله، ويتأملونه حق التأمل، فإنهم لو تدبروه، لدلهم على كل خير، ولحذرهم من كل شر، ولملأ قلوبهم من الإيمان، وأفئدتهم من الإيقان، ولأوصلهم إلى المطالب

---

(١) تفسير ابن كثير ٣ / ٣١٧ .

العالية والمواهب الغالية، ولبين لهم الطريق الموصلة إلى الله، وإلى جنته ومكملاتها ومفسداتها، والطريق الموصلة إلى العذاب، وبأي شيء يحذر، ولعرِّفهم بربهم، وأسمائه وصفاته، وإحسانه، ولشوقهم إلى الثواب الجزيل، ورهبهم من العقاب الوبيل. وقوله تعالى: ﴿ ... أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ أي: قد أغلق على ما فيها من الإعراض والغفلة، والاعتراض، وأقفلت، فلا يدخلها خير أبداً»[1].

رابعاً: حفظه:

والمقصود بذلك: حفظ القرآن في الصدور والسطور من الضياع أو الزيادة أو النقص أو الإهمال.

ولا ريب أن حفظ القرآن من أفضل الأعمال وأجلها وأزكاها، وهو مظهر عظيم من مظاهر التمسك بالقرآن الكريم، ودليل على العناية والاهتمام به.

وحفظ القرآن الكريم يتطلَّب من المسلم الإخلاص لله تعالى، وتصحيح النية، وحسن التوجه والقصد، وطلب العون من الله تعالى، مع تفريغ القلب من الشواغل، وبذل الأسباب واتخاذ المسببات المعينة على الحفظ.

ولا ريب أن الله تعالى قد تكفل بحفظ كتابه الكريم بقوله سبحانه:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر: ٩).

يقول الخازن في تفسير هذه الآية الكريمة ما ملخصه:

«﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ ... ﴾ يعني القرآن أنزلناه عليك يا محمد..، ﴿ ... وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ الضمير في (له) يرجع إلى الذكر، يعني: وإنا

---

(١) تفسير ابن سعدي ٧/ ٨٠.

للذكر الذي أنزلناه على محمد لحافظون، يعني: من الزيادة فيه، والنقص منه، والتغيير والتبديل والتحريف، فالقرآن العظيم محفوظ من هذه الأشياء كلها لا يقدر أحد من جميع الخلق من الجن والإنس أن يزيد فيه، أو ينقص منه حرفاً واحداً أو كلمة واحدةً، وهذا مختص بالقرآن العظيم بخلاف سائر الكتب المنزلة فإنه قد دخل على بعضها التحريف والتبديل والزيادة والنقصان، ولما تولى الله عز وجل حفظ هذا الكتاب بقي مصوناً على الأبد محروساً من الزيادة والنقصان...، وقيض الله له العلماء الراسخين يحفظونه، ويذبون عنه إلى آخر الدهر»(١).

ولا ريب أن من الوسائل المفيدة لحفظ القرآن في الصدور انتشار حلقات تحفيظ القرآن الكريم في المساجد، وتربية الناشئة على ذلك، وتنشئتهم عليه منذ الصغر.

ومن وسائل حفظه كذلك إنشاء المدارس، والأقسام، والكليات التي تعنى بالقرآن الكريم وعلومه، والدراسات المتعلقة به مثل: كلية القرآن الكريم والدراسات الإسلامية في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، التي تقوم بدور هام وعظيم في تخريج الحفاظ العالمين، وكذا تعنى بالدراسات المتعلقة بالقرآن الكريم كعلوم القراءات والتفسير.

أما طرق حفظ القرآن الكريم في السطور فإن وسائل الطباعة الحديثة، والتقنية العلمية المتطورة قد ساهمت في ذلك.

ومن الشواهد العظيمة للعناية بحفظ القرآن الكريم ما قامت به

---

(١) انظر: تفسير الخازن ٣/٤٩٦-٤٩٧.

المملكة العربية السعودية من إنشاء (مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف) الذي وضع لبناته الأولى خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود حفظه الله في ١٦ من المحرم ١٤٠٣هـ بالمدينة المنورة، وبدأ الإنتاج الفعلي في ٦ صفر ١٤٠٥هـ[١]. ويقوم المجمع بطبع ملايين النسخ من المصحف الشريف طباعة صحيحة مراجعة خالية من أي عيب والحمد لله، ثم توزع في الداخل والخارج، وقد استفاد المسلمون في أقطار الأرض كافة من هذه الخدمة العظيمة، أجزل الله المثوبة لأولياء الأمور ووفقهم لخدمة كتابه العزيز.

خامساً: احترامه وتوقيره، والخشوع والإنصات عند سماع القرآن الكريم.

إن من المظاهر الدالة على التمسك بالقرآن العظيم، احترامه وتوقيره وعدم إهانته بأي حال من الأحوال معنوياً أو قولياً أو مادياً، والإنصات عند سماع ذكر الله تعالى يتلى، والخشوع واستجماع القلب والعقل بالتفكير والتدبر والخشوع الكامل له. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (الأعراف: ٢٠٤).

يقول الحافظ ابن كثير في تفسير هذه الآية:

«لما ذكر الله تعالى أن القرآن بصائر للناس وهدى ورحمة، أمر تعالى بالإنصات عند تلاوته إعظاماً له، واحتراماً»[٢].

---

(١) انظر: الأنشطة الدعوية في المملكة العربية السعودية، د. صالح بن غانم السدلان ص ٢٥٤-٢٥٥.

(٢) تفسير ابن كثير ٢ / ٢٨٠.

وقال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله:

«هذا الأمر عام في كل من سمع كتاب الله يتلى، فإنه مأمور بالاستماع له والإنصات. والفرق بين الاستماع والإنصات، أن الإنصات في الظاهر بترك التحدث أو الاشتغال بما يشغل عن استماعه.

وأما الاستماع له فهو أن يلقي سمعه، ويحضر قلبه، ويتدبر ما يستمع. فإن من لازم على هذين الأمرين، حين يتلى كتاب الله، فإنه ينال خيراً كثيراً، وعلماً غزيراً، وإيماناً مستمراً متجدداً، وهدى متزايداً، وبصيرة في دينه. ولهذا رتب الله حصول الرحمة عليهما. فدلَّ ذلك على أن من تلي عليه الكتاب، فلم يستمع له ولم ينصت، أنه محروم الحظ من الرحمة قد فاته خير كثير. ومن أوكد ما يؤمر مستمع القرآن أنه يستمع له وينصت في الصلاة الجهرية إذا قرأ إمامه، فإنه مأمور بالإنصات»[1].

سادساً: الدعوة إليه:

إن من عظيم مظاهر التمسك بالقرآن الكريم الدعوة إليه، وإلى ما تضمنه من العقائد والشرائع والأحكام والآداب والأخلاق، وإلى ما حث على النظر إليه، والتفكر فيه، وكذا إلى إخباره عن المغيبات وإلى ما كان وإلى ما سيكون، وإلى كل خير تضمّنه كتاب الله تعالى.

فالقرآن العظيم هو الكتاب الوحيد المعصوم الذي لا يأتيه الباطل من

---

(١) انظر: تفسير ابن سعدي ٣/١٣٨.

أي وجه من الوجوه، كما قال تعالى عنه: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (فصلت: ٤٢).

يقول الحافظ ابن كثير في تفسيره للآية:

«أي: ليس للبطلان إليه سبيل، لأنه منزل من رب العالمين ولهذا قال: ﴿ ... تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ أي: حكيم في أقواله وأفعاله، حميد بمعنى محمود، أي: في جميع ما يأمر به وينهى عنه الجميع، محمودة عواقبه وغاياته»[١].

وقال السيد محمود الألوسي في إيضاح آخر للآية الكريمة: «هذه صفة أخرى لكتاب، وما بين يديه وما خلفه كناية عن جميع الجهات، كالصباح والمساء كناية عن الزمان كله، أي لا يتطرق إليه الباطل من جميع جهاته، وفيه تمثيل لتشبيهه بشخص حمي من جميع جهاته فلا يمكن أعداؤه الوصول إليه، لأنه في حصن حصين من حماية الحق المبين، وجوز أن يكون المعنى لا يأتيه الباطل من جهة ما أخبر به من الأخبار الماضية والأمور الآتية.

وقيل: الباطل بمعنى المبطل.. أو هو مصدر كالعافية بمعنى مبطل أيضاً، وقوله تعالى: ﴿ ... تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ أي: محمود على ما أسدى من النعم التي منها تنزيل الكتاب، وحمده سبحانه: بلسان الحال متحقق من كل مُنْعَم عليه، وبلسان المقال متحقق ممن وفق لذلك، خبر مبتدأ محذوف، أو صفة أخرى لكتاب، مفيدة لفخامته

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ١٠٢.

الإضافية كما أن الصفتين السابقتين مفيدتان لفخامته الذاتية »[1].

والمتحصل من كلام المفسرين – رحمهم الله تعالى – في معنى الآية الكريمة:

أن الله تعالى: حافظ كتابه الكريم من تطرق الباطل إليه بأي وجه من الوجوه في أي وقت من الأوقات وبأي شيء من الأشياء الباطلة الحسية أو المعنوية، فهو كتاب مصون ، محفوظ مكلوء بالعناية والرعاية الإلهية، لأنه تنزيل من الله تعالى الحكيم في كل أفعاله، الحميد في كل أموره وشؤونه.

ولا ريب أن هذا الكتاب المحفوظ المصون هو كتاب الدعوة، ومن حقوقه على كل مسلم أن يدعو الناس إليه وبه. كما قال تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ (النحل: ١٢٥).

ومما فسرت به الحكمة هنا : القرآن الكريم[2].

وقد دعا ﷺ إلى كتاب الله تعالى، وإلى ما أنزل إليه فيه وأعظمه التوحيد الذي هو حق الله على العبيد، وأجمعت الأمة وسلفها الصالح ، وخيارها ودعاتها الأبرار على هذا النهج .

سابعاً: الالتزام بمنهجه:

إن قضية الالتزام بالمنهج مهمة جداً في أي أمر من الأمور، بل وفي حياة الأمم والشعوب. قال تعالى: ﴿ ... لِكُلٍّ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةً وَمِنۡهَاجًاۚ ... ﴾ (المائدة: ٤٨).

يقول الحافظ ابن كثير في تفسيره للآية الكريمة:

---

(١) روح المعاني ، للألوسي ١٢ /٣٧٨-٣٧٩.

(٢) انظر : زاد المسير لابن الجوزي ٤ /٥٠٦.

« قال ابن عباس: شرعة: سبيلاً، ومنهاجاً: سنة. وبه قال مجاهد وعكرمة والحسن البصري وقتادة والضحاك والسدي وأبو إسحاق السبيعي». ثم قال ابن كثير رحمه الله: «فإن الشرعة -وهي الشريعة أيضاً- هي: ما يبتدأ فيه إلى الشيء، ومنه يقال: شرع في كذا أي ابتدأ فيه، وكذا الشريعة وهي ما يشرع فيها إلى الماء .. أما المنهاج، فهو: الطريق الواضح السهل، والسنن الطرائق».

ثم ذكر ابن كثير رحمه الله وجهاً آخر في تفسير الآية فقال: «وقيل المخاطب بهذه الآية هذه الأمة، ومعناه لكل جعلنا القرآن منكم أيتها الأمة شرعة ومنهاجاً، أي هو لكم كلكم تقتدون به، وحذف الضمير المنصوب في قوله ﴿ ... لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ ... ﴾ أي: جعلناه يعني القرآن شرعة ومنهاجاً، أي: سبيلاً إلى المقاصد الصحيحة، وسنةً، أي: طريقاً ومسلكاً واضحاً بَيِّناً».

ثم يرجح ابن كثير -رحمه الله- بين القولين بقوله: «والصحيح القول الأول»[1].

وقال الفخر الرازي في تفسيره للآية الكريمة ملخصاً أقوال العلماء: «قال بعضهم: الشرعة والمنهاج عبارتان عن معنى واحد، والتكرير للتأكيد، والمراد بهما الدين.

وقال آخرون: بينهما فرق، فالشرعة عبارة عن مطلق الشريعة، والطريقة عبارة عن مكارم الشريعة، وهي المراد بالمنهاج، فالشريعة أول، والطريقة آخر.

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٦٦.

وقال المبرّد: الشريعة ابتداء الطريقة، والطريقة المنهاج المستمر»[1].

والحاصل أنه ينبغي للمسلم الالتزام بالمنهج القرآني في عقيدته وعبادته ومعاملته وأخلاقه وسائر شؤونه وتصرفاته، وذلك لأنه النهج الأمثل والأعلم والأحكم والأسلم.

والمتأمل في منهج القرآن الكريم يجد الخير كل الخير، والسعادة الأبدية، والفضائل التي بحث عنها البشر فأعجزتهم، والكمالات التي تسمو بالإنسانية إلى مراتب عالية رفيعة، ناهيك عن العقيدة العظيمة، والشريعة الكاملة السوية. قال تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۖ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (الجاثية: ١٨-١٩-٢٠).

ثامناً: التخلق بأخلاقه:

إن من مظاهر التمسك بكتاب الله تعالى التخلق بالأخلاق العالية التي حث عليها، والمسالك الرفيعة التي أمر بها، والصفات النبيلة التي ندب إليها.

وكتاب الله تعالى كله خير، وفضل، وخلق كريم لمن أراد التخلق بأخلاقه والتأدب بآدابه. وكان ﷺ صاحب الخُلق الكامل، وقد أثنى ربه تبارك وتعالى عليه بقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القلم: ٤).

(١) التفسير الكبير، للفخر الرازي ٤/٣٧٣.

وكانت جميع أخلاقه ﷺ مستمدة من القرآن الكريم ، فعندما سئلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن خُلقه ﷺ قالت : فإن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن[1] .

(١) صحيح مسلم ١ /٥١٣ كتاب صلاة المسافرين، باب جامع صلاة الليل (رقم ٧٤٦).

المبحث الرابع
فضائل التمسّك بالقرآن الكريم

إن للتمسّك بالقرآن الكريم فضائل عديدة ، ومزايا كثيرة تجل عن الوصف، وما ذاك إلا لأن كتاب الله تعالى كله فضائل وخيرات ومكارم في الدنيا والآخرة .

فمن فضائله العديدة ما يلي :

أولاً : حصول السعادة الدائمة، لمن آمن بكتاب الله تعالى، واعتقد صحة ما فيه، وعمل به في حياته.

قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ (هود : ١٠٥-١٠٨) .

ثانياً : الفوز بالرضا الكامل من الله تعالى، لمن تمسك بكتابه، والتزمه، وسلك مسلك الصالحين وخشي ربه .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴾ (البينة : ٧-٨) .

ثالثاً : الهداية للتي هي أقوم ، والبشارة للمؤمنين ، المتبعين لهدي

القرآن، المستمسكين به. كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ (الإسراء: ٩).

يقول الشيخ ابن سعدي في تفسيره للآية الكريمة:

« يخبر تعالى عن شرف القرآن وجلالته، وأنه ﴿يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾، أي: أعدل وأعلى، من العقائد، والأعمال، والأخلاق. فمن اهتدى بما يدعو إليه القرآن، كان أكمل الناس، وأقومهم، وأهداهم في جميع الأمور ﴿ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ من الواجبات والسنن ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ أعده الله لهم في دار كرامته، لا يعلم وصفه إلا هو سبحانه وتعالى »[١].

رابعاً: كونه شفاء وعافية ورحمة وهدى للمؤمنين. إن التمسك بكتاب الله تعالى حق التمسك يمد المؤمن بالشفاء والعافية وكذلك بالرحمة في الدنيا والآخرة.

ولا ريب أن القرآن الكريم طب القلوب والأبدان، ففيه دواء بإذن الله تعالى، وفيه شفاء وعافية لمن أخلص النيّة، وأحسن القصد، وأعظم الثقة بالله تعالى وبكتابه الكريم.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس: ٥٧).

ففي هذه الآية الكريمة يلفت الله تعالى أنظار الناس إلى أنه: قد

---

(١) تفسير ابن سعدي ٤ / ٢٦٤.

جاءتكم موعظة من ربكم تذكركم عقاب الله وتخوفكم وعيده، وهي القرآن وما اشتمل عليه من الآيات والعظات لإصلاح أخلاقكم وأعمالكم، وفيه دواء لما في القلوب من الجهل والشرك وسائر الأمراض، ورشد لمن اتبعه من الخلق فينجيه من الهلاك، جعله سبحانه وتعالى نعمة ورحمة للمؤمنين، وخصهم بذلك؛ لأنهم المنتفعون بالإيمان، وأما الكافرون فهو عليهم عمى[1].

وقال تعالى في موضع آخر من كتابه الكريم مؤكداً شفاء كتابه الكريم لأمراض الناس وعللهم: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ (الإسراء: ٨٢).

يقول الحافظ ابن كثير رحمه الله في إيضاح المقصود بهذه الآية الكريمة:

« يقول تعالى مخبراً عن كتابه .. إنه شفاء ورحمة للمؤمنين أي: يذهب ما في القلوب من أمراض من شك ونفاق وشرك وزيغ وميل، فالقرآن يشفي من ذلك كله ، وهو أيضاً رحمة يحصل فيها الإيمان ، والحكمة وطلب الخير والرغبة فيه، وليس هذا إلا لمن آمن به، وصدقه ، واتبعه ، فإنه يكون شفاء في حقه ورحمة ، وأما الكافر الظالم نفسه بذلك فلا يزيده سماعه القرآن إلا بعداً وكفراً ، والآفة من الكافر لا من القرآن »[2].

---

(١) التفسير الميسر ص٢١٥.

(٢) تفسير ابن كثير ٣ / ٥٩.

وأخرج الإمام البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها: أنَّ رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات وينفث، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه وأمسح بيده رجاء بركتها[1].

وعن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما فقرأ فيهما: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات[2].

خامساً: حصول الأجر العظيم على قراءة القرآن الكريم.

إن قراءة القرآن الكريم، والمداومة عليها، مطلوبة من كل مسلم ومسلمة كما قال تعالى: ﴿... فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ...﴾ (المزمل: ٢٠).

ولا ريب أن المؤمن القارئ لكتاب الله تعالى سوف يحصل على الأجر العظيم والخير العميم، وله فضل على من سواه من الناس. فعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مثل الذي يقرأ القرآن كالأترجة طعمها طيب وريحها طيب، والذي لا يقرأ القرآن كالتمرة طعمها طيب ولا ريح فيها، ومثل الفاجر الذي يقرأ القرآن، كمثل الريحانة، ريحها طيب وطعمها مر،

(١) صحيح البخاري ٣ / ٣٤٤ كتاب فضائل القرآن، باب فضل المعوذات (رقم ٥٠١٦).
(٢) صحيح البخاري ٣ / ٣٤٤ كتاب فضائل القرآن، باب فضل المعوذات (رقم ٥٠١٧).

ومثل الفاجر الذي لا يقرأ القرآن، كمثل الحنظلة طعمها مر، ولا ريح لها[1].

ومما قاله الحافظ ابن حجر في شرحه للحديث: «وفي الحديث فضيلة حاملي القرآن، وضرب المثل للتقريب للفهم، وأن المقصود من تلاوة القرآن العمل بما دَلَّ عليه»[2].

ومن أنواع الأجر الذي يتحصل عليه قارئ القرآن أن له بكل حرف حسنة والحسنة بعشر أمثالها، وهذا فضل وخير ولطف من الله تعالى بهذه الأمة، التي هي خير الأمم.

فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول الم حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف».

وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه[3].

يقول الحافظ المباركفوري في تعليقه على المقصود بالحرف الوارد في الحديث: «والحرف يطلق على حرف الهجاء، والمعاني، والجملة المفيدة، والكلمة المختلفة في قراءتها، وعلى مطلق الكلمة»[4].

وأما الأجر المتحصل لقارئ القرآن يوم القيامة فهو عظيم وجزيل.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ٣ / ٣٤٥ كتاب فضائل القرآن، باب فضل القرآن على سائر الكلام (رقم ٥٠٢٠).

(٢) فتح الباري، لابن حجر ٨ / ٦٨٥.

(٣) سنن الترمذي ٥ / ١٧٦ كتاب فضائل القرآن، باب: ما جاء فيمن قرأ حرفاً من القرآن ما له من الأجر (رقم ٢٩١٠)، وقال الشيخ الألباني: صحيح. انظر: صحيح سنن الترمذي ٣ / ٩ (رقم ٢٣٢٧).

(٤) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، للإمام المباركفوري ٨ / ١٨٢.

فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ قال : « يقال لصاحب القرآن اقرأ وارتق ورتِّل كما كنت ترتّل في الدنيا ، فإن منزلتك عند آخر آية تقرأ بها » . وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح [1] .

ومن فضائل قارئ القرآن الكريم التي ينفرد ويتميزّ بها عن الناس أنه مرافق للملائكة الكرام البررة .

فعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران »[2] .

يقول الإمام النووي –رحمه الله– في شرحه للحديث : « السفرة، جمع سافر ككاتب، وكتبة، والسافر: الرسول، والسفرة: الرسل؛ لأنهم يسفرون إلى الناس برسالات الله، وقيل السفرة الكتبة، والبررة المطيعون من البر وهو الطاعة، والماهر: الحاذق الكامل الحفظ الذي لا يتوقف ولا يشق عليه القراءة بجودة حفظه وإتقانه . قال القاضي : يحتمل أن يكون معنى كونه مع الملائكة أنه له في الآخرة منازل يكون فيها رفيقاً للملائكة السفرة ولاتصافه بصفتهم من حمل كتاب الله تعالى . قال : ويحتمل أن

---

(١) سنن الترمذي ٥ /١٧٧ كتاب فضائل القرآن، باب ١٨ (رقم ٢٩١٤)، وقال الشيخ الألباني : حسن صحيح . انظر : صحيح سنن الترمذي ٣ / ١٠ (رقم ٢٣٢٩) .

(٢) رواه مسلم في صحيحه ١ /٥٤٩–٥٥٠ كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل الماهر بالقرآن والذي يتتعتع فيه (رقم ٧٩٨)، ورواه الترمذي في سننه ٥ / ١٧١ كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل قارئ القرآن (رقم ٢٩٠٤)، وقال الشيخ الألباني : صحيح . انظر: صحيح سنن الترمذي ٣ /٩ (رقم ٢٣٢٥) .

يراد أنه عامل بعملهم ، وسالك مسلكهم، وأما الذي يتتعتع فيه فهو الذي يتردد في تلاوته لضعف حفظه فله أجران، أجر بالقراءة وأجر بتتعتعه في تلاوته ومشقته. قال القاضي وغيره من العلماء: وليس معناه الذي يتتعتع عليه له من الأجر أكثر من الماهر به ، بل الماهر أفضل وأكثر أجراً لأنه مع السفرة، وله أجور كثيرة، ولم يذكر هذه المنزلة لغيره، وكيف يلحق به من لم يعتن بكتاب الله تعالى وحفظه وإتقانه وكثرة تلاوته وروايته كاعتنائه حتى مهر فيه والله أعلم»[1].

سادساً: خيرية من تعلَّم القرآن وعلمه.

إن في تعلّم القرآن الكريم وتعليمه خيراً كثيراً، وفضلاً جزيلاً وذلك لما يعود على العالم والمتعلم من الأجر والمثوبة.

فعن عثمان بن عفان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه». ورواية أخرى: «إن أفضلكم من تعلم القرآن وعلمه»[2].

يقول الحافظ ابن حجر -رحمه الله- في شرحه للحديث: «يحتمل أن يكون المراد بالخيرية من جهة حصول التعليم بعد العلم، والذي يعلم غيره يحصل له النفع المتعدي بخلاف من يعمل فقط، بل من أشرف العمل تعليم الغير، فمعلم غيره يستلزم أن يكون تعلمه، وتعليمه لغيره

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ٦ / ٨٤-٨٥.

(٢) رواه البخاري في صحيحه ٣ / ٣٤٦-٣٤٧ كتاب فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه (رقم ٥٠٢٧-٥٠٢٨).

عمل وتحصيل نفع متعد، ولا يقال لو كان المعنى حول النفع المتعدي لاشترك كل من علم غيره علماً ما في ذلك، لأنا نقول القرآن أشرف العلوم فيكون مَنْ تعَلَّمه وعلمه لغيره أشرف ممن تعلم غير القرآن وإن علمه فيثبت المدعى. ولا شك أن الجامع بين تعلّم القرآن وتعليمه مكمل لنفسه ولغيره جامع بين النفع القاصر والنفع المتعدي ولهذا كان أفضل، وهو من جملة من عنى سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ (فصلت: ٣٣) والدعاء إلى الله يقع بأمور شتى من جملتها تعليم القرآن وهو أشرف الجميع ...» إلى أن قال الحافظ ابن حجر رحمه الله:

«ويحتمل أن تكون الخيرية -وإن أطلقت- مقيدة بناس مخصوصين خوطبوا بذلك وكان اللائق بحالهم ذلك، أو المراد خير المتعلمين من يعلم غيره لا من يقتصر على نفسه، أو المراد مراعاة الحيثية لأن القرآن خير الكلام فمتعلمه خير من متعلم غيره بالنسبة إلى خيرية القرآن، وكيفما كان فهو مخصوص بمن علم وتعلم بحيث يكون قد علم ما يجب عليه عيناً»(١).

وقد كان سلف الأمة الصالح يتعاهدون القرآن الكريم علماً وتعلّماً وتعليماً، وكانت لهم في ذلك عناية ورعاية خاصة، ومن آثارهم الدالة على ذلك:

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «إن كل مؤدب يحب أن يؤتى أدبه، وإن أدب الله تبارك وتعالى القرآن»(٢).

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٨ / ٦٩٤.

(٢) فضائل القرآن ومعالمه وآدابه، لأبي عبيد القاسم بن سلام ١ / ٢٤١، وانظر الأثر في سنن الدارمي ٢ / ٨٩١.

وعن الأعمش قال: مر أعرابي بعبد الله بن مسعود رضي الله عنه وهو يقرئ قوماً القرآن، أو قال: وعنده قوم يتعلمون القرآن، فقال: ما يصنع هؤلاء؟ فقال ابن مسعود: يقتسمون ميراث محمد ﷺ[1].

وعن عمرو بن قيس السكوني قال: سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص – رضي الله عنهما – يقول: عليكم بالقرآن، فتعلموه وعلموه أبناءكم، فإنكم عنه تسألون، وبه تجزون وكفى به واعظاً لمن عقل[2].

ومن آثار السلف الصالح الدالة على حث الناس على تعلم القرآن وتعليمه ومن ثم حصول الأجر والخير والمثوبة قول كعب: عليكم بالقرآن، فإنه فهم العقل ونور الحكمة، وينابيع العلم، وأحدث الكتب بالرحمن عهداً، وقال في التوراة: يا محمد، إني منزل عليك توراة حديثة، تفتح بها أعيناً عمياً، وآذاناً صُماً، وقلوباً غُلفاً[3].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: إن هذا القرآن كائن لكم أجراً، وكائن لكم ذكراً، وكائن عليكم وزراً، اتبعوا هذا القرآن، ولا يتبعنكم القرآن، فإنه من يتبع القرآن يهبط به في رياض الجنة، ومن أتبعه القرآن يَزُخُّ في قفاه، فيقذفه في جهنم[4].

---

(١) فضائل القرآن ومعالمه وآدابه، لأبي عبيد القاسم بن سلام ١ / ٢٤١.

(٢) المصدر السابق ١ /٢٤٣.

(٣) سنن الدارمي ٢ / ٨٩١.

(٤) سنن الدارمي ٢ /٨٩٢.، ومعنى يزخ : يدفع .

الفصل الثاني

آثار التمسّك بالقرآن الكريم في حياة المسلمين

ويتضمن ستة مباحث:

المبحث الأول: الأثر الإيماني والتعبدي.

المبحث الثاني: الأثر الدعوي والإصلاحي.

المبحث الثالث: الأثر الخلقي والمسلكي.

المبحث الرابع: الأثر العلمي والفكري.

المبحث الخامس: الأثر الإنساني والحضاري.

المبحث السادس: الأثر الأمني الشامل.

المبحث الأول
الأثر الإيماني والتعبدي

للقرآن الكريم آثاره العظيمة في المجتمع المسلم ، ولعل أعظم ذلك الأثر الإيماني والأثر التعبدي.

والمتأمل في أحوال الجاهلية وما كانت عليه من شرك ، وظلم ، وفساد في المعتقد ، وعكوف على الأصنام والأوثان والأحجار ، يدرك مدى ما كان عليه أولئك الناس من ضلال مبين.

وهو ما ذكره الله تعالى في معرض امتنانه على هذه الأمة بقوله سبحانه : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (الجمعة : ٢).

والإيمان الذي نعنيه هو : الاعتقاد بالجنان ، والنطق باللسان ، والعمل بالجوارح والأركان[١].

وهو كما يقول الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله : « هو حقيقة مركبة من معرفة ما جاء به الرسول ﷺ علماً ، والتصديق به عقداً ، والإقرار به نطقاً ، والانقياد له محبةً وخضوعاً ، والعمل به باطناً وظاهراً ، وتنفيذه والدعوة إليه بحسب الإمكان ، وكماله في الحب في الله ، والبغض في الله ، والعطاء لله ، والمنع لله ، وأن يكون الله وحده إلهه ومعبوده ، والطريق إليه تجريد متابعةرسول الله ﷺ ظاهراً وباطناً ، وتغميض عين

---

(١) انظر : الإيمان ، للإمام ابن تيمية ص ١٦٢ ، وشرح العقيدة الطحاوية ، لابن أبي العز ص ٣٣١ ، ولوامع الأنوار البهية للسفاريني ١ / ٤٢٦ .

القلب عن الالتفات إلى سوى الله ورسوله»[1].

وقد أكد الله تعالى الإيمان وبين أهميته ولوازمه في كتابه الكريم فقال تعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ... ﴾ (البقرة: ١٧٧).

وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴾ (الحجرات: ١٥).

وفي حديث جبريل - المشهور - الذي يرويه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وسؤاله للنبي ﷺ عن الإيمان بقوله: فأخبرني عن الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره، قال: صدقت ... الحديث[2].

ومعلوم أمر النقلة الإيمانية العظيمة التي أحدثها القرآن الكريم في نفوس المسلمين، فانقاد الناس لتوحيد رب العالمين، وانغرست في قلوبهم معاني الخير للناس أجمعين.

كذلك أثمر الإيمان في نفوس الناس التقوى والإخبات لله تعالى، والخوف والخشية منه، ومراقبته تعالى في السر والعلن، فكان لذلك الأمر نتائجه العظيمة في صلاح الناس واستقامة أحوالهم.

---

(١) الفوائد، للإمام ابن القيم ص ١٤٠.

(٢) صحيح مسلم ١/ ٣٦ كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى وبيان الدليل على التبرّي ممن لا يؤمن بالقدر، وإغلاظ القول في حقه (رقم ١).

وأما الأثر التعبدي الذي أحدثه القرآن الكريم في المجتمع المسلم فهو بلا شك أثر عظيم وكبير وذو فوائد جَمَّة عديدة .

والعبادة التي نعنيها ليست قاصرة على نوع محدد من العبادات بل هي شاملة لكل ما يطلق عليه اسم العبادة .

وهي كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :« اسم جامع لكل ما يحبّه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة »[1] .

والعبادة تستغرق جميع أحوال المسلم وتصرفاته ، فكل قصد وقول وعمل يريد به المسلم طاعة الله تعالى فهو عبادة ، كما قال سبحانه : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ. . . ﴾ (الأنعام : ١٦٢-١٦٣) .

والعبادة المطلوبة شرعاً هي التي تكون خالصة لله تعالى، صالحة، بعيدة عن الشرك، مقتفية أثر النبي ﷺ وملتزمة بمنهجه . قال تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ . . . ﴾ (الزمر : ٢- ٣)، وقال تعالى : ﴿ . . . فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ (الكهف : ١١٠) .

(١) العبودية ، للإمام ابن تيمية ص ٣٨ .

المبحث الثاني
الأثر الدَّعوي والإصلاحي

إن من آثار القرآن العظيمة في المجتمع: أثره في دعوة الناس إلى الله تعالى، وإصلاحهم في مختلف المجالات الاجتماعية والحياتية. والدعوة إلى الله تعالى لا تقتصر على أمر معين بل ينتظم فيها كل ما يهم المسلم في دينه ودنياه، وبمعنى آخر: تعدُّ الدعوة صياغة جديدة لحياة المسلم، مبناها على التوحيد الخالص لله تعالى، والالتزام بشرعه، والتمسك بأمره والابتعاد عن نهيه.

ومن هنا كانت النقلة النوعية العظيمة في حياة المجتمعات الإنسانية حينما ابتدأت الدعوة الإسلامية وظهرت وانتشرت. فدخل الناس في دين الله أفواجاً، واستقامت حياتهم على الحق والخير والهدى والصلاح.

قال تعالى: ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾ (إبراهيم: ١)، ودعوة الناس وإصلاحهم وإرشادهم هي وظيفة الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام. كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ ... ﴾ (النحل: ٣٦).

والداعيـة الموفق هو الذي يدعـو إلى الله تعـالى بالحكمـة والموعظة الحسنة، وبعيد كل البعد عن الإساءة أو الغلظة، كما قال تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ (النحل: ١٢٥).

كما أن الدعوة ينبغي أن تسير على المنهج الإيماني القويم، والسبيل النبوي الكريم، كمـا قـال تعالى: ﴿ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ (يوسف: ١٠٨).

والداعية إلى الله تعالى ينبغي أن يكون واضحاً كالكتاب المقروء وأن لا يخالف قوله فعله، وأن يسلك بالناس المسالك الصالحة الحميدة، كما قال تعالى واصفاً حال شعيب عليه السلام مع قومه: ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴾ (هود: ٨٨).

ولا ريب أن الأثر الدعوي والإصلاحي الذي أحدثه القرآن الكريم في المجتمع المسلم أثر عظيم وكبير، ليس فقط في داخل الأمة الإسلامية، بل وتأثرت به المجتمعات الإنسانية الأخرى. وأصبحت تلك المجتمعات تنظر إلى المسلمين نظرة الإعزاز والتقدير، وتتمنى أن تصل إلى ما وصل إليه المسلمون في حياتهم وشؤونهم الخاصة والعامة.

المبحث الثالث
الأثر الخلقي والمسلكي

للخلق والمسلك الحسن أهمية كبرى في حياة أي مجتمع من المجتمعات. وقد أوضح كتاب الله تعالى الأخلاق والمسالك الحميدة التي ينبغي أن يكون عليها المسلم، سواء في ألفاظه، أو أعماله، أو تصرفاته، أو طباعه، أو معاملته مع الآخرين.

ولا ريب أن حالة المجتمعات قبل الإسلام حالة يرثى لها في التدني الخلقي، والانحراف المسلكي، والانحطاط الاجتماعي، وهو ما يوضحه قول جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه للنجاشي ملك الحبشة حينما سأله عن الدين الذي من أجله فارقوا قومهم وأهليهم. فقال له جعفر: أيها الملك، كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القويّ منّا الضّعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته، وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده، ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرَّحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام..[1].

---

(١) سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، لابن هشام ١/ ٣٥٨.

والحقيقة أن أخلاق القرآن العالية، ومسالكه الرفيعة تجل عن الوصف، فما من خلق كريم إلا ودل القرآن عليه، وما من مسلك جميل إلا وأرشد القرآن إليه.

ومن هنا كانت المنظومة الاجتماعية القوية التي أرسى دعائمها القرآن الكريم، وأحاطها بسياج من الخلق والأدب الرفيع، والتعامل الذي لا يوجد له مثيل.

ومن الأمثلة القرآنية على الأخلاق والمسالك الفردية والجماعية، قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴾ (الحجرات: ٦)، وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ﴾ (الحجرات: ١١-١٢).

وقال تعالى معدداً بعض أوصاف المؤمنين الصادقين وأخلاقهم: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ٢ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ٣ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ٤ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ٦ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ٧ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ٨ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴾ (المؤمنون: ١-٩).

وقال تعالى مبيناً آداب الاستئذان: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٢٧ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴾ (النور: ٢٧-٢٨).

وقال تعالى منبهاً على ما يجب أن يتصف به المؤمنون والمؤمنات من أخلاق ومسالك عالية رفيعة: ﴿ قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ٣٠ وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوۡ ءَابَآئِهِنَّ أَوۡ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآئِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوۡ نِسَآئِهِنَّ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ (النور: ٣٠-٣١).

ومن الأخلاق القرآنية العظيمة الخاصة بالمؤمنين، قوله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ٦٣ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ٦٤ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ٦٥ إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ٦٦ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ٦٧ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ٦٨ يُضَٰعَفۡ لَهُ

ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ
يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ
إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا
ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا
وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا
تَحِيَّةً وَسَلَـٰمًا ﴿٧٥﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ (الفرقان : ٦٣-٧٦) .

المبحث الرابع
الأثر العلمي والفكري

أول ما نزل على قلب رسول الله ﷺ، قوله تعالى: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴾ (العلق: ١-٥).

ومنذ نزول تلك الآيات المباركات طويت صفحات، وابتدأت صفحات في تاريخ الإنسانية جمعاء. طويت صفحات الجهل والخرافة والوهم والتخلف العلمي والعقلي والفكري، وابتدأت صفحات من نور العلم والمعرفة والعقل والفكر الصحيح.

ولا ريب أن المتأمل في أحوال المجتمعات البشرية قبل الإسلام وما بعده يدرك صحة هذا القول.

وكتاب الله تعالى قد تضمّن الإشارة إلى أهمية العلم، وتميز العالم، والهدف من التفكير الصحيح.

قال تعالى: ﴿ ... يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ ... ﴾ (المجادلة: ١١).

وقال تعالى: ﴿ ... وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ﴾ (طه: ١١٤).

وقال تعالى: ﴿ ... إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ ... ﴾ (فاطر: ٢٨).

وقال تعالى: ﴿ ... قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ ... ﴾ (الزمر: ٩).

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ (آل عمران: ١٩٠-١٩١).

وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ (سبأ: ٤٦).

وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴾ (الروم: ٨).

كما تضمّن كتاب الله تعالى الإشارة إلى بعض الحقائق العلمية التي سيقت مساق الهداية، كقوله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ... ﴾ (الحجر: ٢٢).

وقد أثبت العلم الحديث أن من وسائل تلقيح النبات الرياح، لأنها تنقل الملقحات من عضو التذكير النباتي إلى عضو التأنيث النباتي[١].

ومن الآيات التي فيها إشارة علمية كذلك قوله تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنعام: ١٢٥).

وتشير هذه الآية الكريمة إلى ظاهرة نقصان الأوكسجين في طبقات الجو العليا، فيتأثر الجسم نتيجة ذلك، وقد أثبت العلم الحديث أنه كلما ارتفعنا في الجو قلَّ الضغط الجوي، وبالتالي الضغط الجوي للأوكسجين.

---

(١) انظر: مباحث في علوم القرآن، لمناع القطان ص ٢٧٢.

ويعد عنصر الأوكسجين أهم عناصر الهواء المستنشق الذي يتركب من الآتي: ٢٠,٩٥ ٪ غاز الأوكسجين.

٧٨,٠٩ ٪ غاز النيتروجين.

٠٠,٠٣ ٪ غاز ثاني أوكسيد الكربون.

الباقي: غازات غير هامة لوظائف الجسم.

وأما ظاهرة (الحرج) الواردة في الآية الكريمة فهو الذي يمثله الارتفاع الذي يهبط فيه الضغط إلى ٨٧مم/زئبق والبالغ ٥٠,٠٠٠ قدم وهنا حتى استنشاق الأوكسجين الصافي ١٠٠ ٪ لا يفي بتاتاً بحاجة الجسم من الأوكسجين.

ويقسم العلماء مراحل أعراض ظاهرة نقص الأوكسجين إلى أربع مراحل تتعلق بالضغط الجوي ومستوى الارتفاع، ونسبة تركيز الأوكسجين في الدم وهي:

١- مرحلة عدم التغيير (من مستوى سطح البحر إلى الارتفاع ١٠,٠٠٠ قدم) وفي هذه المرحلة لا توجد أعراض لنقص الأوكسجين، ولا تتأثر الرؤية بالنهار.

٢- مرحلة التكافؤ (الفسيولوجي) (من ارتفاع ١٠,٠٠٠ قدم إلى ١٦,٠٠٠ قدم) وتعمل أجهزة التكافؤ (الفسيولوجي) في هذه المرحلة على عدم ظهور أعراض نقص الأوكسجين إلا إذا طالت مدة التعرض لهذا النقص، أو قام الفرد بمجهود جسماني في هذه الظروف فتبدأ عملية التنفس في الازدياد عدداً وعمقاً، ويزيد النبض، وضغط الدم، وكذلك سرعة الدورة الدموية.

٣- مرحلة الاختلال (الفسيولوجي) (من ارتفاع ١٦,٠٠٠ قدم إلى ٢٥,٠٠٠ قدم) وفي هذه المرحلة لا تفي أجهزة التكافؤ (الفسيولوجي) بالمطلوب، ولا تستطيع توريد الكمية الكافية من الأوكسجين للأنسجة، وهنا يبدأ ظهور الأعراض. وفي هذه المرحلة نجد تفسيراً واضحاً لضيق الصدر الذي يشعر به الإنسان عندما يصعد إلى هذه الارتفاعات، كما يحدث عند الطيارين وغيرهم.

٤- المرحلة الحرجة من ارتفاع (٢٥٠٠٠ قدم فأعلى) وفي هذه المرحلة يفقد الإنسان الوعي تماماً بسبب فشل الجهاز العصبي. وهذه الحقائق العلمية الواردة في الآية الكريمة لم يصل إليها العلماء إلا بعد اجتهادات وأبحاث دامت عشرات السنين[١].

ولا ريب أن كتاب الله تعالى قد تضمّن العديد من الآيات الكريمة التي أشارت إلى حقائق وركائز علمية في هذا الكون، بشكل محكم «وإن سوق القرآن الكريم لهذه الحقائق وبهذه السعة والشمول، وبهذه الدقة المتناهية يحمل كل صاحب عقل منصف إلى القول بأن هذا تنزيل من العزيز الحكيم الذي أحاط بكل شيء علماً»[٢].

ومن هنا ندرك مدى قوة النهضة العلمية والفكرية التي أحدثها القرآن الكريم في حياة المسلمين، وفي مختلف مجالات العلم والمعرفة والفكر[٣].

---

(١) انظر: تأملات في الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، د. صلاح الدين المغربي وآخرين ص ١٤-١٩ بتصرف يسير.

(٢) مباحث في إعجاز القرآن، د. مصطفى مسلم ص ٢١٩ .

(٣) انظر: حول ذلك في كتاب: الإيمان بالله وأثره في الحياة، د. عبد المجيد عمر النجار ص ١٨٥-١٩١ .

المبحث الخامس
الأثر الإنساني والحضاري

إن من آثار القرآن العظيم في المجتمع المسلم تقرير مفهوم الإنسان وأصله ومبدئه وحقيقته، وحقوقه وواجباته، وكيف يبني حضارته على وجه هذه الأرض وما ضوابطها.

ولا شك أن للقرآن العظيم منهجه المتميز في ذلك، وله وسائله وأساليبه وطرقه في تقرير تلك الحقائق والأمور.

وبنظرة إلى حالة العرب، بل وإلى المجتمعات الإنسانية قبل نزول القرآن الكريم تتضح مدى ما كانت تعانيه من إهدار لكرامة الإنسان، ووأد له، ومصادرة لحقوقه، بل وجعله من ضمن المتاع الذي يورث. ولا يبعد عن ذلك ما تعانيه البشرية اليوم في كثير من مجتمعاتها -التي لم تهتد بكتاب الله تعالى- من انحراف في فهم الوجود الإنساني، ومن تضييع لكرامته ونتيجة لذلك حاولت تلك الأمم أن تقرّر شيئاً من حقوق الإنسان فاجتمعت وأصدرت الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي صدر في عام ١٩٤٨م[١].

والتساؤل: هل كان لذلك القانون أثر في حفظ الكرامة الإنسانية في العالم المعاصر اليوم؟ وهل كفل للإنسانية المعذبة الحياة اللائقة بها؟ بل

---

(١) العلاقة الإنسانية في القرآن الكريم، حمزة إبراهيم فودة ص ١٤ .

هل كفل لها أدنى متطلبات الإنسان؟.

والجواب عن ذلك: أن الحالة السيئة التي تعيشها الإنسانية اليوم وفي ظل تلك القوانين والأعراف تنبئ عن حالها، وأن الواقع المشاهد المحسوس يغني عن كثير من الكلام.

أما كتاب الله تعالى فله الأثر العظيم البالغ في تقرير حقوق الإنسان وهو ما طبقه المسلمون واقعاً في تاريخهم وحاضرهم لا ادعاءً.

يقول الله تعالى مبيناً أولاً حقيقة الوجود الإنساني: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٨ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ (الحجر: ٢٨-٢٩).

وفي مجال بيان التكريم الإلهي لهذا الإنسان يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء: ٧٠).

وفي مجال مسؤولية الإنسان عن نفسه وعمله يقول تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ (المدثر: ٣٨).

وقوله تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۝٣٨ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ (النجم: ٣٨-٣٩).

وفي مجال المساواة الحقيقية بين البشر يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: ١٣).

وقال تعالى في مجال العدل بين الناس: ﴿ ... وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ... ﴾ (النساء: ٥٨).

وقوله سبحانه ﴿ ... وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ... ﴾ (المائدة: ٨).

إلى غير ذلك من الحقوق الإنسانية التي أقرها القرآن الكريم للإنسان والتي عجزت النظم الوضعية عن مجاراتها أو الإتيان بمثلها.

كما قرر القرآن الكريم أن الحضارة الإنسانية ينبغي أن تؤسس على تقوى، وهدى من الله تعالى، وأن تكون وفق منهج الله تعالى ومراده لا للمباهاة أو المراءاة أو البطر والأشر.

قال تعالى حكاية عن هود عليه السلام مع قومه وتذكيره لهم: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ (الشعراء: ١٢٨–١٣١).

وخلاصة القول: أن القرآن العظيم قد رسم للإنسانية منهجاً واضحاً في حياتها، وبين لها كل ما يهمها، وما ينبغي أن تسير عليه وتبني عليه علاقاتها وحضارتها فكان منهجاً متميزاً أثمر عن كل خير وفضل للإنسانية جمعاء.

المبحث السادس
الأثر الأمني الشامل

يعيش الإنسان على هذه الأرض ويتقلب في مناكبها ، ويسعى بين جنباتها ، وقد يعرض له ما يخيفه ويحذر منه ، ونتيجةً لذلك أصبح الأمن مطلباً ضرورياً للإنسان في حياته .

والمتأمل في كتاب الله تعالى يجد أن القرآن الكريم قد كفل للإنسان أمنه وطمأنينته في حياته الدنيا ، وفي حياته الأخرى .

والأمن الذي نادى به القرآن الكريم شامل وكامل في حياة الإنسان، «ولا يتوفر الأمن بمجرد ضمانه لحياة الإنسان فحسب، بل هو يحتاج إلى الأمن على عقيدته التي يؤمن بها، وعلى هويته الفكرية والثقافية، وعلى موارد حياته الاقتصادية والمادية»[1].

يقول تعالى ممتناً على قريش بما هيأه لها من الأمن دون سائر القبائل، وليكون ذلك داعياً لها إلى عبادة الله تعالى وتوحيده: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾ (قريش : ٣-٤) .

وقال تعالى مبيناً أن الأمن الحقيقي يكون لمن آمن به ووحده ولم يخلط إيمانه بشرك، وأن غير ذلك من الأمن تبع له ، ويتضح ذلك في معرض قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه: ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٨٠ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ

---

(١) انظر: الأمن في حياة الناس وأهميته في الإسلام، د. عبد الله التركي ص ٨ .

يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ (الأنعام: ٨٠-٨٢).

ويبين القرآن العظيم أن الأمن الحقيقي والدائم هو ما يكون يوم القيامة من دخول المؤمنين الجنة كما في قوله تعالى: ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴾ (الحجر: ٤٦).

أما في هذه الحياة الدنيا فإن الإنسان يتقلّب بين أمن وخوف، ولكن في الحقيقة لا أمن ولا طمأنينة له إلا بالاعتصام بكتاب الله الكريم، والإيمان به وعبادته سبحانه دون شريك له كما قال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ (النور: ٥٥).

وقال تعالى منبهاً على خصوصية لبيته الحرام وهي خاصية الأمن دون سواه من البيوت: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ... ﴾ (البقرة: ١٢٥).

كما بين تعالى أنَّ من دخل بيته الكريم فهو آمن، كما قال تعالى: ﴿ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ ... ﴾ (آل عمران: ٩٧).

وبعد أن بين الله تعالى أسباب الأمن الحقيقية في كتابه الكريم حذّر من مغبّة اخترامها، والاعتداء على حقوق الله تعالى، وحقوق الناس، وأن ذلك مدعاة للخراب والخوف والدمار، كما قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ (النحل: ١١٢).

ومن الوسائل العظيمة التي شرعها القرآن الكريم كي يعم الأمن وتقوم الحياة على منهاج آمن صحيح: الحدود الشرعية، وتنفيذ أحكام الله تعالى بين الناس، كما قال تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة :١٧٩).

ولا ريب أن تشريعات القرآن العظيمة قد كفلت الأمن والسعادة للإنسان في حياته الدنيا وحياته الآخرة ، فكان التميّز القرآني المجيد على غيره من النظم والقوانين الوضعية ، والتي باتت ترنو إلى شيء من آثار القرآن الكريم وتشريعاته العالية الرفيعة.

الخاتمة

استعرضنا في الصفحات السابقة موضوع (الدعوة إلى التمسّك بالقرآن الكريم وأثره في حياة المسلمين)، وقد تكلمنا في عدة نقاط: كالتعريف بالقرآن الكريم، وأسمائه، وخصائصه، وأهمية الدعوة إلى التمسك بالقرآن الكريم، ومظاهر التمسك بالقرآن الكريم، وفضائل ذلك، ثم تحدثنا عن آثار التمسك بالقرآن الكريم في حياة المسلمين، وهي بلا شك عديدة ولكن ركزنا الحديث في الأثر الإيماني والتعبدي، والأثر الدعوي والإصلاحي، والأثر الخلقي والمسلكي، والأثر العلمي والفكري، والأثر الإنساني والحضاري، والأثر الأمني الشامل.

وحقيقة الأمر، فإن آثار القرآن العظيمة أكبر وأجل من أن تحصى لأنها آثار ذات جوانب عديدة، ومتعلقات كثيرة.

والذي أود التركيز عليه والتنبيه عليه هو: ما ينبغي لكل مسلم ومسلمة من التمسك بكتاب الله تعالى والعناية به وعدم هجره، والامتثال لأمره، والاجتناب عن نهيه .

كما أود أن أوصي نفسي وإخواني الدعاة بضرورة الاهتمام بكتاب الله تعالى، وجعله منطلق الدعوة، ورائدها، ومحور ارتكازها واعتمادها.

وإذا كان لي من اقتراح فإنني أود اقتراح الأمور الآتية:

أولاً: تكثيف الدراسات القرآنية في مراحل التعليم المختلفة حتى الدراسات العليا .

ثانياً: الاهتمام بعلوم القرآن الكريم والدراسات المتعلقة بذلك.

ثالثاً: بيان أحكام القرآن الكريم ومزاياه وفضائله ونشره على الناس.

رابعاً: إطلاع العالم غير الإسلامي على جوانب من كتاب الله ودعوتهم للإيمان به.

خامساً: إنشاء المراكز القرآنية المتخصصة في العالم الإسلامي، وعقد الندوات المفيدة.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم.

ثانياً:

١- الإتقان في علوم القرآن، للحافظ عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، ط ٤ (مكتبة مصطفى الحلبي، القاهرة، ١٣٩٧هـ).

٢- إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، للإمام محمد ابن علي الشوكاني، تحقيق: أحمد عزّو عناية، ط ١ (دار الكتاب العربي، بيروت ١٤١٩هـ).

٣- إعجاز القرآن، للقاضي أبي بكر الباقلاني، على حاشية الإتقان للسيوطي، الطبعة الرابعة (مكتبة مصطفى الحلبي، القاهرة، ١٣٩٧هـ).

٤- الأمن في حياة الناس وأهميته في الإسلام، د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، (من مطبوعات وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد الرياض ١٤١٧هـ).

٥- الأنشطة الدعوية في المملكة العربية السعودية، د. صالح بن غانم السدلان، ط ٢ (دار بلنسية، الرياض ١٤٢٠هـ).

٦- الإيمان، للإمام ابن تيمية، ط ٣ (المكتب الإسلامي، بيروت ١٤٠١هـ).

٧- الإيمان بالله وأثره في الحياة، د. عبد المجيد عمر النجار، ط ١، (دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٩٧م).

٨- تأملات في الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، د. صلاح الدين المغربي وآخرون، ط ١ (دار المجتمع للنشر والتوزيع، جدة، ١٤١٤هـ).

٩- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، للحافظ محمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري (دار الكتب العلمية ، بيروت).

١٠- التعبير الفني في القرآن، د. بكري شيخ أمين، ط ٣ (دار الشروق، بيروت ، ١٣٩٩هـ).

١١- التعريفات ، للشريف علي بن محمد الجرجاني، ط ١ (دار الكتب العلمية، بيروت ، ١٤٠٣هـ).

١٢- تفسير ابن سعدي (المسمى : تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) للشيخ عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي (نشر مركز صالح بن صالح الثقافي ، عنيزة ، ١٤٠٧هـ) .

١٣- تفسير البيضاوي (المسمى : أنوار التنزيل وأسرار التأويل) للقاضي ناصر الدين عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، ط ١ (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٨هـ).

١٤-تفسير الخازن (المسمى : لباب التأويل في معاني التنزيل) للإمام علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الشهير بالخازن، ط ١ ، (دار الكتب العلمية، بيروت ، ١٤١٥هـ).

١٥- تفسير الطبري (المسمى : جامع البيان في تأويل القرآن) لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، ط ١ (دار الكتب العلمية ، بيروت، ١٤١٢هـ).

١٦- تفسير القاسمي (المسمى : محاسن التأويل) للإمام محمد جمال الدين القاسمي، ضبط وتصحيح محمد باسل عيون السود، ط١ (دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٨هـ) .

١٧- تفسير القرآن العظيم، للحافظ ابن كثير، (دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٢هـ) .

١٨- التفسير الكبير (المسمى : مفاتيح الغيب)، للإمام الرازي، ط ١ ، (دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤١٥هـ) .

١٩- التفسير الميسّر، إعداد نخبة من العلماء، بإشراف د. عبد الله ابن عبد المحسن التركي (إصدار مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة النبوية ، ١٤١٩هـ) .

٢٠- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للسيد محمود الألوسي البغدادي، ضبط وتصحيح علي عبد الباري عطية، ط ١ (دار الكتب العلمية ، بيروت، ١٤١٥هـ) .

٢١- زاد المسير في علم التفسير، للحافظ ابن الجوزي ، ط ٣ (المكتب الإسلامي، بيروت ، ١٤٠٤هـ) .

٢٢- سنن الترمذي، لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، بتحقيق أحمد محمد شاكر وآخرين، ط ٢ (مكتبة مصطفى الحلبي، القاهرة ١٣٩٨هـ) .

٢٣- سنن الدارمي، للإمام أبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، تحقيق وتعليق د. مصطفى ديب البغا، ط ٣ (دار القلم، دمشق، ١٤١٧هـ) .

٢٤- سيرة النبي ﷺ، لأبي محمد عبد الملك بن هشام، بتعليق الشيخ محيي الدين عبد الحميد (توزيع رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ، الرياض) .

٢٥- شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي، تحقيق جماعة من العلماء، وتخريج الشيخ محمد ناصر الدين الألباني / ط ٨ (المكتب الإسلامي، بيروت ١٤٠٤هـ) .

٢٦- شرح النووي على صحيح مسلم، للإمام أبي زكريا يحيى بن شرف النووي، ط ٢ (دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٩٢هـ) .

٢٧- صحيح البخاري (المسمى : الجامع الصحيح المسند من حديث رسول ﷺ وسننه وأيامه) لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، بتحقيق محب الدين الخطيب، وترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، ونشر ومراجعة قصي محب الدين الخطيب، ط١ (المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، ١٤٠٠هـ) .

٢٨- صحيح سنن الترمذي، للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، ط ١ (المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٨هـ) .

٢٩- صحيح مسلم، للإمام مسلم بن الحجاج القشيري، تحقيق وترقيم محمد فؤاد عبد الباقي (مطبعة دار إحياء الكتب العربية، القاهرة) .

٣٠- العبودية، للإمام ابن تيمية، ط٦ (المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٣هـ) .

٣١- العلاقة الإنسانية في القرآن الكريم، حمزة إبراهيم فودة، ط ١ (مطبوعات نادي مكة الثقافي الأدبي، ١٤٠٣هـ) .

٣٢- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، للحافظ ابن حجر العسقلاني، بتصحيح محب الدين الخطيب، ط ١ (دار الريَّان، القاهرة، ١٤٠٧هـ) .

٣٣- فضائل القرآن ومعالمه وآدابه، لأبي عبيد القاسم بن سلام، دراسة وتحقيق أحمد بن عبد الواحد الخياطي (مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، ١٤١٥هـ) .

٣٤- الفوائد، للإمام ابن قيم الجوزية، تخريج وحواشي أحمد راتب عرموش، ط ٦ (دار النفائس، بيروت ، ١٤٠٥هـ) .

٣٥- الكلمات الإسلامية في الحقل القرآني، د. عبد العال سالم مكرم، ط ١(مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٧هـ) .

٣٦- لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير ، لمحمد الصباغ (المكتب الإسلامي، بيروت ، ١٣٩٤هـ) .

٣٧- لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية، للشيخ محمدالسفاريني الحنبلي، ط ٣ (المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤١١هـ) .

٣٨- مباحث في إعجاز القرآن، د. مصطفى مسلم، ط ١ (دار المنارة جدة ، ١٤٠٨هـ) .

٣٩- مباحث في علوم القرآن، للشيخ مناع القطان، ط ٨ (مكتبة المعارف، الرياض، ١٤٠١هـ) .

٤٠- معجم لغة الفقهاء، د. محمد قلعجي وزميله، ط٢(دار النفائس ، بيروت ، ١٤٠٨هـ) .

٤١- مدخل إلى علوم القرآن وتفسيره، د. فاروق حمادة ، ط ١ (مكتبة المعارف، الرباط - المغرب ، ١٣٩٩هـ) .

٤٢- المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز ، لشهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل المعروف بأبي شامة المقدسي، بتحقيق طيارآقولاج. (دار صادر، بيروت ، ١٣٩٥هـ).

٤٣- مناهل العرفان في علوم القرآن ، للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني، (دار الفكر، بيروت، بدون) .

٤٤- النبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز، ط ٢ (دار القلم، الكويت،١٣٩٠هـ) .

٤٥- نور من القرآن في طريق الدعوة والدعاة، د. محمد الحسين أبو سم، (سلسلة دعوة الحق، السنة ٨، العدد ٨٨، ١٤٠٩هـ ، إصدار رابطة العالم الإسلامي - مكة المكرمة) .

٤٦- هذا القرآن، لعبد الحي العمراني (مطابع فضالة المحمدية-المغرب، ١٤٠٣هـ).

الفهرس

الفهرس العام لأبحاث الجزء الثاني من المحور الأول